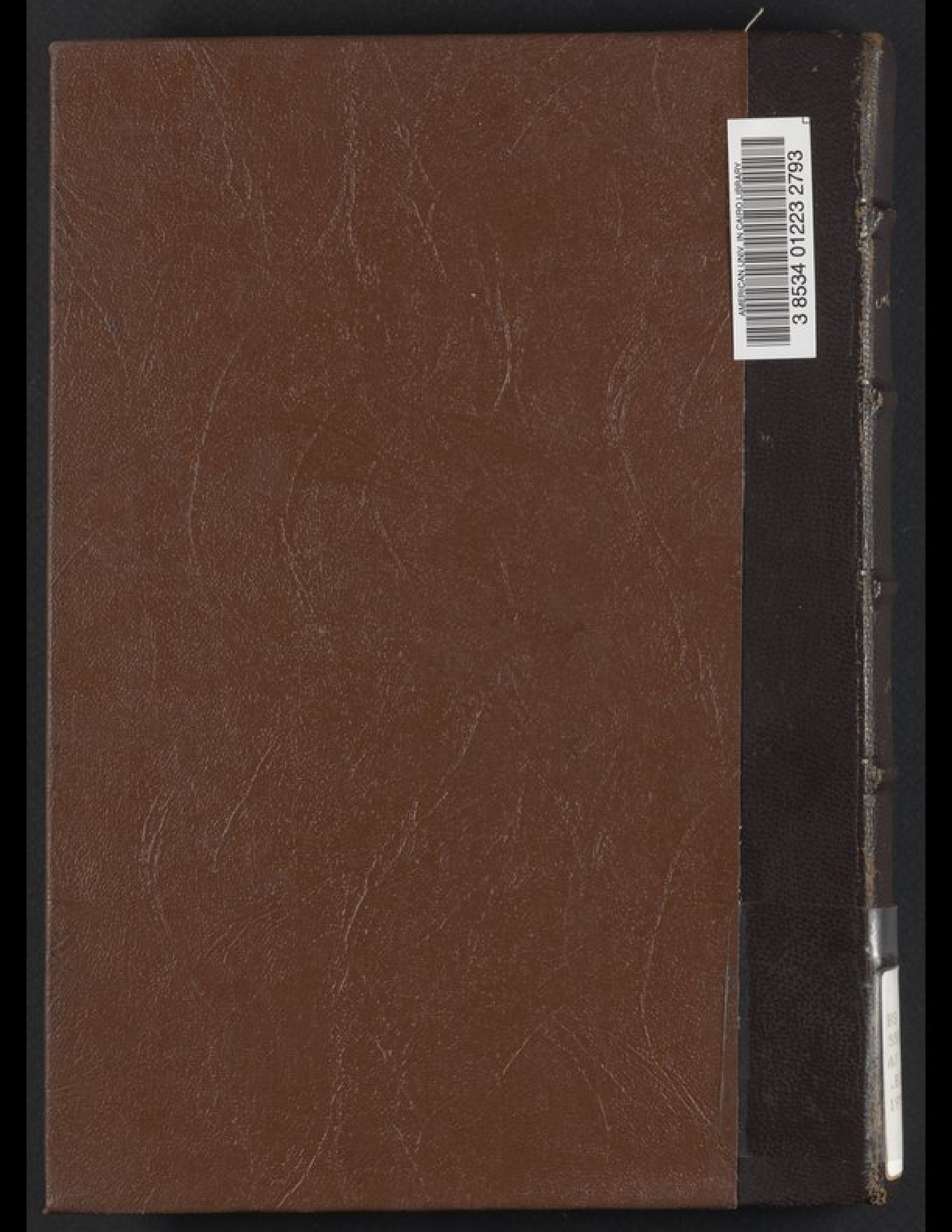
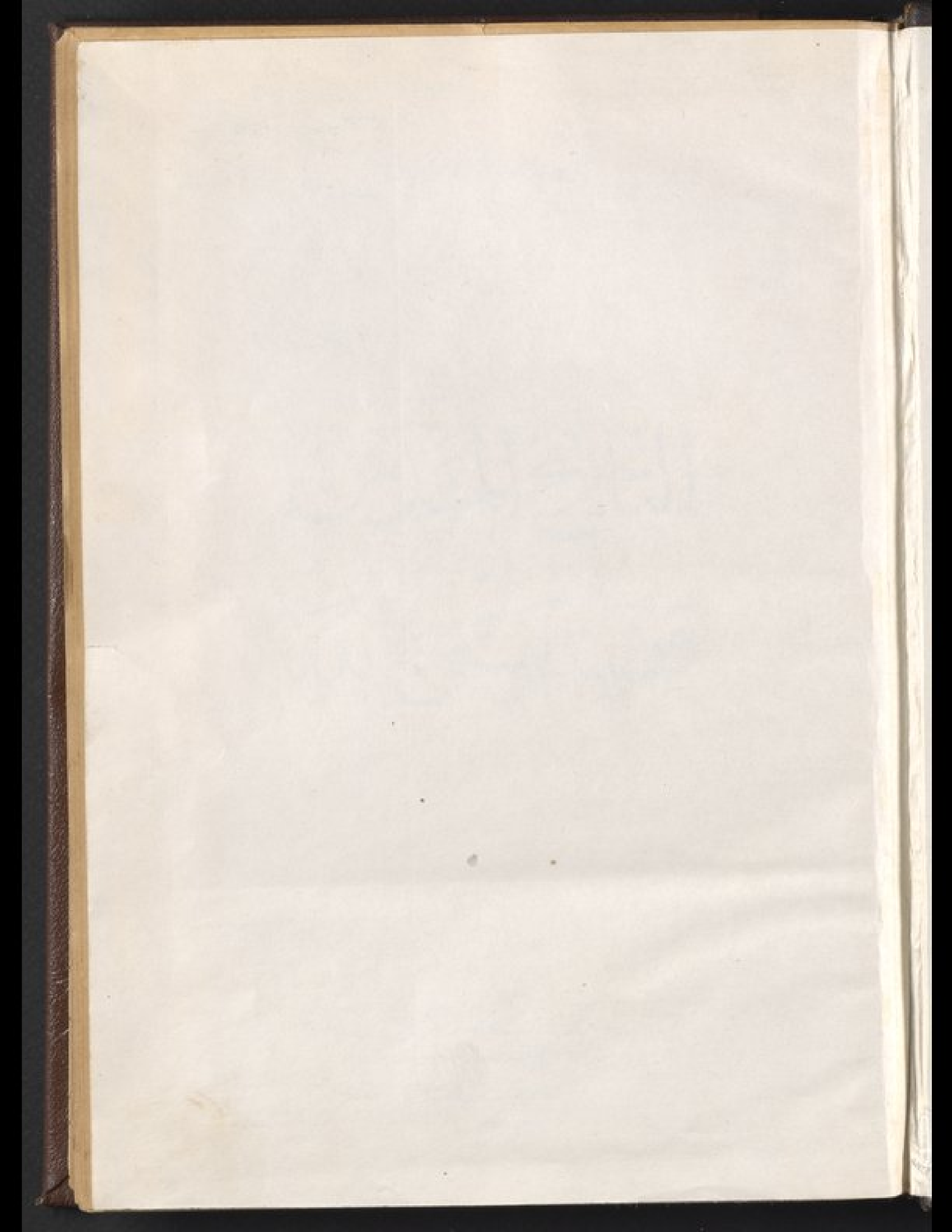
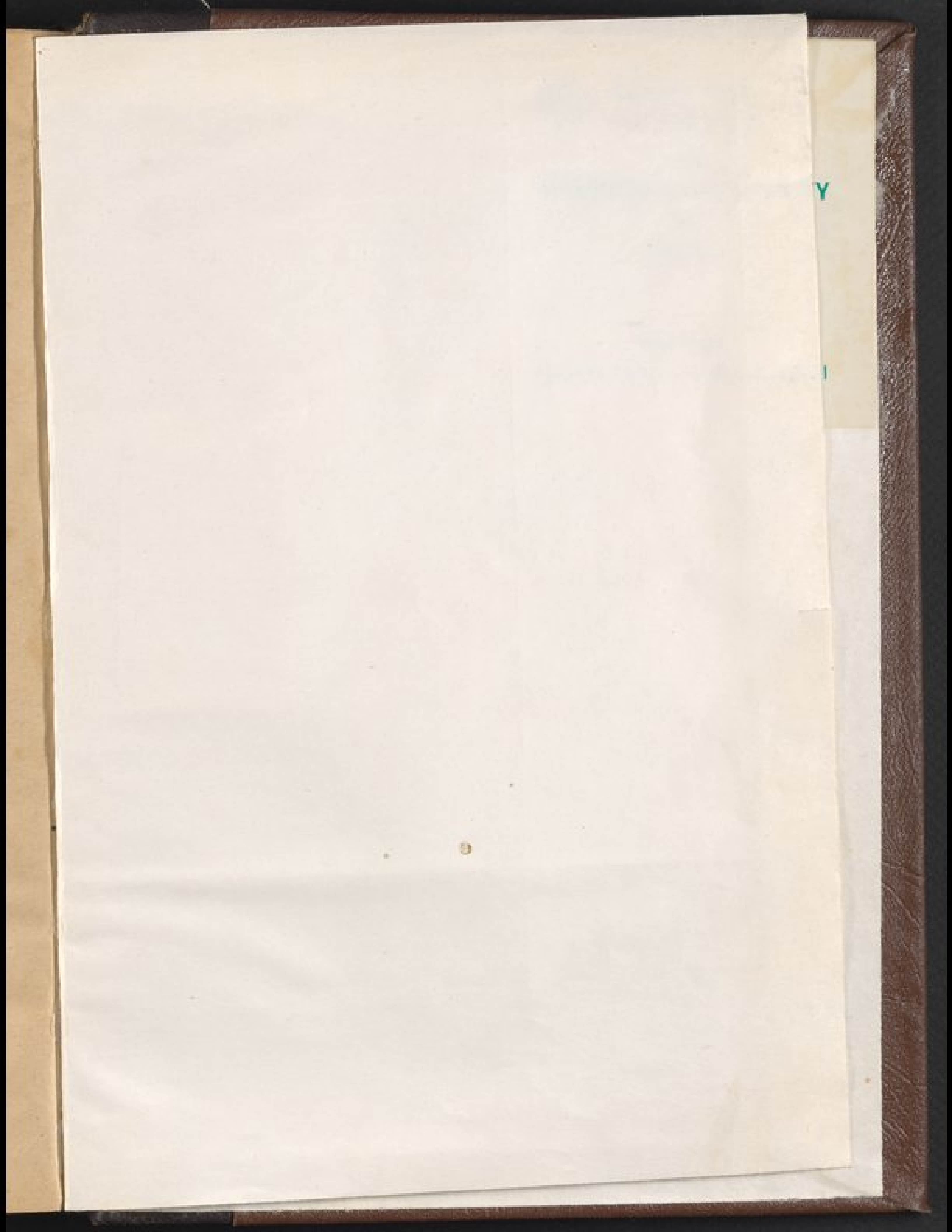

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01223 2793


FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO
من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة





الأب لويس برسوم الفرنسيسكاني

التاريخ المقدس
أو
قصة بني الله

مركز الثقافة الشرقية
لحراسة الأراضي المقدسة الفرنسيسكانية

القاهرة - ١٩٥٤

لا مانع من طبعه

الأب بنكراسى تشكرينى

رئيس عام جماعة الفرنسيسكان بالصعيد

القاهرة فى ٧ مارس سنة ١٩٥٤

نصرح بطبعه

✠ مرقس الثانى

بطريرك الأقباط الكاثوليك

كوبرى القبة فى ٧ مارس سنة ١٩٥٤

مُقدمة

وبعد حمد الله ، أقول إن الغرض من وضع هذا الكتاب : « التاريخ المقدس أو قصة بنى الله » هو المساهمة فى نشر المعارف الكتابية ، وعلى رأسها التاريخ المقدس ، ذلك التاريخ معلم الحياة الصادق . وذلك بتقديم كتاب حديث ، جامع ، منسق تنسيقاً علمياً ، يكون لقراء الكتاب المقدس ، ولا سيما الشباب وطلاب المدارس ، خير معين على فهم الحوادث التاريخية ، التى وردت بكتاب الله العزيز ، فهماً صحيحاً يغنيهم مؤنة البحث والتنقيب فى مطولات الكتب والمؤلفات .

وقد اعتمدت فى إثبات تسلسل الحوادث وتفسيرها على كبار علماء الكتاب ، القدماء منهم والمحدثين ، وعلى ما أجمع عليه قادة الفكر ومعظم المفسرين فى عصرنا الحاضر ، على ضوء الاكتشافات الحديثة ، سواء أكانت من نوع الحفريات أم الوثائق التاريخية المكتوبة أو المنقوشة .

أما فيما يتعلق بنصوص الكتاب الإلهى ، فقد أتيت بها تارة كاملة ، وتارة أخرى بإيجاز ، مكتفياً فى كثير من المواضع بالمعنى دون الحرف . ولكى يستطيع القارىء أن يرجع إلى نص الكتاب كاملا بسهولة ، وكل مرة شاء ذلك ، فقد وضعت فى ذيل كل قصة وحادثة ، دوّنها الكتاب ، اسم السفر والفصل والاعداد التى تضمنت القصة أو الحادثة .

هذا وقد تركت عمداً ، فى كثير من المواضع ، إلى اجتهاد قارئى اللبيب ، استخلاص التعاليم الأدبية والنظرية ، المليئة بها قصص الكتاب الشريف ، ولا سيما أن كثيراً من تلك التعاليم يمكن استنتاجه بسهولة دون كبير مجهود .

من أجل كل ذلك أرجو أن يحظى كتابى هذا برضى الجمهور . وعلى رأس هذا الجمهور كل ذوى الغيرة من محبي الكتاب ، والمعنيين بتربية النشء . وفقنا الله إلى ما فيه مرضاته ، وهدانا جميعاً سواء السبيل . إنه ولى التوفيق ؟

المؤلف

توطئـــــة

التاريخ المقدس :

يسرد علينا التاريخ المقدس ، فى أسلوب مبسط ، قصة العلاقات المتبادلة بين الله والبشر بنيه[1] . مبيناً ، فى وضوح وجلاء ، عنايته تعالى بالإنسانية : أفراداً ، وجماعات ، وعلى وجه الخصوص بالصديقين منهم . وذلك منذ بدء الخليقة وتكوين العالم ، حتى الوعد بالمخلص ومجيئه السعيد .

أقسام :

ينقسم التاريخ المقدس إلى حِقَب ، أى فترات من الزمن متفاوتة ، تتراوح الحقبة الواحدة بين المائة والألف سنة . بل وتكون أحياناً أكثر أو أقل من ذلك ، كما سنرى . أما عدد هذه الحقب فسبع ، تمتدُّ الحقبة :

الأولى : من بدء الخليقة إلى الطوفان .

الثانية : من الطوفان إلى دعوة إبراهيم .

الثالثة : من دعوة إبراهيم إلى خروج بنى إسرائيل من مصر .

الرابعة : من الخروج حتى تأسيس مملكة العبرانيين وانقسامها .

الخامسة : من انقسام المملكة حتى سبى بابل .

السادسة : من سبى بابل حتى مجىء المسيح .

السابعة : من مجىء المسيح حتى خراب أورشليم[2] .

---

(١) ومن هنا تسمية كتابنا « قصة بنى الله »

(٢) عن هذا القسم الأخير سنتكلم فى جزء آخر إن شاء الله .

الحقبة الأولى

من بدء الخليقة إلى الطوفان

إن هذه الحقبة هى أطول حقب التاريخ المقدس جميعاً ، إذ تبلغ مدتها ١٦٢٥ عاماً . أما تاريخ العالم ، أو على الأصح تاريخ البشرية فيبدأ ، بحسب الرأى المعتمد عند أكثر المفسرين ، أربعة آلاف عام تقريباً قبل الميلاد[1] .

الفصل الأول

فى الخلقة

الله الخالق :

إن الكائنات جميعاً ، المنظورة وغير المنظورة ، لم تكن موجودة فى فترة من الزمان ، لأنها حادثة .

أما الله الكائن الضرورى الوجود ، أصل كل الكائنات ، الكائن الأكمل ، الذى حوى فى ذاته كل كمال ، دون حد أو حصر ألبتة ، فإنه يوجد منذ الأزل .

هو الكائن الأول ، الذى منه تستمد فى الزمن كل الكائنات ، العاقلة وغير العاقلة ، وجودها وكيانها .

وقد خلق تعالى أولا العالم غير المنظور ، عالم الأرواح والملائكة . ثم عالمنا هذا المنظور ، السماوات والأرض بكل مافيهما من زينة وجمال يبهران العقول . ثم الإنسان ،

---

(١) قلنا إن الحقبة الأولى تبلغ مدتها ١٦٢٥ عاماً . هذا على افتراض أن تاريخ البشرية يبدأ حقيقة أربعة آلاف سنة فقط قبل الميلاد . لأنه فى حالة رفع هذا العدد الأخير إلى رقم أعلى ، فمن الواضح أنه ينبغى أن نرفع كذلك العدد ١٦٢٥ المذكور .

على أنه ، وإن غير أمكن تحديد تاريخ ثابت لظهور الإنسان على الأرض على وجه التأكيد ، وأيضاً إن احتمل أن يكون العدد أربعة آلاف قابلا لبعض الزيادة ، فمع ذلك لا يمكن قبول رأى أولئك العلماء ، الذين يزعمون أن ظهور الإنسان على وجه البسيطة يرجع إلى عشرات ألوف السنين قبل المسيح .

هذا المخلوق العجيب ، الذى أبدعه تعالى على صورته ومثاله ، جامعاً فيه كل محاسن السكون ، وقد سلطه على جميع أعمال يديه .

وقد خلق الله تعالى السماوات والأرض وكل ما فيها بقدرته الذاتية وحكمته ، دون أن يحتاج إلى مساعدة أحد إطلاقاً . و بقدرته وحكمته لا يزال يدبر جميع مخلوقاته برفق أبوى عجيب ، ولا سيما الإنسان ، أشرف تلك المخلوقات وأعزها لديه .

فالله هو الخالق ، وهو السيد والمدبر الحكيم ، الذى يخضع لسلطانه السامى كل ما فى السماء ، وعلى الأرض ، وتحت الأرض . وهو هو الأب الرحيم الذى أحبنا قبل إنشاء العالم [١] . فكللنا بالمجد والكرامة ، وقد جعلنا فى مرتبة أدنى قليلا من الملائكة [٢] .

وقد خلق تعالى جميع ما خلق ، لا لإنه كان فى حاجة إلى أحد ، أو شىء إطلاقاً ، بل تفضلا منه وكرماً على خليقته ، لأنه جواد كريم ، لا حدّ لجوده وجودته وصلاحه .

وكان فى طاقته تعالى أن يخلق العالم وينظمه ، فى أقل من لمح البصر بمجرد إرادته ذلك ، ولكنه شاء لحكمة سامية أن يتم عمله هذا ، شيئاً فشيئاً وتدريجياً .

فى خلقة العالم :

« فى البدء [٣] خلق الله السماوات والأرض ، وكانت الأرض خاوية خالية ، تغطيها المياه ، ويكتنفها الظلام . وكان روح الله يرفرف على وجه المياه » .

فقد خلق تعالى أول ما خلق المادة ، التى منها تتكون الأجسام جميعاً : الأجرام السماوية ، والأجسام الأرضية . وكان تحت تأثير قدرته تعالى ، وطاعةً لأمره الربانى ، أن لبست الأرض زينتها ، وتم تنظيمها كما شاء لها رويداً رويداً . وذلك « فى ستة أيام » [٤] .

---

(١) أر ٣١ : ٣

(٢) مز ٨ : ٦

(٣) « فى البدء » أى فى أول الأزمان ، إذ لم يكن هناك كائن ، إلا الله وحده ، عز وجل .

(٤) لا يجب أن يفهم بالكلمة « يوم » يوما طبيعيا من أربع وعشرين ساعة ، بل مدة من الزمن قد تبلغ مئات وألوف السنين ، مدة غير معينة ، لم يتفق العلماء بعد على تحديدها .

أيام الخليقة :

اليوم الأول : فى اليوم الأول خلق الله النور . قال : ليكن النور [١] . فكان النور . ورأى الله النور أنه حسن . وفصل بين النور والظلام . وسمى النور نهاراً ، والظلام سماه ليلا .

اليوم الثانى : فى اليوم الثانى خلق الله الجلد . قال ليكن جلد فى وسط المياه ، وليكن فاصلا بين مياه ومياه . فصنع الجلد ، وفصل بين المياه التى تحت الجلد ، والمياه التى فوق الجلد . وسمى الله الجلد سماء .

اليوم الثالث : فى اليوم الثالث خلق الله الأشجار . قال لتجتمع المياه التى تحت السماء إلى موضع واحد ، وليظهر اليبس . فكان كذلك . وسمى الله اليبس أرضاً ، ومجتمع المياه سماه بحاراً .

ثم قال : لتنبت الأرض نباتاً عشباً يبزر بزراً ، وشجراً مثمراً يخرج ثمراً ، بحسب صنفه ، بزره فيه على الأرض . فكان كذلك .

اليوم الرابع : فى اليوم الرابع خلق الله النجوم والكواكب . قال : لتكن نيرات فى جلد السماء ، لتفصل بين النهار والليل ، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين . فكان كذلك . فصنع الله النيرين العظيمين [٢] : النير الأكبر أى الشمس لحكم النهار ، والنير الأصغر أى القمر لحكم الليل . وقد تلألأت فى كبد السماء بقدرته تعالى النجوم والكواكب غير المحصاة .

اليوم الخامس : فى اليوم الخامس خلق الله الأسماك والطيور . قال : لتفض المياه زحافات ذات أنفس حية ، وطيوراً تطير فوق الأرض . فخلق الله الحيتان العظام ، وكل

---

(١) لا يعنى هنا نوراً معينا ، كنور الشمس مثلا ، التى لم تكن قد خلقت بعد ، بل النور بالعموم ، أيا كان مصدره . أو بالحرى القوة الإشعاعية التى تملأ الكون .

(٢) إن غاية الكتبة الملهمين ، كما لا يخفى دينية محضة ، لا علمية . وبالتالى فهم يتكلمون عن الظواهر الطبيعية ، لا على حقيقتها ، بل كما تبدو للحواس ، وعلى طريقة أهل زمانهم . نظير ما يجرى فى الحياة الاعتيادية ، حتى على أيامنا هذه ، كما عند ما نقول : الشمس طلعت الشمس غابت الخ . . .

ذى نفس حية من الاسماك والهوام المائية ، وكل طائر ذى جناح بحسب أصنافها . وباركها الله قائلا : أنمى واكثرى واملاى المياه فى البحار ، وليكثر الطير على الأرض .

اليوم السادس : فى اليوم السادس خلق الله الحيوان والإنسان . قال : لتخرج الأرض ذوات أنفس حية بحسب أصنافها : بهائم ، وهى كل أنواع الحيوانات الأليفة . ودبابات ، وهى كل ما يدب على الأرض من أنواع الزحافات . ووحوش أرض بحسب أصنافها . فكان كذلك .

وقد كلل تعالى جميع أعماله بصنعه الإنسان ، وهو أكمل مخلوقاته المنظورة .



فى خلقة آدم وحواء :

كما أنه بعد أن يهيأ القصر الملكى ، يدعى الملك للسكنى فيه ، كذلك فعل الله ، فإنه تعالى بعد أن أكمل زينة السماوات والأرض ، دعى الإنسان من عالم العدم . ليسكنه قصر هذا العالم البديع الجمال .

ولقد برأ الله سائر مخلوقاته بمجرد كلمة من فيه . ولكنه عند ما خلق الإنسان ،

وقبل أن يبدأ هذا العمل العظيم ، كأنى به تعالى يختلى بذاته لحظة ، كمن يشاور نفسه فى أمر خطير ، ليرى كيف يقوم به ، ولا سيما إنه يريده صورة مطابقة لخالقه .

لا بل وكأنى بالثالوث الأقدس كله يتشاور معاً فى إبداع هذه الخليقة العجيبة ، التى قدر لها الله أن تكلل بالمجد والكرامة ، وأن تنصب على عرش الكائنات الدنيا ، فتمثل الله فى ملكوته .

وعلى ذلك فقد قال تعالى : « لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا ، وليتسلط على سمك البحر ، وطير السماء ، والبهائم ، وجميع الأرض ، وكل الدبابات الدابة على الأرض (تك ١ : ٢٦)

وقد خلق الله الإنسان على صورته ومثاله على هذا النحو : بعد أن كون جسده جابلا إياه تراباً من الأرض ، نفخ فى أنفه نسمة حياة ، فصار الإنسان نفساً حية ، أى كائناً ناطقاً . لان نسمة الحياة هذه ، أو بتعبير أوضح النفس البشرية التى وهبها له تعالى ، هى روح غير قابلة للموت ، يزينها عقل مفكر و إرادة حرة .

ومن ثم يشبه الإنسان الله ، من حيث نفسه ، وهى الجزء الروحانى منه ، لا من حيث جسده ، لأن الله روح ولا جسد له . ولذا عندما نقول إن الإنسان خلق على صورة الله ومثاله نعنى بذلك نفسه لا جسده .

وسمى الله الإنسان الأول « آدم » ، أى المصنوع الترابى ، الذى جبل من أديم الأرض ، وذلك تذكرة له بأصله .

* * *

وكان آدم وحيداً على وجه الأرض ، ولم يوجد له معين نظيره . فقال الله : لا يحسن أن يكون الإنسان وحده ، فاصنع له عوناً بازائه . فأوقع سباتاً على آدم فنام . فاستل إحدى أضلاعه ، وسد مكانها بلحم . و بنى الضلع التى أخذها من آدم امرأة ، وأتى بها آدم .

فلما رآها آدم قال : هوذا هذه المرة عظم من عظامى ، ولحم من لحمى . هذه تسمى

امرأة ، لأنها من امرىء أخذت . ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ، ويلتصق بامرأته ، فيصيران جسداً واحداً .

وسمى آدم امرأته « حواء » ، أى أم الأحياء ، لأنها أم كل حى .

* * *

وبعد ما خلق الله آدم وحواء ، باركهما ونسلهما ، وقال لهم : « انموا واكثروا واملأوا الأرض واخضعوها ، وتسلطوا على سمك البحر ، وطير السماء ، وجميع الحيوان الداب على الأرض » (تك ١ : ٢٨)

اليوم السابع : ولما أكملت السماوات والأرض وجميع جيشها ، رأى الله جميع ما صنعه ، فإذا هو حسن جداً . مطابق لحكمته تعالى وإرادته الربانية تمام المطابقة . وفرغ الله واستراح فى اليوم السابع من جميع العمل الذى عمله[1] .

وبارك الله اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى خلقه . فكانت راحته تعالى هذه ، السبب الدافع ، بل والمثال لحفظ السبت عند اليهود ، والأحد عندنا نحن المسيحيين . وهو اليوم الذى تحرم فيه الشريعة جميع الأعمال الخدمية ، للاشتغال بالروحيات ، والتفرغ لعبادة الله.

الملائكة والشياطين :

إن الله تعالى لم يخلق الطبيعة المادية : من جماد ، ونبات ، وحيوان ، والطبيعة البشرية فحسب ، بل والطبائع الروحية أيضاً أى الملائكة .

والملائكة هم ، دون جدال ، أسمى مخلوقات الله خلقاً وكمالاً . وهم كما يعلمنا الكتاب ، تسع طغمات :الملائكة ، ورؤساء الملائكة ، والرئاسات ، والسلاطين ، والعروش ، والأرباب ، والقوات ، والشاروبيم ، والساروفيم .

---

(١) لا يجب أن يفهم من ذلك ، أن الله تعالى قد كف عن كل عمل إطلاقاً ، بل عن أن يخلق أنواعاً جديدة فقط من المخلوقات ، لأنه تعالى لا يزال يعمل فى خليقته بحفظها وتوجيهها إلى غاياتها ، التى حددها لها .

أما متى خلق الملائكة فلا نعلم ، وإن كنا على يقين من أنهم خلقوا قبل الإنسان ، وقد خلقوا جميعاً فى حال البر والقداسة .

إلا أن الله قبل أن يثبتهم فى تلك الحال ، ويمن عليهم بالسعادة الأبدية ، شاء فى حكمته غير المدروكة ، أن يمحصوا بالتجربة .

فمنهم من أبلى بلاءً حسناً ، وثبتوا فى محبة الله وطاعته ، وهؤلاء هم الملائكة الأخيار ، وهم الجزء الأكبر . أما الجزء الآخر منهم فلم يقاوم التجربة ، وتمردوا على الله ، وهؤلاء هم الملائكة الأشرار أو الشياطين .

وقاوم الملائكة الأخيار ، وعلى رأسهم القديس مخائيل رئيس الملائكة ، الملائكة الأشرار ، وهم يرددون قائلين : « من مثل الله » . وما هى إلا لحظة ، حتى دهور الله هؤلاء المتمردين ، إبليس وجنوده ، إلى دركات جهنم النار ، حيث يقاسون أفدح العذابات مدى الأبدية . إلا أنهم لم يفقدوا شيئاً من خواص طبيعتهم الروحية ، ومقدرتهم ونشاطهم العقلى الفائق .

أما الملائكة الأخيار فكافأهم الله بتثبيتهم فى حال القداسة ، ومنحهم السعادة الأبدية . وقد اختارهم ليكونوا خدام بلاطه المقربين ، وحراسنا الأمناء . إن إكرام هؤلاء الملائكة ، ولا سيما إكرام ملاكنا الحارس ، واجب مقدس .

ومن واجباتنا نحو ملاكنا الحارس أن نسمع لإلهاماته ، ونعمل بمشورته الصالحة ، ونبدى له شواعر الشكر والامتنان .

أما بخصوص الملائكة الأشرار فينبغى أن نحذر منهم الحذر كله ، لئلا نسقط فيما ينصبون لنا من شراك وفخاخ ، كما سقطت من قبل أمنا حواء ، فأكلت بغواية الحية من الشجرة المحرمة ، فجرت على نفسها وعلينا ما جرت من مصائب وبلايا ، لازلنا نرزح تحت حملها الثقيل .

الفصل الثانى

فى رفع الإنسان وسقطته

الفردوس الأرضى :

وغرس الرب الإله جنة فى عدن شرقاً ، وجعل هناك الإنسان الذى جبله . وأنبت من الأرض ، فى تلك الجنة الفيحاء ، كل شجرة حسنة المنظر وطيبة المأكل ، وشجرة الحياة ذات القوة والمفاعيل العجيبة ، فى وسط الجنة ، وكذلك شجرة معرفة الخير والشر ذات المعنى السرى .

وكان نهر يخرج من عدن فيسقى الجنة ، ومن ثم ينشعب فيصير أربعة أفرع . اسم أحدها فيشون ، وهو المحيط بجميع أرض الحويلة ، حيث الذهب الجيد ، والمقل وحجر الجزع . واسم الثانى جيحون . واسم الثالث حداّقل ، وهو المعروف اليوم بنهر دجلة . والنهر الرابع هو الفرات .

ومن ثم فقد جمعت تلك الجنة كل ما يمكن أن يشتهى من نعيم ومتاع ومال وعقار . فكان آدم وحواء ، أبوانا الأولان ، سعداء حقاً فى ذلك الفردوس . بل وعلى أتم ما تكون السعادة ، لأنهما علاوة على ذلك كانا يتمتعان بصداقة الله تعالى ومحبته .

وما أحلى وألذ تلك السويعات ، التى كانا يقضيانها فى معيته تعالى ، عند نسيم الصبح ، يتمشى معهما ويخاطبهما مخاطبة الصديق لصديقه !

فى المواهب التى منحها الله لآدم وحواء :

وما أجدر الأبوين الأولين بالسعادة ، وهما اللذان خلقا فى حال البر والقداسة ، منزهين عن الشهوة غير المرتبة : « وكان كلاهما عريانين وهما لا يخجلان » (تك ٢ : ٢٥) ، ومزينين بفهم وعلم كاملين ، فقد ملأهما الله من « معرفة الحكمة ومن علم الروح » (سى ١٧ :٦)

ومن مواهبه تعالى للأبوين الأولين : السيادة المطلقة على الخليقة كافة ، والعصمة

من الموت ، والوقاية من كل ما يحيط بنا من أمراض وأوجاع ، وشتى بلايا الدهر .

على أن أعظم ما حبى به الله الأبوين الأولين من مواهب سامية ، هو دون جدال « النعمة » . تلك الموهبة الفائقة الطبيعة ، التى تجعل من الإنسان ، وهو العبد بالطبع ، ابناً لله حبيباً ، ووارثاً لملكوته السماوى .

فى الوصية التى وضعها الله لآدم :

إن الله لما جعل آدم فى الفردوس الأرضى ، أعطاه مطلق الحرية فى أن يأكل من جميع شجر الجنة ، ما طاب له ولذ . بل ومن شجرة الحياة أيضاً ، تلك الشجرة العجيبة ، التى كان مقدراً لها أن تقى ، بقدرة الله ، آدم و بنيه ، كل من يأكل منها ، من الموت وانحلال الجسد الطبيعيين إلى حين انتقاله من هذه الحياة إلى الحياة الأخرى حياً معافى .

إلا أن ترتيب العناية الإلهية هو أن لا تبلغ الخليقة العاقلة غايتها ، وتحظى بالسعادة الأبدية ، دون سعيها واجتهادها . ولذا فإن آدم ، مثل الملائكة ، كان لا بد له من أن يكتسب تلك السعادة بجده واجتهاده ، وإبداء طاعته لله كاملة .

وعلى ذلك فقد أعطاه تعالى وصية خاصة ، وأمره بأن لا يتعداها ، إن شاء أن يبقى على صداقته تعالى ، ولا يذوق الموت ، لا هو ولا ذريته . قال له ، وذلك لا باعتباره فرداً ، بل بصفته ممثل البشرية وأصلها : « من جميع شجر الجنة تأكل . وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها ، فانك يوم تأكل منها تموت موتاً » (تك٢ : ١٦و١٧).

فى التجربة :

إن إبليس ، ذلك الروح الشرير ، الذى بسبب كبريائه فقد الفردوس والسعادة الأبدية ، ذلك الروح المارد ، عدو الله وكل خير ، شاء أن يتشفى من حقده الدفين هذا بالقضاء على الجنس البشرى ، وهو لا يزال فى مهده ، لو استطاع إلى ذلك سبيلاً .

ومن هنا تجربته للانسان الأول ليجره إلى المعصية ، ويورده مورد العطب والتهلكة . ولكن بما أنه جبان ، وقد قرن مع الجبن الخبث ، فقد أخفى صورته فى صورة الحية . ولم يذهب إلى آدم ، بل إلى حواء الأضعف ، وقال لها بلهجة من يريد

أن يستفز شعور أحد ضد آخر : أيقيناً قال الله ، لا تأكلا من جميع شجر الجنة . فقالت حواء : من ثمر شجر الجنة نأكل . وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه كيلا تموتا .

وهذا جواب يدل على أن حواء أخذت تتأثر من كلام الحية ، وأنها تشعر ببعض المرارة من جراء هذا النهي . فقالت لها الحية مؤكدة ، بلهجة المطلع تماماً على بواطن الأمور : لن تموتا . إنما الله عالم أنكما يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتصيران كآلهة عارفي الخير والشر .



الخطيئة الأصلية :

فصدقت حواء إبليس ، الحية الجهنمية ، ومالت إلى المخالفة والمعصية ، بدليل إنها أخذت لساعتها تحدق بالشجرة ، فبدت لها طيبة للمأكل ، وشهية للعيون ، ومنية للعقل . وما هي إلا لحظات ، وقد مدت يدها فقطفت الثمرة المحرمة وأكلت ، وأعطت آدم بعلها فأكل ، منقاداً لرغبة امرأته ، أكثر من انقياده لطاعة ربه .

وعلى هذا المنوال عصى آدم وحواء الرب إلههما ، وارتكبا الخطيئة الأولى ، التى كانت وبالا عليهما ، وعلى كل ذريتهما .

إن خطيئة آدم وحواء هذه ، التى تعرف بالخطيئة الأصلية لأنها خطيئة الأبوين الأولين ، أصل جنسنا ، قد سرت على كل الجنس البشرى ، ما عدا السيدة العذراء ، التى بإنعام خاص ، حبل بها وولدت بريئة من دنس هذه الخطيئة وكل خطيئة .

أما ثقل خطيئة آدم وحواء هذه فيبدو واضحا من نتائجها الوخيمة ، ومنها دخول الموت العالم ، ومع الموت كافة الشرور الطبيعية والأدبية ، التى لا تزال ترزح تحت ثقلها البشرية .

فى عواقب الخطيئة :

وكان بمجرد إرتكاب آدم وحواء المعصية أن انفتحت أعينهما ، كما وعدهما المجرب ، ولكن على نحو يختلف تماماً عما كان ينتظرانه . فعرفا أنهما تجردا من ثوب النعمة وصداقة الله . وأنهما أضحيا عريانين مادياً ومعنوياً .

وبدت أمامهما واضحة الهوة السحيقة التى انحدرا إليها . وشعرا لساعتهما بتمرد الجسد والقوى السفلية ، ولا سيما الشهوة ، فخجلا خجلاً عظيماً . ووصلا ورق التين ، وصنعا لهما مآزر ، واختبآ من وجه الرب فيما بين أشجار الجنة خائفين .

إن خطيئة أبوينا الأولين هذه ، كانت خطيئة كبرياء وعدم طاعة . وكان من عواقب هذه الخطيئة أن حرم آدم وحواء ، وكل ذريتهما معهما من النعمة ، وجميع المواهب المجانية الفائقة الطبيعة ، وأصبحا ونسلهما تحت حكم اللعنة ، عبيداً للخطيئة والشيطان ، معرضين للموت والجهل والأميال الرديئة ، وكل أنواع الشقاء . وقد طرد آدم وحواء من الفردوس الأرضى .

فى مقاصة آدم وحواء :

بعد أن عصى آدم وحواء أمر ربهما بأكلهما من الشجرة المحرمة ، نادى الله آدم وقال له : أين أنت ؟ قال : إنى سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فاختبأت .

فقال له الله : من أعلمك أنك عريان ، هل أكلت من الشجرة التى نهيتك عن أن تأكل منها ؟ فقال آدم معتذراً : المرأة التى جعلتها معى ، هى التى أعطتنى من الشجرة فأكلت .



فقال الرب لحواء : ماذا فعلت ؟ فأجابت ملقية التبعة على الحية قائلة : إن الحية أغوتنى فأكلت . وعلى هذا النحو بدلا من أن يعترفا بخطيئتهما ببساطة ، أخذ كل منهما يبرر نفسه ، ويعزو خطيئته إلى الغير .

فحكم الله على كل من آدم وحواء بما تستحق جريرته . غير أنه قبل أن ينزل الحكم بهما أنزل حكم اللعنة على الحية . قال لها : إذ صنعت هذا فأنت ملعونة من بين جميع البهائم ، وجميع وحش البرية(١) . على صدرك تسلكين(٢) ، وتراباً تأكلين طول أيام حياتك .

---

(١) إن اللعنة هنا ، وإن كانت بحسب المعنى الحرفى موجهة إلى الحية الدابة ، إلا أنها بحسب المعنى الروحى فهى موجهة إلى إبليس الحية الجهنمية .

(٢) أما قوله تعالى « على صدرك تسلكين .. » فليس معناه أن الحية لم تكن تسلك على صدرها وتأكل التراب من قبل ، بل إن ما هو طبيعى لها وبحسب الفطرة ، سيكون بمثابة عقاب لها .

وحكم الله على حواء ، وفى شخص حواء ، على كل بناتها ، قائلا : « لأ كثرن مشقات حملك ، بالألم تلدين البنين ، وإلى بعلك تنقاد أشواقك ، وهو يسود عليك » (تك ٣ : ١٦)

لقد تغيرت حال الإنسان بعد الخطيئة ، وأصبح عرضة لسائر الأمراض والأوجاع ، ولذا فلا عجب ، أن يعاقب الله المرأة بالألم فى الحمل والولادة .

ثم إن ألفة الرجل والمرأة كانت قبل الخطيئة ألفة محبة ووئام ، فأضحت بعد الخطيئة ألفة القوى بالضعيف ، والسيد بالمسود .

أما قوله تعالى : « وإلى بعلك تنقاد أشواقك ، وهو يسود عليك » فيدل على شعور المرأة بالضعف إزاء الرجل وحاجتها إلى حمايته ، وشعوره هو بالقوة بالنسبة إليها والسيادة عليها .

إن المسيح المخلص ، وهو الذى جعل من وصية المحبة أساساً لشريعته ، وأرجع للزواج إعتباره وقداسته الأولى ، قد أعتق المرأة من عبودية الرجل ، ورد لها إعتبارها كشريكة حياته .

وحكم الله على آدم وسائر بنيه قائلا : « إذ سمعت لصوت امرأتك فأ كلت من الشجرة التى نهيتك قائلا لا تأ كل منها ، فملعونة الأرض بسببك ، بمشقة تأ كل منها طول أيام حياتك ، وشوكا وحسكا تنبت لك ، وتأ كل عشب الصحراء . بعرق وجهك تأ كل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها ، لأنك تراب و إلى التراب تعود » . (تك ٣ : ١٧ و ١٨)

و بذا قد أصبح العمل ، الذى كان قبل الخطيئة جزءاً لا يتجزأ من سعادة الإنسان على الأرض ، كدا ومشقة وعرق جبين لا مناص منه ، لأنه صار عقاباً للخطيئة .

كذلك الأرض ، التى كانت قبل الخطيئة تعطى أ كلها فى أوانها ، دون أية مشقة أو تعب إطلاقا ، أصبحت بعد الخطيئة ، من غير كد وعمل مضن متواصل ، لا تنبت سوى الشوك والحسك .

وقد أوجب تعالى سنة العمل على الإنسان مدى كل الحياة ، حتى انحلال جسده إلى عناصره الأولية ، ورجوعه إلى التراب الذى أ خذ منه .

فى طرد آدم وحواء من الفردوس :

وصنع الله لآدم وامرأته أقمصة من جلد وكساهما . وقد صنع تعالى تلك الأقمصة خصيصاً من جلد حيوانات ميتة ، تذكرة لهما بأنهما محكوم عليهما بالموت .

وقال تعالى بسخرية لاذعة . هوذا آدم قد صار كواحد منا ، يعرف الخير والشر والآن لعله يمد يده فيأخذ من شجرة الحياة أيضا ، ويأكل فيحيا إلى الابد .

فأخرجه وامرأته من فردوس النعيم ، ليحرث الأرض التى أخذ منها . وبعدما طردهما أقام شرق الجنة الكروبين ولهيب سيف متقلب ، لحراسة طريق شجرة الحياة .

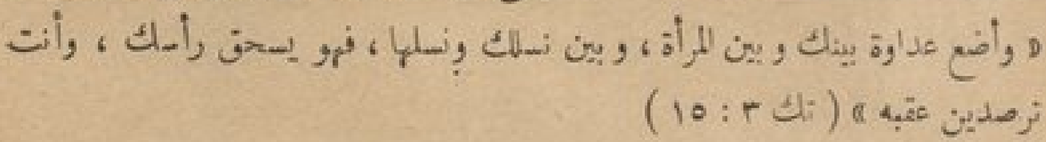
فى الوعد بالمسيح المخلص :

لقد طرد الله الأبوين الأولين من الفردوس الأرضى بعدل ، وبعدل حكم عليهما وعلى ذريتهما بالموت والشقاء . ولكنه شاء تعالى ، منذ تلك اللحظة ، وقبل أن ينفذ فيهم تلك العقوبات العادلة ، أن يتداركهم بعظيم رحمته ، فيضع فى قلوبهم الرجاء .

وذلك بوعده آدم وحواء بمخلص من نسلهما ، سوف يرد الأمور إلى نصابها فينتصر على الشيطان ويخلصنا من عبوديته ، ويرد إلينا كنز النعمة المفقود ، والحق فى دخول السماء ، والتمتع بالسعادة الأبدية .

وعلى ذلك فقد قال تعالى مهدداً الحية :

« وأضع عداوة بينك وبين المرأة ، وبين نسلك ونسلها ، فهو يسحق رأسك ، وأنت ترصدين عقبه » (تك ٣ : ١٥)



إن هذه المرأة ، عدوة الحية ، التى تنبىء عنها الآية ، والتى حسب نصها ، سوف تعطى النور لمخلص العالم ، هى دون جدال ، مريم العذراء ، البريئة من كل دنس .

أما نسلها ، الذى سيسحق رأس الحية ، فهو دون جدال ، سيدنا يسوع المسيح

مخلص العالم . أما كيف سيرصد إبليس ، الحية الجهنمية ، عقب المخلص ، فهذا ما سيتم له بتهييجه اليهود عليه حتى صلبوه على خشبة العار .

وعليه فقد تضمنت هذه الآية عن أول نبوة عن مجيء المسيح المخلص وآلامه وموته فداءً عن البشر .

الفصل الثالث

فى ذرية آدم

قاين وهابيل :



ورزق آدم وحواء أول ما رزقا ابنين يختلفان الاختلاف كله فى الطباع والأخلاق اسم الأكبر قاين ، واسم الأصغر هابيل . وكان قاين فلاحاً يحرث الأرض ، وهابيل راعى غنم .

وكان بعد أيام أن قدم قاين من ثمر الأرض تقدمة للرب . وقدم هابيل أيضاً

شيئاً من أبكار غنمه ومن سمانها . فنظر الرب بعين الرضى إلى هابيل وتقدمته . أما إلى قاين وتقدمته فلم ينظر . ذلك لأن هابيل قدم عن إخلاص ، وأحسن ما لديه . أما قاين فلم تكن تقدمته إلا رياء وتأدية واجب ، وقد قدم من ثمار الأرض أردأها .

وشق على قاين أن يقبل الله تقدمة أخيه دون تقدمته ، وأخذ الحسد منه كل مأخذ ، فأضمر السوء لأخيه .

فقال الرب لقاين مؤنباً ومنبهاً إياه إلى الخطر المحدق به : لِمَ شقَّ عليك الأمر ، ولم سقط وجهك . ألأنى ارتضيت بقربان أخيك دون قربانك . ألا إنك إن أحسنت الصنيع مثله تنال مرضاتى ، وإن لم تحسن فلا تنال رضاى ، فتقع فى فخ الخطيئة التى تربض لك كالوحش المفترس .

أنظر ها إنها على بابك ، فاحترس منها لنفسك . واعلم أنه لفى طاقتك متى شئت ، قهرها والانتصار عليها .

وإليك الآن نص هذه الآية ، التي أوردها هنا بالحرف الواحد لأهميتها ، فهى تعلن بوضوح عن حرية الإنسان المطلقة بإزاء التجارب . وأنه مهما اشتدت عليه وطأة الشهوات ، فلا يزال زمام الأمر فى يده ، وله على الدوام أن ينتصر بنعمة الله عليها : « ألا إنك إن أحسنت تنال ، وإن لم تحسن ، فعند الباب خطيئة رابضة ، وإليك انقياد أشواقها ، وأنت تسود عليها » (تك ٤ : ٧)

فى قتل هابيل وعقاب قاين :

غير أن قاين لم يعبأ بتحذير الله الأبوى له . وطفق يتحبب إلى هابيل فى الظاهر ، وفى قلبه منه حزازات وضغائن . فقال له مرة لنخرج معاً إلى الصحراء ، فلما كانا فى الصحراء بعيداً عن أنظار أبويهما ، وثب قاين على هابيل فقتله .

وما أشد فجيعة آدم وحواء وحسرتهما ، إذ رأيا ابنهما الحبيب هابيل مجندلاً على الأرض فى بحر من الدماء ، لا حراك به !

فكانت هذه أول مرة يشهدان فيها الموت ، ويلمسان لمس الأيدى قسوته المريرة ذلك الموت الذى هو ثمرة خطيئتهما !

وما لبث قاين أن سمع صوت الله يناديه قائلا : قاين ، قاين ، أين هابيل أخوك . فأجاب قاين بقحة قائلا : لا أعلم ، ألعلى حارس لأخى . فقال له الله : ماذا صنعت . إن صوت دماء أخيك صارخ إلىَّ من الأرض . والآن فملعون أنت من الأرض ، التى فتحت فاها لتقبل دماء أخيك من يدك ، وإذا حرثت الأرض فلا تعود تعطيك ثمارها . تائهاً شارداً تكون فى الأرض .

وشاء التعس قاين أن يتمادى فى غيه ، فأضاف إلى وزره أنه قطع الرجاء من الخلاص وقبول توبته . فقال للرب يائساً : إنَّ ذنبى أعظم من أن يغفر . إنك قد طردتنى اليوم عن وجه هذه الأرض ، ومن وجهك أختفى ، وأكون تائهاً شارداً ، فيكون أن كل من وجدنى يقتلنى .

فقال له الرب : لذلك كل من قتل قاين ، فسبعة أضعاف ينتقم منه . وجعل الله لقاين علامة خاصة ، لئلا يقتله كل من وجده حسب رغبته ، ظناً منه أنه بذلك يتخلص من وخز الضمير المرير ، ومن شقائه الدائم .

وخرج قاين من أمام الرب ، هائماً على وجهه ، إلى أن جاء وسكن بأرض نود شرقى عدن . (تك ٤ : ٨–١٦)

فى ذرية قاين :

إن ذرية قاين كانوا أشراراً ، وهم الذين يدعوهم الكتاب المقدس « بينى الناس » أما سلسلة تلك الذرية الشريرة فهى : أخنوخ [١] . وهو الذى بنى له قاين أبوه مدينة وسماها باسمه ، وعيراد ، ومحويائيل ، ومتوشائيل ، ولامك ، وهو أول من تعدى على سُنة وحدة الزواج المقدسة باتخاذه امرأتين ، اسم إحداهما « عادة » والأخرى « صلّة » .

على أن بعض بنى لامك تميزوا باكتشافهم بعض الاختراعات النافعة فكان « يوبَل » أول من اخترع للموسيقى ، فهو أبو كل عازف بالكنارة والمزمار .

---

(١) هو غير أخنوخ البار ، الذى اختطفه الله حيا .

« وتوبل قاين » أول من وجد طريقة سبك النحاس والحديد . « ونعمة » أخت توبل قاين أول من علمت الناس صناعة الغزل ونسج الصوف (تك ٤ : ١٧ ...)

فى مولد شيت وموت آدم وحواء :

ورزق آدم بعد موت هابيل بابن سماه شيتاً . وكان عمر آدم إذ ذاك مائة وثلاثين سنة . وقالت حواء : قد أقام الله لى نسلا آخر بدل هابيل ، الذى قتله قاين .

وعاش آدم بعد ما ولد شيتاً ثمانى مئة سنة ، ولد فيها بنين وبنات كثيرين ، لم يترك لنا الكتاب شيئاً عن أسمائهم .

فكانت كل أيام آدم التى عاشها تسع مئة سنة وثلاثين سنة ، ومات بالرب بعد أن كفر عن خطيئته كل سنى حياته الطويلة .

وقد ماتت حواء ، كما يظن ، فى مثل عمر آدم . إن الكنيسة الجامعة ، وتقليد اليهود اعتبرا فى كل زمان ومكان ، كحقيقة لا ريب فيها ، خلاص الأبوين الأولين آدم وحواء (تك ٥ ...)

شيت وذريته :

إن شيتاً كان أصل ذرية صالحة يدعوها الكتاب المقدس « بنى الله » إن رؤساء سلسلة هذه الذرية المباركة ، وهم الذين يعرفون بالآباء البطاركة ! كانوا فى آن واحد ملوكا وقضاة وكهنة . ومن مهمتهم أيضاً إيصال وديعة الوحى ، والإيمان بالمسيح المنتظر إلى أحفادهم سالماً .

إن عدد الآباء البطاركة قبل الطوفان ، إذا حسبنا آدم وشيتا عشرة وهم بالترتيب : آدم ، وشيت ، وأنوش ، وقينان ، ومهللئيل ، ويارد ، وأخنوخ ، ومتوشالح ، ولامك ، ونوح .

وممن امتازوا بين هذه الذرية المباركة ، التى منها سوف يولد المسيح المخلص ، نخص بالذكر : أنوش ابن شيت ، وبه ابتدىء بالدعاء باسم الرب . وأخنوخ الذى لم يذق الموت ، لأن الله اختطفه حياً . فقد جاء عنه : « وسلك أخنوخ مع الله — أى فى محبته

تعالى وتقواه — ولم يوجد بعد لأن الله أخذه » (تك ٥ : ٢٤)

ومتوشالح بن أخنوخ ، الذى عاش ٩٦٩ سنة ، وهى أطول حياة عاشها ابن بشر على الأرض .

إن هؤلاء البطاركة جميعاً قد عمروا طويلا ، لا لأن ظروف حياتهم المادية والمعنوية وطبعهم وقناعتهم ، كانت كلها عوامل تساعدهم على ذلك فحسب ، بل ولأن الله قضى لهم بذلك ليملأوا الأرض بنسلهم الصالح ، وليتمكنوا من إيصال الحقائق ، التى كان قد أوحى لهم بها ، للأجيال التالية ، عن طريق التقليد الشفوى (تك ٥)



الحقبة الثانية

من الطوفان إلى دعوة إبراهيم

إن الحقبة الثانية من التاريخ المقدس تحتوى على ٤٢٠ سنة .

الفصل الأول

فى قصة نوح والطوفان

فى فساد البشر :

وكان لما كثر الناس على وجه الأرض ، أن كثرت معهم أيضا شرورهم ، ولا سيما بعدما اختلطت ذرية شيت المحافظة بذرية قاين الفاجرة .

ويجب أن يعزى فساد الأخلاق العام ، ونسيان عبادة الله ، إلى بنات الناس : نسل قاين . ومنهن تزوج كثير من بنى الله : نسل شيت ، بسبب جمالهن .

وقد نشأ عن اختلاط الذريتين جيل جديد ، هو جيل الجبابرة ، المشهورين منذ الدهر بقسوتهم وحطة إخلاقهم .

وإذ رأى الله الشر يتفاقم يوماً بعد يوم ، وأن الجميع زاغوا وأفسدوا طريقهم ، ندم[1] على صنعه الإنسان ، وقرر إهلاك الجنس البشرى ، إن لم يتوبوا إليه خاشعين .

ولكن بما أنه رحيم فقد منحهم مهلة طويلة ، تبلغ مدتها مئة وعشرين سنة ، ليتدبروا أمر خلاصهم . وهى الفترة نفسها التى استغرقها نوح فى بناء الفلك (التابوت) ، وهو ينذرهم بسوء العاقبة إن لم يرعووا ويرجعوا عن طريقهم الشرير (تك ٦ : ١ ـ ٧)

نوح وبناء الفلك :

وكان نوح رجلا باراً كاملا ، لم يحد عن جادة الطريق كسائر أبناء ذلك الجيل

(١) ينسب الكتاب إلى الله عواطف بشرية ، لا يمكن أن يكون خاضعاً لها بحال ، بل وهو منزه عنها كل التنزه كالندم والغضب ، ليبين لنا كم هو فظيع وشنيع التعدى على وصاياه تعالى .

المموج ، بل سلك مع الله ، فنال بذلك حظوة ورحمة فى عينى الرب .

ورزق نوح وهو فى الثلثمائة من سنه ، ثلاثة بنين : ساماً وحاماً و يافث . وكان عمره لما شرع بأمر الرب فى بناء الفلك ، أربعمائة سنة وثمانين سنة .

قال له تعالى : اصنع لك فلكا من خشب قطرانى ، واجعله مساكن ، واطله من داخل ومن خارج بالقار . هكذا تصنعه : ثلاث مئة ذراع يكون طوله ، وخمسين ذراعاً عرضه ، وثلاثين ذراعاً ارتفاعه .

وتجعل طاقاً للفلك ، و إلى حد ذراع تكمله من فوق . واجعل باب الفلك إلى جانبه ، ومساكن سفلى ، وثوانى وثوالث تصنعه . فهاءنذا آت بطوفان مياه على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة ، من تحت السماء ، وكل ما فى الأرض يهلك .

وأقيم عهدى معك ، فتدخل الفلك أنت و بنوك وامرأتك ، ونسوة بنيك معك . ومن كل حى ، من كل ذى جسد اثنين ، من كل تدخل الفلك لتحيا معك : ذكراً وأنثى تكون : من الطير بأصنافها ، ومن البهائم بأصنافها ، ومن جميع دبابات الأرض بأصنافها ، يدخل إليك اثنان من كل لتحيا . وأنت خذ لك من كل طعام يؤكل وضمه إليك ، فيكون لك ولهم طعاما . (تك ٦ : ٨ — ٢١) .

فى الطوفاله :

و إذ رأى الله أن لا جدوى من إنذار القوم المنافقين ، نفذ فيهم ما سبق وهددهم به بواسطة نوح نبيه ورسوله ، من عقاب مروع ، ألا وهو الغرق بطوفان المياه .

قال الله لنوح : أدخل الفلك أنت وجميع أهلك ، فإنى إياك رأيت باراً أمامى فى هذا الجيل . وخذ من جميع البهائم الطاهرة سبعة سبعة ذكوراً وإناثا . ومن البهائم التى ليست بطاهرة[1] اثنين ذكراً وأنثى . وخذ أيضا من طير السماء سبعة سبعة ذكوراً و إناثا ليحيا نسلها على وجه الأرض . فاننى بعد سبعة أيام ممطر على الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة ، وماح كل قائم مما صنعته عن وجه الأرض .

---

(١) ذهب أغلب المفسرين إلى أن الحيوانات غير الطاهرة هى التى كان لا يجوز تقديمها لله ذبيحة .



الغرق بطوفان المياه

فعمل نوح بحسب كل ما أمره الرب به . فدخل الفلك هو و بنوه وامرأته وثلاث نسوة بنيه . ودخلت الفلك إلى نوح اثنين اثنين ، من كل ذى جسد فيه روح حياة : من البهائم الطاهرة ، ومن البهائم التى ليست طاهرة ، ومن الطير ، وجميع ما يدب على الأرض ، دخلت الفلك إلى نوح إثنين إثنين ، ذكوراً و إناثاً ، كما أمر الله نوحاً .

و بعد السبعة الأيام التى حددها الرب ، أخذت مياه الطوفان تتدفق على وجه الأرض . وكان ذلك فى السنة الست مئة من عمر نوح ، فى الشهر الثانى (= نوفمبر) فى اليوم السابع عشر منه ، حيث تفجرت عيون الغمر العظيم ، وتفتحت كوى السماء .

وكان إنهمار المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة . وكثرت المياه جداً وتعاظمت ، فسار الفلك على وجه الماء . وكثرت المياه جداً جداً ، فغطت جميع الجبال الشامخة التى تحت السماء كلها[١] ، وعلت عليها خمس عشرة ذراعاً .

---

(١) تحت السماء كلها . قد يظن القارىء لأول وهلة بأن موسى النبى — واضع أسفار التوراة الخمسة — يريد أن يشعرنا ، بمثل هذا التعبير ، بأن الطوفان قد غطى كل الأرض ، بالمعنى الذى =

فهلك كل ذى جسد يدب على الأرض : من الطير والبهائم ، والوحوش ، وجميع الزحافات التى تزحف على الأرض ، والناس كافة . فلم يسلم من الناس والحيوان أحد ، إلا نوحاً ومن معه فى الفلك . وغمرت المياه وجه الأرض مئة وخمسين يوماً (تك ٧)

فى نهاية الطوفان :

وذكر الله نوحاً وجميع الوحوش والبهائم التى معه فى الفلك ، فأرسل ريحاً شرقية شديدة على الأرض ، فأخذت المياه تنقص وتتراجع عن الأرض شيئاً فشيئاً .

وكان ذلك فى الشهر السابع ، وهو بدء الربيع ، فى اليوم السابع عشر منه ، أى ١٥٠ يوماً من بدء الطوفان ، حيث استقر الفلك على جبال أراراط بأرمينيا .

وما زالت المياه فى نقصان حتى الشهر العاشر . وفى أول يوم منه ظهرت رؤوس الجبال .

وكان بعد أربعين يوماً من ذلك أن فتح نوح كوة الفلك ، وأطلق الغراب لينظر هل جفت المياه أم ما زالت تغطى وجه الأرض . ولكن الغراب لم يعد ، بل أخذ يتردد إلى سطح الفلك ، وكان يتغذى بجيف الغرق ، إلى أن جفت المياه عن الأرض .

ثم أطلق نوح الحمامة ، فلم تجد مستقراً لرجلها فرجعت إليه ، فمد يده ، فأخذها وأدخلها إلى الفلك . ولبث أيضاً سبعة أيام أخر وعاد فأطلقها ، فرجعت إليه وقت العشاء وفى فمها ورقة زيتون خضراء ، فعلم نوح أن المياه قد جفت عن الأرض . ولبث أيضاً سبعة أيام أخر ، ثم أطلقها ، فلم تعد ترجع إليه أيضاً ، لأن المياه كانت قد جفت تماماً .

وأمر الله نوحاً فخرج هو ومن معه من الفلك ، ونظر فإذا وجه الأرض قد جف . وكان ذلك فى سنة إحدى وست مئة من عمر نوح ، فى اليوم الأول من الشهر الأول (= أكتوبر) .

= نفهمه عموما بهذه العبارة . إلا أننا إذا أنعمنا النظر فى الرواية جميعها رأينا أن المقصود هو تقرير هذه الحقيقة ، وهى : أنه لم يفلت من عقاب الغرق أحد ، غير نوح ومن معه فى السفينة . وبالتالى فإن الطوفان قد أغرق كل البقعة المأهولة بالسكان . . لا كل الكرة الأرضية .

وبنى نوح مذبحاً للرب وأخذ من كل البهائم الطاهرة ، ومن جميع الطير الطاهرة ، فأصعد على المذبح ذبائح التسبيح والشكر عن كل ما آتاه إياه الرب من نعم وآلاء ، ولا سيما نعمة النجاة من الطوفان .

فتنسم الرب رائحة الرضى ، وقال الرب فى نفسه ، لا أعيد لعن الأرض بسبب الإنسان . وأبداً ما دامت الأرض فالزرع والحصاد ، والبرد والحر ، والصيف والشتاء ، والنهار والليل لا تبطل (تك ٨:٠)

فى بركة الله لنوح وبنيه — وتجديد العهد معهم :

وبارك الله نوحاً وبنيه ، وقال لهم : أنموا وأكثروا واملأوا الأرض . وخوفكم



العهد مع نوح وبنيه

وذعركم يكونان على جميع وحش الأرض ، وطير السماء ، وكل ما يدب على الأرض . وكل حى يدب يكون لكم مأكلا كقبول العشب [١] .

وكلم الله نوحاً وبنيه قائلا : ها أنا مقيم عهدى معكم ومع نسلكم من بعدكم ،

(١) يبدو من هذه الآية الكريمة أن الناس قبل الطوفان لم يكونوا يأكلون اللحوم .

ومع كل نفس حية : فكل ذى جسد لا ينقرض أيضاً بمياه الطوفان ، ولا يكون أيضاً طوفان ليتلف الأرض .

وظهرت إذ ذاك فى الغمام قوس ، وهى المعروفة بقوس قزح . فقال الله مشيراً إلى القوس : « هذه علامة العهد الذى أنا جاعله بينى وبينكم ، وبين كل ذى نفس حية معكم مدى أجيال الدهر » . بأن لا يكون طوفان من بعد .

وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساماً وحاماً ويافث . وحام هو أبو كنعان . هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح ، ومنهم انتشر الناس فى الأرض (تك ٩)

فى سفاهة حام — ونبوة نوح عن مستقبل بنيه :

وابتدأ نوح يحرث الأرض ، وغرس كرماً . فلما أينعت ثماره ، شرب من عصيرها وهو يجهل فعلها ، فسكر وتكشف داخل خبائه .

وإذ رآه حام على تلك الحال المزرية سخر به . وأخبر أخويه وهما خارجا . فأخذ سام ويافث رداءً ومشيا القهقرى ، فسترا عرية أبيهما .

ولما أفاق نوح من خمره ، وعلم بما جرى ، لعن كنعان ابن حام ، أى إنه لعن حام فى ذريته ، ولم يلعن المخطىء رأساً ، إكراماً لما نال من بركة مع إخوته من العلى .

وقال نوح بلسان النبوة : ملعون كنعان ، عبداً يكون لعبيد إخوته . وقال : تبارك الرب إله سام[1] ، وليكن كنعان عبداً له . ليرحب الله ليافث . يسكن فى أخبية سام ، ويكون كنعان عبداً له .

وعاش نوح بعد الطوفان ٣٥٠ سنة . فكانت كل أيام نوح ٩٥٠ سنة (تك ٩ : ٢٠ ـ ٢٩)

---

(١) « تبارك الرب إله سام » (تك ٩ : ٢٦) . لقد تضمنت هذه البركة على نبوة عن المسيح المخلص ، فحواها : إنه سيكون من ذرية سام .

فقوله إن الرب هو إله سام ، معناه : إن الله يختار ساماً ، دون سائر إخوته ، ليكون حاملا لواء الدين الحقيق وتراث الإيمان ، على مر الدهور والأجيال . ومن الواضح ، إن ساماً يحمل ذلك اللواء بنسله ، الذى يجب أن يدوم إلى الأبد . والآن ، فمن يا ترى هذا النسل الذى يدوم إلى الأبد ، إن لم يكن المسيح مخلص العالم المنتظر .

الفصل الثانى

برج بابل وأصل اللغات البشرية

فى مدينة وبرج بابل :

وأخذ نسل نوح ، بعناية خاصة من الله ، ينمو ويكثر بسرعة عجيبة ، ممتداً على وجه البسيطة . وقد بلغوا فى زحفهم من أراراط بأرمينيا إلى بقعة كثيرة الخصب فى أرض شنعار[١] .

وقر قرارهم على أن يبنوا لهم ، فى هذه الأرض السهلة ، مدينة عظيمة ، وبرجاً يناطح السماء إرتفاعاً . وكان ذلك بدافع الكبرياء وروح المقاومة لإرادة الله ، الذى كان قد أمر بأن ينبث الجنس البشرى فى الأرض كلها (أنظر إن شئت تكوين ٩ : ١)

فقد قال بعضهم لبعض : « تعالوا نبن لنا مدينة ، وبرجاً رأسه فى السماء ، ونقم لنا اسماً ، كى لا نتبدد على وجه الأرض كلها » (تك ١١ : ٤)

لكن الله أبى إلا إحباط هذا المشروع النفاق ، المضاد لإرادته الربانية ، والصادر عن روح التجبر والكبرياء .

فى بلبلة اللغة الأولى وتبديد البشر فى أنحاء المعمورة :

وكانوا لا يزالون منهمكين فى بناء المدينة والبرج ، حين هبط فى وسطهم الله وبلبل لغتهم ، فلم يعودوا يفهمون لغة بعضهم بعضاً . ولذلك سميت المدينة التى كانوا قد شرعوا فى بنائها « بابل »[٢] .

وكان من جراء بلبلة اللغة الأصلية ـ إذ كانت الأرض كلها ، قبل هذا الحادث لغة واحدة وكلاماً واحداً ـ أن نشأت عدة لغات ، متباينة الألفاظ والمعانى ، الأمر الذى اضطرهم أن يتبددوا مرغمين على وجه الأرض كلها[٣] .

---

(١) أرض سهلة ببلاد العراق فى ما بين النهرين .

(٢) مدينة معروفة فى بلاد العراق .

(٣) لا يزال تعدد اللغات موسوماً بسمة العقاب ، الذى وسمه به تعالى : فقد كان ولا يزال سبب متاعب ومشقات للبشر لا حصر لها .



برج بابل وتشتيت الشعوب

فأقام بنوسام فى آسيا الشرقية والجنوبية ، و بنو يافث فى آسيا الصغرى وأوروبا ورحل بنو حام إلى فلسطين و بلاد أفريقيا (تك ١١ . .)

فى مولد ابراهيم : (٢٠٣٠ ق . م)

إن لقب « عبرانى » الذى به يدعو الكتاب المقدس مراراً عديدة الشعب اليهودى ، هو على ما يظن نسبة « لعابر » من أبناء سام ، وأحد جدود إبراهيم ، أبى الشعب اليهودى الحقيق باعتبار دعوته وطبيعياً .

أما مولد سيدنا إبراهيم فكان فى مدينة « أور »[1] من بلاد الكلدانيين ، فى سنة ١٩٧٠ للخليقة ، الموافقة لسنة ٢٠٣٠ قبل المسيح ، وسنة ٣٤٥ للطوفان .

وأبو إبراهيم تارح بن ناحور بن سروج . . . بن عابر . . بن سام ، الذى منه ينبغى أن يولد المسيح المخلص ، حسب نبوة نوح .

(١) على الخليج الفارسى .

الحقبة الثالثة

من دعوة إبراهيم إلى خروج العبرانيين من مصر

إن الحقبة الثالثة من التاريخ المقدس تحوى ٤٣٠ سنة . وتمتد من سنة ١٩٥٥ إلى سنة ١٥٢٥ قبل الميلاد .

الفصل الأول

قصــــة إبراهيم (٢٠٣٠ – ١٨٥٥ ق . م .)

فى ارتداد الشعوب عن عبادة الله الحقيقية :

وحدث بعد الطوفان أنه لما كثر الناس ، وتشتتوا فى أربع أنحاء المسكونة ، أنهم ما لبثوا أن نسوا الله ، فعاثوا فى الأرض فساداً ، وتمادوا فى الضلال ، فنحتوا لهم تماثيل وصوراً من خشب وحجر ، وعبدوها كآلهة ، عوضاً عن عبادتهم الإله الحق .

وقد طغى الفساد فضلت الأفراد وضلت الشعوب ، إلا نفراً قليلاً جداً ، قد وُجدوا فى كل زمان ومكان ، اعتصموا بالله فكان لهم خير نصير .

فى دعوة ابراهيم : (١٩٥٥ ق . م .)

بين هؤلاء الراشدين ، الذين لم تلوث صفحتهم بعبادة الأوثان الرجسة ، كان رجل يسمى إبراهيم — وقبل دعوته أبرام — اصطفاه الله وفضله على جميع أبناء ذلك الجيل ، ليكون ونسله عموداً للحق يهتدى به مدى الدهر[1] .

وفى إحدى التجليات قال له تعالى : « انطلق من أرضك وعشيرتك و بيت أبيك إلى الأرض التى أريك . وأنا أجعلك أمة كبيرة ، وأباركك وأعظم اسمك ، وتكون بركة . وأبارك مباركيك ، وشاتمك ألعنه ، ويتبارك بك جميع عشائر الأرض » . (تك ١٢ : ١ — ٣)

---

(١) كان ابراهيم ، خليل الله ، معاصراً لحورابى الملك والمشترع العظيم . ولذا فقد اصطلح العلماء على وضع دعوة ابراهيم فى السنة الأولى للملك حورابى ، أى فى سنة ١٩٥٥ ق . م . (أنظر أيضاً الحاشية ص ٣٧)

فانطلق ابراهيم لساعته ، كما أمره الرب ، وجاء إلى أرض كنعان هو وسارة امرأته ، يصحبه لوط ابن أخيه ، وجميع أموالهما والنفوس التى امتلكاها فى حاران .

ومن ذلك يبدو واضحاً أن إبراهيم هاجر إلى أرض كنعان ، لا من « أور الكلدانيين » ، بل من « حاران »[1] . لأن تارح أباه كان قد هاجر إلى هذه المدينة ، هو وكل بيته ، قبل دعوة إبراهيم . وفى تلك المدينة ، سالفة الذكر ، مات تارح وله من العمر ٢٠٥ سنين ، قبل خروج ابراهيم منها .

وكانت دعوة إبراهيم هذه بالانطلاق من أرضه وعشيرته بمثابة إنذار له ، بأن لا يعود من بعد إلى « أور » ، موطن آبائه الأصلى ، لأن الله سيعطى له ولنسله « كنعان » أرض غربته .

وبعد وصول إبراهيم إلى أرض كنعان ، وهى بلاد فلسطين الحالية ، تجلى له الرب هناك ، وقال له : لنسلك أعطى هذه الأرض . فبنى إبراهيم مذبحاً للرب فى المكان نفسه الذى تجلى له فيه الرب ، وهو بجوار مدينة « شكيم »[2] ، تخليداً لهذه الذكرى . (تك ١٢...)

فى المواعيد الثلاثة التى وعد بها الله إبراهيم :

وعد الله ، سبحانه وتعالى ، إبراهيم فى الرؤيتين السابق ذكرهما ، ثلاثة مواعيد ، وهى : الوعد الأول : إنه يُعطى نسله ميراثاً أبدياً كل أرض كنعان ، أرض غربته . ولذا فمنذ هذه اللحظة ستدعى أرض كنعان بأرض الموعد .

الوعد الثانى : هو إن الله سيجعل إبراهيم أباً لأمة كبيرة ، وشعب مختار لا يحصى عدده ، لأنه سيكون كنجوم السماء ، والرمال التى على شاطىء البحر كثرةً .

الوعد الثالث : هو إن الله سيبارك بإبراهيم كل شعوب الأرض قاطبة ، وذلك بدعوتهم إلى الإيمان ومعرفة الله الحق . الأمر الذى سيتحقق تماماً بانتشار بشرى الإنجيل على يد المسيح المخلص ، الذى سوف يخرج من صلب إبراهيم ، أبى كل المؤمنين .

---

(١) حاران أو حرّان مدينة فى شمال بلاد ما بين النهرين . وتشمل بلاد ما بين النهرين كل العراق الحالية وجزءاً من سوريا وتركيا .

(٢) وهى نابلس الحالية بفلسطين العربية .

إبراهيم فى مصر :

وكان بعد مضى بعض الزمن أن هبط إبراهيم إلى مصر ، وذلك بسبب تفشى المجاعة فى أرض كنعان .

ولما خفت وطأة المجاعة ، عاد من مصر وفى يده ثروة طائلة ، وهبه إياها الله مكافأة له عن محنة قاسية ألمت به عند دخوله أرض الكنانة ، بسبب سارة امرأته ، التى رغم تقدمها فى السن ، كانت لا تزال تتمتع بقسط وافر من الجمال .

وقد احتمل إبراهيم تلك المحنة القاسية بصبر جميل و إيمان كبير ، جاعلاً كل ثقته فى الله ، ناصر المظلوم من الجبروت وطغيان الطغاة (تك ١٢ : ١٠ — ٢٠)

فى اعتزال لوط عن إبراهيم :

و بما أن إبراهيم كان قد أصبح غنياً جداً ، لا بالفضة والذهب فقط ، بل و بالماشية أيضاً . وكان أيضاً للوط ، ابن أخيه ، غنم و بقر وخيام كثيرة . و بما إن ضيق الأرض لم يحتمل أن يقيا معاً لكثرة أموالهما ، وكانت تحدث بسبب ذلك خصومات عديدة بين رعاة إبراهيم ورعاة لوط .

قال إبراهيم ، رجل الله المحب للسلام ، للوط : « لا تكن خصومة بينى و بينك ، ولا بين رعاتى ورعاتك ، إنما نحن رجلان أخوان . أليست الأرض كلها بين يديك . إعتزل عنى ، إما إلى الشمال فأتيامن عنك ، و إما إلى اليمين فأتياسر » .

(تك ١٣ : ٨ و ٩)

فرفع لوط طرفه ورأى كل بقعة الأردن ، وهى تلك البقعة الخصيبة ، التى كانت تقوم عليها سدوم وعمورة وضواحيها ، قبل أن يدمرها الرب ، فإذا جميعها سقى كالفردوس الأرضى ، ومثل أرض مصر .

فاختار لوط لنفسه كل تلك البقعة مرتحلاً إلى المشرق ، واعتزل كل منهما صاحبه . وأقام لوط بمدينة سدوم .

أما إبراهيم فأقام فى أرض كنعان ، وخيم فى « بلوط ممرا » التي بحبرون ، حيث أكد الله من جديد ، مواعيده السابقة لخليله إبراهيم .

إبراهيم يخلص لوطاً من أيدي الأعداء :

ولم تكن هناك وحدة سياسية تربط البلاد الآسيوية (الغربية) ولا بلاد كنعان ، بعضها ببعض فى ذلك الزمن الغابر ، بل كانت كل مدينة تحكم ذاتها بذاتها . فلكل ملكها وقوانينها وعاداتها الخاصة بها . إلا أن اهتمام أولئك الملوك الأول لم يكن إصلاح حال رعاياهم ، بل محاربة بعضهم بعضاً ، وسلب ونهب المدن المجاورة .

وحدث أن أربعة من هؤلاء الملوك ، وعلى رأسهم أمرافل ملك شنعار [1] ، أعلنوا الحرب على خمسة آخرين ، من بينهم ملكا سدوم وعمورة . وبما أن النصر كان حليف الأربعة الملوك الأولين ، فقد غنموا جميع أموال سدوم وعمورة ، وجميع ميرتهم ومضوا .

وقد أخذوا بين من أخذوا من الأسرى لوطاً ابن أخى إبراهيم وماله ومضوا ، إذ كان يقيم فى سدوم .

فجاء من أفلت من الأسر وأخبر إبراهيم بما حدث ، فما كان منه إلا أن جمع ثلاث مئة وثمانية عشر رجلاً من حشمه ، المولودين فى بيته ، وجد فى أثر هؤلاء الأعداء حتى « دان » ، حيث هزمهم شر هزيمة ، واسترجع منهم جميع المال ، ولوطاً ابن أخيه وماله ، وسائر الأسرى (تك ١٤ : ١ — ١٧)

ملكيصادق يبارك إبراهيم :

وخرج ملكيصادق ، كاهن الله العلى وملك شليم ، المدينة التى ستدعى فيما بعد أورشليم ، لملاقاة إبراهيم بعد رجوعه من كسر أعدائه .

وإذ قدم ملكيصادق عن إبراهيم للرب ذبيحة شكر خبزاً وخمراً [2] ، باركه قائلاً : مبارك إبراهيم من الله العلى ، مالك السماوات والأرض ، وتبارك الله العلى الذى دفع أعداءك إلى يديك .

---

(١) لقد أجمع العلماء على أن أمرافل هذا ، هو حورابى الذى ملك ببابل من سنة ١٩٥٥ إلى سنة ١٩١٣ ق . م . وقد اتصل الينا من حورابى مجموعة نفيسة من الشرائع ، تشبه فى بعض النقاط الشرائع الموسوية .

(٢) ما من شك فى أن ملكيصادق بصفته ملكا وكاهناً كان رمزاً للمسيح المخلص (أنظر مز ١٠٩ : ٤ وعب ٥ و ٦ و ٧) . وقد رأى الآباء القديسون فى ذبيحته التى قدم فيها الخبز والخمر ، رمزاً لذبيحة المسيح الافخارستية ، وهو الكاهن على رتبة ملكيصادق إلى الأبد .

وشاء إبراهيم بهذه المناسبة السعيدة ، أن يكرم الله فى شخص كاهنه ، بإعطاء ملكيصادق عشر الغنيمة (تك ١٤ : ١٨ — ٢٠)

فى إيمان إبراهيم ووعده بوارث :

وكان بعد هذه الأمور أن كلم الله إبراهيم قائلاً : لا تخف ، أنا ترس لك ، وأنا أجرك العظيم جداً . فأخذ إبراهيم يبث للرب شكواه قائلاً : اللهم يارب ، ماذا تعطينى وأنا منصرف عقيماً . إنك لم ترزقنى عقباً ، وهوذا ربيب بيتى هو يرثنى .

فقال له الرب : بل من يخرج من صلبك هو يرثك . وقال له : أنظر إلى السماء وأحص الكواكب إن استطعت أن تحصيها : هكذا يكون نسلك . فآمن إبراهيم بالرب ، فحسب له ذلك براً .

وقد تنازل تعالى فأثبت له صدق مواعيده بعدة آيات وعلامات خارقة ، ثم أنبأه بمصير نسله ، وكيف أنهم سيكونون غرباء فى أرض ليست لهم ، ويستعبدون دهراً طويلاً من الزمن (تك ١٥..)

فى زواج إبراهيم من هاجر ، ومولد اسمعيل :

وكان لسارة ، امرأة إبراهيم ، أمة مصرية اسمها هاجر . فقالت سارة لإبراهيم : هوذا قد حبسنى الرب عن الولادة ، فادخل على أمتى ، لعل بيتى يبنى منها .

فقد جرت العادة ، وجرى العرف قديماً ، أن تعطى العاقر زوجها إحدى جارياتها ، ليقيم لها نسلاً . وفى هذه الحال كان أبناء الأمة يعدون أبناء شرعيين لأسيادها .

وإذ رأت هاجر أنها قد حملت من سيدها ، هانت مولاتها فى عينيها ، فغضبت سارة لنكران جميل أمتها ، وأخذت تعاملها بقسوة ، الأمر الذى جعل هاجر تصمم على الهرب من وجهها .

وكانت فى طريقها إلى مصر ، حين ظهر لها ملاك الرب ، وأمرها بالرجوع إلى مولاتها والاتضاع بين يديها .

وقال لها الرب : لأكثرن نسلك تكثيراً حتى لا يحصى لكثرته . ثم قال : ها أنت حامل وستلدين ابناً وتسمينه اسمعيل . ويكون رجلاً وحشياً ، يده على الكل ،

ويد الكل عليه . وكان إبراهيم ابن ست وثمانين سنة حين ولدت له هاجر اسمعيل .
(١٩٤٤ ق . م .) (تك ١٦)

* وهنا لا بد لنا من ملاحظة وهي ، أن ابراهيم لم يخطىء باتخاذه هاجر زوجة له ، عملاً بمشورة سارة ، لأن إتخاذ أكثر من زوجة لم يكن محرماً في العهد القديم ، ولا سيما في بعض الأحوال . ولأن الله ، وإن وعده بنسل يرثه ، لم يقل له إن هذا النسل سيكون من سارة بالذات .

وأكبر الظن بسارة أنها لم تخطىء هي كذلك ، إذ ليس في اقتراحها أية منافاة لآداب ذلك العصر السحيق .

على أن تصرفهما هذا ، ولا سيما تصرف سارة ، التي شاءت أن تتعجل تحقيق المواعد الإلهية ، وإن خلا من الخطيئة ، لا يخلو من بعض الأوجه من المؤاخذة ، لإتصافه بطابع التسرع وعدم التروي .

في تجديد العهد مع ابراهيم وعلامته :

ولما كان ابراهيم ابن تسع وتسعين سنة ، أي بعد ميلاد اسماعيل بثلاث عشرة سنة ، تجلى له الرب وقال له : « أنا الله القدير ، أسلك أمامي وكن كاملا ، فاجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك جداً جداً » (تك ١٧ : ١ و ٢)

وبعد ما أبدل له اسمه الأصلي أبرام باسم ابراهيم ، الذي يعني أبا الجمهور ، بين له مضمون العهد ، الذي سبق وقطعه معه ، ويريد الآن تجديده معه ومع نسله إلى الأبد . وهو أن يكون تعالى له ولنسله إلهاً فيعبدوه ويكرموه كما يليق بجلال عظمته . ويعطيهم هو من جهته أرض كنعان ملكاً مؤبداً ، ويهبهم حمايته ، والنصر على جميع أعدائهم .

وقد جعل تعالى علامة لهذا العهد بينه وبينهم الختان ، الذي يجب أن يجرى على كل ذكر بعد ثمانية أيام من ميلاده[١] .

---

(١) كان الختان في العهد القديم ، حسب تعليم الآباء القديسين وتعليم الكنيسة ، يرفع الخطيئة الأصلية . ولكن لا وحده ، بل مقروناً بالإيمان بالمسيح مخلص العالم المنتظر . ومن ثم كان الختان رمزاً للعمودية المسيحية .

ثم أمر الله ابراهيم أن يغير اسم ساراى امرأته باسم سارة ، مبشراً إياه بأنه سيعطيه منها ابناً ، ينبغى أن يسميه اسحق ، يكون هو الوارث له ، وهو الذى سيقيم الله معه العهد من بعده .

ولما فرغ ابراهيم من مخاطبة الله أخذ اسمعيل وجميع أهل بيته من الذكور وختنهم بحسب ما أمره الله به . وكان ابراهيم ابن تسع وتسعين سنة عند ختنه ذاته .
(تك ١٧ ...)

فى اضافة ابراهيم الملائكة الذين كانوا يمثلون الله :

وكان بعد إختتان ابراهيم بفترة وجيزة أن شرفه الله بزيارة فريدة ، هى الأولى من نوعها ، حيث تنازل تعالى فظهر له بهيئة محسوسة ، على شكل ثلاثة فتيان .

ولم يكن هؤلاء الفتيان فى الحقيقة ببشر ، بل ثلاثة ملائكة يمثلون الله ، أو بالحرى الأقانيم الإلهية الثلاثة : الآب والابن والروح القدس ، كما فسر الآباء ذلك .

ولذا فإن ابراهيم يكلم ثلاثتهم كأنه يخاطب واحداً ، كما أن واحداً و بصيغة المفرد، هو الذى يكلم ابراهيم . ويجدد له الموعد .

ففيما هو جالس بباب خبائه عند الظهيرة ، إذا به يلمح عن بعد ثلاثة رجال ، فيسرع للقائهم ، ويلح عليهم لينزلوا عليه مكرمين معززين .

و بعد أن قام نحوهم بواجب الضيافة ، على أحسن ما تكون الضيافة والكرم . إذا واحد منهم يقول لإبراهيم . سأرجع إليك فى مثل هذا الوقت من هنا إلى سنة ، ويكون لسارة امرأتك ابن .

وكانت سارة تسمع عند باب الخباء من ورائه ، فضحكت فى نفسها قائلة : أبعد فنائى يكون لى تنعم وسيدى قد شاخ . فقال الرب لإبراهيم : ما بال سارة قد ضحكت قائلة ، أيقينا ألد وقد شخت . أعلى الرب أمر عسير ؟

فأنكرت سارة أنها ضحكت لأنها خافت . فقال لها الملاك : بل ضحكت .
(تك ١٨ : ١ — ١٥)

* لقد أخطأت سارة بكذبها ، وإن أمكن عذرها بعض العذر ، بسبب شدة ما اعتراها من الذعر .

فى إنباء ابراهيم بتدمير سدوم وعمورة :

ومضى الملائكة مستقبلين وجهة سدوم ، ومضى ابراهيم معهم يشيعهم . فقال الرب : أأكتم عن ابراهيم ما أنا صانعه ، وابراهيم سيكون أمة كبيرة مقتدرة ، ويتبارك به جميع أمم الأرض ... إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر ، وخطيئتهم قد عظمت جدا .

فتقدم إبراهيم من الرب وأخذ يتضرع إليه قائلا : أتهلك البار مع الأثيم ، إن وجد خمسون باراً فى المدينة ، أفتهلكها ولا تصفح عنها . فقال الرب : إن وجدت فى سدوم خمسين باراً ، فإنى أصفح عن المكان كله من أجلهم . فأجاب ابراهيم وقال : هاءنذا قد طفقت أتكلم أمام سيدى وأنا تراب ورماد . إن نقص الخمسون باراً خمسة أفتهلك جميع المدينة . فقال لا أهلكها .

ثم عاد أيضاً وكلمه فقال : إن وجد هناك أربعون ؟ فقال : لا أفعل من أجل الأربعين ، قال : لايثقل أمام سيدى أن أتكلم ، إن وجد هناك ثلاثون ؟ فقال : لا أفعل إن وجدت هناك ثلاثين .

وطفق ابراهيم يسترسل فى الكلام أمام الرب ، حتى إنه تعالى وعده بقبول شفاعته فى المدينة ، إن وجد فى سدوم عشرة أبرار ، ولكنهم لم يوجدوا ، فرجع ابراهيم إلى خيمته ، والألم يحز فى قلبه ، من جراء فساد المدينة الشامل (تك ١٨ : ١٧ — ٣٣)

فى خراب سدوم وعمورة وخلاص لوط :

إن سكان هاتين المدينتين كانوا قد بلغوا أقصى حدود الفجور والتهتك . ولم يسلم من موجة الفساد الجارف فى سدوم ، إلا لوط وعائلته .

ونزل الملاكان فى سدوم عند لوط . وفى الصباح الباكر أخذا يلحان عليه قائلين : قم خذ امرأتك وابنتيك الموجودتين لئلا تهلك بإثم المدينة . وإذ رأيا أنه يتوانى ، أمسكا بيده وبيد امرأته وابنتيه ، وأخرجاه خارج المدينة ، وقالا له : أنج بنفسك ، لا تلتفت إلى ورائك ، ولا تقف فى البقعة كلها ، وتخلص إلى الجبل ، لئلا تهلك .

وما كاد يبلغ لوط مكان الأمان ، الذى شفعه فيه ملاك الرب ، حتى أمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من السماء . وقلب تلك المدن وكل البقعة وجميع السكان ونبت الأرض . وتلك البقعة هى التى تعرف اليوم بالبحر الميت أو بحر لوط .

أما امرأة لوط فقد خالفت أمر الله والتفتت إلى ورائها ، فصارت تمثال ملح . (تك ١٩ : ١ — ٢٦)



لوط ينجو بأهله

وصعد لوط بعد أيام إلى الجبل المعروف بجبل موآب . حيث صار أباً لشعبين كبيرين ، هما : الموآبيون والعمونيون (تك ١٩ : ٣٠ — ٣٨)

الفصل الثاني

قصة إسحق (١٩٣٠ — ١٧٥٠ ق . م .)

فى مولد إسحق ، وطرد هاجر وابنها :

وافتقد الرب سارة ، فحملت وولدت ابناً لإبراهيم سماه إسحق ، ومعنى اسم إسحق الضحك والفرح والبهجة . وكان إبراهيم ابن مئة سنة ، وسارة ابنة تسعين ، حين وُلد إسحق ابنهما . وكبر الصبى وفطم ، وصنع إبراهيم مأدبة عظيمة فى يوم فطامه .

ورأت سارة اسماعيل بن هاجر ساخراً من ابنها . فقالت لإبراهيم : أطرد هذه

الأمة وابنها ، فإن ابن هذه الأمة لا يرث مع ابنى إسحق . فساء هذا الكلام إبراهيم . فقال الله لإبراهيم : كل ما تقوله لك سارة فافعله ، لأنه باسحق يدعى لك نسل . وابن الأمة أيضاً أجعله أمة ، فإنه نسلك .

فبكر إبراهيم فى الغداة ، وصرف هاجر مع ابنها ، كما أمره الرب ، بعد ما ذودها ببعض المؤونة ، فمضت وتاهت فى برية بئر سبع ، ونفد الماء منها ، فطرحت الصبى تحت بعض الشجر ، ومضت فجلست تجاهه بعيداً ، لأنها قالت لا أرى موت الصبى ، وأخذت تجهش بالبكاء .

فناداها ملاك الرب قائلاً : يا هاجر لا تخافى ، قومى فخذى الصبى ، ولتكن يدك معه ، فإنى جاعله أمة كبيرة ، وكشف الله عن عينيها فرأت هناك بئر ماء .

وكان الله مع اسمعيل حتى كبر ، وأقام ببرية فاران . واتخذت له أمه امرأة من أرض مصر ، وهو أبو الإسمعيليين (١٩٤٤ — ١٨٠٧ ق . م) . (تك ٢١ : ١ — ٢١)



فى ضحية اسحق : (١٩٠٣ ق . م)

وشاء الله أن يمتحن إيمان إبراهيم وطاعته ، فقال له : إبراهيم ، ابراهيم . قال لبيك . قال : خذ ابنك وحيدك الذى تحبه اسحق ، وأمض إلى أرض المور يا[1] ، واصعده هناك محرقة لى .

فبكر إبراهيم فى الغداة وشد حماره ، وأخذ معه غلامين من عبيده واسحق ابنه ، وقام ومضى إلى الموضع الذى أشار له الله إليه .

وفى اليوم الثالث رفع ابراهيم طرفه فرأى الموضع من بعيد . فقال إبراهيم لغلاميه : أمكثا أنتما ههنا مع الحمار ، وأنا والغلام نمضى إلى هناك فنسجد ونرجع إليكما .



وأخذ إبراهيم حطب المحرقة وجعله على اسحق ابنه ، وأخذ هو بيده النار والسكين وذهبا كلاهما معاً .

وفى أثناء الطريق قال اسحق لإبراهيم أبيه : هذه النار والحطب ، فأين الحمل للمحرقة . فقال إبراهيم : الله يرى له الحمل للمحرقة يا بنى . ومضيا كلاهما معاً .

---

(١) ربما كانت أرض الموريا هذه ، هى المرتفع نفسه الذى بأورشليم ، المعروف بهذا الاسم ، والذى بنى عليه فيما بعد سليمان الحكيم الهيكل .

فلما أفضيا إلى الموضع الذى أشار إليه الله ، بنى إبراهيم هناك المذبح ونضد الحطب ثم أوثق اسحق وألقاه على المذبح فوق الحطب ، ومد يده فأخذ السكين ليذبح بها ابنه ، فناداه ملاك الرب من السماء قائلا إبراهيم ، إبراهيم . قال هاءنذا . قال لا تمد يدك إلى الغلام ، ولا تفعل به شيئاً ، فإنى الآن عرفت أنك متق الله ، فلم تدخر ابنك وحيدك عنى .

فرفع ابراهيم طرفه ونظر ، فإذا بكبش وراءه معتقل بقرنيه فى الدَّغل ، فعمد إبراهيم إلى الكبش وأخذه ، وأصعده محرقة بدل ابنه .

ونادى ملاك الرب ابراهيم ثانية ، وقال بنفسى أقسمت يقول الرب ، بما أنك فعلت هذا الأمر ولم تدخر ابنك وحيدك ، لأباركنك . . ويتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض ، من أجل أنك سمعت لقولى .

ثم رجع ابراهيم الى غلاميه ، فقاموا ومضوا معاً الى بئر سبع وأقام هناك . (تك ٢٢..)

* لقد كانت تضحية إبراهيم كبيرة جداً ، حينما طلب إليه أن يطرد هاجر ، ويطرد معها ابنه حبيبه اسمعيل .

إلا أن هذه التضحية الكبرى لا تكاد تذكر إزاء التضحية الجديدة . فقد طلب منه هذه المرة ، لا أن يطرد ، بل أن يقدم ضحية لله ابنه ووحيده اسحق ، ابن الموعد وموضع آماله الوحيد .

وقد أمر أن يقوم هو بنفسه بتقريب هذا القربان العجيب ، فيذبح بيده مخلوقاً هو أعز إلى نفسه ، من نفسه لذاتها .

فما أعظم طاعة إبراهيم ، وما أعظم إيمانه ومحبته لله ، فوق كل شىء وكل اعتبار !

ولذا فقد استحق بصواب أن يدعى ويكون خليل الله ، وأبا المؤمنين ، الذى ينبغى أن تتبارك به كل شعوب الأرض .

أما اسحق فكان صورة ترمز إلى المسيح المخلص ، وهو الذى استسلم لإرادة أبيه طائعاً مختاراً ، وحمل الخشبة ، وأطاع حتى الموت موت الصليب .

فى اختيار زوجة لاسحق :

وقبل أن يموت إبراهيم ، شاء أن يبحث لابنه أسحق عن زوجة فاضلة ، تمتاز قبل كل شيء بالتقوى ومخافة الله .

فدعا عبده كبير بيته ، أليعازر الدمشقى ، وإذ استحلفه بالرب أن لا يأخذ زوجة لابنه اسحق من بنات الكنعانيين ، أرسله إلى أرام النهرين ليأخذ زوجة لإسحق من أهله وعشيرته .

فأخذ اليعازر عشرة جمال ، وفى يده من كل خير مولاه ، وقام ومضى فبلغ إلى أرام عند المساء . وأناخ الجمال على بئر الماء خارج المدينة ، وكان ذلك وقت خروج المستقيات .

وصلى قائلا : « أيها الرب ، إله مولاى إبراهيم ، يسر لى اليوم ، واصنع رحمة لمولاى إبراهيم . . فليكن أن الفتاة التى أقول لها أميلى جرتك حتى أشرب ، فتقول اشرب ، وأنا أسقى جمالك أيضاً ، تكون هى التى عينتها لعبدك اسحق .

فكان قبل فراغه من صلاته أن خرجت رفقة ، التى ولدت لبتوئيل ، ابن ملكة امرأة ناحور ، أخى إبراهيم ، وجرتها على كتفها ، فنزلت إلى العين وملأت جرتها وصعدت ، فأسرع العبد للقائها ، وطلب منها أن يشرب ، فأنزلت من فورها جرتها على يدها وسقته ، ولما فرغت من سقيه ، قالت أستقى لجمالك أيضاً .

وإذ عرف أنها من عشيرة مولاه ، خر وسجد للرب ، وأسرعت رفقة وهى تحمل بعض هدايا عبد ابراهيم ، وأخبرت أهلها ، فخرج لابان أخوها لملاقاته ، وأدخله والقوم الذين معه على الرحب والسعة (تك ٢٤ : ١ — ٣٠)

فى زواج اسحق (١٨٩٠ ق . م)

ولما دخل الرجل بيت بتوئيل أبى لابان ورفقة ، ووضع الطعام بين يديه ، قال : لا آكل حتى أتكلم بكلامى . وقص عليهم أسباب مجيئه وكيف أن الله أنجح طريقه .

فأجابه لابان و بتوئيل وقالا : إن الأمر صادر من عند الرب ، فليس لنا أن نكلمك فيه بشر أو خير . هذه رفقة أمامك خذها وامض ، فتكون امرأة لابن مولاك كما قال الرب .

وأخرج العبد آنية فضة وذهب وثياباً ، فدفعها إلى رفقة ، وطرفاً أتحف بها أخاها وأمها ، وأكل وشرب هو والقوم الذين معه وباتوا .

وفى اليوم التالى قامت رفقة ، فمضت مع عبد إبراهيم إلى حبرون ، تصحبها حاضنتها وجواريها ، مزودة ببركة والديها وإخوتها .

وكان اسحق فى الصحراء قد خرج للتأمل كعادته عند إقبال المساء ، فرفع طرفه ونظر فإذا جمال أبيه مقبلة فأسرع نحوها . وإذ لمحت رفقة اسحق سألت العبد . من هذا الرجل ؟ فقال العبد : هو ابن مولاى . فأخذت النقاب واستترت به ، ونزلت عن الجمل فسلمت عليه .

وأخذ اسحق رفقة زوجة له ببركة الله وعبده إبراهيم . وأحبها وتعزى بها عن أمه التى كانت قد توفت منذ ثلاث سنوات . وكان اسحق ابن أربعين سنة حين تزوج برفقة (تك ٢٤ : ٣٠..)

فى وفاة ابراهيم (١٨٥٥ ق . م)

أما إبراهيم فتزوج بعد وفاة سارة ، امرأته وأخته من أبيه[١] ، بامرأة اسمها قطورة . ومن الواضح إنه لم يفعل ذلك ، كما يفعل فى أيامنا كثير من الشيوخ الطاعنين ، إمعاناً منهم فى طلب اللذات ، بل طلباً للنسل الصالح وانتشار ملكوت الله .

ورزق ابراهيم من قطورة جملة بنين ، منهم مدين أبو المديَنيين . وأعطى ابراهيم جميع ماله لإسحق ، أما بنى السرارى فأعطاهم هبات ، وصرفهم عن اسحق فى حياته ، إلى أرض المشرق .

وهذه أيام سنى حياة إبراهيم مئة سنة وخمس وسبعون سنة . ثم فاضت روحه ، ومات بشيبة صالحة ، وانضم إلى قومه . فدفنه اسحق واسمعيل ابناه فى مغارة المكفيلة فى حقل عفرون الحثى ، حيث دفنت سارة امرأته (تك ٢٥ : ١ — ١٠)

اسحق فى جرار ، ومواعيد الله له :

وكان فى الأرض جوع ، فترك اسحق حبرون ، وجاء وسكن فى جرار . فتجلى له

---

(١) تك ٢٠ : ١٢

هناك الرب ، وجدد له المواعيد التى وعد بها إبراهيم أباه . قال له : لا تنزل إلى مصر ، بل هذه الأرض ، وأنا أكون معك ، وأباركك لأنى لك ولنسلك سأعطى جميع هذه البلاد ، وأفى بالقسم الذى أقسمته لإبراهيم أبيك . . . ويتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض (تك ٢٦ : ١ — ٥)

وزرع اسحق أرضه فى جهة جرار ، فأصاب فى تلك السنة مئة ضعف . وباركه الرب ، فعظم شأنه . وكان يزداد عظمة من يوم إلى يوم ، إلى أن صار عظيماً جداً . وقد صارت له ماشية غنم وبقر ، وعبيد كثيرون لحسده الفلسطينيون وردموا الآبار ، التى كان قد حفرها إبراهيم فى ناحية جرار . ودعا أبيملك ، ملك جرار اسحق ورجاه أن يخرج من بينهم ، لأنه صار أقوى منهم جداً .

فرضخ اسحق لهذا الطلب الجائر ، لا ضعفاً منه ، بل لأنه كان محباً للسلام . فترك جرار إلى واديها . ولكنه عبثاً كان يحاول حفر الآبار ، التى حفرها أبوه إبراهيم وردمها الفلسطينيون ، لأنهم كانوا يخاصمونه عليها على الدوام .

فترك الجهة جميعها ، وجاء وأقام ببئر سبع ، حيث تجلى له الله من جديد وأيد مواعيده السابقة له . قال له : أنا إله إبراهيم ، لا تخف فإنى معك ، أباركك وأكثر نسلك من أجل عبدى إبراهيم (تك ٢٦ : ١٢ — ٢٥)

فى محالفة اسحق الفلسطينيين :

وكان بعد ابتعاد اسحق من جرار ، أن أرسل إليه الفلسطينيون وفداً ، كان على رأسه أبيملك نفسه وفيكول قائد جيشه ، ليبرموا معه محالفة عدم اعتداء ، لأنهم خافوا أن ينتقم منهم .

قالوا له : إننا قد رأينا أن الرب معك ، فقلنا ليكن الآن حلف بيننا وبينك ، ونقطع معك عهداً ، ألا تصنع بنا سوءاً ، كما لم نؤذك وكما صنعنا لك خيراً ، فقبل اسحق محالفتهم .

ولما انصرف هؤلاء جاء عبيده ، فأخبروه قائلين : قد وجدنا ماء ، فدعا اسحق تلك البئر « الشبع » . ومنها سميت مدينة بئر سبع ، ومعناها بئر الشبع

(تك ٢٦ : ٢٦ — ٣٣)

الفصل الثالث

قصة يعقوب وعيسو

فى مولد عيسو ويعقوب (١٨٧٠ ق . م)

ودعا اسحق إلى الرب لأجل امرأته ، لأنها كانت عاقراً ، فاستجابه الرب . وحملت رفقـة وازدحم الولدان فى جوفها ، فقالت إن كان الأمر كذلك فمالى والحمل ، ومضت لتسأل الرب .

فقال لها الرب : إن فى جوفك أمتين ، ومن أحشائك يتفرع شعبان ، شعب يقوى على شعب ، وكبير يستعبد لصغير .

فلما كملت أيام حملها إذا فى جوفها توأمان . فخرج الأول أحمر اللون ، كله كفروة شعر ، فسموه عيسو . ثم خرج أخوه ويده قابضة على عقب عيسو فدعى يعقوب . (تك ٢٥ : ٢١ — ٢٦)

فى بيع عيسو بكريته[١] لأخيه يعقوب :

وكان عيسو رجلا عارفاً بالصيد ، رجلا بريا . أما يعقوب فكان رجلا محباً للحياة الوادعة ، يقيم بالخيام ويهتم بتربية الماشية . فأحب اسحق عيسو لأنه بكره ، ولأنه كان يأكل من صيده ، وأحبت رفقة يعقوب .

وطبخ يعقوب مرة عدساً ، فرأى عيسو عدس يعقوب ، وكان قادماً من الصحراء وقد أعياه التعب ، فقال أطعمنى من هذا الأحمر . فقال له يعقوب : بعنى اليوم بكريتك فقال عيسو دون تبصر : إنما أنا صائر إلى الموت ، فمالى والبكرية . وحلف ليعقوب بذلك وباعه بكريته .

فأعطى يعقوب لعيسو خبزاً وطبيخاً من العدس ، فأكل وشرب ، وقام ومضى إلى سبيله كأنه لم يحدث شىء يستحق الذكر (تك ٢٥ : ٢٧..)

---

(١) البكرية والبكورية هى الحقوق والخاصية . ومن حقوق البكرية قديماً الرئاسة على الإخوة ، ونوال حصة مضاعفة من الميراث .

فى بركة اسحق ليعقوب :

وحدث لما شاخ اسحق وكلت عيناه عن النظر ، أنه دعا إليه عيسو وقال له : خذ جعبتك وقوسك وأخرج إلى الصحراء ، وصد لى صيداً ، تعده لى طعاماً ، فآكل وأباركك قبل أن أموت .

وكانت رفقة سامعة ، حين قال اسحق لعيسو هذا الكلام ، فأخبرت ابنها يعقوب وقالت له : والآن يا بنى اسمع لقولى فيما آمرك به . أمض إلى الغنم ، وخذ لى جديين جيدين ، فأصلحهما ألواناً لأبيك كما يحب ، فتحضرها إليه ويأكل ، لكى يباركك قبل موته .

فخاف يعقوب فى أول الأمر أن يقدم على مثل هذا العمل ، الذى لا يخلو من الغش والخديعة ، ولكنه بعد توكيدات أمه أنه خال من كل مسؤولية ، أطاع أمرها . ولعله ظن صنيعه حسناً ، ولا سيما أن عيسو كان قد باعه حقوق البكرية .

ولما أعدت رفقة الأطعمة التى كان أبوه يحبها ، ألبسته ثياب عيسو الفاخرة ، وكست يديه وعنقه بجلد أحد الجديين .

فدخل يعقوب على أبيه حاملا الأطعمة ، ودعاه ليأكل مدعياً أنه عيسو . فتعجب اسحق من سرعة إنجازه ما أمره به ، ولكى يتحقق سر ذلك طلب منه أن يجسه . فتقدم يعقوب إلى اسحق أبيه فجسه وقال : الصوت صوت يعقوب ، ولكن اليدين يدا عيسو ، ولم يثبته .

وبعد ما أكل قال له : تقدم قبلنى يا بنى . فتقدم وقبله فاشتم رائحة ثيابه وباركه وقال : يعطيك الله من ندى السماء ، ومن دسم الأرض يكثر لك الحنطة والخمر . وتخدمك الأمم ، وتسجد لك القبائل . سيداً تكون لإخوتك ، ولك بنو أمك يسجدون ، لاعنك ملعون ، ومباركك مبارك .

فلما فرغ اسحق من بركته ليعقوب ، وخرج هذا من بين يديه ، إذا عيسو يدخل بالألوان التى أعدها ، ويطلب هو أيضاً البركة . فقال اسحق وهو يرتعش : فمن ذاك الذى صاد صيداً فأتانى به ، وأكلت منه ، قبل أن تجىء وباركته . نعم ، ومباركاً يكون .

فلما سمع عيسو ذلك صرخ صرخة عظيمة ومرة جداً . وقال لأبيه باركنى أنا أيضاً يا أبت . فقال له اسحق : قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك .

ولكن بما أن عيسو كان يلح فى طلب البركة ، باركه اسحق تهدئة لخاطره . إلا أنها لم تكن البركة التى منحت ليعقوب ، والتى بها صار وارثاً لمواعيد الرب الصادقة ورأساً لشعب الله الخاص ، وجداً للمسيح المخلص (تك ٢٧..)

فى هرب يعقوب الى ما بين النهرين (١٧٩٣ ق . م)

وحنق عيسو على يعقوب أخيه ، بسبب البركة التى اختلسها منه مكراً ، وتوعده بالقتل . فجزعت رفقة على ابنها يعقوب حبيبها ، وأوصته بأن يهرب إلى ما بين النهرين عند خاله لابان فى حاران ، حتى إذا سكن غضب عيسو استدعته من هناك . (تك ٢٧ : ٤١..)

ودعا اسحق يعقوب ابنه قبل سفره وأوصاه قائلاً : لا تأخذ امرأة من بنات كنعان . بل من بنات خالك لابان . والله القدير يباركك وينميك ويكثرك وتكون جمهور شعوب ، ويعطيك بركة إبراهيم لك ولنسلك من بعدك ، لترث أرض غربتك التى وهبها الله لإبراهيم (تك ٢٨ : ١ — ٤)

فى سلم يعقوب :

وخرج يعقوب من بئر سبع مزوداً ببركة أبويه ، قاصداً حاران . فصادف فى طريقه مكاناً منعزلا بات فيه ، لأن الشمس كانت قد غابت . فأخذ حجراً ووضعه تحت رأسه ونام .

فرأى فى الحلم كأن سلماً منصوبة على الأرض ورأسها فى السماء ، وملائكة الله تصعد وتنزل عليها . وإذا الرب واقف على السلم يقول له : أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله اسحق . الأرض التى نائم أنت عليها ، لك أعطيها ولنسلك . ويكون نسلك كتراب الأرض . ويتبارك بك وبنسلك ، أى بالمسيح ، جميع قبائل الأرض .

فاستيقظ يعقوب من نومه فزعاً وقال : إن الرب لفى هذا الموضع وأنا لم أعلم . وبكر فى الغداة وأخذ الحجر ، الذى وضعه تحت رأسه ، وأقامه نصباً للرب بعد أن مسحه بالدهن .



سلم يعقوب

ونذر يعقوب نذراً للرب . بأن يعشر جميع أمواله . إن أنجح الله طريقه وأرجعه إلى بيت أبيه سالماً . وسمى يعقوب ذلك الموضع « بيت إيل » أى بيت الله (تك ٢٨ : ١٠)

* إن السلم التى رآها يعقوب ترمز إلى المسيح المخلص ، الوسيط بين الناس والله ، والذى لا يبلغ أحد إلى الحياة من دونه . ثم إلى عناية الله الأبوية ، التى تسهر على الجميع ، ولا سيما على الأبرار بنى الله . أما الملائكة الصاعدون والنازلون فهم خدام هذه العناية الإلهية ، المنفذون لمقاصدها وترتيباتها الخلاصية بالبشر .

يعقوب فى بيت لابان وزواجه ببنات خاله :

ولما بلغ يعقوب ما بين النهرين ، أرض بنى المشرق ، رأى ثلاثة قطعان من الغنم رابضة بجانب بئر ، كان الرعاة يسقون منها الماشية . وكان حجر عظيم يغطى فم البئر .

فدنا يعقوب من الرعاة وسألهم : من أين أنتم أيها الإخوان . قالوا من حاران . قال : أتعرفون لابان بن ناحور . قالوا نعرفه . . . وهذه راحيل ابنته آتية مع غنم أبيها .

فلما رأى يعقوب راحيل بنت لابان خاله ، تقدم فدحرج الحجر عن البئر ، وسقى غنم لابان خاله .

وقبل يعقوب راحيل مخبراً إياها أنه ابن رفقة ، فأسرعت راحيل تبشر أباها بقدوم ابن أخته . فلما سمع لابان ذلك بادر للقائه وعانقه وقبله ، وأتى به إلى منزله .

وكان بعد شهر من مجىء يعقوب أن قال له لابان : إذا كنت أخى أفتخدمنى مجاناً ، أخبرنى ما أجرتك . فطلب يعقوب من لابان أن يعطيه راحيل زوجة ، يخدمه بها سبع سنوات . فقبل لابان ، وخدم يعقوب براحيل سبع سنين ، بدت له كأنها أيام يسيرة من شدة حبه لها .

ولما كملت أيام خدمته ، خدعه لابان ، فزف إليه بمكر ليئة ابنته الكبرى . ثم عاد بعد أسبوع فزوجه راحيل أيضاً ، على أن يخدمه سبع سنين أخرى . ورأى الرب أن ليئة مكروهة فوهبها البنين . أما راحيل فكانت عاقراً (تك ٢٩..)

فى مولد أبناء يعقوب وزواجه من السرارى :

وإذ رأت راحيل أنها لم تلد غارت من أختها ، فأخذت بلهة أمتها وأعطتها زوجة ليعقوب . فولدت بلهة : داناً ونفتالى .

وولدت ليئة رأوبين بكر يعقوب ، ثم شمعون ، ولاوى ، ويهوذا . وتوقفت عن الولادة . فلما رأت ليئة ذلك أخذت هى أيضاً أمتها زلفة وأعطتها ليعقوب امرأة . فولدت ليعقوب : جاداً وأشير .

وعادت ليئة فولدت ليعقوب ابناً خامساً سمته « يساكر » ، وسادساً سمته « زبولون » . وذكر الله راحيل وسمع دعاءها ، فولدت ليعقوب ابناً سمته يوسف . (تك ٣٠ : ١ — ٢٤) . وولدت فيما بعد ابناً آخر سماه أبوه بنيامين .

وعلى هذا النحو كان ليعقوب أربع زوجات ، رزقه الله منهن اثنى عشر ولداً ، وبنتاً واحدة « دينة » وهى من ليئة .

* وكان زواج يعقوب من أربع نساء بسماح خاص من الله ، لأنه تعالى أراد أن يكونّ له ، فى مدة وجيزة نسبياً ، شعباً خاصاً لا يحصى عدده .

فى عودة يعقوب الى أرضه وطنه (١٧٧٣ ق . م)

وكان بسبب يعقوب أن بارك الله لابان فأثرى جداً . ومن أجل ذلك لم يشأ أن

يصرفه إلى أرضه وبيت أبيه ، بل جعل له حصة من نتاج الغنم كأجرة له . (تك ٣٠ : ٢٧)

فبارك الله فى نصيب يعقوب فأيسر جداً جداً . وصارت له غنم كثيرة ، وإماء وعبيد ، وجمال وحمير (تك ٣٠ : ٤٣)

فحسده بنو لابان وقالوا : قد أخذ يعقوب جميع ما لأبينا . ورأى يعقوب وجه لابان ، فإذا معاملته له قد تغيرت تماماً عما كانت عليه من قبل . فقرر بالتشاور مع راحيل وليئة امرأتيه على الهرب من وجه لابان أبيهما . ولا سيما بعد ما أوحى له الله فى الحلم بذلك قائلا : أنا إله بيت إيل ، حيث مسحت النصب ونذرت لى نذراً . والآن قم فاخرج من هذه الأرض ، وارجع إلى أرض مولدك .

فقام يعقوب وجمع ماشيته ، وجميع ماله وكل مقتناه ، وهرب هو و بنوه ونساؤه إلى أرض كنعان . فتعقبه لابان مسيرة سبعة أيام فأدركه فى جبل جلعاد . ولـكنه لم يستطع أن يمسه بسوء أو حتى يغتصبه على الرجوع معه ، لأن الله كان قد ظهر له فى الحلم ، وأمره بأن لا يكلمه بخير أو شر .

وكان عند هرب يعقوب أن سرقت راحيل ، دون علم زوجها ، ترافيم (أصنام) أبيها الذهبية . فقال لابان معاتباً يعقوب : والآن لمَ سرقت آلهتى . فأجاب يعقوب بأنه لم يسرقها وسمح له بأن يفتشه .

فأخذت راحيل الأصنام وجعلتها فى رحل الجمل وجلست عليها . ففتش لابان فى كل مكان فلم يجدها . فاشتد إذ ذاك غيظ يعقوب ، وأخذ بدوره يعتب على لابان سوء معاملته له مدة عشرين سنة ، خدمه فيها بكل أمانة .

و بعد ما اصطلحا بكر لابان فى الصباح فقبل بنيه و بناته ، و باركهم وانصرف إلى حاران (تك ٣١..)

واستأنف يعقوب سفره إلى بيت أبيه . فوافته ملائكة الله . فقال لما رآهم هذا جند الله . وسمى ذلك الموضوع « محنائيم » (تك ٣٢ : ١ — ٢)

فى التقاء يعقوب وعيسو :

ولما بلغ يعقوب نهر الأردن على حدود أرض كنعان ، عند مخاضة يبوق ، خيَّم هناك .

وتذكر يعقوب كيف أنه أخذ بمكر بكرية عيسو أخيه ، فأرسل إليه من يخبره بقدومه ، لعله بذلك يتفادى انتقامه ويحظى برضاه .

ولكن الرسل ما لبثوا أن رجعوا إليه . وأخبروه قائلين : إن أخاك قادم لملتقاك ومعه أربع مئة رجل . فخاف جداً . فقسم رجاله والمال الذى معه إلى فرقتين قائلا : إن صادف عيسو إحدى الفرق فأهلكها نجت الأخرى .

ولم يكتف بما كانت تمليه عليه الحكمة البشرية من حزم وحيلة ، حسبما كان يتطلب الأمر . بل أخذ يتضرع بتذلل إلى الله . لكى ينقذه من أيدى أخيه . فاستجاب الله دعاءه . فأرسل له ملاكاً يشدد عزائمه .

وفرز يعقوب هدية لعيسو من كل ما جاء به من فدان أرام : من كل رؤوس الماشية . ودفعها لعبيده . قطيعاً قطيعاً . قائلا : تقدموا أمامى . وابقوا مسافة بين قطيع وقطيع .

وأوصى كلا منهم قائلاً : إن صادفك عيسو وسألك لمن هذه . فقل لعبدك يعقوب . هى هدية مرسلة إلى سيدى عيسو . وها هو ذا آت وراءنا (تك ٣٢ : ١ ــ ٢٣)

فى مصارعة يعقوب ملاك الرب :

وقام يعقوب ، بعد ما تقدمته الهدية ، وأخذ بنيه الأحد عشر ونساءه وعبرهم وادى يبوق [١] ، وعبر كل ما كان له .

وبقى يعقوب وحده من الناحية الأخرى من الوادى ، فصارعه ملاك ظهر له بهيئة بشرية مصارعة الند للند ، إلى مطلع الفجر ، فكانت الغلبة ليعقوب .

ورأى الملاك أن قد حانت الساعة ليظهر ليعقوب أنه إنما يصارع كائناً تفوق قدرته البشر ، ولذا فقد لمس حق وركه فانخلع عن مكانه ، فأخذ يعقوب يعرج .

---

(١) هو أحد السيول الكبرى التى تصب ماءها فى نهر الأردن أو الشريعة .

وإذ عرف يعقوب أنه ملاك الرب ، أمسك بتلابيبه ولم يطلقه حتى باركه . وقال الملاك ليعقوب مشدداً إياه : لا يكون اسمك يعقوب فيما بعد ، بل إسرائيل (أى مصارع الله) ، لأنك إذ رأست عند الله ، فعلى الناس أيضاً تستظهر .

وسمى يعقوب ذلك المكان « فنوئيل » أى وجه الله ، قائلاً : إنى رأيت الله وجهاً إلى وجه ، ونجت نفسى من كل خوف (تك ٣٢ : ٢٤ — ٣٢)

فى اصطلاح يعقوب وعيسو :

وبعد ما انصرف الملاك ، وكان ذلك عند شروق الشمس ، رفع يعقوب طرفه فإذا عيسو مقبل . فنظم ذويه صفوفاً لاستقبال عيسو أخيه ، وتقدم هو وسجد إلى الأرض سبع مرات حتى دنا منه . فبادر عيسو وتلقاه وعانقه وألقى بنفسه على عنقه وقبله ، وبكيا طويلاً .

ورفض عيسو فى أول الأمر رفضاً باتاً قبول أى شىء من أخيه ، ولكنه إضطر تحت إلحاح يعقوب أن يقبل هديته . وبذا تم الصلح بينهما .

ثم رجع عيسو فى طريقه إلى سعير ، ورحل يعقوب مع ذويه مطمئناً إلى سكوت ، فبنى له هناك بيتاً ، وصنع مظلات لماشيته ، ولذلك سمى الموضع « سكوت » أى المظلات . (تك ٣٣..)

فى خطف دينة :

ورحل يعقوب من سكوت بعد أن شفى تماماً من عرجه ، وأتى فضرب خباءه قبالة مدينة شكيم ، فى قطعة من الأرض إبتاعها بمئة نعجة . وقد أقام هناك أيضاً مذبحاً للرب .

وكان عيد بمدينة شكيم فخرجت دينة بنت يعقوب لتتفرج وتنظر بنات البلد ، فرآها ابن والى المدينة فتعلقت نفسه بها ، فاختطفها وأذلها .

ولما علم إخوة دينة بتدنيس أختهم تآمروا معاً على الانتقام من أهل البلدة جميعاً ، فاحتالوا عليهم ، وقتلوهم بحد السيف غيلة ، وغنموا جميع ثروتهم ، وسبوا النساء والأطفال . (تك ٣٤..)

فتألم يعقوب جداً لهذا الحادث المروع ، وهاله نفاق أبنائه ، وكيف إنهم إغتالوا أهل المدينة ظلماً . وإذ خاف من انتقام البلدان المجاورة ، قام فصعد بأمر الرب إلى « بيت إيل »

وقد جمع ، قبل صعوده إلى بيت إيل ، من ذويه كل الأقراط ، ودمى الأصنام المختلفة ، وطمرها تحت شجرة البطم ، التي عند شكيم .

ورحل من بيت إيل ، وبينما هو على نحو ميل من أفراتة وهى بيت لحم ، ولدت راحيل بنيامين ، وعسرت ولادتها فماتت . فدفنها يعقوب هناك ببكاء كثير ، ونصب نصباً تذكارياً على قبرها (تك ٣٥..)

فى موت اسحق وافتراق عيسو عن يعقوب (١٧٥٠ ق . م)

وقدم يعقوب على اسحق أبيه ، فى قرية أربع وهى حبرون[١] . وكان ذلك بعد مضى ثلاثون سنة من هربه إلى ما بين النهرين .

وبعد ثلاث عشرة سنة من رجوع يعقوب إلى أرض كنعان ، فاضت روح اسحق ، ومات وانضم إلى قومه ، شيخاً قد شبع من الحياة ، وله من العمر مئة وثمانين سنة . فدفنه عيسو ويعقوب ابناه فى مغارة المكفيلة ، حيث دفن من قبل إبراهيم وسارة (تك ٣٥ : ٢٧ — ٢٩)

وكانت هذه آخر مرة يجتمع فيها يعقوب بعيسو ، لأن هـذا الأخير بعد موت اسحق ، أخذ نساءه وبنيه وبناته وكل نفس فى بيته ، وماشيته وكل بهائمه وسائر مقتناه ، وانتقل إلى أرض أخرى من وجه يعقوب أخيه ، إلى جبل سعير[٢] . لأن ما لهما كان أكثر من أن يقيما معاً .

وعيسو هو أدوم أبو الأدوميين (تك ٣٦..)

---

(١) وتسمى اليوم أيضاً الخليل ، مدينة معروفة بجنوب فلسطين .

(٢) جبل بفلسطين جنوب غربى البحر الميت .

الفصل الرابع

قصة يوسف[١]

أبناء يعقوب :

ورزق يعقوب إثنى عشر ولداً . هم : بنوليئة : رأوبين . وشمعون . ولاوى . ويهوذا . ويساكر . وزبولون . وبنوراحيل : يوسف وبنيامين . وبنو بلهة أمة راحيل : دان ونفتالى . وبنوزلفة أمة ليئة : جاد وأشير .

وقد أعطى يعقوب حق البكرية ليهوذا . ولم يعطها لرأوبين ابنه البكر . لارتكاب رأوبين إثماً فظيماً فى حق أبيه[٢] . كما حرم منهما شمعون ولاوى لتلوث سمعتهما فى حادث هلاك أهل شكيم . حيث أبديا من الوحشية . وتهييج إخوتهما على الفتك بهؤلاء السكان ما يفوق كل وصف .

فى محبة يعقوب ليوسف :

وأحب يعقوب يوسف على جميع بنيه ، لا لأنه ابن شيخوخته فحسب ، بل ولأنه كان متحلياً منذ نعومة أظفاره بأجمل الأخلاق . فكان أكثر إخوته دعة وملازمة لأبيه ، فى حين إن الآخرين كانوا يتهربون من مراقبته الأبوية .

وكان من فرط حبه له ، أن صنع له قيصاً موشى ، كما اعتاد أن يلبس أبناء الأشراف ، الأمر الذى أثار غيرة وحسد إخوته .

وقد تحول هـذا الحسد إلى بغض وكراهية شديدة . بحيث لم يعودوا يطيقون أن يكلموه بسلام . ولا سيما بعد أن أخبر أباه بريبة شنيعة ارتكبها بعضهم .

---

(١) يسرد علينا سفر التكوين قصة يوسف فى ١٣ فصلا . وذلك من الفصل السابع والثلاثين إلى آخر السفر ، باستثناء الفصل ٣٨

وما من شك فى أن قصة يوسف هى من أجمل وأروع القصص الأدبية العالمية ، وقد اعترف بجمالها وقوتها ، وذوقها الرفيع مشاهير رجال الأدب فى كل عصر وجيل .

(٢) تك ٣٥ : ٢٢

فى أحلام يوسف :

وقد بلغ هذا الحسد أقصاه ، عند ما أخذ يقص عليهم أحلامه ، تلك التى كانت تنذر بما أعد له الله من رفعة وعظمة .

قال لهم : رأيت كأننا نحزم حزماً ، فإذا حزمتى وقفت ثم انتصبت ، فأحاطت بها حزمكم وسجدت لها . فقال له إخوته بغيظ : ألعلك تملك علينا أو تتسلط علينا ـ وازدادوا حنقاً عليه لأجل أحلامه وكلامه .

ومرة أخرى قص عليهم حلماً آخر ، قال : رأيت حلماً أيضاً كأن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لى . و بينا كان إخوته بسبب ذلك يزدادون حنقاً عليه ـ كان أبوه يحفظ هذا الكلام فى قلبه و يتأمله .

يوسف فى الجب :

واتفق أن ذهب إخوة يوسف إلى مكان قاص ليرعوا غنم أبيهم . فقال إسرائيل ليوسف : هوذا إخوتك يرعون عند شكيم . هلم أبعثك إليهم لتتفقد سلامتهم وسلامة الغنم .

فمضى يوسف فى إثر إخوته يبحث عنهم ، من قرية إلى قرية ، ومن مكان إلى آخر ، حتى وجدهم فى دوثائين . فلما رأوه من بعيد ، قبل أن يقرب منهم ، تشاوروا معاً ـ عليه ليقتلوه . فقد قال بعضهم لبعض : ها هو ذا صاحب الأحلام مقبل ، والآن تعالوا نقتله ونطرحه فى بعض الآبار ، ونقول إن وحشاً ضارياً افترسه ، ونرى ما يكون من أحلامه .

ولكن رأو بين عارض فى قتله ، فاكتفوا بطرحه فى البئر حياً ، بعد أن نزعوا عنه قميصه الموشى . وكانت البئر فارغة لا ماء فيها .

فى بيع يوسف للاسمعيليين (١٧٦٢ ق . م)

وجلسوا بعد ما طرحوه فى الجب يأكلون ويلعبون . ونظروا فإذا بقافلة من التجار الاسمعيليين مقبلة ، و جمالهم محملة بأصناف شتى من الأطياب والعقاقير ، قاصدين وجهة مصر .

فقال يهوذا لإخوته : ما الفائدة من أن نقتل أخانا ونخفي دمه . تعالوا نبيعه للاسمعيليين ، ولا تكن أيدينا عليه ، لأنه أخونا ولحمنا . فعمل جميعهم بنصيحة يهوذا . فجذبوا يوسف من البئر . وباعوه للاسمعيليين بعشرين من الفضة . فأتى هؤلاء بيوسف إلى مصر .



وأخذ اخوة يوسف قميصه الموشى ، وذبحوا تيساً من المعز وغمسوا القميص فى الدم ، وبعثوا به إلى أبيهم قائلين : وجدنا هذا ، أثبته أقميص ابنك هو أم لا ؟

فأثبته . وقال قميص ابنى . وحش ضار أكله ، افترس يوسف إفتراساً . ثم قام فمزق ثيابه حزناً وأسى على فقدان أعز أبنائه وأحبهم إلى نفسه . فجاء جميع بنيه وبناته يعزونه فأبى أن يتعزى . وقال إنى أنزل إلى إبنى نائحاً إلى الجحيم[1] . وبكاه أياماً كثيرة .

---

(١) الجحيم : هى ذلك المكان الذى كانت تذهب اليه نفوس الأبرار بعد الموت ، قبل مجىء المسيح المخلص .

يوسف فى بيت فوطيفار :

وباع الاسمعيليون يوسف فى مصر لفوطيفار ، رئيس جند فرعون . وكان الرب مع يوسف ، فكان رجلاً ناجحاً فى جميع أعماله . فوثق به سيده فجعله قيماً على بيته ، وجميع ما كان له جعله فى يد يوسف .

وكان بعد عشر سنوات من خدمة فوطيفار مولاه بكل أمانة ، أن إمرأة مولاه طمحت عينها إليه ، ولا سيما أن يوسف كان قد أصبح فى هذه الفترة ، شاباً فى مقتبل العمر ، مكتمل الصحة والجمال .

فأخذت تغريه بكل الوسائل ليرتكب الخطيئة معها . إلا أن هذا الشاب العفيف كان يقاومها على الدوام ، وقد قال لها بأنفة : كيف أصنع هذه السيئة العظيمة وأخطىء إلى الله .

فأمسكت يوماً بطرف ردائه ، فترك يوسف الرداء بين يديها ، وهرب خارجاً . فاتخذت من ذلك حجة لتظهره أمام الخدم وزوجها بمظهر المعتدى عليها .

وصدق فوطيفار كلام زوجته ، فأخذ يوسف وأودعه السجن ، حيث كان أعداء الملك معتقلين .

يوسف يفسر حلم خادمى فرعون :

ونال يوسف حظوة فى عينى رئيس الحصن ، وهو فوطيفار نفسه المتقدم ذكره . هذا لما تحقق براءة يوسف جعل فى يده أمر تدبير جميع السجناء ، وإدارة الحصن جميعه ، ولم يخلصه حفظاً على كرامته وسمعة أهل بيته !

وحدث أن رئيس سقاة فرعون ورئيس الخبازين أجرما إلى سيدهما الملك ، فسخط عليهما وجعلهما فى حبس بيت رئيس الحصن . فوكل فوطيفار بهما يوسف ، فأخذ يهتم بأمرهما .

وكان بعد مدة أن دخل عليهما يوسف صباح أحد الأيام ، فإذا هما قلقان ، فسألهما السبب . فقالا له : رأينا حلما وليس لنا من يفسره .

فقال يوسف : أليس أن لله التعابير ، فيهب من يشاء معرفة وتفسير الأمور الغامضة . قصا على حلمكما .

فقص رئيس السقاة حلمه ، فقال : رأيت فى منامى كأن بين يدى جفنة كرم . وفى الجفنة ثلاثة أغصان . وكأنى بها قد أفرعت وأزهرت ونضجت عناقيدها . فكنت أعصر العنب فى كأس فرعون وأقدمها له .

فقال له يوسف : أبشر فإنه بعد ثلاثة أيام يرد إليك فرعون منزلتك ، فتناول فرعون كأسه كالعادة الأولى . فأسألك أن تذكرنى أمامه بالخير .

ولما سمع ذلك رئيس الخبازين تشجع ، وأخذ بدوره يقص على يوسف حلمه . قال : رأيت أنا أيضاً فى الحلم كأن ثلاث سلال من الدقيق الفاخر على رأسى . وفى السلة العليا من جميع طعام فرعون ، مما يصنعه الخباز ، والطير تأكله من السلة من فوق رأسى .

فقال له يوسف : بعد ثلاثة أيام يقطع فرعون رأسك ، ويعلقك على خشبة ، فتأكل الطيور الجارحة لحمك .

وكان فى اليوم الثالث ، يوم مولد فرعون ، أنه صنع مأدبة لجميع عبيده . فتذكر رئيس سقاته ورئيس الخبازين ، فأمر برد الأول إلى وظيفته ، أما رئيس الخبازين فأمر بقطع رأسه وتعليقه على الخشبة ، حسب تفسير يوسف لهما . ونسى رئيس السقاة جميل يوسف عليه ولم يذكره .

فى أحلام فرعون :

ولكن الله الذى يشمل الجميع بعنايته ، دون أن ينسى أحداً إطلاقاً ، لم ينس صفيه يوسف ، هذا الذى إختاره ليعد الطريق أمام شعبه وابنه إسرائيل فى مصر .

وكان بعد سنتين أن رأى فرعون حلماً ملأه خوفاً واضطراباً . فقد رأى فى الحلم كأنه واقف على ضفاف النيل ، فإذا بسبع بقرات حسان المنظر سمان خرجت منه ، وجعلت ترعى فى المرج . ثم خرجت منه سبع بقرات أخر قباح المنظر عجاف ، إبتلعت البقرات السمان . فاستيقظ فرعون .

ثم عاد فنام لحلم ثانية ، فرأى كأن سبع سنابل قد نبتت فى ساق واحدة ، وهى سمان وجياد . ثم رأى سبع سنابل دقاق ، لفحتها الريح نبتت وراءها ، فابتلعت السنابل الدقاق السنابل السمينة الممتلئة .

ولما أسفر الصباح أرسل فرعون ، فدعا جميع سحرة مصر وقص عليهم حلمه ، فلم يقدر أحد أن يفسر له . وإذ تذكر رئيس السقاة يوسف أقر بذنبه ، وقال : لما كنت بالحبس أنا ورئيس الخبازين حلم كلانا حلماً فى ليلة واحدة ، وكان هناك غلام عبرانى عبد لرئيس الشرط قصصنا عليه كل منا حلمه ، وكما فسر لنا كان ، فردنى الملك إلى رتبتى وذاك علقه .

فى تفسير يوسف أحلام فرعون :

وما أن سمع فرعون ذلك من رئيس السقاة حتى أمر من فوره إحضار يوسف فأسرعوا به من السجن ، فحلق شعره وأبدل ثيابه ، ودخل على الملك . فقال له فرعون : قد رأيت حلماً ولم يكن من يفسره . وقد سمعت عنك أنك إذا سمعت حلماً تعبره . فأجاب يوسف وقال : لا بعلمى ، بل الله يجيب فرعون بالسلام .

وأخذ من ثم يفسر حلم الملك قائلاً له : حلم فرعون واحد . إن ما سيصنعه الله شاء أن يخبر به فرعون مقدماً : السبع البقرات الجياد هى سبع سنين . والسبع السنابل الحسان هى سبع سنين . فالحلم واحد . والسبع البقرات الدقاق القباح الصاعدة وراءها هى سبع سنين . وكذلك السبع السنابل الفارغة التى لفحتها الريح .

ستأتيكم سبع سنين فيها شبع عظيم فى جميع أرض مصر . وتأتيكم من بعدها سبع سنى جوع فلا يتبين أثر ذلك الشبع فى الأرض ، لأن الجوع سيكون شديداً جداً .

والآن لينظر فرعون له رجلاً حكيماً يقيمه على أرض مصر ، حتى يوكل وكلاء على الأرض ، ويأخذ خمس غلة الأرض فى سبع سنى الشبع فيجمع الوكلاء كل طعام سنى الخير ، ويخزنوا غلالها ، ذخيرة لسبع سنى الجوع ، لئلا ينقرض أهل الأرض بالمجاعة :

فى اختيار يوسف والياً على مصر (١٧٤٩ ق . م)

وكان لمشورة يوسف هذه ، أحسن وقع فى نفس فرعون وعبيده . فقال فرعون ليوسف : بعد ما عرفك الله هـذا كله ، فليس حكيم مثلك . أنت تكون على بيتى ، وإلى كلمتك ينقاد كل شعبى ، ولا أمتاز عنك إلا بالعرش . أنظر ، ها إنى قد أقمتك على جميع أرض مصر .



ولساعته خلع عليه شارات الحكم والسلطان ، وأركبه مركبته الثانية ، ونادوا به والياً على جميع أرض مصر . وكان يوسف ، لما تقلد مقاليد الحكم ، ابن ثلاثين سنة . وأول عمل قام به ، إنه أخذ يطوف جميع أقاليم المملكة طولها وعرضها ، متفقداً أحوال البلاد والسكان .

فى سنى الشبع والجوع

وبدأت سنى الشبع كما تنبأ يوسف ، فكان رخاء لم ير مثله من قبل . فجمع يوسف الغلال الفائضة كما تجمع الرمال ، وخزنها فى مخازن بنيت خصيصاً لذلك بأمر يوسف : غلال كل مدينة فى المخازن التابعة لها ، لتكون طعاماً لها فى أيام الضيق .

وبدأت سنو المجاعة فاشتدت وطأة القحط حتى عمت البلاد جميعاً . فجاء المصريون يطلبون القوت من فرعون ، فأرسلهم إلى يوسف قائلاً : انطلقوا إلى يوسف . ففتح يوسف الأهراء وباعهم من القمح مؤونتهم .

ولما نفدت فضتهم أعطوه فى مقابل الطعام ، وذلك على التوالى ، ماشيتهم فأنفسهم

فأرضهم . وبذا أصبح فرعون سيداً فعلياً على جميع أرض مصر . إلا أن يوسف ترك للشعب استعمال أراضيهم ، على أن يعطوا فرعون خمس محصولاتها سنوياً .

فى مجيء إخوة يوسف إلى مصر :

وقد عمت موجة الجوع البلدان المجاورة لمصر ، وأدركت الحاجة آل إسرائيل ، فقال يعقوب لبنيه : ما بالكم تنظرون بعضكم إلى بعض ، إنى سمعت أن القوت موجود فى مصر ، فاهبطوا إلى هناك واشتروا لنا ، فنحيا ولا نموت .

فهبط إخوة يوسف جميعهم إلى مصر ، ما عدا بنيامين ، فقد أبقاه أبوه عنده ، مخافة أن يلحقه سوء فى الطريق . ومثلوا بين يدى يوسف وسجدوا له ، فتذكر يوسف الأحلام ، التى حلمها بهم ، لأنه عرفهم ، أما هم فلم يعرفوه .

وتنكر يوسف لإخوته ، وكلمهم بجفاء ، لعلهم يثوبون إلى رشدهم فيعترفون بذنبهم قال لهم : إنما أنتم جواسيس ، جئتم لتجسوا ثغور الأرض ، قالوا : لا يا سيدى ، إنما جاء عبيدك ليبتاعوا طعاماً . نحن كلنا بنو رجل واحد فى أرض كنعان . وعبيدك إثنا عشر أخاً . هوذا الصغير اليوم عند أبينا ، والواحد مفقود .

قال لهم : كلا ، بل الأمر كما قلت لكم ، أنتم جواسيس . والآن إن كنتم صادقين ، فابعثوا واحداً منكم يأتى بأخيكم . وأمر بهم فزجوا فى السجن ثلاثة أيام ، ريثما تتفق كلمتهم فى الأمر .

وفى اليوم الثالث قال لهم : إصنعوا هذا فتحيوا ، إنى أتقى الله . إن كنتم سليمى القلوب فواحد منكم يقيَّد كرهينة ، ولينطلق الباقون بالقمح إلى بيوتكم ، وأتونى بأخيكم الصغير .

وإذ رأوا منه هذه المعاملة الشاذة ، التى لا يمكن تبريرها بشرياً ، شرعوا يقولون بعضهم لبعض : إنا لآثمون فى حق أخينا ، إذ رأينا نفسه فى شدة ، وقد استرحمنا فلم نسمع له ، لذلك نالتنا هذه الشدة .

وما أن سمع يوسف توبيخهم هذا بعضهم لبعض حتى كادت تخنقه الدموع ، فتحول عنهم وبكى . ثم عاد فأخذ من بينهم شمعون ، فقيَّده بمشهدهم .

فى رجوع إخوة يوسف إلى بلادهم :

وأمر يوسف أن تملأ جواليقهم حنطة ، وترد فضتهم ، فضة كل واحد فى جوالقه وأن يعطوا زاداً للطريق . فصنع لهم كذلك .

فسافر إخوة يوسف . ولما جاءوا يعقوب أباهم قصوا عليه جميع ما نالهم . وأخبروه أنه لا بد من استصحاب بنيامين معهم إلى مصر ، إن شاءوا أن يفتدوا أخاهم المعتقل ، ويبتاعوا لهم طعاماً مرة أخرى .

وبينما هم يفرغون أوعيتهم إذا بصرّة فضة كل منهم فى جوالقه ، فاستطارت قلوبهم خوفاً هم وأبوهم .

فى سفر إخوة يوسف الثانى إلى مصر :

وعارض يعقوب فى أول الأمر معارضة شديدة فى إرسال بنيامين مع إخوته ، ولكنه تحت ضغط الضرورة والمجاعة التى كانت تتهددهم جميعاً بالفناء ، إضطر أن يرسله معهم ، ولا سيما بعد أن تقدم يهوذا ضامناً له .

وأوصى يعقوب بنيه أن يأخذوا معهم هديةً للوالى ، شيئاً من البلَسان والدِّبس ، ونكَعة ، ولاذاناً[1] وفستقاً ولوزاً ، ومن أطيب فاكهة الأرض ، لكسب عطفه . وأن يأخذوا فضة أخرى مع الفضة المردودة .

فقاموا ومعهم الهدية وانحدروا إلى مصر . وإذ رأى يوسف بنيامين إطمأن قلبه ، وأمر قيم بيته أن يُعد الطعام ليأكلوا معه عند الظهر . إلا أنهم خافوا جداً عند ما أدخلوا بيت يوسف ، وقالوا : إنما نحن مدخلون بسبب الفضة التى رُدت إلينا .

وكلموا قيم البيت فى أمر ذلك ، فطمأنهم قائلاً : لا تخافوا ، إن إلهكم رزقكم ذلك الكنز فى جواليقكم . وأما فضتكم فقد صارت عندى . وأخرج لساعته إليهم شمعون .

ولما دخل يوسف عليهم عند ساعة الغداء ، قاموا فسجدوا له ، وقدموا له الهدية .

---

(١) البلسان : نوع من الشجر يستخرج منه دهن عطر الرائحة . والدبس : عسل النحل . والنكعة واللاذان : نوعان من العلوك . والعِلك : كل صمغ يمضغ ويُلاك .

فأخذ يهش فيهم ويتبسط مستفسراً عن سلامتهم وسلامة أبيهم . وإذ رأى بنيامين أخاه من أبيه وأمه تحركت فيه أحشاؤه حناناً ، فتنحى عنهم وبكى .

ثم غسل وجهه وخرج إليهم وتجلد ، وأمر بتقديم الطعام . وبعد ما أجلسوا كل فى مرتبته ، الأمر الذى أدهشهم جداً ، قدمت لهم عدة ألوان من الطعام وافرة ، إلا أن حصة بنيامين كانت خمسة أضعاف حصة الواحد منهم .

فى كأس يوسف :

وأمر يوسف قيم بيته بعد الغداء ، بإعداد جواليق القوم ، وأن يضع فى عدل كل منهم فضته ، وأن يخفى فى عدل الصغير كأسه الفضية . ففعل القيم بما أمر به .

وانطلق إخوة يوسف ، وما كادوا يبتعدون عن المدينـة ، حتى دعا يوسف كبير أمنائه ، وقال له : جد فى أثر القوم ، فإذا أدركتهم فقل لهم ، لِمَ كافأتمونا بالخير شراً ، لقد سرقتم كأس الفضة التى يشرب بها مولاى ويتفاءل . فبئس ما صنعتم .

فلحقهم ووبخهم بشدة كما أوصاه سيده . فقال له الإخوة مرتعدين : حاش لعبيدك أن يصنعوا مثل هذه السيئة . وإنك لتعلم أمانتنا ، وكيف أننا رددنا الفضة التى وجدناها فى أفواه أعدالنا . فكيف نسرق الآن من بيت مولاك فضة أو ذهباً . من وجدت معه الـكأس فليقتل .

قالوا ذلك وبادروا لحطوا الأحمال ، وفتح كل عدله ففتشهم فإذا بالـكأس فى عدل بنيامين . فمزقوا ثيابهم ، ودون أن ينطقوا ببنت شفة ، رجعوا مع الأمين قافلين إلى المدينة .

ولما مثلوا بين يدى يوسف انطرحوا على قدميه . فقال لهم : كيف تجسرون على سرقة جامى الفضى الذى أتفاءل به . فقال يهوذا : ما نقول لسيدى ، وبماذا نتكلم ، وبماذا نتبرأ . إن ذنبنا لواضح . ها نحن عبيد لسيدى .

قال : حاش لى أن أصنع هذا ، بل مَن وُجد الجام معه ، هو يكون لى عبداً ، وأنتم تصعدون إلى أبيكم بسلام .

فأخذ يهوذا يتوسل إليه متذللاً ، لـكى يطلق سبيل الغلام ، رحمةً بأبيهم الشيخ ، معلناً عن استعداده الصادق أنه يقبل أن يستعبد هو بدلاً عن هذا الأخ الضعيف .



في إظهار يوسف نفسه لاخوته :

وإذ رأى يوسف مثل هذا الاستعداد الطيب في إخوته ، وكيف أنهم يضحون بأرواحهم رخيصة في سبيل محبتهم بعضهم لبعض ، ومحبتهم لأبيهم ، وأنهم عادوا عن طريقهم الشرير — طريق الحسد والأنانية والأثرة — عودة نصوحاً ، لم يطق أن يكتم سره عليهم بعد .

وأمر ، فأخرجوا جميع الحاضرين ، حينئذ أطلق صوته بالبكاء ، وقال لهم : أنا يوسف . أحي أبي بعد ؟ ولم يقدر إخوته أن يجيبوه ، لأنهم إرتاعوا . فقال يوسف لإخوته : تقدموا الىَّ . فتقدموا . فقال : أنا يوسف أخوكم الذي بعتموه إلى مصر . والآن لا تأسفوا ، ولا يشق عليكم أنكم بعتموني ، فإن الله قد بعثني أمامكم لأحييكم . فبادروا واذهبوا إلى أبي ، وقولوا له : كذا قال ابنك يوسف . قد جعلني الله سيداً للمصريين . هلمَّ إلى ولا تقف . فتقيم في أرض جاسان[1] ، وتكون قريباً مني ، أنت وبنوك

(١) لا يُعرف على وجه التحقيق موقع هذه الأرض ، وإن اتفق العلماء على أنها كانت شرق الدلتا .

و بنو بنيك ، وغنمك و بقرك ، لئلا تفنى أنت وأهلك وجميع مالك ، إذ قد بقى خمس سنين من المجاعة .

ثم ألقى بنفسه على عنق بنيامين أخيه وقبله و بكيا معاً ، وقبّل سائر إخوته و بكى معهم . و بعد أن اطمأنت نفوسهم أخذوا يبادلونه الحديث دون أدنى اضطراب أو خوف .

و بلغ الخبر بيت فرعون . وقيل : « قد جاء إخوة يوسف » ، فحسن ذلك فى عيني فرعون . فأمر بأن تعطى لإخوته عجلات لإحضار أبيهم وكل ذويهم ، وأموالهم من أرض كنعان .

فى سفر يعقوب إلى مصر (١٧٤٠ ق . م)

وصرف يوسف إخوته ، فمضوا مزودين بالعجلات والهدايا الثمينة . ولما وصلوا أرض كنعان أخبروا يعقوب أباهم قائلين : إن يوسف لا يزال حياً يرزق ، وهو أيضاً سيد جميع أرض مصر . فجمد قلبه ولم يصدقهم فى بادىء الأمر .

ولـكنه لما رأى العجلات والهدايا التى أرسلها يوسف له ، انتعشت روحه . وقال: حسبى أن يوسف ابنى لا يزال باقياً ، أمضى وأراه قبل أن أموت .

فارتحل يعقوب بجميع ماله إلى مصر ، هو وبنوه وبنو بنيه ، و بناته و بنات بنيه ، أى فى ما يقرب من سبعين نفساً ، وفى أثناء السفر بالقرب من بئر سبع كلّم الله إسرائيل ليلا فى الحلم قائلا : يعقوب ، يعقوب . قال : هاءنذا . قال : أنا الله إله أبيك ، لا تخف أن تهبط مصر ، فإنى سأجعلك ثمَّ أمّة عظيمة . أنا أهبط معك إلى مصر ، وأنا أصعدك ، ويوسف هو يغمض عينيك .فاستأنف يعقوب مطمئناً سفره إلى مصر .

فى استقبال يوسف وترحيبه بيعقوب أبيه :

و بعث يعقوب يهوذا قدامه إلى يوسف ، ليدله على أرض جاسان . و إذ استقر يعقوب وآله فى تلك الأرض ، شدّ يوسف على مركبته وصعد لاستقبال أبيه والترحيب به فى أرض جاسان نفسها .

وما أن لمحه حتى نزل عن مركبته : وألقى بنفسه على عنقه ، و بكيا طويلا فرحاً

وتعزية . فقال إسرائيل ليوسف : إنى أموت الآن قرير العين بعد أن أرانى الله وجهك ، ولأنى أتركك حياً بعدى .

وأخبر يوسف فرعون بقدوم جميع آل يعقوب ، واختار خمسة من إخوته فمثلهم بين يدى فرعون . ثم أدخل يعقوب أباه فمثله بين يديه . ورأى فرعون ، فإذا به أمام شيخ جليل ، مهيب الطلعة ، فسأله قائلا : كم أيام سنى حياتك .

فقال : أيام سنى غربتى مئة وثلاثون سنة : قليلة ورديئة . ولم تبلغ أيام سنى حياة آبائى . وبارك يعقوب فرعون وخرج من بين يديه .

وأعطى فرعون[1] أرض جاسان هبة ثابتة لآل إسرائيل . وهى من أطيب الأراضى المصرية تربة ، ومن أجودها فى اعتدال جوها .

فى سنى يعقوب الأخيرة :

وعاش يعقوب ، بعد هبوطه إلى أرض مصر ، بأرض جاسان سبع عشرة سنة . فكان كل عمره مئة وسبعاً وأربعين سنة .

ولما أحس بدنو أجله دعا يوسف ، وأوصاه أن يصنع إليه رحمة أخيرة ، فلا يدفنه فى مصر ، بل فى أرض كنعان فى مقبرة آبائه فحلف يوسف له بذلك .

وأحضر يوسف ابنيه منسَّى وإفرائيم لأبيه ، ليباركهما ويتبناهما قبل موته . فجعل منسَّى ابنه البكر عن يمين يعقوب ، وإفرائيم عن يساره . ولكن يعقوب خالف بين يديه ، فوضع يمناه على إفرائيم ويسراه على منسَّى .

فساء ذلك يوسف ، وحاول أن يغير من وضع يديه ، فأبى قائلاً : قد عرفت يا بنى ، قد عرفت : إن هذا أيضاً يكون شعباً ، وهو أيضاً يعظم ، ولكن أخاه الأصغر يعظم أكثر منه .

وبعد ما باركهما ، قال ليوسف : بك يبارك إسرائيل ويقولون يجعلك الله مثل إفرائيم ومنسَّى .

---

(١) هو أحد الملوك الرعاة ، الذين حكموا مصر دهراً من الزمن . والرعاة أو الهكسوس هم من أصل سامى . كانوا أهل كرم وسخاء .

فى موت يعقوب و بركته لبنيه (١٧٢٣ ق . م)

ودعا يعقوب قبل وفاته بنيه الاثنى عشر ، وباركهم جميعاً ، كل بركة خاصة ، تنبيء بمصير السبط الذى يرأسه .

تستحق الذكر البركة التى منحها ليهوذا . قال له : يهوذا إياك يحمد إخوتك . يهوذا شبل أسد . جثم وربض كأسد . لا يزول صولجان من يهوذا ، ومشترع من صلبه ، حتى يأتى شيلو (أى المسيح) وتطيعه الشعوب .

وأوصى يعقوب بنيه قائلاً : أنا منضم إلى قومى فادفنونى مع آبائى ، فى المغارة التى فى حقل عفرون الحثى ، والتى اشتراها إبراهيم مع الحقل لتكون قبراً له .

ولما فرغ من بركته ووصيته لبنيه ، ضم رجليه على سريره ، وفاضت روحه مملوءة نعمة واستحقاقاً ، وصار إلى قومه .

وأمر يوسف أطباءه بتحنيط يعقوب أبيـه ، فحنطوه . ولما انقضت أيام بكائه ، نقله هو وإخوته فى موكب عظيم إلى أرض كنعان . وأقاموا له هناك مناحة عظيمة ، ودفنوه حسب وصيته ، فى المغارة التى دفن فيها إبراهيم واسحق . ثم عادوا إلى مصر .

وعد آخر بارسال المسيح المخلص :

« لا يزول صولجان من يهوذا ، ومشترع من صلبه ، حتى يأتى شيلو (أى المسيح) وتطيعه الشعوب » (تك ٤٩ : ١٠)

إن الله كان قد أوحى لإبراهيم واسحق بأن المسيح مخلص العالم يولد من ذريتهما . وقد جدّد تعالى هذا الوعد عينه ليعقوب مراراً .

إلا أنه تعالى ، قبل وفاة هذا البطريرك العظيم ، خاتمة ذلك الثالوث من الآباء القديسين ، إبراهيم واسحق ويعقوب ، شاء أن يُوحى للعالم بشيء جديد ، ألا وهو تحديد الزمن الذى سيولد فيه المسيح المخلص وعلامته .

فبحسب نبوة يعقوب هذه ، وهى غاية فى الوضوح ، يأتى المسيح عندما يخرج صولجان الملك من يهوذا ، أى عندما يحكم اليهود حاكم أجنبى غريب عنهم .

الأمر الذى تحقق بجلاء ، عندما استولى على دفة الحكم هيرودس الملك ، الذى لم يكن يهودياً أصلاً ، بل أدومياً . وهو الملك الذى ولد فى عهده سيدنا يسوع المسيح .

فى سنى يوسف الأخيرة وموته (١٦٦٩ ق . م)

ولما رأى إخوة يوسف أن أباهم قد مات خافوا جداً ، وقالوا لعل يوسف ينتقم منا . فأرسلوا يقولون له : إن أباك أوصانا قبل موته وقال ، كذا تقولون ليوسف ، إغتفر لإخوتك ذنبهم وخطيئتهم .

ثم جاءوا فوقعوا بين يديه ، وقالوا : ها نحن عبيد لك . فقال لهم يوسف ، لا تخافوا ، أنتم نويتم بى شراً ، والله نوى بى خيراً . وعزاهم ولاطف قلوبهم .

وبقى يوسف فى الحكم حتى موته . ولما دنا أجله دعا بنى إسرائيل ، وقال لهم : أنا مائت والله سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض ، إلى الأرض التى أقسم عليها لإبراهيم واسحق ويعقوب . فمتى إفتقدكم الله ، فاصعدوا عظامى من هنا .

ومات يوسف وهو ابن مئة وعشر سنين . فحنطوه وجعل فى تابوت .



الفصل الخامس

قصـــة أيوب[1]

فى رخاء أيوب :

ولمع فى الفترة التى أقامها بنو إسرائيل بمصر ، نجم رجل فى أرض عوص[2] ، اسمه أيوب . وكان هذا الرجل سليم القلب مستقيماً ، يتقى الله ويحفظ وصاياه .

وبارك الله أيوب فرزقه بسعة المال والبنين . فكان له سبعة أولاد وثلاث بنات . وكانت قنيته من الماشية : سبعة آلاف رأس من الغنم ، وثلاثة آلاف من الإبل ، وخمس مئة زوج من البقر لحراثة الأرض وخمس مئة أتان . وله من العبيد والإماء جيش جرار .

فكان بسبب هذه الثروة الطائلة ، وحكمته وفضائله ، أعظم رجالات بنى المشرق إطلاقاً فى الشهرة والاقتدار .

وكانت المحبة والوئام رائد بنيه . فكانوا يصنعون من وقت لآخر مأدبة فى بيت كل منهم ، ويبعثون فيدعون أخواتهم ليشاركنهم فى أفراحهم ومسراتهم البريئة .

فإذا تم مدار أيام المأدبة ، كان أيوب يبعث فيطهرهم ، وذلك ليعودهم على مخافة الله . ثم يبكر فى الغد ، فيصعد المحرقات : محرقة عن كل فرد منهم ، قائلاً : لعلّ بنىّ خطئوا ، ولو بالفكر ، إلى الله .

---

(١) يتضمن سفر أيوب ، علاوة على قصة هذا البار ، الذى لا يتزعزع إيمانه بالله ، سواء أكان فى أعظم ثراء أم فى أكبر شقاء ، يتضمن جدالا فى « مشكلة آلام الصديق » فى قالب شعرى غنائى ، يجعله مضارعا لأجل القصائد المعروفة ، فى عالم الشعر والبيان ، عند جميع الشعوب .

بيد أن سفر أيوب لا يحل المشكلة نظرياً ، بل عملياً فقط . إذ ينتهى بفعل إيمان أمام سر الحكمة الإلهية ، التى لا يليق بالعقل البشرى الضعيف أن يسبر غورها ، بل حسبه أن يعرف فقط أن عينى الله وعنايته ، التى تسهر على الجميع ، تسهر بنوع خاص على أحبائه وبنيــه ، ولا سيما الذين هم فى حال التجربة . (عن كتاب الحق المبين بتصرف) .

(٢) كانت « عوص » هــذه من أشهر مدن أدوم . وتقع مقاطعة أدوم ، وهى التى استوطنها بنو عيسو ، بين أرض كنعان ومصر . ومن ذلك يبدو أن أيوب كان من ذرية عيسو .

فى بلايا أيوب :

وحدث أن الشيطان لما رأى إستقامة أيوب وفضيلته ، أكلته نار الغيرة والحسد ، لأنه عدو كل خير . فشاء أن يورده مورد التهلكة والعطب ، إن إستطاع إلى ذلك سبيلاً .

ورأى الله رغبة الشيطان الشديدة فى تجربة أيوب ، فقال له : إنك عبثاً تحاول إغواء عبدى أيوب . فإنه ليس له مثيل فى الأرض ، فى تمسكه بأهداب الفضيلة وشريعة ربه : فهو الرجل المستقيم السليم القلب ، الذى يتقى الله ويحيد عن الشر .

فأجاب الشيطان وقال للرب : أمجاناً يتقى أيوب الرب ، ألم تحفظه دائماً من كل نائبة وغائلة ، فأقمت حوله ، وحول بيته ، وحول كل شىء له ، سياجاً منيعاً من عنايتك وحمايتك ، وقد باركت كل أعمال يديه ، فانتشرت فى الأرض أمواله . ولكن أبسط يدك ، وامسس جميع أمواله ، فتنظر ألا يجدف عليك دون حياء .

فقال الرب للشيطان ، قابلاً تحديه : ها إن كل شىء له فى يدك . فأذن لك بإيقاع ما تشاء من ضرر بجميع ما تملك يداه . ولكن إليه لا تمدد يدك .

وخرج الشيطان من أمام وجه الرب . وما هى إلا أيام ، وقد صب اللعين جام غضبه على ذلك البار ، بضربات فى منتهى القسوة ، مبيداً الحرث والنسل ، تاركاً إياه صفر اليدين . فقال أيوب دون أدنى تذمر : عرياناً خرجت من جوف أمى وعرياناً أعود . الرب أعطى ، والرب أخذ ، فليكن اسم الرب مباركاً .

وبذا كان النصر لهذا البار ، الذى لم يخدم الله ، كما كان يدعى الدجال ، من أجل خير من الخيرات ، بل من أجل الله ذاته .

فقال الله للشيطان : ألم أقل لك ، إنك تحاول عبثاً إغواء عبدى أيوب . ألا أنظر ها إنه ، رغم الضربات القاسية التى أنزلتها به ، لا يزال معتصماً بسلامة قلبه .

فأجاب الشيطان وقال للرب : جلد بجلد . وكل ما يحوزه الإنسان يبذله عن نفسه . ولكن أبسط يدك ، وأمسس عظمه ولحمه ، فتنظر ألا يجدف عليك ، دون أدنى خجل .

فقال الرب للشيطان ، قابلا تحديه مرة ثانية : ها إنه فى يدك ، فاصنع به ما تشاء ، ولكن احتفظ بنفسه .

فخرج الشيطان وضرب أيوب بقرح ، من نوع البرص الخبيث ، فى كل بدنه ، من باطن قدمه إلى قمة رأسه . فنفر الناس جميعاً من حوله ، ولجأ هو إلى كومة من الرماد والقاذورات ، بعيداً عن الأنظار . ولم يملك من علاج لدائه ، سوى حك قروحه بقطعة خذف قذرة !

فقال معيروه ، ورددت قولهم إمرأته : أ إلى الآن أنت معتصم بسلامتك . جدّف على الله ومت . فقال أيوب ، وقد استسلم لأمر ربه استسلاماً كاملا : أنقبل الخير من الله ، ولا نقبل منه الشر . وبذا خزى الشيطان وباء بالفشل ، وتمجد الله تمجيداً كبيراً .

فى أصدقاء أيوب ومحاورتهم له :

وكان لأيوب ثلاثة أصدقاء ، وهم : أليفاز ، و بلدد ، وصوفر . هولاء لما سمعوا بما حل بصديقهم من مصائب جسيمة ، جاءوا اليه ليرثوا لحاله و يعزوه . و إذ رأوه من بعيد لم يعرفوه ، لأن قروحه كانت قد شوهت معالم وجهه وكل جسمه . فرفعوا أصواتهم بالبكاء ، وشق كل منهم رداءه ، مشاطرة منهم أحزان صديقهم .

وكان بعد سكوت طويل ، دام سبعة أيام وسبع ليال ، وهم جلوس معه على الأرض ، دون أن يجسر أحدهم فيبادره بالكلام ، لأنهم رأوا أن كآبته شديدة جداً . كان بعد ذلك أن فتح أيوب فاه بالشكوى . ففرطت منه بعض الكلمات الغريبة . كلمات عزاها أصدقاؤه إلى عدم الصبر ، والتذمر على الله ، فى حين أنها كانت تعبر فقط عن شدة آلامه وكربه .

وعلى ذلك فقد أخذوا فى محاجته على التتابع فى ثلاث محاورات ، دارت بينه و بين كل منهم ، كانت الغلبة فيها لأيوب . ولذا فى المحاورة الثالثة بعد ما تكلم أليفاز ، لم يضف بلدد إلا كلمات قليلة لم تف بالمقام ، ولم يفه صوفر ببنت شفة .

وقد اتهم ثلاثتهم فى المحاورات الثلاث ، صديقهم أيوب ، بأن سبب بلاياه ، إنما هو خطايا خفية ارتكبها فى السر . لأن الله ، فيما ارتأوا ، لايبتلى إلا الخطاة . و إذن فليندم على خطاياه ، لعل الله يتوب عليه و يعفى عنه .

وقد وجهوا اليه هـذه التهمة فى بادىء الأمر من وجه خفى وضمناً ، ثم بصريح الـكلام .

أما أيوب فبعد ما فنـد حججهم جميعها ببراهين قاطعة ، أخذ من جهته يدافع عن نفسه ، ويعلن عالياً بره و براءته ، وذلك استناداً إلى شهادة ضميره . ولـكن يؤخذ عليه ، أنه فى حرارة الحوار ، كثيراً ما انزلق لسانه ببعض الألفاظ ، التى تعد من الجهـل فى صاحبها ، ولا سيما إذا دار البحث فيما يتعلق بتصرف الحكمة والعناية الإلهية .

ويشترك فى الحوار ، آخر الـكل ، صديق شاب يدعى أليهو . فيقول ، ولـكن دون أن يبرر أيوب : إن الله كثيراً ما يرسل بلاياه تأديباً لأصفيائه ، وتنقية نفوسهم من الشوائب الطفيفة ، التى تلحق كل خليقة لا محالة . إلا أن تعبيره عن هذه الحقيقة الثابتة ركيك غير واضح .

فى ظهور الله ومكافأة أيوب :

وأخيراً أجاب الرب أيوب من العاصفة مؤنباً إياه على جسارته ، لأنه بفضول فاق كل اعتدال ، طفق يناقش فى أسرار الله الخفية ، وتدبير عنايته الإلهية ، التى لا يمكن إدراكها .

فاقتنع أيوب بجهله ، معترفاً بأنه قال ما قال دون روية كافيـة ، وأن الله تعالى الحـكمة والقدرة السامية التى لا تدرك . ولذا فهو يطلب بتواضع الصفح عن جسارته .

فقد قال للرب معتذراً : قد علمت أنك قادر على كل أمر ، فلا يصعب عليك مراد . إنى قد نطقت بما لا أدرك ، بمعجزات تفوقنى ولا أعلمها . فلذلك أنكر مقالتى ، وأندم فى التراب والرماد متذللاً .

و بعد ما كلم الرب أيوب وصفح عنه ، قال لأليفاز : إن غضبى قد اضطرم عليك وعلى كلا صاحبيك ، لأنكم لم تتكلموا أمامى بحسب الحق كعبدى أيوب . فقد قالوا هراء ودون الحق : إن الله لا يبتلى إلا الخطأة ، وإن أيوب بالتالى ، رغم كل الظواهر ما هو إلا منافق كأى منافق آخر .

فى حين إن أيوب دافع عن وجه الحق مبيناً إن الله لحكمة تفوق إدراكنا ، يبتلى لا الأشرار فحسب ، بل والأخيار أيضاً ، كما فى حادثه هو بالذات .

وأمر الرب أليفاز وزميليه ، أن يأخذوا لهم سبعة ثيران وسبعة كباش ، ويذهبوا إلى أيوب ليصعد محرقة عنهم ويصلى من أجلهم ، فيقبل تعالى شفاعته فيهم و يغفر لهم خطيئتهم . فصنع الثلاثة الأصدقاء كما أمرهم الرب ، وقبل الله شفاعة أيوب ، فتجاوز عن حماقتهم .

***

و بارك الرب آخرة أيوب أكثر من أولاه ، فكان له ضعف ما كان له قبلاً : من الغنم أربعة عشر ألفاً ، ومن الإبل ستة آلاف ، وألف زوج من البقر ، وألف أتان .

ورزقه تعالى عوضاً عن بنيه و بناته الذين ماتوا ، سبعة بنين وثلاث بنات أخر .

وعاش أيوب بعد هذه الحوادث مئة وأربعين سنة ، ورأى حفدته إلى أربعة أجيال . ثم مات شيخاً قد شبع من الأيام .

الفصل السادس

قصة موسى وتخليصه بنى اسرائيل
من عبودية المصريين

فى عبودية بنى اسرائيل :

و بارك الله بنى اسرائيل شعبه الخاص فى مصر ، ذلك الشعب الذى اختاره تعالى ليحفظ فيه و به معرفة الله الحقيقية ، والإيمان بالمسيح المخلص الموعود . باركهم فنموا وكثروا وعظموا جداً جداً . وامتلأت منهم أرض جاسان .

وحدث على مر السنين والأيام أن انتقل الملك إلى أسرة جديدة[1] . ونسى يوسف وفضله . ورأى السادة الجدد إطراد نمو الجالية العبرية ، فثار حسدهم ، وثار قلقهم ، فتآمروا على إعناتها بالأثقال ، لعلهم يحدون من نموها وازدهارها .

---

(١) أسرة وطنية من أصل مصرى صميم ، هى الأسرة الثامنة عشرة . قامت فطردت الهكسوس الأجانب . ومن ثم فلا عجب أن تكون الأسرة الجديدة ، التى آل اليها الملك ، مناوئة للغرباء أمثال بنى اسرائيل .

ولكن النتيجة جاءت عكسية ، لأنهم كانوا كلما اضطهدوهم إزدادوا ، تحت تأثير بركة إلههم ، نمواً وانتشاراً . حتى أن المصريين تخوفوا أيما تخوف من قبل هذا الشعب الوادع ، الذى أضحى وكأنى به مملكة صغيرة داخل مملكة .

فشرعوا يستخدمونهم بكل عنف ويمررون حياتهم بعبودية شاقة ، فى صنع الطوب اللبن ، وقطع الأحجار ، و بناء المدن والحصون ، وفى سائر أعمال الأرض . وقد أقاموا عليهم وكلاء قساة يسخرونهم فى جميع هذه الأعمال الشاقة ، دون أن يعطوهم الكفاف من القوت ، أو يسمحوا لهم بأى ترفيه .

ولما لم تنجح هذه الحيلة فى الحد من نمو بنى اسرائيل المطرد ، أصدر فرعون أمراً بربرياً فى منتهى القسوة ، بأن يقتل كل طفل ذكر يولد للعبرانيين ويطرح فى النيل .
(خر ١ : ٠)



فى مولد موسى وخلاصه من المياه (١٦٠٥ ق . م)

وولدت امرأة من بنات إسرائيل ، من آل لاوى ، اسمها يوكابد ، مولوداً ذكراً ، غاية فى الحسن والجمال . وقد توسمت هذه الأم فى هذا الجمال الباهر ، ما ينبىء بمستقبل باهر عظيم لابنها ثمرة أحشائها .

فخبأته ثلاثة أشهر . ولما لم تستطع أن تخفيه بعد ، أخذت له سفطاً من البردى ، وطلته بالحمر والزفت ، وجعلت طفلها فيه ، ووضعته بين الخيزوران على حافة نهر النيل . لعل الله يرسل من ينقذه و يعتنى بتربيته .

وفيما كانت مريم ، أخت الطفل واقفة من بعيد ، تنظر ما يقع له ، إذا ابنة فرعون يحيط بها جواريها تنزل إلى النهر لتغتسل . و إذ رأت السفط بين الخيزوران ، أرسلت إحدى جواريها فجاءت به . ولما فتحته رأت الطفل ، فإذا هو صبى يبكى ، فرقت له وقالت : هذا من أولاد العبرانيين .

فخرجت مريم من مخبأها ، وتقدمت فى شىء من الشجاعة ، وقالت لابنة فرعون : هل أذهب وأدعو لك مرضعاً من العبرانيات ترضع لك الولد . فقالت لها : إذهبى . فانطلقت الفتاة كالسهم لتبشر أمها وتدعوها على عجل . فقالت ابنة فرعون لأم موسى : خذى هذا الصبى وأرضعيه لى . وأنا أعطيك أجرتك فاستردت الأم المحظوظة ابنها فلذة كبدها ، ولا أحد يدرى بسرها .

ولما كبر الصبى جاءت به إلى ابنة فرعون ، فاتخذته ابناً لها ، وسمته موسى ، أى المنتشل من المياه (خر ٢ : ١ — ١٠)

وكان كل ذلك بتدبير العناية الإلهية ، التى شاءت أن يرضع موسى مع لبن أمه ، معرفة الدين الحقيقى ، والحب لأبناء جلدته وإخوته . و يأخذ عن البلاط الملكى الحكمة والسلطة والجاه .

فى هرب موسى إلى مديَن :

ومكث موسى لا يفارق البلاط الملكى حتى سن الأربعين . فنبغ فى جميع علوم وحكمة المصريين . وخرج يوماً يتفقد حال إخوته من آل إسرائيل ، وينظر أثقالهم .

فإذا برجل مصرى يضرب رجلا عبرانياً ظلماً . فثارت الحمية فى نفس موسى ، وانتصر للمظلوم ، فضرب المصرى ضربة قاضية قتلته ، فطمره فى الرمل ، وهو يظن أن أحداً لم يره .

ونما الخبر إلى مسامع فرعون ، فأرسل فى طلب موسى ليقتله ، فهرب موسى من

وجهه . وجاء وأقام بأرض مدين ، فى شبه جزيرة سيناء ، حيث تعرف برجل يدعى يترو ، أعطاه إحدى بناته المدعوة صفورة زوجة له . وكان يترو أو رعوئيل كاهناً على مدينة مدين (خر ٢ : ١١ . .)

فى دعوة موسى وإرساله لخلاص بنى إسرائيل :

وكان بعد أربعين سنة من إقامة موسى بمدين ، أن ظهر له الله عند سفح جبل حوريب ، وكان يرعى غنم يتروحميه . وقد تجلى له تعالى فى عليقة تتوقد بالنار دون أن تحترق .

فقال موسى فى نفسه ، أميل وأنظر هذا المنظر العظيم . ما بال العليقة لا تحترق . فناداه الله من العليقة ، وقال : لا تَدْنُ إلى ههنا ، إخلع نعليك من رجليك ، فإن الموضع الذى أنت قائم فيه أرض مقدسة .

أنا إله أبيك : إله إبراهيم وإله اسحق وإله يعقوب . إنى قد نظرت إلى مذلة شعبى الذين بمصر ، وسمعت صراخهم من قِبَل مسخريهم وعلمت بكربهم فنزلت لأنقذهم من أيدى المصريين ، وأخرجهم من تلك الأرض إلى أرض طيبة واسعة ، إلى أرض تدر لبناً وعسلاً . فالآن تعال أبعثك إلى فرعون ، وأخرج شعبى بنى إسرائيل من مصر .

فقال موسى ، وقد ستر وجهه ، خوفاً من أن ينظر إلى الله : من أنا حتى أمضى إلى فرعون وأخرج بنى إسرائيل من مصر . قال : أنا أكون معك . وهذه علامة لك على أنى أنا بعثتك : إذا أخرجت الشعب من مصر تعبدون الله على هذا الجبل .

فقال موسى لله : ها أنا سائر إلى بنى إسرائيل ، فأقول لهم : إله آبائكم بعثنى إليكم . فإن قالوا لى : ما اسمه ؟ فماذا أقول لهم ؟ فأجاب الله موسى وقال : أنا هو الكائن[1] . هكذا تقول لبنى إسرائيل : الكائن أرسلنى إليكم (خر ٣ . .)

غير أن موسى كان لا يزال متردداً فى قبول هذه الدعوة والرسالة الشاقة ، ولا سيما إنه خاف ألا يصدقوه وألا يسمعوا له . فأعطاه الله لتشجيعه هذه العلامة ، قال له :

---

(١) وباللغة العبرية « يهوه » أى « الكائن ، والمكوِّن ، والذى به كل يكون ويتحرك » .

ما تلك التى بيدك ؟ قال عصاً . قال ألقها على الأرض . فألقاها على الأرض ، فصارت حية . فهرب موسى مذعوراً . فقال له الرب : أمدد يدك وامسك بذنبها . فمدّ يده فأمسكها فعادت عصاً .

ثم أعطاه آية ثانية وثالثة ، وقال له : إن لم يصدقوا آية ، يصدقون الأخرى ! لكن موسى طفق يتضرع إلى الله لكى يعفيه من هذه المهمة ، قال : رحماك يارب ، إنى لست أحسن الكلام ، إنى بطىء النطق وثقيل اللسان . فقال له : إمضِ وأكون معك ، وأعلمك ما تتكلم به . قال موسى : رحماك يارب ، إبعث من أنت باعثه .

فاتقد غضب الرب على موسى ، ولكن كما يتقد غضب رئيس على أحد مرؤوسيه لأنه يرفض منصباً ما تواضعاً منه . ولذا فقد تنازل تعالى وأعطاه هرون أخاه رفيقاً له ، قائلاً : خاطب أخاك هرون ، والقِ كلامى هذا فى فيه ، فإنى أكون معك ومعه ، وأعلمكما ما تصنعانه ، وهو يخاطب الشعب عنك ، ويكون لك فماً ، وأنت تكون له بمثابة الله (خر ٤ : ١ — ١٨)

فى عودة موسى إلى مصر :

وقال الرب لموسى : إمض فارجع إلى مصر ، فإنه قد مات جميع القوم ، الذين كانوا يطلبون نفسك . فقام لساعته وودّع يترو حماه ، وسافر إلى مصر يصحبه هرون ، وكان قد خرج للقائه فى البرية بأمر الرب عند جبل الله .

ولما وصلا إلى مصر ، جمعا جميع شيوخ بنى إسرائيل ، وخاطبهم هرون بجميع الكلام الذى كلم الرب به موسى ، وصنع أمامهم ، وبحضور جميع الشعب ، الآيات التى رآها موسى فى حوريب ، فآمنوا جميعهم .

وإذ سمعوا أن الرب قد افتقد بنى إسرائيل ونظر إلى مذلتهم ، خروا وسجدوا . وكان موسى إذ ذاك ابن ثمانين سنة ، وهرون ابن ثلاث وثمانين (خر ٤ : ١٩)

موسى وهرون فى حضرة فرعون :

ثم دخل موسى وهرون على فرعون[1] ، وقالا له : هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبى لكى يعيدوا لى فى البرية .

فأجاب فرعون بكل كبرياء وغطرسة : من هو الرب فاسمع له وأطلق إسرائيل ، لا أعرف الرب ، ولا أطلق إسرائيل !

قالا : نذهب مسيرة ثلاثة أيام فى البرية ونذبح للرب إلهنا ، لئلا يصيبنا بوباء أو سيف ، فقال لهما فرعون : لماذا يا موسى وهرون تعطلان الشعب عن أعمالهم ، هوذا قد كثر عددهم ، فكيف إذا أرحتماهم من الأعمال .

وكانت نتيجة هذه المقابلة الأولى لفرعون ، أن ثُقّل على الشعب وأسىء اليه ، فتذمر جميع الشعب على موسى وهرون

فقال الرب لموسى : أنظر قد جعلتك إلهاً لفرعون ، أى بمثابة إله فى عينيه ، وجعلت هرون بمثابة نبى يتكلم باسمك اليه ، وأنا أقسّى قلب فرعون ، أى أتركه وشأنه عقاباً له عن كبريائه ، فلا يسمع لكما ، حتى أجعل يدى على مصر ، وأخرج بنى اسرائيل من مصر بأحكام عظيمة

وأمر الله موسى وهرون أن يدخلا من جديد على فرعون ، ويطلبا منه أن يطلق الشعب ، فإن طلب منهما آية ، فليصنعا أمامه آية العصا التى انقلبت حية

فصنع موسى وهرون كما أمرهما الرب ، وألقى هرون عصاه بين يدى فرعون فصارت ثعباناً . ولكن فرعون نسب هذه المعجزة إلى قوة السحر ، ولاسيما بعد أن شاهد سحرته يصنعون مثلها ، ولم يفطن أن ابتلاع عصا هرون عصيهم ، جاء دليلا على صدق معجزة موسى ، و بطلان آية سحرته .

وتقسّى قلب فرعون ، ولم يطلق بنى إسرائيل ، فضربه الله وعبيده على التوالى

---

(١) هو أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ — ١٣١٥ ؟) ، إلا أنه لا يُعرف على وجه التأكيد من هو . فقد يكون أمينوفيس (أمنحتب الأول) أو تحتمس الأول (١٥٥٧ — ١٥٠١ ق . م) ، حسب الرأى الذى نقره ، والذى تؤيده حفريات أريحا الأخيرة . وقد يكون غيرهما حسب الرأى الآخر .

بعشر ضربات ، كانت الواحدة أشد من سابقتها هولاً ، حتى إنه اضطر مرغماً أن يذعن لأمر الله ويطلق شعب إسرائيل (خر ٥ و ٦ و ٧)

وإليك بإيجاز تفصيل الضربات العشر ، وهى التى تعرف بضربات مصر ، (وقد جاء ذكرها بالتفصيل فى خروج من الفصل ٧ إلى ١٢)

فى ضربات مصر العشر :

إن معظم هذه الضربات كانت من نوع تلك الحوادث الطبيعية ، التى تحدث بمصر سنوياً ، وإن اختلفت عنها من حيث كيفية وقوعها وشدة وطأتها ، وذلك ليعلم المصريون أن لا إله غير الله ، وأن آلهتهم المزعومة هى أضعف من أن تستطيع أن تدافع عنهم أو تقيهم مكروها . وبذا كانت هذه الضربات ، ضربةً فى الصميم موجهة إلى آلهتهم بالذات .

١ ـ تحويل مياه النيل إلى دم : رفع موسى عصاه بأمر الرب ، وضرب النهر على مشهد من فرعون وعبيده ، فانقلب ماؤه دماً . ومات السمك ، وأنتن النهر . فاضطر الناس أن يحفروا لهم آباراً حوالى النهر ، ليشربوا الماء .

واستغرقت هذه الضربة ، وكذا كل من الضربات التالية ، التى لم يذكر عن مدتها شىء بالتفصيل ، سبعة أيام على ما يظن .

٢ ـ الضفادع : ضرب موسى وهرون المياه مرة أخرى ، فخرجت من النهر والترع المتشعبة منه ، ومن المستنقعات جيوش جرّارة من الضفادع ، إحتلت كل مكان ، حتى البيوت وما حوته من أثاث .

٣ ـ البعوض : وضرب موسى وهرون تراب الأرض ، فتحول التراب إلى بعوض ، كان على الناس والبهائم . وحاول السحرة تقليد هذه المعجزة ، كما قلدوا سابقتيها ، ولكنهم فشلوا . فقالوا لفرعون : « هذه إصبع الله » أى إن الأمر لا يمكن أن ينسب للسحر بحال ، بل إلى قدرة الله وحدها .

٤ ـ الذباب : وأرسل الله فى الضربة الرابعة ، على فرعون وعبيده كميات هائلة

من الذباب غير عادية ، اجتاحت بيوت المصريين ، فأفسدت عليهم طعامهم وكل ما وصلت إليه من متاع . أما أرض جاسان فلم يُرَ بها الذباب كل ذلك اليوم .

٥ ـ إصابة المواشى : وأصيبت فى الضربة الخامسة ، مواشى فرعون والمصريين بوباء فتاك ، أهلك منها الشىء الكثير . أما مواشى بنى اسرائيل فلم يمت منها واحد .

٦ ـ إصابة الناس بالقروح : أخذ موسى بأمر الرب ملء راحتيه من الرماد ، فذراه على مشهد من فرعون ، فصار غباراً فى جميع أرض مصر . وأصيب الناس والبهائم بقروح و بثور منتفخة كريهة . وأصيب السحرة بمثل هذه القروح فلم يستطيعوا الوقوف بين يدى موسى ، لا من شدة آلامهم فحسب ، بل وخجلاً من قلة حيلتهم وعجز آلهتهم .

٧ ـ البرد[1] : ومد موسى بأمر الرب يده نحو السماء رافعاً عصاه ، فأمطر الله على مصر برداً عظيما جداً ، لم ير مثله من قبل ، ومع البرد ناراً متواصلة ، وأصوات رعود رهيبة . فكل من نزل عليه البرد من إنسان أو حيوان هلك لساعته . وأتلف البرد جميع عشب الأرض ، وكسر جميع الأشجار .

٨ ـ الجراد : ومد موسى بأمر الرب عصاه على أرض مصر ، فساق الرب على البلاد ريحاً شرقية يوماً كاملاً . وعند الصبح حملت الريح الشرقية الجراد . فصعد الجراد على جميع أرض مصر ، واستقر على تخومها كثيراً جداً ، حتى حجب نور الشمس . وانقض على عشب الأرض وأثمار الأشجار ، فأتى على كل ما تركه البرد . فلم يبقَ شىء من الخضرة فى جميع أرض مصر .

٩ ـ الظلام الدامس : ثم قال الرب لموسى مُدَّ يدك نحو السماء فمدها ، فكان ظلام مدلهم فى جميع تخوم مصر مدة ثلاثة أيام ، حتى إن أحداً لم يبصر أخاه طوال هذه المدة ، أو يبرح مكانه لشدة ما اعتراهم من خوف جسيم . هذا بينما كان النور يغمر مساكن بنى إسرائيل .

(١) البَرَد : هو المطر يسقط على الأرض كحبوب من الثلج لشدة برودة الجو .

الضربة العاشرة : موت الأبكار ـ

وكانت هذه أقسى ضربة أنزلها الله بفرعون وقومه المنافقين . وذلك عقاباً له ولهم عن إعناتهم شعب الله ، وقتل الأطفال الأبرياء وإغراقهم فى النيل .

ولما كان نصف الليل ضرب الرب كل بكر فى جميع أرض مصر ، من بكر فرعون إلى بكر الأسير ، وجميع أبكار البهائم . فنهض فرعون ليلاً هو وجميع عبيده والذعر والهلع يملآن قلوبهم . وكان صراخ عظيم فى مصر ، حيث لم يكن بيت فيه بكر إلا وفيه ميت .

فى خروج بنى إسرائيل من مصر[1] (١٥٢٥ ق . م)

وإذ رأى فرعون أن معول الخراب بدأ يعمل فى دياره ، من غير ما رحمة ، فيقصف تلك الأعواد الرطبة ، دون أن يحسب حساباً لصغير أو كبير ، أخذته الرعدة . وخاف ، وكان على حق فى خوفه ، من أن يمد إليـه سلطان الموت يداً عادية فيبيده وشعبه إبادة تامة .

ولذا فقـد دعا من فوره موسى وهرون وأمرهما بالخروج من بين شعبه : هما وبنو إسرائيل . وقال لهما : وأيضاً غنمكم وبقركم خذوها ، وامضوا أعبدوا الرب وباركونى . أى وصلوا من أجلى لئلا يصيبنى وشعبى مكروه أكثر مما أصابنى .

---

(١) إن خروج بنى اسرائيل من مصر كان فى سنة ١٥٢٥ قبل الميلاد . فقد دخل آل يعقوب مصر فى سنة ١٧٤٠ . ومكثوا بها على ما جاء فى سفر الخروج ٤٣٠ سـنة : « وكان مقام بنى اسرائيل ، الذى أقاموه بمصر أربع مئة وثلاثين سنة » (١٢ : ٤٠)

إلا أن هـذا العدد يحوى أيضاً المدة ، التى مكثها الآباء ابراهيم واسحق ويعقوب بأرض كنعان . وذلك بشهادة ما جاء فى باقى ترجمات الكتاب المقدس ، ولا سيما الترجمة السبعينية ، وشهادة القديس بولس فى غلاطية (٣ : ١٦ — ١٧)

إذن فإن المدة الحقيقية ، التى مكثها بنو إسرائيل بمصر هى ٢١٥ سنة فقط ، لأن المدة التى مكثها آباؤهم بأرض كنعان هى كذلك ٢١٥ سنة ، وتمتد من دعوة إبراهيم فى سنة ١٩٥٥ قبل المسيح ، إلى دخول آل يعقوب مصر فى سنة ١٧٤٠ . وعلى هـذا فإن خروج بنى اسرائيل من مصر كان فى سنة (١٧٤٠ — ٢١٥) = ١٥٢٥ ، كما أثبتناه آنفاً .

وآتى الرب شعبه حظوة فى عيون المصريين ، فأعطوهم جميع ما طلبوا من آنية وأمتعة ذهبية وفضية ، وثياباً ثمينة .

وقد أمر الله شعبه بسلب المصريين على هـذا النحو ، تعويضاً لهم عما قاسوه من اضطهاد وإعنات ، طوال أيام عبوديتهم .

فخرج بنو إسرائيل من مصر بعد ما أقاموا بها ٢١٥ سنة ، فى نحو ست مئة ألف ماش من الرجال ، ما عدا الأطفال والنساء . وقد خرج معهم عدد كبير من رعاع الشعب والعبيد والغرباء (خر ١٢ : ٣١..)

ومن ثم فقد قدر العلماء عدد من خرجوا من مصر بحوالى مليونى نسمة تقريباً .

وما أن تجمعت جموع بنى إسرائيل ، وجمعوا كل ما لهم ، حتى ارتحلوا يقودهم موسى من مدينة رعمسيس فمدينة سكوت فى جاسان ، قاصدين أرض الميعاد[1] : الأرض التى وعد بها الله آباءهم إبراهيم واسحق ويعقوب .

وأخذ موسى معه عظام يوسف ، كما كان قد أوصى يوسف نفسه بذلك قبل موته (خر ١٣ : ١٧..)

فى الحمل الفصحى وتأسيس عيد الفصح :

وكان قبل إنزال الضربة الأخيرة بمصر ، أن أمر الله كل جماعة بنى إسرائيل أن يأخذوا لهم فى اليوم العاشر من شهر أبيب — الذى دعى فيما بعد بشهر نيسان ، وهو رأس شهور السنة الدينية عندهم — أمر الله أن يأخذوا لهم كل بيت حملاً ذكراً صحيحاً حولياً من الضأن أو المعز ، فيحفظ إلى اليوم الرابع عشر منه ، فيذبحه رب البيت بين الغروبين ، أى بين بدء الغروب وتمامه ، وهو ما يوافق الساعة الثالثة حتى السادسة مساءً .

ويأكله مع ذويه مشوياً ، شواء نار ، بخبز من الفطير مع أعشاب مرة . على أن لا يقل عدد الآكلين عن العشرة ، وأن لا يتجاوز العشرين . فإن كان عدد أفراد العائلة

(١) هى « أرض كنعان » نسبة إلى الكنعانيين سكان البلاد الأصليين . ويطلق عليها أيضاً اسم « فلسطين » نسبة إلى الفلسطينيين ، الذين حاولوا فتحها ، لكنهم لم يستولوا قط ، إلا على الساحل الجنوبى . وتبلغ مساحة فلسطين نحو ٢٧ ألف كيلو متر مربع ، محصورة بين البادية والبحر الأبيض ، يشقها من الشمال إلى الجنوب وادى نهر الشريعة العميق .

أقل من العشرة ، فعلى رب البيت أن يشرك فيه جاره . كما لا ينبغي أن يبقوا منه شيئاً للغد ، فإن بقى شيء منه فليحرق حرقاً . كذلك قد حرِّم عليهم أن يكسروا شيئاً من عظامه لأكل مخه أو خلافه .

وقد أمر الله أن يؤكل حمل الفصح بعجلة ، وأحقاؤهم ممنطقة ، ونعالهم فى أرجلهم ، وعصيهم فى أيديهم ، كمن هو على أهبة السفر . غير أن هذه قد أبطلت على مر الأيام والسنين .

وقد جعل تعالى سُنة أكل الحمل الفصحى على بنى إسرائيل فريضة ثابتة ، وعيداً من أحفل الأعياد ، يجب أن يحتفل به سنوياً مدة سبعة أيام كاملة ، ابتداء من اليوم الرابع عشر من نيسان بالعشى ، إلى اليوم الحادى والعشرين منه بالعشى . لا يأكلون فيه شيئاً من الخمير ، بل من الفطير فقط .

وينبغى أن يقدسوا بنوع خاص اليومين : الأول والسابع من هذا العيد ، فلا يعملون فيهما أى عمل خدمة على الإطلاق .

وقد جعل الله كل ذلك فريضة ثابتة على بنى إسرائيل مدى أجيالهم : ذكرى لخروجهم العجيب من دار العبودية ، ونجاة أبكارهم الذين أبقاهم ملاك الموت ، عندما أهلك أبكار المصريين . ذلك إن هذا الملاك المبيد لما مر ببيوت العبرانيين بمصر ، ورأى أبواب بيوتهم ملطخة بدم الحمل الفصحى ، جاز عنها دون أن يمس أبناءهم الأبكار بأذى (خر ١٢ : ١ — ٢٨)

ومن هنا كلمة « فصح » ، وهى لفظ عبرى ، معناه الاجتياز والعبور .

***

يرمز الحمل الفصحى إلى حمل الله ، الحمل الذى يرفع خطيئة العالم ، سيدنا يسوع المسيح ، الذى نطهر بدمه الكريم الزكى ، فننجو من موت الخطيئة ونحظى بالحياة الأبدية .

أما الفصح ذاته فيرمز إلى الفصح عندنا ، من حيث إنه تجديد وانتقال من حال إلى حال . قال الرسول : « فألقوا عنكم الخمير العتيق ، لتكونوا عجيناً جديداً كما أنكم فطير ، فإنه قد ذبح فصحنا المسيح . فلنعيد إذن لا بالخمير العتيق ، ولا بخمير السوء والخبث ، بل بفطير الإخلاص والحق » (١ كور ٥ : ٧ و ٨)

الحقبة الرابعة

من خروج بنى إسرائيل من مصر حتى تأسيس مملكتهم وانقسامها

تحوى الحقبة الرابعة من التاريخ المقدس ٥٩٣ سنة . تبدأ فى سنة ١٥٢٥ ، وتنتهى فى سنة ٩٣٢ ق . م .

الفصل الأول

من مصر إلى طور سيناء

عمود الغمام (١) :

ولما بلغ بنو إسرائيل إيتام فى طرف البرية ، شمال شرق الدلتا ، حطوا رحالهم ، استعداداً لاستئناف السفر إلى أرض فلسطين أرض الموعد ، وذلك عن أقرب طريق يقود إليها ، أى عن الطريق الساحلى ، الذى يسير بإزاء البحر الأبيض المتوسط .

غير أن الله لمقاصد سامية حكيمة ، كان قد دبر لشعبه خطة غير هذه الخطة . فقد شاء تعالى أن يمكث الشعب مدة فى الصحراء ليعطيه الشريعة ، وأن يتمجد هو فى فرعون بأعمال عدله الرهيب فيه وفى شعبه المنافقين ، الذين ما لبثوا أن ندموا على أنهم أطلقوا بنى إسرائيل .

وكان منذ أن ارتحل بنو إسرائيل بأمر الرب من سكوت (وهى فيتوم) أن عموداً من الغمام كان يسير أمامهم ليلاً ونهاراً ليهديهم الطريق . فكان هذا العمود يقيهم نهاراً شر حرارة أشعة الشمس المحرقة ، وفى الليل وقد تبلور وصار كأنه من نار ، كان يضىء لهم المحلة . وكان الله يسير مع شعبه فى عمود الغمام . بحيث إذا وقف العمود وقفوا ، و إذا سار ساروا .

ولم يبرح عمود الغمام نهاراً ، وعمود النار ليلا ، من أمام الشعب مدة أربعين سنة ـ وهى المدة التى قضاها بنو إسرائيل فى البرية ـ حتى دخولهم أرض الميعاد .

---

(١) خر ١٣ : ٢١ و ٢٢

فى مطاردة فرعون لبنى إسرائيل :

وندم فرعون وعبيده على أنهم أذنوا لبنى إسرائيل بالخروج من مصر . وقالوا : ماذا صنعنا فأطلقنا بنى إسرائيل من خدمتنا . وأبلغ فرعون أنهم لا يزالون على الحدود متحيرين ، وقد استبهمت عليهم البرية ومسالكها .

فجمع الطاغية فى سرعة لمح البصر جيشاً كبيراً ، قوامه ست مئة مركبة مختارة ، يقودها ضباط مدربون ، وما تيسر من مركبات أخرى ، وأخذ يجد فى إثرهم ، فأدركهم ومركباته وفرسانه وجنوده ، وهم نازلون فى واد ضيق بجوار البحر الأحمر .

ولما رأى بنو إسرائيل جيوش فرعون خافوا جداً . وصرخوا إلى الرب ، لعله ينقذهم من عنق الزجاجة : فالبحر أمامهم ، وجنود فرعون والجبال وراءهم ، ولا سبيل إلى النجاة إلا بأعجوبة .

أما موسى ، رجل الإيمان والثقة الشديدة بالله ، فلم يستفزه خوف ، بل أخذ من فوره يحث قومه على ملازمة الهدوء والسكينة ، حتى يروا بأعينهم نصرة الحق على الباطل .

قال لهم : لا تخافوا ، قفوا وانظروا خلاص الرب ، الذى يجريه اليوم لكم ، فإنكم كما رأيتم المصريين اليوم ، لن تعودوا تروتهم إلى الأبد . الرب يحارب عنكم وأنتم صامتون .

وفى تلك اللحظة انتقل عمود الغمام فجأة ، فجاء ووقف بين محلة بنى إسرائيل ومعسكر فرعون ، فكان من ناحية المصريين مظلماً مدلهماً . أما من ناحية بنى إسرائيل فكان منيراً ساطعاً . فلم يقترب أحد الفريقين من الآخر طول الليل (خر١٤ : ١ — ٢٠)

فى عبور البحر الأحمر وغرق جيش فرعون :

وأمر الرب موسى ، فمد يده على البحر ، فانشقت المياه وانتصبت كأنها الجبال الرواسخ . وإذا بطريق فسيحة ، جففتها ريح شرقية ، تبدو أمام عيون بنى إسرائيل المشدوهة . فساروا فيها ومواشيهم على بركة الله ، عابرين البحر من شاطىء إلى شاطىء على الأرض اليابسة ، والماء لهم سور عن يمينهم وعن يسارهم .

وكان فى أول هجيع الصباح [١] أن شاهد المصريون الطريق ممهدة أمامهم ، فلم يترددوا عن مطاردة بنى إسرائيل ، ولوفى وسط أليمّ . على أنهم ما لبثوا أن عرفوا خطورة موقفهم ، والورطة التى أورطوا فيها أنفسهم بأنفسهم .



وإذ رأو عجلات مركباتهم تتخلع الواحدة بعد الأخرى ، وأنهم يسوقونها بمشقة ، قالوا نهرب من إسرائيل لأن الرب يقاتل عنهم المصريين . ولات ساعة مندم أو هرب .

فقد مد موسى يده بأمر الرب على البحر ، فعادت المياه إلى مجاريها وغطت اللجج مركبات فرعون وجنوده ونخبة قواده ، فهبطوا فى الأعماق كما تهبط الحجارة (خر ١٤ : ٢١..)

حينئذ سبح موسى ، ومن ورائه الشعب جميعه ، تسبيحة الظفر والشكر هذه ، قال : أسبح الرب فإنه قد تعظم بالمجد . الفرس وراكبه طرحهما فى البحر . . . أما بنو إسرائيل فساروا على اليبس فى وسط البحر (خر ١٥..)

(١) كان اليهود يقسمون الليل إلى ثلاث هجعات . وكل هجعة إلى أربع ساعات . وكانت تبدأ الهجعة الأولى من الساعة ٦ مساء . وتنتهى الهجعة الأخيرة الساعة ٦ صباحا .

المياه المرة تصير عذبة :

وارتحل موسى بإسرائيل من بحر القلزم (البحر الأحمر) نحو الجنوب متوغلا فى برية شور ، حتى أفضوا بعد مسيرة ثلاثة أيام إلى بقعة تسمى « مارة » ، فلم يطيقوا أن يشربوا من مائها لأنه مر .

فتذمر الشعب على موسى وقالوا : ماذا نشرب . فصرخ موسى إلى الرب ، فأشار له إلى شجرة هناك ، فألقى منها فى الماء فصار عذباً .

ومن « مارة » قدموا إلى « أيليم » ، وهى واحة جميلة ، كان بها إثنتا عشرة عين ماء ، وتسعون نخلة . فنزلوا هناك مدة (خر ١٥ : ٢٢..)

فى سقوط السلوى على محلة بنى إسرائيل :

ثم إرتحلوا من أيليم إلى برية سين . وفى هـذه البرية ، قبل وصولهم إلى جبل سيناء ، نفدت المؤونة ، التى كانوا قد جاءوا بها من مصر . فتذمر كل جماعة بنى إسرائيل على موسى وهرون ، وقالوا : ليتنا متنا فى أرض مصر ، حيث كنا نجلس عند قدور اللحم ، ونأكل من الطعام حتى الشبع ، فلمَ أخرجتمانا إلى هذه البرية ، لتقتلا هذا الجمهور كله بالجوع .

فقال موسى لـكل الجماعة : إن الرب يعطيكم بالعشى لحماً تأكلونه ، وبالغـداة خبزاً تشبعون منه ، لأنه سمع تذمركم ، الذى تذمرتم به عليه . لأن تذمركم علينا ، هو تذمر على الرب ، وليس علينا .

فلما كان المساء صعدت السلوى (وهى السمان) حسب وعد موسى ، فغطت المحلة ، فاقتنصها جميع الشعب بكميات وافرة ، وأكلوا منها حتى الشبع (خر ١٦ : ١—١٣)

فى نزول المن :

وحدث بالغداة ، حسب وعـد الله لموسى ، أن نزل عليهم المن ، وصادف نزوله سقوط الندى حول المحلة . فـكان لما تبددت تلك الضبابة الخفيفة التى تصحب عادة سقوط الندى ، أن ظهر المن على وجه الصحراء كشىء دقيق مكتل كالجليد . غير أنهم لم يعرفوه ، ولذا أخذوا يسألون بعضهم بعضاً قائلين : « منهو » أى ما هو .

فقال لهم موسى : هو الخبز الذى أعطاه لكم الرب مأكلاً . فالتقطوا منه كل واحد على قدر أكله ، عمراً[1] لكل نفس .

وصنع بنو إسرائيل كما أمرهم موسى ، فكانوا يجمعون المن يوماً بيوم ، فى غداة كل صباح ، عمراً لكل نفس . إلا أن بعضهم لم يسمع لموسى ، وأبقى منه للغد ، فدب فيه الدود وأنتن .



التقاط المن

أما أيام الجمعة فكان مخصص كل فرد عمرين . لأن فى السبت ، وهو يوم عطلة مقدس للرب ، لم يكن ينزل المن . وما حفظ منه فى السبت من اليوم السابق لم يكن يعتريه الفساد .

ويشبه المن بزر الكزبرة ، إلا أنه أبيض اللون ، وطعمه طعم قطائف بعسل . وقد أقات الله شعبه فى البرية بالمن ، مدة أربعين سنة ، حتى دخولهم أرض الموعد (خر ١٦ : ١٤..)

---

(١) العُمير : مكيال من الحذف للحبوب والسوائل ، وهو عشر الإيفة ، يسع ثلاث لترات تقريباً . إلا أن زنة المن التى كان يتسع لها ، على ما اتصل إلينا ، فكانت تعادل فقط ٢ كيلو جرام تقريبا .

فى الماء الذى تدفق من الصخرة :

وارتحل كل جماعة بنى إسرائيل من برية سين ، مرحلةً مرحلةً ، حتى أفضوا إلى جبل الله حوريب ، ونزلوا فى رفيديم . ولم يكن هناك ماء . فخاصم الشعب موسى وهرون ، وقالوا لهما : أعطونا ماءً لنشرب .

فأخذ موسى بأمر الرب عصاه ، وضرب الصخرة التى فى حوريب أمام كل الشعب ، فتفجر من تلك الصخرة الصماء ينبوع ماء غزير عذب ، ارتوى منه بنو إسرائيل ، على ما يظن ، طوال الأربعين سنة ، التى أقاموها بالبرية .

وسمى ذلك الموضع « المحنة والخصومة » ، بسبب مخاصمة بنى إسرائيل وامتحانهم للرب قائلين : أبيننا الرب أم لا ؟ (خر ١٧ : ١ — ٧)

فى انتصار بنى اسرائيل على العمالقة :

وجاء العمالقة ، وهم من نسل عيسو ، لحاربوا اسرائيل فى رفيديم . فوكل موسى مهمة محاربتهم ، وردهم على أعقابهم مدحورين ، إلى خادمه يشوع بن نون ، وصعد هو يصحبه هرون وحور إلى رأس الجبل ، وأخذ يصلى من أجل نصرة قومه ، ويداه مرفوعتان .

فكان إذا رفع موسى يديه وصلى يغلب بنو إسرائيل ، وإذا حطها تغلب العمالقة . ولما كلت يداه ، أخذ هرون وحور حجراً وجعلاه تحته ، فجلس عليه ، وأسندا يديه ، أحدهما من هنا والآخر من هناك ، فكانت يداه ثابتتين إلى مغرب الشمس . فهزم يشوع عماليق وقومه بحد السيف (خر ١٧ : ٨..)

فى تعيين قضاة للشعب يؤازرون موسى :

وسمع يترو كاهن مدين حمو موسى ، بجميع العظائم التى صنعها الله لموسى ، ولشعبه إسرائيل ، فخرج لملاقاته فى البرية عند جبل حوريب ، حيث كان نازلا مع الشعب . وقد أحضر يترو معه صفورة ابنته إمرأة موسى ، وابنيها جرشوم وأليعازر ، ولدى موسى .

وإذ رأى يترو أنَّ موسى يجلس طوال يومه ، من الصباح حتى ساعة متأخرة

من المساء ، يقضى بين الشعب ، أشار عليه بأن يخفف عن نفسه هذا الحمل الثقيل ، لما فيه من إرهاق لقواه ، لا يطاق .

وإنه ليستطيع ذلك بسهولة بتعيين قضاة من الشعب : أناس أقوياء ، يتقون الله ويكرهون الطمع ، ليفصلوا فى الأمور الصغرى ، ويحتفظ هو لنفسه بالفصل فى أمهات المسائل .

فسمع موسى من حميه وعمل بمشورته . فاختار من جميع الأسباط ، رجالا أكفاء لمعاونته فى مهمة القضاء ، وتصريف شؤون الشعب العادية . وقد عين منهم لكل سبط العدد الكافى ، حسب حاجة كل سبط .

فكانوا يقضون للشعب ، فى كل وقت ، فى الدعاوى اليسيرة فقط . أما الدعاوى الصعبة ، فكانوا يرفعونها إليه . (خر ١٨..)

الفصل الثانى

العهد الذى قطعه الله مع شعبه إسرائيل

فى الاستعداد لابرام العهد :

وفى الشهر الثالث من الخروج رحل كل جماعة بنى إسرائيل من رفيديم : وجاءوا برية سيناء وخيموا فى الوادى الفسيح ، الواقع تجاه جبل الله حوريب ، وهو طور سيناء[1] ، المعروف اليوم بجبل موسى .

وصعد موسى الجبل لملاقاة الله ، فقال له تعالى : امض إلى الشعب وقدسهم اليوم وغداً . وليغسلوا ثيابهم ويكونوا مستعدين لليوم الثالث ، فإنه فى اليوم الثالث يهبط

(١) إن طور سيناء أو حوريب هو أحد ثلاثة جبال متجاورة ، تعرف باسمه ، ويقع هو فى وسطها . ويبلغ طول جبل الله هذا ثلاثة كيلو مترات . أما عرضه فيبلغ كيلو متراً ونصف . وله قنتان : ترتفع الواحدة شمالا نحو ٢١١٥ متراً على سطح البحر ، وتعرف باسم « رأس الصفصاف » ، وهى التى منها ، على ما إرتأى العلماء ، أذيعت الوصايا العشر . وترتفع القمة الأخرى ، من ناحية الجنوب ، على سطح البحر نحو ٢٢٤٥ متراً ، وتعرف باسم جبل موسى . وهى التى منها سمى الجبل كله . ويمتد أمام طور سيناء شمالا واد فسيح ، يعرف بوادى الرحاب ، وهو الذى خيم فيه بنو اسرائيل .

الرب أمام جميع الشعب ، على جبل سيناء . واجعل حداً للشعب من حواليه ، وقل لهم إحذروا من أن تصعدوا الجبل أو تمسوا طرفه ، فإن كل من مسه يقتل قتلا .

فنزل موسى من الجبل وقدس الشعب كما أمره الرب ، بإمتناعهم عن نسائهم ، و بتلك الأغسال الرمزية ، التى تشير إلى النقاوة الباطنية .

وما كادت تلوح تباشير صباح اليوم الثالث فى الأفق . و إذا بالمحلة تهب من غطيطها على أصوات الرعود والبروق الخاطفة ، وصوت بوق يصك الآذان . وما أهول منظر طور سيناء ، وهو يرتجف و يدخن كالأتون ، وقد غطاه غمام كثيف . إذ قد تجلى عليه مجد الرب .

فأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله ؛ فوقفوا أسفل الجبل مرتعدين . وكان صوت البوق آخذاً فى الاشتداد جداً ؛ وموسى يتكلم والله يجيبه بالصوت (خر ١٩..)



فى الوصايا العشر واعلانها .

ثم تكلم الله معلناً وصاياه بصوت عظيم قائلا :

١ — أنا هو الرب إلهك ؛ لا يكن آلهة أخرى تجاهى . لا تصنع لك منحوتاً

(لتعبده) ولا صورة شيء مما في السماء ، أو على الأرض ، أو مما في المياه تحت الأرض (لتعبدها) ، لأني أنا الرب إلهك إله غيور .

٢ ـ لا تحلف باسم الرب إلهك باطلا ، لأن الرب لا يزكي من يحلف باسمه باطلا .

٣ ـ أذكر يوم السبت لتقدسه . في ستة أيام تعمل ، واليوم السابع سبت للرب إلهك . لا تصنع فيه عملا ، لأن الرب في اليوم السابع استراح .

٤ ـ أكرم أباك وأمك ، لكي يطول عمرك على الأرض .

٥ ـ لا تقتل .

٦ ـ لا تزن .

٧ ـ لا تسرق .

٨ ـ لا تشهد على قريبك شهادة زور .

٩ ـ لا تشته إمرأة قريبك .

١٠ ـ لا تشتهي مقتنى غيرك ، ولا شيئاً مما لقريبك .

هذه هي « الكلمات العشر » ، كلمات العهد ، التي عاهد بها الله بني إسرائيل من وسط النار والغمام والظلام بصوت عظيم .

وحدث أنهم لما رأوا مجد الله ، وسمعوا صوته من وسط الظلام ، والجبل يضطرم بالنار ، خافوا جداً وقالوا : لمَ نهلك ولمَ تأكلنا هذه النار العظيمة ، فإننا إن عدنا فسمعنا صوت الرب إلهنا أيضاً نموت (خر ٢٠..)

وقالوا لموسى تقدم أنت واسمع جميع ما يقوله الرب إلهنا ، وأنت كلمنا بجميع ما يكلمك به الرب إلهنا ، فنسمع ونعمل . فوقف الشعب على بعد ، وتقدم موسى إلى الضباب الذي فيه الله ، فأفضى تعالى إليه ببعض الوصايا والرسوم والأحكام الجديدة ، المتممة أو المفسرة لكلام العهد : الكلمات العشر [1] .

فجاء موسى وقص على الشعب جميع كلام الرب وجميع الأحكام ، فأجابه جميع الشعب بصوت واحد ، قائلين : جميع ما تكلم به الرب نعمل به (خر ٢٤ : ٣)

---

(١) وقد جاء ذكر هذه الرسوم والأحكام في خروج في الفصل ٢١ و ٢٢ و ٢٣

فى الاحتفال بتثبيت العهد :

وكتب موسى جميع كلام الرب ، أى الوصايا العشر وملحقاتها فى كتاب ، دُعى بكتاب العهد . وبكر فى الغداة وبنى مذبحاً فى أسفل الجبل ، ونصب حوله إثنى عشر نصباً تذكارياً لأسباط إسرائيل .

وأصعد بعد ذلك المحرقات ، يعاونه بعض الفتيان الأشداء ، وذبح ذبائح السلامة . وأخذ نصف الدم وجعله فى طسوت ، والنصف الآخر رشه حول المذبح .

ثم أخذ كتاب العهد فتلاه على مسامع الشعب ، فقالوا : كل ما تكلم الرب به نفعله ونأتمر به .

وأخذ بعد ذلك موسى الدم الذى فى الطسوت ، فرشّه جميعه على الشعب قائلاً : هو ذا دم العهد (أى الدم المؤيد للعهد) ، الذى عاهدكم الرب به على جميع هذه الأقوال . والذى أنتم من جهتكم عاهدتم الله على العمل بمقتضاه (خر ٢٤ : ٤ — ٨)

ثم صعد موسى بأمر الله الجبل ، يصحبه هرون ، وناداب وأبيهو ابنا هرون ، وسبعون من شيوخ إسرائيل يمثلون الشعب ، ومعهم يشوع خادم موسى ، فرأوا جميعهم إله إسرائيل . ولكن لا نعلم تحت أى شكل أو صورة . وكان هذا التجلى العجيب تأييداً جديداً للعهد الذى قطعه الله تعالى مع شعبه إسرائيل (خر ٢٤ : ٩..)

فى عبادة إسرائيل العجل الذهبى :

ثم صعد موسى وحده طور سيناء ، فحل مجد الرب على الجبل وغطاه الغمام . فدخل موسى على مشهد من بنى إسرائيل فى وسط الغمام ، وأقام فى الجبل أربعين يوماً وأربعين ليلة ، لم يذق أثناءها طعاماً أو شراباً ألبتة (خر ٢٤ : ١٨)

وقد أوحى له الله تعالى فى خلوته هذه الطويلة به ، بجميع الرسوم والترتيبات الطقسية ، ونظم العبادة ، وخدمة الكهنوت ، وما يلزم ذلك من آنية وأدوات مقدسة عديدة ، سوف نذكرها لك فى أوانه ، عندما نتكلم عن المسكن وتابوت العهد[1] .

ورأى الشعب أن موسى قد أبطأ فى النزول من الجبل ، فتقدموا إلى هرون وقالوا

---

(١) وقد جاء ذكر كل ذلك فى خروج فى الفصول من ٢٥ إلى ٣١

له : قم فاصنع لنا آلهة تسير أمامنا ، فإن ذلك الرجل موسى ، الذى أخرجنا من أرض مصر ، لا نعلم ماذا أصابه !

فأمر هرون بنزع شنوف الذهب ، التى فى آذان بنيهم و بناتهم ، فنزعوها وأتوا بها إليه . فأخذها وصبها فى قالب ، وصاغ منها عجلا مسبوكا من الذهب . فقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل ، التى أخرجتك من أرض مصر !

و بكر الشعب فى الغداة ، فأصعدوا المحرقات وذبحوا ذبائح السلامة للعجل ، وجلسوا يأكلون ويشربون ، ثم قاموا يرقصون و يلعبون (خر ٣٢ : ١ — ٦)

لوحا الشهادة :

وكان فى تمام الأربعين يوماً ، لما فرغ الله من مخاطبة موسى على جبل سيناء ، أن دفع إليه لوحى الشهادة ، لوحين من حجر ، نقشت عليهما من الجانبين ، وصايا الله العشر ، بإصبع الله ذاته . واللوحان من صنع الله تعالى (خر ٣١ : ١٨)

وأخبر الله موسى بخيانة الشعب وفجورهم ، وأنه يريد من ثم أن يفنيهم ، لأنهم شعب قساة الرقاب . فقام موسى من فوره يشفع فيهم لديه تعالى ، فتغاضى الرب عن المساءة ، التى كان قد هدد بها .

ثم انثنى موسى ونزل من الجبل ، ولوحا الشهادة فى يده . وسمع يشوع جلبة فى المحلة ، فقال لموسى : صوت حرب فى المحلة . فقال موسى : ليس ذلك صياح ظفر ولا صياح هزيمة ، بل صوت غناء .

ولما دنا من المحلة ، ورأى العجل والرقص ، اتقد غضبه ، فرمى باللوحين وكسرهما . ثم أخذ العجل الذهبى فأحرقه بالنار ، وسحقه حتى صار ناعماً ، وذراه على وجه الماء ، الذى يشرب به بنو إسرائيل .

و بعد أن و بخ هرون بشدة ، على تهاونه وتغاضيه الأثيم ، الذى جلب على الشعب مثل هذه الخطيئة الفظيعة ، التى وصمته بوصمة العار الأبدى ، وقف على باب المحلة ، وصاح قائلا : من هو للرب فليقبل إلى .

فانضم إليه جميع بنى لاوى ، وتقلد كل منهم سيفه ، وقتلوا بأمر الرب كل من

وجد متلبساً بجريمة عبادة العجل الرجسة ، وكل من قاوم موسى . فسقط من الشعب فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل (خر ٣٢ : ٧..)

فى تجديد العهد مع إسرائيل :

وكان بعد تطهير المحلة من رجس عبادة العجل ، أن قال الرب لموسى : إنحت لك لوحى حجر كالأولين ، فاكتب عليهما الكلام الذى كان على اللوحين ، اللذين كسرتهما .

فنحت موسى لوحين كالأولين ، وبكر فى الغداة وصعد إلى جبل سيناء ، كما أمره الرب . وهناك بعد أن ظهر له الرب فى الغمام ، وأراه مجده عربوناً عن صفحه تعالى وتجاوزه عن خطيئة الشعب ، حسب رغبة موسى الملحة .

تنازل تعالى لجدد بواسطته ، العهد الذى قطعه مع شعبه بنى إسرائيل ، واعداً بأنه يطرد من أمامهم جميع أعدائهم ، على أن يحفظوا هم من جهتهم كل وصاياه ورسومه .

وكتب تعالى من جديد كلام العهد ، الكلمات العشر على اللوحين ، ودفعهما إلى موسى .

وكان لما نزل موسى من طور سيناء ، بعد أربعين يوماً وأربعين ليلة ، مكثها فى حضرة الله ، يخاطبه وجهاً إلى وجه ، كما يكلم المرء صاحبه ، أن أديم وجهه قد صار مشعاً .

فنظر هرون وجميع بنى إسرائيل إلى موسى ، فإذا وجهه مشع ، فخافوا أن يدنوا منه . فأخذ موسى برقعاً وجعله على وجهه ، يحجب به ذلك البهاء ، وتلك الهالة من المجد ، التى كانت تحيط بوجهه . ولم يكن يرفع البرقع إلا عند دخوله بين يدى الرب . (خر ٣٤..)

وجمع موسى كل جماعة بنى إسرائيل وأعلمهم إرادة الله ، فيما يتعلق بحفظ وصاياه ، ولا سيما وصية السبت . فعاهدوه على العمل بجميعها (خر ٣٥ : ١ ـ ٣)

فى خباء المحضر أو القبة ، وتابوت العهد :

وأخبر موسى كل جماعة بنى إسرائيل بما أمر به الرب : من صنع مسكن يليق

بعظمة الرب الإله المقيم فى وسطهم ، يخصص للاحتفالات العامة ، وإقامة الشعائر الدينية ، والعبادة .

وحث موسى الشعب على أن يساهموا جميعهم فى هذا المشروع المقدس ، كما أمر الرب ، وأن يتضافروا على إنجازه على أكمل مثال وفى أقرب وقت . وقد ترك لكل منهم الحرية فى تقدمة ما يشاء من عين أو عمل ، كل حسب مقدرته وسخائه .

فكانت مباراة هائلة بين أفراد الشعب ، فجاء الرجال والنساء يلقون تقادمهم تحت أقدام موسى : ذهباً ، وفضة ، وحجارة كريمة ، وخيوطاً حريرية ، وأرجواناً ، وبزاً ، وصوفاً ، وشعر معزى ، ونحاساً ، وأخشاباً ثمينة ، وما إلى ذلك : مما يمكن استخدامه فى صناعة خباء المحضر وجميع خدمته ، وثياب الكهنوت (خر ٣٥ : ٤..)

ودعا موسى بصلائيل وأهلياب وكل ذى حكمة من رجال الفن والصناعة ، وسلمهم جميع تقادم بنى إسرائيل ، التى تبرعوا بها لأعمال خدمة القدس ، وكانت وافرة جداً (خر ٣٦..)

***

وكان بعد عمل متواصل نشيط ، دام تسعة أشهر ، أن استطاع موسى ، فى اليوم الأول من الشهر الأول للسنة الثانية لخروجهم من مصر ، أن ينصب المسكن خباء المحضر[1] . وهو عبارة عن معبد مستطيل فى شكل خيمة ، مكونة من شقق ثمينة من النسيج والجلود ، تقوم على قوائم وعوارض ذهبية وفضية : خيمة متنقلة ، طولها خمسة عشر متراً ، وعرضها وارتفاعها خمسة أمتار .

وكان يحيط بالمسكن سرادق كبير مكشوف ، يعرف بسرادق المسكن . وقد أقيم فى فناء خباء المحضر ، مذبح المحرقة . وبين المذبح وباب الخباء ، المغتسل وبه ماء التطهير .

أما أقسام المسكن فهى : القدس ، وقدس الأقداس . وقد احتوى القدس أو القبة الأولى على المنارة الذهبية ، وموقعها عن شمال الداخل . ومائدة خبز الوجوه (أو التقدمة) عن يمينه ، فى مواجهة المنارة . وفى الوسط تماماً أمام الحجاب ومدخل قدس الأقداس مذبح البخور .

(١) خر ٤٠ : ١٧.

أما قدس الأقداس فقد احتوى على مبخرة من ذهب ، وتابوت العهد . وتابوت العهد هذا هو عبارة عن صندوق من خشب ثمين ، مصفح بالذهب من الداخل والخارج ، طوله ذراعان ونصف ، وعرضه وارتفاعه ذراع ونصف ذراع . وقد حفظ فيه لوحا الوصايا ، وقسط المن من الذهب ، وعصا هرون التى أزهرت .

وكان يظلل التابوت كروبا المجد من الذهب الخالص ، فوق غطاء التابوت الذهبى ، حيث كان يظهر جلال الرب ومجده .

فى كهنوت العبرانيين :

و بعد أن كرّس موسى ، بأمر الرب ، المسكن وجميع ما فيه بدهن المسح ، وقدسه هو وجميع آنيته ، وكذا مذبح المحرقة وجميع آنيته ، والمغتسل ومقعده .

أخذ بأمر الرب هرون و بنيه إلى خباء المحضر ، و بعد أن نضحهم بماء مقدس ، ألبس هرون الثياب المقدسة ، وهى : القميص وقد شده بالمنطقة ، ثم الجبة وعليها الأفود . ووضع عليه الصدرة ، المرصعة باثنى عشر حجراً كريماً ، وفيها النور والحق[1] ، والعمامة مع تاج القدس . ومسحه بدهن المسح وقدسه بصفة رئيس للكهنوت وحبر أعظم .

ثم أخذ بنى هرون ومسحهم بدهن مقدس ، وألبسهم أقمصة من بز وقلنسوات ، ليكهنوا للرب بصفة كهنة (أحبار ٨..)

ثم فرز كل سبط لاوى ، وعينهم للخدمة فى المسكن ، ومساعدة الكهنة ، ولا سيما فى تقدمة الذبائح . ومن اختصاصهم أيضاً حمل ما ثقل من أدوات المسكن عند انتقال المحلة من مكان لآخر (عد ٨..)

* ومن ثم كانت هناك ثلاث رتب أو درجات للكهنوت فى العهد القديم ، فرز أصحابها جميعاً للخدمة المقدسة فى القدس ، وهم : الحبر الأعظم ، والكهنة واللاويون .

فى الذبائح والقرابين :

إن القرابين المأمور بها فى شريعة موسى كانت على نوعين : دموية وغير دموية . فالدموية وكانت تعرف عندهم بالنسائك أو الضحايا ، لم يكن يصلح لهذه القرابين ،

(١) أو « الأوريم والتميم » حسب اصطلاح اللغة العبرية .

إلا أربعة أنواع من الحيوان ، وهى : البقر ، والأغنام ، والماعز ، واليمام أو أفراخ الحمام من الطير .

وتقسم النسائك الدموية إلى ذبائح تكفيرية (ذبائح خطأ أو إثم) ، وإلى ذبائح شكر أو سلامة . فالأولى كانت تقدم كفارة واستغفاراً للذنوب ، والثانية كانت تقدم : إما شكراً على نعمة سابقة قد نيلت ، و إما استنزالاً لنعمة جديدة يطلب نوالها .

أما القرابين غير الدموية فكانت من سميذ (وهو الدقيق الأبيض) ونبيذ . فقرابين السميذ أو الحنطة ، وكانت تعالج أحياناً ببعض التوابل وأخصها الزيت والملح واللبان والبخور ، كانوا يسمونها تقدمة . وكانت هناك تقادم ، ولا سيما بمناسبة بعض الأعياد ، من الخبز والفطير والفاكهة وثمار الأرض ، وعلى الخصوص بواكيرها . أما قرابين النبيذ فكانوا يسمونها سكيباً . وكانت تراق عند أساس المذبح .

ومن الذبائح ما كان يقدم عن عموم الشعب يومياً ، ولا سيما فى الأعياد . وما يقدمه الفرد : إما تطوعاً ، و إما وفاء لنذر ، و إما قضاء لوصية .

ذبيحة الصباح وذبيحة المساء : كان يقدم اليهود يومياً ذبيحتين : الأولى عند شروق الشمس ، والثانية عند غروبها . فعند شروق الشمس كان يهتف بالبوق فيقرب فى الهيكل ، حمل المحرقة ، ذبيحة الصباح . وكذلك عند غروب الشمس ، يقرب حمل آخر ، ذبيحة المساء .

وكان يسبق ذبيحة الصباح ، وكذا ذبيحة المساء ، الاحتفال برفع البخور . حيث كان يدخل الكاهن المعين لخدمة القدس ، فيجدد الجمر والبخور على المذبح المعروف بمذبح البخور . وذلك بينما كان يقف الشعب خارجاً يصلى على وقع آلات الطرب .

الأعياد والمواسم الدينية :

إن أهم هذه الأعياد ، التى رسمت جميعها لتكريم الرب الإله ، والتى تعرف بالتالى بأعياد الرب ، والمحافل المقدسة ، هى :

١ — عيد الفصح : وهو أكبر أعياد اليهود إطلاقاً كان يدوم سبعة أيام . يأكلون فى اليوم الأول منه العشاء الناموسى ، بحسب الرسوم التى وضعها له موسى ،

ما عدا أنهم كانوا يأكلونه متكئين ، بدلاً من أن يأكلوه واقفين . (أنظر التفاصيل إن شئت صفحة ٨٦) . وأهم ما يؤكل فيه الحمل الفصحى . ولا يبدأ الأكل إلا بعد تلاوة بعض الصلوات الطقسية ، و إيراد قصة خروجهم من مصر . وفى أثناء العشاء ، بعد كل شكل ، يدير رب العائلة على الجلوس كأس خمر مباركة . ويختم العشاء بتلاوة بعض مزامير التسبحة .

٢ — عيد العنصرة أو البنديكوستى أو الخمسين : هو ذكرى إعلان الشريعة على طور سيناء ، فى اليوم الخمسين لخروج بنى إسرائيل من مصر . ولذا كان يقع هذا العيد بعد الفصح بخمسين يوماً . و بما إن ذلك كان يوافق نهاية موسم حصاد القمح ، فقد سمى أيضاً بعيد الحصاد . كانوا يقدمون فيه كباكورة للرب ، رغيفين من الدقيق الأبيض .

٣ — عيد المظال : كان يحتفل به كعيد الفصح سبعة أيام ، يقضيها الشعب تحت مظال ، من فروع الأشجار والنخيل ، تنصب على سطوح المنازل أو فى الساحات العمومية . وعيد المظال ، الذى كان يقع فى آخر السنة الزراعية ، عند جنى جميع الثمار ، هو ذكرى لإقامة آبائهم أربعين سنة فى البرية .

٤ — عيد الكفارة : وهو يوم توبة وصوم عام . فيه كان يقدم رئيس الكهنة عجلاً ذبيحة خطأ عن نفسه وأهل بيته .

ويذبح التيس الذى وقعت عليه القرعة للرب ذبيحة خطأ ، كفارة عن جهالات الشعب . أما تيس عزازيل ، فبعد أن يضع رئيس الكهنة يديه عليه معترفاً بجميع خطايا بنى إسرائيل ، يرسله إلى البرية إلى أرض منقطعة .

٥ — السنة السبتية : كانت سنة عطلة للأرض ، لا يجوز فيها زرع ولا حصاد ، يترك محصولها الطبيعى ، وكذا عنب الكرم غير المقضوب ، مشاعاً بين صاحب الأرض والفقراء . كانت تقع مرة كل أسبوع من السنين .

٦ — سنة اليوبيل : أو سنة الخمسين ، عام الراحة الأكبر . كان يقع كل سبعة أسابيع من السنين . فى هذا العيد كانوا مأمورين بإطلاق عام للديون والعبيد والأسرى

والأراضى المبتاعة أو المرهونة . وما إلى ذلك من أعمال البر والرحمة والعفو الشامل مما لا يوجد له نظير بين الشعوب ، التى لم تهتد بهدى الوحى .

الفصل الثالث

أربعون سنة فى البرية

فى عقاب النار :

وكان بعد الاحتفال بعيد الفصح ، فى السنة الثانية من خروج بنى إسرائيل من مصر ، أن ارتفع الغمام عن خباء المحضر ، إيذاناً بالرحيل . ونفخ الكهنة فى الأبواق الفضية ، فتحركت محلات إسرائيل الإثنى عشرة ، فى نظام عسكرى بديع ، كل فى المكان المعد له . يحيطون جميعاً بصفوف الكهنة واللاويين حاملى التابوت والآنية المقدسة .

فرحلوا من طور سيناء جبل الرب مسيرة ثلاثة أيام ، وتابوت العهد راحل فيما بينهم ، ليختار لهم محلة جديدة (عد ١٠ : ١١..) . وكانوا بالقرب من حصيروت ، وإذا بهم أخذوا يتذمرون ، ربما بسبب ما نالهم من مشقة السفر . فساء ذلك الرب جداً ، فأرسل عليهم ناراً آكلة ، أحرقت جزءاً ليس بيسير من طرف المحلة .

فصرخ الشعب إلى موسى طالباً النجدة . ودعا موسى إلى الرب ، فخمدت النار فوراً . وسمى ذلك الموضع مشعلاً (عد ١١ : ١ — ٣)

وكان موسى عند رحيل التابوت يقول : قم يارب ، فتتبدد جميع أعدائك ، ويهرب مبغضوك من أمام وجهك . وعند نزوله يقول : عد يارب ، إلى ربوات ألوف إسرائيل (عد ١٠ : ٣٥..)

قبور الشهوة :

وكان بعد تلك الحادثة الأليمة ، أن أخذ التذمر يشق طريقه من جديد إلى المحلة . فقد سئمت نفوسهم المن اللذيذ الطعم ، وأخذوا يشتهون أكل الطيور والأسماك ، التى كان مباحاً فى مصر اصطيادها للجميع ، والتى بالتالى كانوا يأكلونها مجاناً .

وأخذوا يشتهون أكل القثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم .

وإذ سمع موسى الشعب يتذمرون ويبكون كل أمام خبائه ، وقد اشتد غضب الرب عليهم ، ساءه الأمر ، وشق عليه أن يحتمل وحده ، كل هذا العدد العديد من هؤلاء الشعب الثقيل .

فقال له الرب : إجمع لى سبعين رجلاً من شيوخ إسرائيل[1] ، ممن لهم إلمام بمبادىء القراءة والكتابة ، وأحضرهم إلى خباء المحضر ، فأنزل أنا وآخذ من الروح التى عليك وأحلها عليهم ، فيحملون معك أثقال الشعب .

ثم قال له : قل للشعب ، إن الرب يعطيكم لحماً ، فتأكلون لا يوماً ولا يومين ، بل شهراً كاملاً ، إلى أن يخرج من أنوفكم ويصير لكم بشماً ، لأنكم رفضتم الرب ، وقلتم لماذا أخرجنا من مصر .

ففعل موسى كما أمره الرب ، وحل الروح على الشيوخ السبعين فتنبأوا . وكان بين هؤلاء الشيوخ اثنان بقيا فى المحلة ، فلما حل الروح على الآخرين حل عليهما هما أيضاً . فبادر غلام ، وهو يشوع بن نون خادم موسى منذ حداثته ، وأخبر سيده طالباً إليه أن يأمرهما بالكف عن التنبوء . فقال له موسى : ألعلك تغار لى ، ليت جميع أمة الرب أنبياء ، يجعل الرب روحه عليهم .

وهبت ريح من لدن الرب ، فساقت كميات هائلة من السلوى ، من جهة البحر الأحمر وألقتها على المحلة . فاقتنصها الشعب بسهولة . فأكلوا أياماً حتى البشم . وكان اللحم لا يزال بين أسنانهم ، قبل انسلاخ مدة الشهر المذكور ، عند ما اشتد غضب الرب على الشعب فجأة ، فضربهم ضربة عظيمة جداً ، لأنهم لم يمجدوا الله ، ولم يعرفوا سلطاناً غير سلطان الشهوة والنهم ، منساقين كالبهائم (عد ١١ : ٤..)

فى ضرب مريم بالبرص :

وحتى مريم أخت موسى أخذت تتذمر عليه . إلا أن تذمرها كان له شبه العذر ،

---

(١) إن هؤلاء الشيوخ السبعين الذين يدعوهم الكتاب بالعرفاء ، وكان من أهم واجباتهم تعليم الشعب الشريعة ، هم غير السبعين قاضيا الذين اختارهم موسى وراء مشورة يثروحيه ليعاونوه على تصريف شؤون إسرائيل . وغير السبعين شيخاً ، الذين صعدوا معه طور سيناء بعد إعلان الشريعة .

لأنه كان بدافع الغيرة من امرأة أخيها ، صفورة الكوشية ، ابنة يترو كاهن مدين ، التي ظنت مريم أنها أخذت - بعد رجوعها - تستأثر دونها بحب موسى وثقته .

وقد جذبت إلى ناحيتها فى هذه المعصية هرون ، الذى ما لبث أن دعاه الله وإياها ووبخهما توبيخاً شديداً ، لتجاسرهما على التكلم فى حق موسى أخيهما ، إستناداً إلى مجرد ظنون باطلة .

والتفت هرون إلى مريم ، فإذا هى برصاء كالثلج . فقال هرون طالباً الصفح من موسى : ياسيدى ، لا تحتسب علينا هذه الخطيئة التى جهلاً أخطأنا بها إليك . ولا تترك هذه (أى مريم) كالميت .

فصرخ موسى إلى الرب قائلاً : ألهم اشفها . فقال الرب لموسى : لو أن أباها بصق فى جهها ، أما كان يجب أن تستحى سبعة أيام . والآن وقد وجب أن يؤدبها الله ، الآب السماوى ، تأديباً ، فلا أقل من أن تحجز خارج المحلة سبعة أيام ، لكى تكفر فيها عن خطيئتها ، ثم تعود .

ولم يرحل الشعب حتى أرجعت مريم إلى المحلة بعد تمام اليوم السابع ، وقد عوفيت تماماً (عد ١٢..)

فى تجسس أرض الموعد :

وارتحل الشعب من حصيروت ونزلوا فى قادش ببرية فاران ، على مقربة من حدود أرض الموعد . وقد سمح لهم الله بأن يعرفوا مقدماً شيئاً عن خيرات تلك الأرض ، التى وعد بها آباءهم . وعن قوة شكيمة أولئك الشعوب ، الذين سيطردهم من أمامهم طرداً ، دون أى مجهود من جهتهم يذكر .

ولذا فقد أمر موسى بأن يرسل اثنى عشر جاسوساً يجتسون تلك الأرض ، رجلا واحداً عن كل سبط ، من بينهم كالب بن يفنا ، ويشوع بن نون .

فذهب الجواسيس الاثنا عشر الذين اختارهم موسى ، وجسوا الأرض جميعها ، من برية صين حتى مدخل حماة ، وحبرون . ثم عادوا بعد أربعين يوما ، وقد حملوا معهم عنقوداً كبيراً من العنب ، لم ير له مثيل ، محمولا بعتلة فيما بين اثنين ، مع شىء من الرمان والتين .

وقصوا خبر رحلتهم على موسى وهرون وكل جماعة بنى إسرائيل ، وقالوا : بالحقيقة إن الأرض تدر لبناً وعسلاً ، وهذا هو ثمرها ، وأروا الجماعة ثمر الأرض . بيد أنهم أخذوا عن طريق المبالغة والتهويل يثبطون عزائم الشعب ، قائلين ما معناه : إنها ولا شك مغامرة فاشلة منازلة سكان تلك الأرض ، لأنهم أقوياء طوال القامة ، والمدن حصينة جداً ، ومن المحال اقتحامها . ثم أخذوا يشنعون الأرض نفسها ، فقالوا : إنها تأكل أهلها . فصدق الشعب تلك الأراجيف الكاذبة ، ولم يثقوا بقدرة الله ومواعيده .

وعلى ذلك فقد أخذوا يتذمرون علانية على موسى وهرون ، قائلين : يا ليتنا متنا فى أرض مصر ، يا ليتنا متنا فى هذه البرية . لماذا أتى الرب بنا إلى هذه الأرض حتى نسقط بحد السيف ، وتصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة ، أليس خيراً لنا أن نرجع إلى مصر ! . .

وعبثاً حاول كل من يشوع وكالب ، تهدئة الخواطر الثائرة ، والحد من المخاوف المزعومة ، وحثهم على الثقة بالله ومواعيده الثابتة ، فقد ثاروا فى أوجههما وطلبوا رجمهما . (عد ١٣ و ١٤ : ١ — ١٠)

فى الحكم بالحرمان من دخول أرض الموعد :

وقال الرب لموسى : إلى متى يستخف بى هؤلاء الشعب ، و إلى متى لا يؤمنون بى ، رغم جميع الآيات التى صنعتها فيما بينهم . هاءنذا أضربهم بالوباء وأقرضهم ، وأجعلك أنت أمة أعظم وأكثر منهم .

إلا أن موسى ، هذا الرجل مثال القائد المخلص ، الذى لا ينظر إلى منفعته الشخصية ، بقدر تطلعه إلى خير من عهدت اليه قيادتهم ، طفق لساعته يشفع فيهم لكى يصفح عنهم الرب ، ولا يبيدهم على الأقل دفعة واحدة .

فقال له الرب : قد صفحت بحسب قولك . ولكن جميع الرجال الذين رأوا مجدى وآياتى التى صنعتها فى مصر وفى البرية ، وجربونى عشر مرات ، ولم يسمعوا لقولى ، لن يدخلوا الأرض التى أقسمت عليها لآبائهم .

ثم قال له : فقل لهم ، حى أنا يقول الرب ، لأصنعن بكم كما تكلمتم على مسامعى :

فى هذه البرية تسقط جثثكم ، كل المعدودين من ابن عشرين سنة فصاعدا . إلا كالب بن يفنا ، الذى أحسن الانقياد لى ، ويشوع بن نون . وأطفالكم الذين قلتم إنهم يصيرون غنيمة ، إياهم أدخل الأرض التى رذلتموها . ويكون بنوكم رعاة فى البرية أربعين سنة ، بعدد الأيام التى تجسستم فيها الأرض ، سنة عن كل يوم ، إلى فناء أجسادكم فيها .

وعاقب الله الرجال العشرة ، الذين كان قد بعثهم موسى مع كالب ويشوع ليتجسسوا الأرض وقد شنعوا عليها ، فماتوا فورا ، بعد إصدار هذا الحكم العالى ، بضربة أمام الرب .

ولما أخبر موسى الشعب بجميع هذا الكلام بكوا نادمين . وبكروا فى الغداة ، وقالوا ها نحن صاعدون إلى الموضع الذى قال الرب عنه ، فقد أخطأنا . فقال لهم موسى : لماذا تتعدون أمر الرب . إنه لا فوز لكم ، فان الرب ليس معكم .

ولكنهم تجبروا وصعدوا رأس الجبل ، وتابوت العهد وموسى لم يبرحا المحلة ، فنزل العمالقة والكنعانيون المقيمون بذلك الجبل وهزموهم شر هزيمة (عد ١٤ : ١١ ..)

فى رجم الحطاب المعتدى على شريعة السبت :

ووجد بعضهم رجلاً يحتطب حطباً فى البرية فى يوم السبت . فقاده الذين وجدوه إلى موسى وهرون . فألقى فى السجن ريثما يفصل فى أمره . فقال الرب لموسى : يقتل الرجل قتلاً برجمه بالحجارة . فأخرجته الجماعة كلها إلى خارج المحلة ، ورجموه بالحجارة حتى مات ، كما أمر الرب موسى (عد ١٥ : ٣٢..)

فتنة قورح وداثان وأبيرام وعقاب الثوار :

وشق كل من قورح وداثان وأبيرام ، وهم من اللاويين ، عصا الطاعة على موسى وهرون ، مزدرين بالرب وبممثليه . وقد انضوى تحت رايتهم ، فى هذه المعصية والفتنة الهوجاء ، مئتان وخمسون من الرؤساء المشار إليهم بالبنان فى إسرائيل .

وأبوا إلا إخفاء الحافز الحقيقى للثورة ، وهو الطمع فى الزعامة والكهنوت ، تحت

ستار الدفاع عن حقوق الشعب وحرياته . فقالوا لموسى وهرون : حسبكما إن الجماعة كلهم مقدسون ، والرب فيما بينهم ، فما بالكما تترفعان على جماعة الرب .

فسقط موسى على وجهه وقال لهم بوداعته المعهودة : غداً يعلن الرب من له ، ومن المقدس فيقرب به إليه . ثم قال لقورح وأتباعه من اللاويين معاتباً : أقليل عندكم يا بنى لاوى ، أن فرزكم إله إسرائيل من بين كل الجماعة وقربكم إليه لتخدموا مسكن الرب ، وتتصدروا كل إسرائيل تخدمونهم أمام الرب ، حتى طلبتم الكهانة أيضاً .

ودعا موسى فى اليوم التالى كل هؤلاء الثوار إلى باب خباء المحضر ، حسب اتفاقه السابق معهم ، ليكهنوا أمام الرب ، بما أنهم جعلوا أنفسهم سواء بسواء مع هرون .

فحضروا جميعاً ، ما عدا قورح وداثان وأبيرام ، فإنهم أبوا الحضور وقالوا بتهكم وسخرية لاذعة : لا نذهب . أقليل أنك أخرجتنا من أرض تدر لبناً وعسلاً حتى تترأس علينا . و بعد فإنك لم تدخلنا أرضاً تدر لبناً وعسلاً ، ولا أعطيتنا ميراث حقل ، أفتقلع عيون هؤلاء القوم ، لا نذهب !

وجمع قورح كل جماعة إسرائيل على موسى وهرون ، فجاءوا إلى خباء المحضر ليشهدوا الصراع العنيف بين قورح وجماعته من ناحية ، و بين موسى وهرون من ناحية أخرى .

وأخذ القوم المنافقون كل مجمرته وجعلوا فيها ناراً ، وألقوا بخوراً كعادة الكهنوت ، ووقفوا على باب خباء المحضر مع موسى وهرون ، فى انتظار كلمة الرب .

فتجلى مجد الرب فجأة أمام عيون كل جماعة إسرائيل المشدوهة ، ودوى صوت العلى مخاطباً موسى وهرون : أن إنفرزا من بين هؤلاء الجماعة فأفنيهم فى لحظة . فما كان من موسى وهرون إلا أن سقطا على أوجههما ، وأخذا يتضرعان إلى الرب ، ليصفح عن هذا الجمهور الجاهل ، ولا يأخذهم بخطيئة غيرهم .

ثم قام موسى وهرون ، يتبعهما شيوخ إسرائيل ، وذهب إلى قورح وداثان وأبيرام . وكلم موسى الشعب قائلاً : تباعدوا عن القوم البغاة ، ولا تمسوا شيئاً مما لهم ، لكى لا تنقرضوا بجميع خطاياهم .

ثم قال لهم : إن مات هؤلاء ميتة كل إنسان ، فليس الرب مرسلى . وأما إن أبدأ

الرب بدعاً ففتحت الأرض فاها فابتلعتهم بجميع مالهم ، وهبطوا أحياء إلى الجحيم ، فإنكم تعلمون أن هؤلاء القوم ، هم من المفترين ، الذين ازدروا بالرب .

فكان عند فراغه من هذا الكلام أن انشقت الأرض تحتهم فابتلعتهم و بيوتهم وكل إنسان لقورح وجميع المال أحياء ، وأطبقت عليهم الأرض ، و بادوا من بين الجماعة .

وخرجت نار من عند الرب ، فأكلت المئتين والخمسين رجلاً ، الذين إدعوا باطلاً حقوق الكهنوت ، وقربوا البخور .

وأمر الرب موسى بجمع مجامر هؤلاء القوم البغاة ، وصنع بها غشاء للمذبح ، تذكرة لبني إسرائيل ، لكل من تسول له نفسه التمرد على السلطة الشرعية القائمة ، أو اختلاس الكهنوت (عد ١٦..)

في هلاك أربعة عشر ألفاً من المتذمرين :

وكان في اليوم التالي لموت المئتين والخمسين رئيساً ، أن طفق كل جماعة إسرائيل يتذمرون على موسى وهرون ، بسبب موت هؤلاء الرؤساء .

و إذا بغضب الرب يشتد عليهم فيكاد يفنيهم . فأخذ هرون مجمرته ووضع فيها من النار المقدسة التي على المذبح وألقى عليها بخوراً ، وأسرع إلى ما بين الجماعة ، فقدم البخور وكفر عن الشعب ، كما أوصاه موسى ، ووقف بين الموتى والأحياء ، فكفت الضربة .

فكان عدد الذين ماتوا بهذه الضربة أربعة عشر ألفاً وسبع مئة ، خلا من مات بسبب قورح (عد ١٦..)

في عصا هرون التي أزهرت :

وشاء الرب أن يؤيد بأعجوبة باهرة ، قراره الأبدي باختيار هرون ونسله لرتبة الكهنوت المقدس . وذلك قطعاً لدابر كل تذمر في المستقبل .

فأمر موسى قائلا : خذ عصاً لكل رئيس من رؤساء بيوت إسرائيل ، إثنتي عشرة عصاً ، واكتب اسم كل واحد على عصاه ، واسم هرون اكتبه على عصا سبط لاوي ، وضعها جميعها في خباء المحضر أمام الشهادة . فالرجل الذي أختاره تفرخ عصاه .

ففعل موسى كما أمره الرب ، ووضع الإثنتي عشرة عصاً أمام الرب في خباء

الشهادة . فلما كان الغد أفرخت عصا هرون ، فأخرجت براعيم وأزهرت وأنضجت لوزاً .

فرأى الأعجوبة الرؤساء وكل الجماعة فآمنوا ، ولم يشكك أحد من بعد فى سلطة هرون . وأمر الرب موسى ، فرُدت العصا إلى خباء الشهادة ، لتحفظ آية لذوى التمرد على مدى الأجيال (عد ١٧..)

الفصل الرابع

من قادش إلى شرق الأردن

فى انقراض الجيل القديم كله فى البرية :

وكان بعد تلك الحوادث الدامية ، التى ذكرناها آنفاً ، والحكم على أهل الجيل القديم ، الذين صعدوا من مصر ، بالموت فى البرية ، أن يم بنو إسرائيل بأمر الرب ، ناحية بحر القلزم .

وبعد تنقلات عديدة فى طول وعرض شبه جزيرة سيناء ، دامت ما يقرب من سبع وثلاثين سنة ونصف سنة ، حتى انقرض الجيل القديم كله ، أن انتهى بهم المطاف ، فى الشهر الأول من السنة الأربعين بعد خروجهم من مصر ، إلى برية صين . فأقاموا بقادش من جديد . وذلك حتى زحفهم إلى أرض الموعد ، واستيلائهم على مملكتى سيحون وعوج شرق الأردن .

لقد ذكر الكتاب المقدس بالتفصيل جميع الأقاليم والمراحل ، التى مرّ بها إسرائيل أثناء إقامته الطويلة بالبرية . وذلك فى الفصل ٣٣ من سفر العدد . فإن شئت الاطلاع عليها ، فراجع هذا الفصل . أما الحوادث التى رافقت تلك السنين الطوال فيسكت عنها تماماً .

فى ماء الخصومة :

وحدث فى قادش ، بعد وفاة مريم ، أخت موسى بمدة وجيزة ، أن نضبت المياه ربما بسبب عدم نزول المطر ، فخاصم الشعب جميعه موسى وهرون ، وقالوا : يا ليتنا متنا

عند موت إخوتنا أمام الرب . لماذا أصعدتمانا من مصر ، فجئتما بنا إلى هذا الموضع الخبيث ، موضع لا زرع فيه ، ولا ماء للشرب[١] .

فأقبل موسى وهرون من أمام الجماعة ، إلى خباء المحضر فى شبه يأس ، فسقطا على أوجههما . فتجلى لهما مجد الرب . وقال الرب لموسى : خذ العصا واجمع الجماعة أنت وهرون ، وكلما الصخرة على مشهد منهم ، فتعطى مياهها وتسق الجماعة و بهائمهم .

فأخذ موسى العصا ، وجمع وهرون الجماعة أمام الصخرة ، و يبدو أنه كان قد فقد شيئاً من صبره ، وكذلك شيئاً من ثقته برحمة الله نحو هذا الشعب المتمرد كآبائهم . فقال لهم بلهجة صارمة غير حكيمة : اسمعوا أيها المتمردون ، أنستطيع أن نخرج لكم من هذه الصخرة ماء . و بدلاً من أن يضرب الصخرة مرة واحدة ، بافتراض ضربها ، ضربها مرتين . فخرج ماء كثير فشرب منه الجماعة و بهائمهم .

فقال الرب لموسى وهرون : بما إنكما لم تؤمنا بى الإيمان كله ، ولم تقدسانى على عيون بنى إسرائيل بكلامكما وعملكما ، لذلك لا تدخلان أنتما هؤلاء الجماعة الأرض التى أعطيتها لهم (عد ٢٠ : ١ — ١٢)

* عقاب هذا ، وأيم الحق صارم . ولكنه كان آخر تجربة قاسية يمر بها هذان الرجلان العظيمان ، لتنقية نفسيهما التنقية النهائية .

فى زحف إسرائيل إلى أرض الموعد وموت هرون :

ولما هم إسرائيل بأمر الرب ، أن يبدأوا زحفهم إلى أرض الموعد ، أوفد موسى من قادش رسلاً إلى ملك أدوم يستأذنه المرور بأرضه ، وأن يفعل معهم هذه الرحمة مراعاةً للأخوة التى تربطهما ببعض ، ولا سيما بعد كل ما نالهم من المشقة .

غير أن ملك أدوم رفض رفضاً باتاً أن يمروا بتخومه ، مهدداً بأنه لن يتردد عن محاربتهم ، إن هم حاولوا ذلك . فتحول إسرائيل عنه ، واضطروا أن يرجعوا إلى الوراء ، ويدوروا من حول أدوم . فقد عز على موسى إذ ذاك أن يصطدم ، أول ما يصطدم ، فى موقعة حربية مع من له اعتبار الأخ الأكبر .

(١) إن الجيل الجديد يبدى من روح المقاومة والتذمر ، ما أبداه الجيل القديم ، جيل آبائهم ، مما جعل موسى يشك فى تحقيق مواعيد الله لهذا الشعب القاسى الرقبة .

وارتحل بنو إسرائيل من قادش وأقبلوا إلى جبل هور . حيث مات هرون وانضم إلى قومه ، وله من العمر مئة وثلاث وعشرون سنة . فبكاه جميع آل إسرائيل مدة ثلاثين يوماً . وخلفه بأمر الرب ، على رئاسة الكهنوت أليعازر ابنه (عد ٢٠ : ١٤ —)

الحية النحاسية :

وسمع الكنعانى ملك عراد ، المقيم بالجنوب ، بوجود الاسرائيليين بالقرب من تخومه ، فخرج لمقاتلتهم . إلا أنه ما لبث ، بعد انتصارات طفيفة — فاز بها فى بدء المعركة — أن هزم ورجاله شر هزيمة .

وبذا محا الاسرائيليون صفحة العار تلك ، التى كتبها آباؤهم ، عند ما حاولوا اقتحام جبل أولئك الكنعانيين ، فى بدء غربتهم عند خروجهم من مصر .

ورحلوا من جبل هور ، مستأنفين ما شرعوا فيه من لف حول أرض أدوم ، لبلوغ أرض الموعد . وحدث فى الطريق أن ضجرت نفوسهم من طول الشقة وتعب السفر ، فأخذوا يتشكون ويتذمرون على الرب وعلى عبده موسى .

فأرسل الرب عليهم حيات نارية ، فلدغت الشعب ، ومات قوم كثيرون . وما أن رأوا انتقام الرب السريع حتى هرعوا إلى موسى مقرين بخطيئتهم ، وقالوا : قد خطئنا إذ تكلمنا على الرب وعليك ، فادع الرب أن يزيل عنا الحيات .

فتضرع موسى لأجل الشعب ، فقال له الرب : اصنع لك حية وارفعها على سارية ، فكل من لدغ ونظر اليها يحيا . فصنع موسى كما أمره الرب ، فكان أى انسان لدغته حية ، ونظر إلى الحية النحاسية ، نال من فوره الشفاء (عد ٢١ : ١ — ٩)

* ترمز الحية النحاسية إلى سيدنا يسوع المسيح ، الذى خلص الناس ، بتعليقه ذاته على راية الصليب ، من لدغة الحية القديمة الشيطان ، أى الخطيئة

فى انتصار اسرائيل على سيحون وعوج ملكى شرقى الأردن :

واستأنف بنو اسرائيل رحيلهم إلى أرض الموعد ، فجاءوا وخيموا أولا فى أوبوت ثم فى عاي عباريم فى البرية تجاه موآب .

و بعد أن عبروا وادى زارد ونهر أرنون ، وهو الفاصل بين الموآبيين والأموريين ، جاءوا وخيموا فى منطقة البئر ، وهى آخر مرحلة فى الصحراء .

وما أن توغلوا قليلا فى الأراضى الخصبة ، حتى حطوا رحالهم فى حقل موآب ، وهو ذلك المرتفع الواقع شمال شرقى البحر الميت ، الممتد من باموت إلى رأس الفسجة من ناحية الصحراء .

وبعث بنو إسرائيل رسلاً إلى سيحون ملك الأموريين قائلين دعنا نمر فى أرضك ، ولا تخشى من أن نحدث تلفاً لحقل أو كرم ، أو أن نشرب ماء بئر .

فكان جوابه أن خرج عليهم بجيش جرار يريد الفتك بهم ، فضربه بنو إسرائيل بحد السيف ، واستولوا على مملكته من نهر أرنون إلى نهر يبوق حتى حدود بنى عمون .

و بعث موسى من يجس الأرض شمالاً ، فخرج عليهم عوج ملك باشان ، هو وجميع قومه لمحاربة إسرائيل ، فقال الرب لموسى ، لا ترهبه فإنى قد دفعته إلى يدك ، تصنع به كما صنعت بسيحون ، فضربوه هو و بنيه وجميع قومه ، حتى لم يبق له شريد ؛ وورثوا أرضه (عد ٢١ : ١٠-٠٠)

الفصل الخامس

فى قصة بلعام[1]

دعوة بلعام ليلعن إسرائيل :

وكان بعد تلك الانتصارات الباهرة الخاطفة ، التى حازها إسرائيل ، أن عسكر كل الجماعة فى صحراء موآب ، تجاه عبر أردن أريحا ، فى انتظار أمر الرب بغزو أرض الموعد غربى الأردن .

وظن بالاق بن صفور ملك موآب أنهم يستعدون لمهاجمته ، فخاف جداً . لأنه لم يسمح لهم بالمرور فى أرضه . و بما أنه لم يكن يعرف شيئاً عن التعليمات الخاصة ، التى أصدرها الرب لإسرائيل بعدم مهاجمته . و بما أنه شهد ملوكاً أقوى منه يخرون صرعى

(١) وردت قصة بلعام فى سفر العدد فى الفصل ٢٢ و ٢٣ و ٢٤

أمام جحافل إسرائيل ، فقد رأى من الحكمة أن يذهب بنفسه إلى شيوخ مدين يطلب محالفتهم . وقد تآمر معهم بأن لا يبدأوا بمهاجمة إسرائيل ، إلا بعد ما ينزل بلعام بهم اللعنة !

و بناءً عليه فقد أرسل وفداً إلى بلعام من شيوخ موآب ومدين محملين بالهدايا ، ليغروه على المجيء معهم ليلعن إسرائيل . غير أن هؤلاء الرسل لم يوفقوا فى محاولتهم هذه ، لأن الرب كان قد أمر بلعام قائلاً : لا تمضِ معهم ، ولا تلعن الشعب لأنه مبارك .

فعاود بالاق وأرسل لبلعام رسلاً آخرين أكثر من الأولين ، وقد أجزل له العطايا . فقال بلعام لرسل بالاق : لو أعطانى بالاق ملء بيته فضة وذهباً ، لا أستطيع أن أتجاوز أمر الرب إلهى ، فأعمل شيئاً صغيراً أو كبيراً .

غير أن هبات الملك والهدايا الثمينة والوعد بالمجد والكرامة ، كل هذه أخذت تغريه شيئاً فشيئاً . ولذا على الرغم من معرفته التامة لإرادة الله ، فقد قال لهؤلاء الرسل : أمكثوا أنتم أيضاً هذه الليلة ، فأرى ما يعاود الرب يكلمنى به . فأذن له الله بالذهاب معهم ، على أن لا يصنع إلا ما يأمره به .

فى كيف أن أتان بلعام تكلمت :

وكان بلعام فى طريقه مع الرسل إلى موآب ، و يبدو أن الطمع كان قد بدأ يملك قلبه ، و إذا بالأتان التى كان يركبها تقف فجأة وتربض تحته . وعبثاً حاول بلعام ضربها لتتحرك من مكانها فلم تتحرك ، لأنها كانت قد رأت ملاك الرب شاهراً سيفه أمامها فخافت منه .

وأخيراً فتح الرب فم الأتان فقالت لبلعام : ماذا صنعت بك حتى ضربتنى ثلاث مرات . فقال بلعام : لأنك سخرت منى ، ولو كان فى يدى سيف لكنت قتلتك . فقالت : ألست أنا أتانك التى تركبها منذ عهد طويل ، فهل عودتك أن أصنع بك هكذا ؟ قال لا .

وفى تلك اللحظة كشف الله عن بصر بلعام فرأى الملاك وسيفه مسلول . فخر

ساجداً . فقال له الملاك : إنما خرجت فى وجهك ، لأن طريقك معوج أمامى ، ولو لم تمل عنى الأتان لقتلتك الآن وأبقيتها .

فقال بلعام الملاك : لقد خطئت ، والآن فإن ساء فى عينك فإنى أرجع من حيث أتيت . فقال له الملاك : إمض مع القوم ، والقول الذى أقوله لك إياه تقول فقط ، وإياك أن تتعداه .

فى نبوة بلعام عن مجىء المسيح المخلص :

ولما بلغ بلعام أرض موآب ، أخذه بالاق إلى رابية تطل على معسكر إسرائيل ليلعنهم ، ولكنه بدلاً من أن يلعنهم باركهم . وقد حاول وراء إلحاح بالاق مرة ثانية وثالثة أن يلعن إسرائيل ، ولكنه لم يستطع أن يعمل شيئاً سوى أن يباركهم ، لأن قوة العلى وروح النبوة كانا يضطرانه على ذلك .

لا بل وفى المرة الأخيرة تنبأ بهذه النبوة الشهيرة عن مجىء المسيح المخلص قائلاً : « أراه (أى المسيح) وليس حاضراً ، أبصره وليس بقريب . يسعى كوكب من يعقوب ويقوم صولجان من إسرائيل » (عد ٢٤ : ١٧)

* يرمز الكوكب والصولجان فى الآية كما هو واضح إلى ظهور ملك عظيم ، وهو ولا شك المسيح المخلص ، الذى ينبغى أن يولد من ذرية يعقوب .

فى شخصية بلعام :

لم يكن بلعام بن بعور ، الرجل السامع أقوال الله ، والعارف معرفة العلى ، أى بما يوحيه إياه إليه الله ، والناظر مناظر القدير ، أى ما خفى من الأمور مما لا يمكن معرفته إلا بقدرة الله ، لم يكن بلعام هذا ساحراً أو نبياً كاذباً ، كما ظن بعض الآباء القديسين ، بل نبياً حقيقياً ، كما يظهر بوضوح من معرفته التامة للاله الحقيق ، وعدم إقحام نفسه فى عمل أى شىء دون استئذانه تعالى . ولو أنه كان يترك أحياناً العنان لشهوة الطمع أن تسيطر عليه .

ومن ثم لا يمكن أن ينكر أنه شخصية شاذة ، يتمثل فيها الضعف البشرى بكل معانيه . ولا سيا إذا قسنا هذه الشخصية بشخصية سائر الأنبياء القوية .

وقد أخطأ بلعام ولا شك عدة مرات بالبخل والطمع ، ولا سيما بإعطائه مشورة السوء لبالاق .

وبما أن النبوة ، كموهبة صنع العجائب ، هى من المواهب المجانية المحضة ، فلا عجب أن يعطيها الله أحياناً ، لحكمة سامية ، إلى بعض الخطاة أيضاً .

فى تعلق بنى إسرائيل ببعل فغور ومعاقبة فجورهم :

وفى شطيم ، وهى إحدى المدن الواقعة على حدود موآب الشمالية ، أخذ شعب بنى إسرائيل يفجرون مع بنات موآب ومدين . واستطاعت هؤلاء النسوة الساقطات من جذب الشعب إلى السجود لآلهتهن ، والتعلق ببعل فاغور ، أحد المعبودات الشهيرة .

ولم يحدث ذلك اتفاقاً ، بل كان بمؤامرة دبرها بلعام لإهلاك إسرائيل . فقد أشار على بالاق بأن الطريق الوحيدة للنيل من مناعة إسرائيل هى إيقاعه فى المعصية ، والتمرد على الله بعبادة آلهة غريبة .

وقد تفاقم الشر إلى درجة أن أحد رؤساء إسرائيل ، لم يخش أن يقود علانية إحدى تلك النسوة الساقطات إلى المحلة ، على مشهد من موسى وكل جماعة إسرائيل .

وكان بسبب هذه الشرور المتلاحقة أن ضرب الله محلة إسرائيل بالوباء ، فمات أربعة وعشرون ألفاً من الشعب . ولم تكف الضربة ، إلا حينما أخذ فنحاس بن لعازر الكاهن رمحه وطعن ذلك الرئيس المستهتر والمرأة المدينية الباغية فى بطنها (عد ٢٥ ..)

وهاجم بعد ذلك بنو إسرائيل المدينيين بأمر الرب ، وأبادوهم جميعاً بحد السيف . وقتل فيمن قتل بلعام بن بعور نفسه ، فذهب غير مأسوف عليه ، ضحية مشورته الشيطانية (عد ٣١ ..)

الفصل السادس

فى أيام موسى الأخيرة

فى وصية موسى الأخيرة :

واستدعى موسى قبل وفاته جميع إسرائيل ، وألقى على مسامعهم ثلاث خطب طويلة ، بين فيها بإيجاز ووضوح ، جميع الرسوم والأحكام والوصايا ، التى أعطيت لهم على طور سيناء ، حاثاً إياهم على حفظها والعمل بها ، وقد ذكرهم بجميع النعم والآلاء التى أسبغها عليهم الله بسخاء ، طوال أيام تغربهم بالبرية .

ومن أقواله الذهبية لهم : والآن يا إسرائيل ، ما الذى يتطلبه منك الرب الهك إلا أن تتقيه ، سالكاً فى كل طرقه ، وتحبه وتعبده بكل قلبك وكل نفسك . وتحفظ وصاياه ورسومه وأحكامه ، لتحيا وتكثر ، ويباركك الرب إلهك فى الأرض التى أنت داخل إليها لتملكها . أما إذا زاغ قلبك ولم تسمع ، وملت وسجدت لآلهة أخرى ، فقد أنبأتكم اليوم أنكم تهلكون هلاكاً .

ثم دعا موسى ، بعد ما فرغ من إلقاء جميع خطبه ، يشوع بن نون ، وهو الذى اختاره الله ليكون خلفاً له ، وقال له بحضرة جميع إسرائيل : تشدد وتشجع فإنك أنت تدخل مع هؤلاء الشعب ، الأرض التى أقسم الرب لآبائهم أن يعطيها لهم ، وأنت تورثهم إياها . والرب سائر أمامك ، هو يكون معك ، لا يهملك ولا يتركك ، فلا تخف ولا تذعر .

وبعد ما بارك موسى بنى إسرائيل بركته الأخيرة ، دفع التوراة إلى الكهنة وأوصاهم بتلاوتها وشرحها على مسامع الشعب كل حين ، ولا سيما فى المواسم والأعياد .

* وتحوى التوراة ، التى كتبها موسى بخط يده ، الخمسة الأسفار الأولى من الكتاب المقدس ، وهى : سفر التكوين ، والخروج ، والأحبار أو اللاويين ، والعدد ، وتثنية الاشتراع .

وقد احتوى سفر تثنية الاشتراع على الثلاث الخطب ، التى أشرنا إليها آنفاً فى أول المقال .

فى نبوة موسى عن مجىء المسيح المخلص :

ومن أخطر نبوات موسى نبوته عن مجىء المسيح المخلص ، حيث يبين لنا أنه علاوة على صفاته السابقة ، التى وصفه بها الآباء القديسون ، من آدم إلى نوح ، وإبراهيم ويعقوب ، و بلعام النبى الغريب ، يبين لنا أنه سيكون مثله نبياً عظيماً ومشترعاً فريداً ، بل ومعلم البشرية الأعظم ، الذى يجب أن يسمعوا له .

وقد فاه بهذه النبوة الخطيرة لحظات قبل وفاته ، قال : « يقيم لك الرب إلهك نبياً من إخوتك مثلى ، له تسمعون » (تث ١٨ : ١٥)

فى موت موسى : (١٤٨٥ ق . م)

وصعد موسى ، رجل الله ، جبل نَبُو إلى قمة الفسجة ، تجاه أريحا ، فأراه تعالى من أعلى تلك القمة جميع أرض الموعد ، وما حوته من غنى ومناظر خلابة ، قائلا له : هذه هى الأرض التى أقسمت لإبراهيم واسحق ويعقوب قائلا لنسلكم أعطيها . ها قد أريتك إياها بعينيك ، قبل وفاتك ، ولكنك إلى هناك لا تعبر .

فمات هناك موسى ، رجل الله وكليمه ، بعيداً عن أنظار بنى إسرائيل ، مسلماً روحه الطاهرة بين يدى خالقها . فدفنته الملائكة بأمر الله ، فى مكان مجهول . ولم يعرف إلى اليوم أحد قبره

وكان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات : لم يكل بصره ، ولا ثقلت أذنه ، ولم تذهب كثرة السنين بشىء من نضرته .

ولم يقم فى إسرائيل من بعد موسى نبى أعظم ، فى صنع جميع الآيات والمعجزات ، وفى كل يد قديرة ، وكل مخافة عظيمة .

فبكاه بنو إسرائيل فى صحراء موآب شهراً كاملاً إلى أن انقضت أيام حزنه .

وقد خلفه كقائد لإسرائيل يشوع بن نون ، الذى ملأه الله من روح الحكمة ، فأطاعه بنو إسرائيل (تث ٣٤ . .)

الفصل السابع

يشوع بن نون وفتح أرض الموعد

فى عبور نهر الأردن :

وكان بعد وفاة موسى عبد الله ، وانقضاء أيام مناحته ، أن الرب أمر يشوع بن نون قائلا له : قم ، فاعبر هـذا الأردن ، أنت وجميع هؤلاء الشعب ، إلى الأرض التى أنا معطيها لبنى إسرائيل . كما كنت مع موسى أكون معك . إنما تشدد وتشجع جداً ، وحافظ عل جميع الشريعة ، لـكى تفلح فى جميع أعمالك . والآن ، هاءنذا قد أمرتك فتشدد . لا ترهب ولا تفشل ، لأنى أنا الرب إلهك أكون معك حيثما توجهت .

فقام يشوع ، وهو على أتم ما يكون من الثقة بالله ، وأمر الشعب بأن يتطهروا ويستعدوا ، لأنهم بعد ثلاثة أيام يعبرون الأردن ، ليمتلكوا الأرض ، التى وعد بها الله آباءهم (يش ١ ..)

وأرسل يشوع جاسوسين يجتسان أريحا وضواحيها ، ووافق رجوعهما إليه اليوم الثالث من إنذار الشعب . وإذ بشراه قائلين : قد دفع الرب إلى أيدينا جميع الأرض ، وقد انحل جميع سكانها خوفاً أمامنا (يش ٢..) . قام فرحل من شطيم وأقبل إلى الأردن ، هو وجميع بنى إسرائيل ، و باتوا هناك ليلتهم .

وكان الأردن إذ ذاك طافحاً من جميع جوانبه ، وقد بلغ عرضه نحو ستين متراً ، فى عمق أربعة أمتار تقريباً .

فأمر يشوع ، وهو يثق تماماً بقدرة العلى إله إسرائيل ، أن يتقدم الـكهنة حاملو تابوت العهد إلى الأمام ، فيتبعهم الشعب على مسافة منهم .

فلما دنا التابوت من نهر الأردن ، وما كادت تلمس أقدام الـكهنة مياهه ، حتى انفلقت تلك المياه إلى شطرين ، ووقف الماء الأعلى عن جريانه وارتفع كالجبل ، وانحدر الماء الأسفل حتى البحر الميت وانقطع ، فبان اليبس .

فاجتاز جميع بنى إسرائيل الأردن على اليبس . وبقى الـكهنة حاملو التابوت على

اليبس فى وسط النهر ، حتى عبرت الجماعة كلها إلى الشاطىء الآخر (يش ٣ ..)

وأمر يشوع ، تخليداً لهذا الحدث التاريخى العجيب ، بأن يقام نصب تذكارى من اثنى عشر حجراً ، أخذت من وسط النهر خصيصاً لهذا الغرض . وخاطب يشوع الجماعة بهذه المناسبة ، قائلاً : إذا سألكم غداً بنوكم وقالوا ، ما هذه الحجارة . تقولون لهم ، إن مياه الأردن قد انفلقت أمام تابوت عهد الرب عند عبوره إياه .

وكان بمجرد صعود الكهنة حاملى التابوت من النهر ، أن عادت المياه إلى مجراها الطبيعى (يش ٤ ..)



فى سقوط مدينة أريحا :

وخيم جميع شعب بنى إسرائيل فى الفضاء الصحراوى ، الذى بين الأردن وأريحا وفى هذا المكان ، الذى دعى بالجلجال (ومعناه التحرير من العبودية) أقام يشوع نصبه التذكارى الآنف الذكر .

أما صعود بنى إسرائيل من الأردن فكان فى اليوم العاشر من شهر نيسان ،

حيث عيدوا فى اليوم الرابع عشر منه بعيد الفصح . وفى ثانى يوم العيد ، أى فى اليوم الخامس عشر من نيسان انقطع نزول المن . فأكلوا من غلة الأرض ، فطيراً وفريكاً فى ذلك اليوم عينه . فكانت تلك أيام الحصاد ، وقد ترك سكان أريحا وراءهم محصول أرضهم ، محتمين بمدينتهم ، حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب المدينة .

وكان أول عمل قام به يشوع ، مذ وطأت أقدامهم أرض الموعد ، أن أمر بأن يختتن جميع الشعب ، عملاً بالعهد الذى بته الله مع إبراهيم . إذ كان الشعب قد أهمل القيام بهذه الفريضة الدينية ، التى كانت تقوم عندهم مقام المعمودية عندنا ، طوال المدة التى قضوها فى البرية (يش ٥..)

وبعد الاحتفال بالفصح وتكريس الشعب للرب بالختان ، قال الله ليشوع : أنظر ، إنى قد دفعت أريحا وملكها إلى يدك . فما عليكم إلا أن تطوفوا حولها ، جميع رجال الحرب ، يتقدمهم التابوت والكهنة نافخو أبواق الهتاف ، كل يوم مرة واحدة ، مدة ستة أيام . وفى اليوم السابع سبع مرات ، حتى تسقط المدينة على جميع سكانها ، فتأخذونها غنيمة باردة .

وقد تحقق كلام الرب تماماً ، لأنهم عملوا بجميع كلام الرب . . . وطافوا فى اليوم السابع حول المدينة سبع مرات . فلما كانت المرة السابعة نفخ الكهنة فى الأبواق ، وردد الشعب هتافهم بشدة ، فسقط سور المدينة فى مكانه ، وسقطت تلك الأبراج العالية المنيعة ، وتداعت المدينة كل أربعة أركانها ، فانهالت وهى تدوى دوياً مروعاً على سكانها ، فباد من باد تحت الأنقاض . وصعد المحاصرون كل فى جهته ، وأهلكوا البقية الباقية : جميع من فى المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ ، حتى البقر والغنم . بحد السيف كما أمر الرب .

أما راحاب وأهل بيتها ، وهى التى أخفت فى بيتها ، وخلصت من الموت الجاسوسين اللذين أرسلهما يشوع ، فإنها آمنت بالرب ، وأقامت وكل ذويها بين بنى إسرائيل كواحدة منهم ، بل وكان لها الشرف الذى لا يسامى فى أن تصير أماً لأحد جدود المسيح المخلص (يش ٦ .)

فى فتح مدينة العى وعقاب خطيئة عاكان المختلس :

وأرسل يشوع بعد سقوط أريحا نحو ثلاثة آلاف محارب من رجاله ليفتتحوا مدينة العى ، الواقعة شرقى بيت إيل ، إلا أنهم ما لبثوا أن منوا بشر هزيمة ، وقد قتل منهم أهل العى نحو ستة وثلاثين رجلا .

وكانت هذه الهزيمة النكراء ، لأن الرب لم يكن مع الجماعة . فقد تخلى عنهم لأن رجلا إسرائيلياً يدعى عاكان ، من سبط يهوذا ، كان قد تعدى فى أمر المبسل[1] . فاستولى على رداء بابلى ثمين ، ومئتى مثقال[2] من الفضة ، وسبيكة من ذهب ، وزنها خمسون مثقالا ، مخالفاً بذلك الأوامر الصريحة ، التى كانت تنهاهم عن أخذ أى شىء مهما كان زهيداً ، وإيداع جميع الفضة والذهب والآنية النحاسية والحديدية خزانة الرب

ولما كشف يشوع أمر هذه السرقة والخيانة العظمى ، أمر بصاحبها فأخذه كل الجمهور ، وأتوا به وأهل بيته إلى وادى عكور ، فرجموهم بالحجارة ثم أحرقوهم بالنار ! كما أمر الرب[3] (يش ٧ . .)

وبزوال الشر ، زال غضب الرب عن إسرائيل ، فاستطاعوا أن يأخذوا بسهولة مدينة العى جميعها ، ويبيدوا سكانها ، دون أن تلحقهم أى خسارة فى الأرواح (يش ٨ : ١ ـ ٢٩)

---

(١) الإبسال : اصطلاح يراد به حكم سام ، قضى به تعالى ، بإبادة مدينة أو شعب ، أو شىء ما إبادة تامة . بحيث إذا كان الحكم واقعاً على عين ، كان لابد من استهلاك العين فى سبيل الله ، دون أن يجوز لأحد الانتفاع بها .

(٢) الشاقل أو المثقال من الفضة ، عند اليهود ، كان يزن نحو ١٤ جراما . ومن ثم يعادل المثقال عشرة قروش مصرية تقريباً .

(٣) ليس من ينكر أن هناك تضامناً بشرياً ، سواء أكان فى الخير أم فى الشر . وبسبب هذا التضامن فان الخطايا الاجتماعية ، التى يرتكبها الفرد ، ممثل الجماعة ، تحسب على الجماعة كلها فتعاقب عليها . ومن ثم لا عجب ، أن يؤخذ البار أحيانا بخطيئة المنافق . هذا ، فى هذه الدنيا . أما فى الآخرة فلا يؤخذ إنسان إلا بخطاياه الخاصة .

فى تجديد العهد والمناداة بالشريعة :

ورأى يشوع بعد فتح أريحا والعى أن يكرس رسمياً أرض الموعد للاله الحقيق ، فبنى مذبحاً للرب إله إسرائيل فى جبل عيبال ، وأصعد عليه المحرقات وذبائح السلامة . وكان المذبح من حجارة غير منحوتة ، حسبما رسم موسى فى التوراة .

وفى سفح جبل عيبال بعد ما كتب يشوع نسخة من سفر تثنية الاشتراع نقشاً على ألواح حجرية ، وقف جميع بنى إسرائيل : الشعب وشيوخهم وعرفاؤهم وقضاتهم وكهنتهم على جانبى التابوت ، نصفهم إلى جهة جبل جرزّيم ، والنصف الآخر إلى جهة عيبال ، كما أمر موسى عبد الله[1] .

فتلا يشوع على مسامعهم جميع كلام التوراة ، وقد ضمنها كلمات اللعنة والبركة ، كما وردت فى سفر التثنية (يش ٨ : ٣٠ ..)

فى احتيال سكان جبعون :

ولما سمع جميع الملوك الذين فى عبر الأردن ، سكان الجبل والسهل وساحل البحر : الحثيون ، والأموريون ، والكنعانيون ، والفرزيون ، والحوّيون ، واليبوسيون بأخبار يشوع وحروبه المظفرة ، اجتمعت كلمتهم على محاربته و إسرائيل بكل ما لديهم من قوة .

أما سكان جبعون ، الذين لا تبعد مدينتهم عن أورشليم أكثر من أربعة أميال ، فلما سمعوا بما فعله يشوع بأريحا والعى ، وما صارت إليه كل من هاتين المدينتين الحصينتين ، خافوا بصواب من أن تحل بهم مثل هذه النهاية المريعة .

و بحيلة بارعة استطاعوا أن يخدعوا يشوع و بنى إسرائيل ، فيبتوا معهم محالفة عدم اعتداء عليهم . فقد أرسلوا إلى يشوع رسلاً ماكرين ، إنتعلوا بنعال عتيقة مرقعة ، ولبسوا ثياباً بالية ، وحملوا كزاد لهم خبزاً يابساً عفناً ، وقالوا ليشوع و بنى إسرائيل : إننا قادمون من أرض بعيدة ، فاقطعوا لنا عهد سلام .

فخدع يشوع وكل شيوخ إسرائيل بهذا الكلام وهذه المظاهر ، ولا سيما لأنهم لم يلتمسوا مشورة الرب ، وصدقوا أنهم قادمون حقيقةً من بلاد بعيدة ، و بالتالى ليسوا

---

(١) يقع جبل عيبال فى أواسط بلاد فلسطين ، فى مواجهة جبل جرزيم .

فى عداد من يجب إبادتهم ، فعاهدوهم على ما شاءوا . وسالمهم يشوع ، وقطع لهم عهداً على استبقائهم ، وحلف لهم رؤساء الجماعة بذلك .

وكان بعد ثلاثة أيام من قطعهم العهد معهم ، أن سمعوا أن القوم جيران لهم ، وأنهم ساكنون فيما بينهم . وبما أنهم لم يستطيعوا ضربهم بالسيف من أجل اليمين ، فقد عاقبهم يشوع على خداعهم له وكذبهم ، بأن جعلهم محتطبى حطب ومستقى ماء للجماعة ولمذبح الرب (يش ٩ ..)

يشوع يوقف الشمس :

واجتمع بعد ذلك بقليل ، كل من ملك أورشليم ، وملك حبرون ، وملك يرموت ، وملك لاكيش ، وملك عجلون ، وهم من ملوك الأموريين ، وصعدوا بجميع جيوشهم ونزلوا على جبعون ، حليفة يشوع ، وحاربوها .

فأرسل أهل جبعون فى طلب الإغاثة من يشوع ، فجاء وجميع رجال الحرب معه وضرب أعداءه ضربة عظيمة ، وتعقبهم فى طريق بيت حورون إلى عزيقة وإلى مقيدة . وفيما هم منهزمون من وجه إسرائيل ، وهم فى منهبط بيت حورون رماهم الرب من السماء بحجارة من البرَد . فكان الذين هلكوا بالبرد أكثر من الذين قتلهم بنو إسرائيل بالسيف .

إلا أن هذا الانتصار الخاطف العظيم كاد يذهب هباء ، لو لم يأت الرب مرة أخرى لمساعدة يشوع بأعجوبة هى الأولى من نوعها ، فاقت بروعتها كل سابقاتها ، ألا وهى أعجوبة إيقاف الشمس يوماً كاملاً .

فقد كلم يشوع حينئذ الرب بثقة عظيمة ، سائلاً إياه بأن لا تفلت من يده تلك الفرصة السانحة . ثم التفت إلى الشمس ، وقال على مشهد من كل إسرائيل : « يا شمس قفى على جبعون ، ويا قمر أثبت على وادى أيالون » . فوقفت الشمس فى كبد السماء ، ولم تمل للمغيب مدة يوم كامل ، وثبت القمر إلى أن انتقم يشوع من جميع أعدائه ، وانتصر عليهم انتصاراً كاملاً .

وهرب الملوك الخمسة المذكورون واختبأوا فى مغارة مجاورة ، فأمر يشوع فسدت

عليهم المغارة . ولما انتهت المعركة أخرجهم وقتلهم ، ثم علقهم على خمس خشبات حتى المساء إرهاباً لجميع أعدائه (يش ١٠ : ١ — ٢٧)

* * *

و بعد ما انتصر يشوع على جميع أرض الجبل وجميع ملوكها ، ضرب جميع مدن الجنوب والسهل والسفوح ، من قادش برنيع إلى غزة ، مع جميع أرض جوشن إلى جبعون .

واستطاع يشوع أن يخضع كل تلك المدن والملوك ، و يستولى على أرضهم ، فى حرب خاطفة ، لأن الرب إله إسرائيل كان يحارب عن بنى إسرائيل شعبه المختار . (يش ١٠ : ٤٠..)

فى انتصار يشوع على ملوك الشمال :

وكان لا بد ليشوع بعد انتصاره على ملوك الجنوب وأواسط فلسطين ، من مواجهة ملوك الشمال ، وقد جمعهم يابين ملك حاصور فى محالفة ضد إسرائيل .

و بما أنهم كانوا قد صمموا على إبادة إسرائيل فقد خرجوا بكل جيوشهم ، فى خلق كثير ، مثل الرمل الذى على البحر ، وخيل ومركبات حربية كثيرة جداً .

وقد تجمعت كل جموع هؤلاء الحلفاء فى السهل المحيط ببحيرة ميروم (الحولة) شمال بحيرة جنيصارات ، إستعداداً لمنازلة إسرائيل .

فقال الرب ليشوع : لا ترهب وجوههم ، فإنى فى مثل هـذا الوقت من غد أجعلهم جميعاً صرعى أمام إسرائيل ، فعرقب أنت خيلهم وأحرق مراكبهم بالنار . فخرج يشوع عليهم بجميع رجاله ، بغتة ، وانقضوا عليهم انقضاض الصاعقة ، التى تسقط فجأة دون سابق نذير . فضربوهم ضربة عظيمة جداً ، ولم يكفوا عن مطاردتهم حتى أفنوهم عن بكرة أبيهم ، فلم يبق منهم باق . ثم عادوا فدخلوا حاصور وكل تلك المدائن التى كانت تخضع لأولئك الملوك ، فأخضعوها لسلطانهم ، وغنموا ثروتها .

* * *

وبهذه الحروب الخاطفة استطاع يشوع ، في فترة من الزمن وجيزة ، أن يخضع لبنى إسرائيل كل فلسطين ، فيما عدا بعض المدن والضياع الجبلية ، وبعض المدائن الواقعة على ساحل البحر ، كغزة وأشدود وجت . . وصور وصيدا .

وذلك بعد ما انتصر ، فى حروب مظفرة ، على واحد وثلاثين ملكاً ، من ملوك كنعان . وقد أخذوا الكل بالحرب ، حيث لم تكن قبيلة أو مدينة سالمت بنى اسرائيل سوى الحويين سكان جبعون (يش ١١ و١٢ .)

فى تقسيم أرض الموعد :

ولما فرغ يشوع من جميع حروبه ، شرع فى تقسيم الأرض على بنى إسرائيل . فأعطى سبط رأوبين وجاد ونصف سبط منسى ميراثهم شرقى الأردن ، كما وعدهم موسى .

وقسم الأرض التى غربى الأردن بين باقى الأسباط . وقد تعينت حصة كل سبط عن طريق القرعة (يش من الفصل ١٤ إلى الفصل ١٩)

أما اللاويون ، وهم المختصون بخدمة المذبح ، فلم يعطهم ميراثاً مع إخوتهم ، لأن الرب قد خصص لهم عشر محصولات الأرض ، وقد عينت لهم ، كما أمر الرب ، ثمان وأربعون مدينة مع ضواحيها للسكنى ، متفرقة فى جميع أنحاء إسرائيل (يش ٢١ ..)

وكلم الرب يشوع ، ففرزت ست مدن من مدن اللاويين ، دُعيت بمدن الملجأ ، يهرب إليها كل قاتل قتل سهواً من غير قصد ، فتكون مأواه وملجأه الأمين من انتقام ولى الدم . وذلك إلى حين وقوفه أمام القضاء ، ثم إلى أن يموت الكاهن العظيم — هذا فى حالة ظهور براءته — فيعود إلى مدينته الأصلية وأهله .

وهذه المدن هى : قادش فى الجليل ، وشكيم فى السامرية ، وحبرون فى اليهودية . ثم جَولان ، وراموت جلعاد ، وباصر شرقى الأردن (يش ٢٠ ..)

وعلى هـذا النحو أعطى الرب إسرائيل شعبه جميع الأرض ، التى حلف عليها لآبائهم ، فامتلكوها وأقاموا بها . محققاً لهم جميع المواعيد الصالحة التى وعدهم بها . وبذا لم تسقط كلمة واحدة من جميع كلام الخير الذى كلمهم به ، بل تم الكل فى أوانه . (يش ٢١ : ٤١ ..)

فى موت يشوع :

و بعد أن أراح الرب إسرائيل من جميع أعدائهم بفترة طويلة ، دعا يشوع ـ وكان قد شاخ وطعن فى السن ـ جميع إسرائيل وشيوخهم ورؤساءهم وقضاتهم وعرفاءهم ، و بعد أن ذكرهم بجميع نعم الله وآلائه ، طفق يحثهم على الثبات فى عبادة الرب إله إسرائيل ، وأن لا يحيدوا عن طرقه ، و يتعدوا عهده ، و إلا حلت بهم جميع اللعنات التى تهددهم بها موسى عبد الله .

وقال فى ختام حديثه لهم : إذن فاتقوا الرب ، واعبدوه بكمال و إخلاص . أما إذا كان يسوءكم أن تعبدوا الرب ، فاختاروا لكم اليوم من تعبدون . أما أنا و بيتى فنعبد الرب .

فأجاب الشعب وقالوا : حاشا لنا أن نترك الرب ونعبد آلهة غريبة . بل نحن أيضاً نعبد الرب لأنه إلهنا (يش ٢٣ و ٢٤ ..)

ومات يشوع عبد الله بعد ذلك بقليل ، وهو ابن مئة وعشر سنين فدفنوه فى أرض ميراثه ، فى تمنة فى جبل إفرائيم .

الفصل الثامن

فى حكم القضاة

حالة بنى اسرائيل السياسية والدينية عقب موت يشوع :

إن حالة بنى إسرائيل السياسية والدينية كانت حتى آخر أيام يشوع فى تقدم وازدهار . لا بل إن هذه الفترة السعيدة تمتد إلى ما بعد موته نيف وعشرين سنة ، أى حتى موت أولئك الشيوخ ، الذين عاينوا الأعمال العظيمة ، التى صنعها الله من أجل شعبه إسرائيل ، ومنهم كالب بن يفنا .

ولذا فلا عجب ، أن نرى الأسباط يسألون الرب من فورهم ، بعد موت يشوع ، عمن يتقدم صفوفهم ، فيبدأ بمهاجمة الكنعانيين . فإن كثيراً من الضياع والقرى والمدن ، كانت لا تزال فى قبضة هؤلاء الكنعانيين أصحاب الأرض الأصليين .

فكان من واجب كل سبط استخلاص تلك الأراضى والمدن ، التى كانت من نصيبه بحسب قرعة ميراث كل منهم ، من أيدى أولئك الوثنيين ، الذين أمر الرب بإبادتهم .

وإذ أجاب الرب الأسباط بأن يتقدم يهوذا فيشعل نار الحرب على الكنعانيين ، خرج يهوذا وقد اصطحب معه بنى شمعون أخيه . وحمل السبطان على الفرزيين والكنعانيين ، فقتلوا منهم عشرة آلاف نفس فى بازق .

وقبضوا على ملكها « أدونى بازق » أى سيد بازق ، وقطعوا أباهيم يديه ورجليه فقال : إن سبعين ملكا مقطوعة أباهيم أيديهم وأرجلهم كانوا يلتقطون الفتات الساقط تحت مائدتى . فكما صنعت كذلك جازانى الله (قض ١ : ١ ـ ٧)

وحارب بنو يهوذا أورشليم فأخذوها وضربوها بحد السيف . غير أن عدداً من أهالى المدينة ، وهم اليبوسيون ، فقد أفلتوا من تلك المجزرة محتمين بالقطاع الأعلى من المدينة (قض ١ : ٢١)

وبعد افتتاح بعض المدن الأخرى ، ومنها : صفات ، التى دعيت باسم حرمة لإبادة جميع سكانها ، وغزة ، وأشقلون ، وعقرون ، أخذ حماس بنى يهوذا يخمد رويداً رويداً ، مكتفين بما حصلوا عليه من فتوحات . ولم يطردوا أحداً من سكان الوادى ، لأنهم خافوا مركباتهم الحديدية ! (قض ١ : ١٩)

أما باقى الأسباط فبعد افتتاح بعضهم بعض المدن القليلة فترت همتهم تماماً ، واكتفى كثير منهم بفرض الجزية على السكان الأصليين . فأقاموا فيما بين الكنعانيين أهل الأرض ، مخالفين بذلك أوامر الله الصريحة وتوصيات موسى ويشوع فيما يتعلق بإبادة هؤلاء السكان .

وعلى ذلك فلا عجب ، إذا رأينا الجيل الجديد ينشأ على الكفر والزندقة ، فيترك عبادة الله الحقيقية ليعبد البعل والعشتاروت آلهة الكنعانيين . وقد زاد فى الطين بلة ، إنهم لم يكتفوا بعدم إبادة هؤلاء الشعوب الوثنية ، كما أوصاهم الرب ، لئلا يكونوا لهم وهقاً وحجر عثرة ، بل وبتوا معهم معاهدات الصداقة والسلام ، ولم يتورعوا عن مصاهرتهم بإعطائهم بناتهم وأخذهم بناتهم ! (قض ٢ : ١٠ — ١٤ و ٣ : ٦)

وكانت النتيجة الحتمية لكل ذلك أن تدهورت الأخلاق والعقيدة والدين والسياسة معاً .

وسرعان ما تحول السادة العبرانيون إلى مسودين ، لأن يد الرب التى كانت معهم للخير ، باتت عليهم للشر ، بسبب سلوكهم المعوج الذى أسخطه تعالى ، فأسلمهم إلى أيدى أعدائهم . حتى إذا ما أحسوا بالذل يقصم ظهورهم ، وقد أضحوا نهباً للناهبين ، عادوا إلى صوابهم ، وتذكروا الرب إلههم ، فرجعوا إليه تائبين .

وعلى ذلك كانت أحوال بنى إسرائيل بعد موت يشوع ، تتغير بتغير أخلاقهم وآدابهم . فكانوا إذا أخطأوا يحبس الله تعالى عنهم معونته ، ويسلمهم إلى أيدى أعدائهم ، وإذا تابوا إليه وطلبوا عضده يرضى عنهم ، فيرسل من ينقذهم من سطوة ظالميهم .

ومن هنا قصة القضاة ، التى يرويها علينا سفر القضاة . ذلك السفر الجليل ، الذى يشهد بعناية الله الرحيمة ، التى تسهر على الجميع ، ولا سيما على المختارين . وأنه تعالى إنما يبتلى العصاة بالضيق ، ليعودوا إليه منسحقى القلب تائبين .

القضاة ورسالتهم :

هم جماعة الحكام ، الذين ساسوا إسرائيل فى الفترة ، من موت يشوع حتى اختيار شاول أول ملك لليهود . وتبلغ هذه الفترة نحو أربع مئة سنة على وجه التقريب .

بيد أن هؤلاء القضاة لم يكونوا حكاماً ، ولا حتى قواداً عسكريين بكل معنى الكلمة ، بل أبطالاً اختارهم الله رأساً من بين الشعب لمهمة معينة ، حسبما كانت تقتضيه الظروف ، وذلك لتخليص الشعب من أعدائهم ومضايقيهم .

ومن ثم لم تكن هناك خلافة متسلسلة الحلقات بين هؤلاء القضاة ، الذين لم تتعد سلطة القاضى منهم فى بعض الأحيان سبطه الخاص . وربما كان بعضهم معاصراً لبعض .

أما من جهة أخلاقهم فلم تكن ، على الدوام ، على ما يرام ، ولا سيما أخلاق بعضهم . فهم فى الواقع قادة عسكريون أكثر منهم مصلحون ، وإن اهتم بعضهم بهدم معابد الأصنام وتطهير شعبه من أرجاس الوثنية .

إن أشهر هؤلاء القضاة ، هم : عتنيئيل ، وأهود ، ودبورة النبية ، وبارق . ثم جدعون . ويفتاح وشمشون .

وقد ذكر الكتاب المقدس من القضاة أيضاً : شمجر ، وأبيملك المغتصب ، وتولع ، وإبصان ، وأيلون ، وعبدون . أما عالى رئيس الكهنة ، وصموئيل النبى ، اللذان بعدان خاتمة عهد القضاة ، فقد جاء ذكرهما فى سفر الملوك الأول .

فى قصة عتنيئيل وأهود وشمجر :

وصنع بنو إسرائيل الشر فى عينى الرب ، ونسوا العهد وعبدوا البعليم والعشتاروت[1] ، فاشتد غضب الرب عليهم وباعهم إلى يد كوشان ملك أرام النهرين ، فاستعبدهم ثمانى سنين .

فصرخ بنو إسرائيل إلى الرب طالبين رحمته ومعونته ، فأقام لهم مخلصاً فى شخص عتنيئيل بن قناز أخى كالب الأصغر . وكان روح الرب عليه فتولى القضاء لإسرائيل ، وخرج للحرب ، فأسلم الرب إلى يده كوشان . فاستراحت الأرض من غارات المغيرين أربعين سنة ، أى طوال أيام حياة عتنيئيل (قض ٣ : ٧ — ١١)

وعاد بنو إسرائيل بعد وفاته إلى عمل الشر ، فقوى الرب عليهم عجلون ملك موآب ، فاستعبدهم ثمانى عشرة سنة ، وذلك بعد ما نزع منهم أريحا مدينة النخل .

فصرخ بنو إسرائيل إلى الرب ، فأقام لهم مخلصاً هو أهود البنياميني ؛ وقد استطاع بحيلة بارعة أن يقتل عجلون فى مخدعه ، ويخلص بنى إسرائيل من عبودية الموآبيين ، وذلك بعد أن قتلوا منهم نحو عشرة آلاف رجل . فذل الموآبيون . واستراحت الأرض من قرصنتهم ثمانين سنة (قض ٣ : ١٢ — ٣٠)

وقام من بعد أهود شمجر ، فقتل من الفلسطينيين ست مئة رجل ، وخلص هو أيضاً إسرائيل (قض ٣ : ٣١)

---

(١) البعليم : أى أوثان البعل ، فالكلمة جمع مذكر فى العبرانية ، مفردها البعل . والبعل ، ومعناه بالعربية الرب أو السيد ، هو أشهر آلهة الكنعانيين . أما العشتاروت ، فاسم لصنم مشهور ، يدعى أيضاً الأشيرة . والكلمة جمع مؤنث فى العبرانية ، ومعناها الغابة . لأن هذا الوثن كان يعبد خصوصاً فى الغابات .

فى قصة دبورة النبية وبارق :

وعاد بنو إسرائيل فصنعوا الشر فى عينى الرب ، فسلط تعالى عليهم يابين ملك حاصور ، وكان لهـذا الملك رئيس جيش ، جبار بأس ، اسمه سيسرا ، تحت إمرته تسعمائة مركبة من حديد . قد ضيق الخناق على إسرائيل عشرين سنة .

وكان المتولى الحكم ، فى إسرائيل ، فى ذلك الزمن ، امرأة نبية تدعى دبورة . وكانت دبورة تجلس تحت نخلة بين الرامة وبيت إيل ، فيصعد بنو إسرائيل إليها لتقضى لهم .

فأرسلت ودعت بارق بن أبينوعم من قادش ، وأطلعته بما أمر به الرب : أن يذهب فيجند عشرة آلاف رجل ، من سبطى نفتالى وزبولون لمقاتلة سيسرا وتخليص إسرائيل من الطغيان . وأنه لاينبغى أن يخشى شيئاً لأن الله ناصره .

فقال لها بارق : إن أنت انطلقت معى انطلقت ، وإن لم تنطلقى فلا أنطلق .

فقالت له أنطلق معك . غير أنه لا يكون لك فخر فيما أنت آخذ فيه من نصر ، فإن الرب إلى يد امرأة يدفع سيسرا . وقامت دبورة فانطلقت معه .

ولما أخبر سيسرا أن بارق يريد منازلته ، جمع على عجل كل مركباته التسعمائة ، وجميع رجاله ، وخرج للبطش به . فقالت دبورة لبارق : قم ولا تخش فإن الرب اليوم يدفع جيوش سيسرا إلى يديك ، وهو ذا الرب يخرج أمامك .

فتشجع باراق ونزل وجميع رجاله العشرة آلاف ، وهجموا بغتة على معسكر سيسرا ، فألقى الرب الرعب فى قلوب سيسرا ورجاله ، فانهزم أمام باراق . فتعقبه باراق حتى حروشت ، وسقط كل من كان فى عسكره قتلا بحد السيف .

وهرب سيسرا راجلا ودخل خيمة ياعيل امرأة حابر القينى . (والقينيون هم من أقارب صفورة امرأة موسى) . فرحبت به ياعيل وقالت له : مل إلى يا سيدى ولا تخف . وأخذت تبالغ فى إكرامه ففرشت له ليستريح وغطته بالقطيفة ، وإذ طلب ماء ليشرب ، قدمت له وطب اللبن وسقته ثم غطته فنام .

وما كاد يستغرق فى نومه حتى أخذت وتد الخيمة ، وبكل شجاعة دقته فى صدغه حتى غرس فى الأرض فمات . (قض ٤ ..)

حينئذ سبحت دبورة و باراق بنشيدهما المشهور ، الذى يعد من أجمل الأناشيد التى تمجد البطولية ، والتى تفيض بشواعر الشكر والامتنان لناصر إسرائيل . وقد جاء ذكر هذا النشيد فى قضاة (٥ : ١ ـ ٣١)

فى قصة جدعون :

وما لبث أن عاد بنو إسرائيل فصنعوا الشر فى عينى الرب ، فأسلمهم للمدينيين ، الذين أذاقوهم مر العذاب . فكان إذا زرع إسرائيل يخرج المديانيون ، أوان الحصاد ، بماشيتهم وخيامهم فيجتاحون الأرض و يسلبون محصولها .

وكان لما ذل الإسرائيليون جداً أمامهم ، أن صرخوا إلى الرب فاستجاب دعاءهم وخلصهم على يد رجل يدعى جدعون من سبط منسى .

فبينما كان جدعون يدرس حنطته فى المعصرة خوفا من المديانيين ، تراءى له ملاك الرب ، وقال له : الرب معك أيها الجبار . انطلق بقوتك هذه وخلص إسرائيل من قبضة مدين ، فإنى قد أرسلتك .

فقال جدعون : كيف أستطيع أن أخلص إسرائيل ، وهذه عشيرتى أضعف عشيرة ، وأنا الأصغر فى بيت أبى . ولكن إن كانت هذه إرادة الله حقاً ، وهو الذى يرسلنى لهذه المهمة فاعطنى علامة بذلك .

ثم أخذ جدعون جدياً أصلحه طبخاً ، و بعض الفطير ليقرب لله قرباناً . ووضع قربانه بين يدى الملاك . فمد الملاك طرف العصا التى بيده ، ومس اللحم والفطير فصعدت نار فجأةً أتت على التقدمة جميعها ، وغاب الملاك عن عينيه .

فتيقن جدعون أنه ملاك الرب ، وخاف مغبة ذلك ، لأنه كان سائداً الاعتقاد ، أن من رأى ملاك الرب فإنه يموت موتاً ، فقال له الرب مطمئناً إياه : سلام لك لا تخف فإنك لا تموت .

وكان أول عمل قام به جدعون : إنه قام ليلاً مع عشرة من عبيده وهدم ، بأمر الرب ، مذبح البعل الذى لأبيه ، وقطع الغابة التى حوله . ولما علم أهل مدينته بالأمر ، جاءوا إلى يوآش أبيه ، وقالوا له : أخرج ابنك ليقتل ، لأنه فعل كذا وكذا .

فقال لهم : أأنتم تدافعون عن البعل ، أو أنتم تنجونه . . إن كان إلهاً فلينتقم لنفسه . . ومنذ ذلك اليوم دعا يوآش ابنـه : « يربعل » قائلاً يفتقم منـه البعل لأنه هدم مذبحه .

وكان بعد ذلك أن حل روح الرب على جدعون ، فنفخ فى البوق ، فاجتمع حوله اثنان وثلاثون ألفاً من رجال إسرائيل ، ولا سيما من أسباط منسّى وأشـير وزبولون ونفتالى .

إلا أنه على الرغم من هـذا العدد الـكبير من الرجال كان لا يزال يخشى منازلة مدين ، الذين كانوا كالجراد كثرة . ولا سيما بعد أن حالف مدين عماليق و بنى المشرق .



جدعون ينتصر على أعدائه

ومن هنا طلبه من الرب علامة تدل على تأييده له فى معركة التحرير الـكبرى التى انتدبه إليها . قال له بدالةٍ : إن كنت مخلص بنى إسرائيل على يدى : فهاءنذا واضع جُزاز صوف فى البيدر ، فإذا سقط الندى على الجزاز وحده ، وعلى سائر الأرض من حوله جفاف ، علمت أنك مخلص اسرائيل على يدى كما قلت لى . فـكان له ما طلب .

ولم يكتف جدعون بذلك فطلب آية أخرى ، قال لله : لا تغضب علىَّ ، فإنى أتكلم هذه المرة فقط : ليكن على الجزاز وحده جفاف ، وعلى سائر الأرض ندى . فكان له أيضاً ما طلب (قض ٦ . .)

وبكر جدعون بعد ذلك ونزل وجميع رجاله على « عين جرود » غربى بيسان استعداداً لمهاجمة محلة مدين ، التى كانت تعسكر تحتهم فى الوادى .

فقال الرب لجدعون : إن القوم الذين معك هم أكثر من أن أسلم مدين إلى أيديهم ، فقد يفتخرون ويقولون : أيدينا خلصتنا وليس الرب . فنادِ على مسامعهم وقل : من كان خائفاً مرتعداً فليرجع . فرجع منهم اثنان وعشرون ألفاً . وبقى معه عشرة آلاف . فقال الرب لجدعون لا يزال عددهم كثيراً .

وكان هناك مجرى من المياه ، فنزلوا ليشربوا . فكل من انقض على الماء يلغ بلسانه كما يلغ الكلاب ، وكذا كل من جثا على ركبتيه ليشرب ، فقد عزل ناحية وفصل عن الجيش بأمر الرب . فلم يبق سوى ثلثمائة جندى ، وهم من شربوا الماء بأيديهم .

فقال الرب لجدعون بهؤلاء الثلاث مئة رجل أخلصكم وأدفع مدين إلى يدك . وكان فى تلك الليلة أن كلم الرب جدعون وقال له : قم وانزل إلى المحلة ، لأنى قد اسلمتها إلى يدك . فقام جدعون لساعته وقسم الثلاث مئة رجل ، ثلاث فرق . وجعل أبواقاً فى أيديهم وجراراً فارغة خبأوا فيها مشاعل . وقال لهم كما تروننى أصنع فاصنعوا أنتم . ومتى نفخت فى البوق أنا وجميع من معى فانفخوا أنتم أيضاً وقولوا : السيف للرب ولجدعون .

فدخل جدعون ومئة جندى من رجاله طرف محلة المدينيين ونفخوا فى الأبواق . وضربوا الجرار التى بأيديهم بعضها ببعض وكسروها . وأخذوا المشاعل بأيديهم اليسرى والأبواق باليمنى . ففعل كذلك باقى الرجال ، وهتفوا : السيف للرب ولجدعون . فتراكض المدينيون وضجوا بالصياح وهربوا . فقد ظنوا أن جيشاً جراراً يهاجم صفوفهم بعد أن اشعل النار فى طرف المحلة . وكان من شدة هلعهم ، وما حل بهم من اضطراب أن أعملوا السيف فى رقاب بعضهم بعضاً .

وكان بعد انتصار جدعون هذا الساحق أن اجتمع كل رجال اسرائيل لينصبوه ملكاً عليهم ، قائلين : تسلط علينا أنت وابنك وابن ابنك . ولكنه رفض بإباء وشمم

قائلاً : لا أنا أتسلط عليكم ولا ابنى ، بل الرب هو الذى يتسلط عليكم . واستراحت الأرض من الحروب أربعين سنة ، كل أيام جدعون (قض ٧ . . و ٨ : ١ — ٣٢)

فى قصة أبيملك ونهايته المريعة :

أبيملك المغتصب هو أحد أبناء جدعون الإثنين والسبعين . إلا أنه كان ابناً لإحدى السرارى . فلما مات جدعون أبوه ، ذهب تواً إلى شكيم وطن أمه ، وتكلم مع أعيانها من ذوى قرابته ليناصروه على إتمام مقاصده ، قائلا لهم : أى الأمرين خير لكم ، أن يتسلط عليكم سبعون رجلا أم أن يتسلط عليكم رجل واحد ، واذكروا أنى أنا عظمكم ولحمكم .

فما كان منهم إلا أن استحسنوا كلامه ، ولم يروا غضاضة فى أن يملك عليهم ، وأعطوه سبعين من الفضة ، فاستأجر بها رجالا بطالين أشقياء ، جاء بهم إلى بيت أبيه فى عفرة ، وقتل كل إخوته من أبيه ، بنى جدعون : سبعين رجلا على صخرة واحدة . ولم ينج من تلك المجزرة البشرية المروعة غير يوتام أصغر بنى جدعون ، لأنه استطاع أن يختبىء .

واجتمع بعد ذلك أهل شكيم وجميع بيت ملو وأقاموا أبيملك ملكا عليهم . فملك على إسرائيل ثلاث سنين .

على أنه ما لبث أن دبت روح الفتنة بين أبيملك وأهل شكيم بسبب تعسفه وعدم درايته بالحكم . . فما كان من أبيملك إلا أن استولى على مدينتهم ودك أسوارها . ولم يكتف بذلك بل أمر بحرق ألف شخص كانوا قد احتموا فى برج شكيم .

ثم حمل على تاباحى يريد تخريبها كما خرب شكيم ، فألقت امرأة عجوز قطعة رحى على رأس أبيملك فشدخت جمجمته . فدعا غلامه وأمره أن يخترط سيفه ويقتله ، لئلا يقال عنه إنه قتلته امرأة ! . . فوجأه الغلام فمات . وهكذا رد الرب شر أبيملك الذى فعله بأبيه بقتله إخوته على رأسه ، وكل شر أهل شكيم رده على رؤوسهم . (قض ٩ . .)

فى قصة يفتاح :

وتولى القضاء على إسرائيل من بعد أبيملك ، تولع بن فوأة من سبط يساكر ، وذلك مدة ثلاث وعشرين سنة . وقام من بعده يائير الجلعادى ، الذى تولى قضاء إسرائيل اثنتين وعشرين سنة . وكان له ثلاثون ولداً قد خص كلاً منهم مدينة يقومون بتصريف شؤونها (قض ١٠ : ١ ـ ٥)

وعاد بنو إسرائيل بعد موت يائير فعبدوا البعليم والعشتاروت ، وجميع آلهة آرام ، وصيدون ، وموآب ، و بنى عمون .

ومن أجل ذلك باعهم الرب إلى أيدى الفلسطينيين و إلى أيدى بنى عمون ، فضايقوهم ثمانى عشرة سنة ، فصرخوا إلى الرب إلههم ، فخلصهم على يد رجل جبار بأس ، يدعى يفتاح . جلعادى الأصل (قض ١٠ : ٦ . .)

ولما كان يفتاح ابن امرأة بغى فقد طرده إخوته ، وحرموه من ميراث أبيهم . فكان ذلك سبباً فى انضمامه إلى عصابة من الأشقياء ، ما لبث أن صار رئيسهم ، فاشتهر أمره ، و بأسه فى كل إسرائيل .

وكان لما ابتدأ بنو عمون حملتهم على إسرائيل أن أنطلق شيوخ جلعاد إلى يفتاح ليقلدوه رئاسة الجيش . فقبل مبايعتهم على أن يكون رئيساً عليهم مدى الحياة إن نصره الرب . ومضى معهم ، فنادى به الشعب بصوت واحد رئيساً وقائداً .

وقبل أن يعلن يفتاح الحرب عل بنى عمون أنفذ رسلاً إلى ملك بنى عمون ليكف عن مضايقة إسرائيل ، وينسحب إلى تخومه . غير أن هذا الملك الطاغية لم يأبه بانذار يفتاح وتهديداته . وكان روح الرب على يفتاح فعبر بأغلب رجاله تخوم إسرائيل ، وجاء فضرب بنى عمون فى بلادهم مباشرة . وكان بعد أن استولى على أهم قواعدهم ، من عروعير إلى حد منيت ، عشرين مدينة ، أن ضرب ملك بنى عمون وجيشه ضربة قاصمة . فذل بنو عمون وخضعوا ، ولم يعودوا يرفعون رؤوسهم (قض ١١ : ١ ـ ٢٩)

نذر يفتاح النفاقى :

على أن هذا النصر ، الذى كان مفترضاً أن يصل بهذا القائد المظفر إلى أوج المجد

والسعادة ، كان بسبب تهور يفتاح نفسه وعدم رويته ، من أكبر دواعى شقائه ، وانقراض عدد كبير من بنى إسرائيل .

ذلك إنه ، قبل أن يبدأ معركته الحاسمة ضد بنى عمون ، أبرز هذا النذر النفاق الغريب ، ألا وهو أنه يقدم للرب محرقة ، أول إنسان يخرج لملاقاته فى طريق عودته إلى بيته سالماً .

فكان أول من صادفه ابنته الوحيدة ، فقد خرجت للقائه بالرقص والدفوف . فلما رآها مزق ثيابه وقال : أواه ، يا بنية ، قد صرعتنى صرعاً ، وصرت من جملة من أشقانى .

فقبلت تلك البنية الشجاعة مصيرها ، كما قرره لها أبوها الجاهل ، بالرغم على ما انطوى عليه ذلك المصير القاسى من تضحية كبرى شاقة . إلا أنها قد طلبت من أبيها أن يعطيها مهلة شهرين لتبكى مع أترابها بتوليتها وشبابها الغض .

ونفذ يفتاح بعد انصرام تلك المدة القصيرة نذره (قض ١١ : ٣٠ . .) . ولكن لا نعلم كيف نفذه . فقد قال القدماء إنه نفذه حرفياً ، وذلك على الرغم من تحريم الشريعة الصريح تقديم الضحايا البشرية . وقال المحدثون ، وهو الأصح ، إنه أتم نذره بتكريس ابنته لخدمة الله بحفظها البتولية دون زواج مدى الحياة .

أما الغلطة الثانية التى ارتكبها يفتاح فهى إنه بدلا من أن يرضى شعور الإفرائيميين وكبريائهم الجريحة بكلمة مهدئة للخواطر الثائرة ، كما فعل من قبله جدعون بكل لباقة فى مناسبة مماثلة ، أثار عليهم الحرب الأهلية ، فأباد منهم اثنين وأربعين ألف نفس . (قض ١٢ : ١ـ ٦)

***

وتولى يفتاح قضاء إسرائيل ست سنين ومات . وتولى القضاء بعده إبصان ، وهو من بيت لحم . وكان له ثلاثون ولداً وثلاثون بنتاً . ومدة قضاء إبصان سبع سنين .

وتولى قضاء إسرائيل بعده أيلون الزبولونى ، وذلك مدة عشر سنين . ثم عبدون الإفرائيمى مدة ثمانى سنين . وكان له أربعون ابناً وثلاثون حفيداً (قض ١٢ : ٧ . .)

فى قصة شمشون[١] :

وعاد بنو إسرائيل فعملوا الشر فى عيني الرب ، فدفعهم إلى أيدى الفلسطينيين أربعين سنة . فلما تابوا عليه خلصهم على يد شمشون الجبار ، وهو ابن رجل من سبط دان اسمه منوح .

وكان مولد شمشون بأعجوبة ، لأن أمه كانت عاقراً . فتراءى لها ملاك الرب وبشرها قائلاً : إنك ستحملين وتلدين ابناً . والآن لا تشربي خمراً ولا مسكراً ، ولا تأكلي شيئاً نجساً ، لأن الصبي يكون ناسكاً لله من بطن أمه إلى يوم وفاته ، لا يعلو رأسه موسى ، وهو الذى يخلص إسرائيل من الفلسطينيين .



ولما كبر شمشون وترعرع رأى امرأة فلسطينية ، فأراد الزواج منها ، وفاتح والديه فى الأمر . فاعترضا عليه قائلين : أليس فى بنات إخوتك ، وفى شعبي كله امرأة ، حتى تذهب وتأخذ امرأة من الفلسطينيين غير المؤمنين . ولم يعلما أن الأمر كان بتدبير روح الرب الذى كان يحركه ، ليهيء له فرصة الاحتكاك بالفلسطينيين للانتقام منهم .

---

(١) يذكر سفر القضاة قصة شمشون الجبار فى الفصل ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٦

و بينما هو فى الطريق مع أبيه وأمه إلى مدينة تمنة ليخطبا له الفتاة ، إذا بشبل أسد يزأر فى وجهه يريد الفتك به ، فما كان من شمشون إلا أن مال عليه وأمسكه من خياشيمه ، وفسخه كما يفسخ الجدى . ولم يخبر أحداً بما فعل .

ولما رجع بعد أيام ليأخذ زوجته ، حاد لينظر إلى جثة الأسد ، فإذا فى جوفه خشرم من النحل ، فاشتار من عسله وأكل ، وأعطى لأبيه وأمه ، دون أن يخبرهما عن مصدر العسل .

وأقام شمشون بمناسبة زواجه وليمة فاخرة ، دُعى اليها ثلاثون من الشبان ليكونوا معه بصفتهم أصدقاء العريس ، حسب عادة القوم . فقال لهم شمشون إنى ملق عليكم لغزاً ، فإن حللتموه لى فى سبعة أيام الوليمة أعطيتكم ثلاثين قميصاً وثلاثين حلة من الثياب ، و إن لم تقدروا أعطيتمونى أنتم مثل هذا العدد من القمصان والحلل .

فقالوا له الق لغزك . فقال : « من الآكل خرج أكل ، ومن الشديد حلاوة » . فلما لم يستطيعوا أن يحلوا اللغز ، هددوا امرأته بالحرق ، إن لم تحتل على زوجها لتعرف حل اللغز وتطلعهم عليه .

فنجحوا فى تهديدهم المرأة ، ونجحت المرأة فى الاحتيال على شمشون . و إذ رأوه فى اليوم السابع ، قالوا له : أى شىء أحلى من العسل ، وأى شىء أشد من الأسد . فقال لهم : لولا أنكم حرثتم على عجلتى لما كشفتم أحجيتى .

وحلت عليه روح الرب ، فنزل إلى أشقلون ، وهى من مدن الفلسطينيين ، وقتل منهم ثلاثين رجلا . وأخذ ثيابهم فأعطاها لكاشفى اللغز . ثم رجع غاضباً إلى بيت أبيه .

فى حرق شمشون مزارع الفلسطينيين :

وعاد فى أوان الحصاد ليزور زوجته ، فوجد أن أباها قد زوجها لغيره . فاشتد غضبه ، وقال : إنى برىء الآن من الفلسطينيين إذا أنزلت بهم شراً .

وانطلق فاصطاد ثلاث مئة ثعلب ، وأخذ مشاعل ، وربط الثعالب ذنباً إلى ذنب ، وجعل بين كل ذنبين مشعلاً . ثم أوقد المشاعل وأطلق الثعالب فى مزارع الفلسطينيين . فأحرقت الثعالب أكداس الحصيد ، والزرع جميعه ، حتى كروم الزيتون .

ولما علم الفلسطينيون بأن مدبر هذه الكارثة التي حلت بهم هو شمشون ، أخذوا امرأته وأباها وأحرقوهما بالنار . وأخذ عدد كبير منهم يحتلون مواقع يهوذا مهددين بالحرب ، إن لم يسلموهم في الحال شمشون موثقاً .

فصعد ثلاثة آلاف رجل من يهوذا ، وأتوا كهف صخرة عيطيم ، حيث كان قد التجأ شمشون مؤقتاً . وأوثقوه بحبلين جديدين وسلموه إلى الفلسطينيين .

وما أعظم فرح الفلسطينيين إذ رأوا عدوهم اللدود موثقاً بالحبال . إلا أنها كانت فرحة قصيرة الأمد . لأن روح الرب حل على شمشون ، وإذا به يقطع تلك الحبال ، كأنها قد حيكت من كتان مشيط بالنار ، وينحل وثق يديه .

ويهجم عليهم بفك حمار ، وجده هناك مصادفة ، فيقتل منهم ما يقرب من الألف رجل ، ويعمد الآخرون إلى الفرار خوفاً من بطشه .

وكان بعد هذه المعركة الهائلة أنه شعر بعطش شديد ، فصرخ إلى الرب وقال : إنك قد جعلت بيد عبدك هذا الخلاص العظيم ، والآن أهلك عطشاً وأقع في إيدي القلف . ففجر له الله في ذلك المكان نفسه ينبوع ماء سلسبيل شرب منه حتى انتعشت روحه . وإذ رأى بنو إسرائيل القوة الخارقة التي وهبها الله شمشون ، وما أولاه من نصر مبين على الفلسطينيين ، اختاروه قاضياً عليهم . وقد تولى سلطة القضاء عشرين سنة .

***

وحدث مرةً أن انطلق شمشون في مهمة ما إلى غزة ، وهي إحدى مدائن الفلسطينيين . فما أن سمعوا بذلك حتى أحاطوا بالمكان النازل به ، وكمنوا له طوال الليل ، قائلين : إننا نقتله عند مطلع الصبح .

إلا أن شمشون كان قد أحس بمؤامرتهم ، فرقد حتى منتصف الليل . وقام عند نصف الليل . وإذ وجد باب المدينة مغلقاً ، إقتلعه بمصراعيه وعضادتيه اقتلاعاً ، وحمله على منكبيه ، وصعد به إلى رأس الجبل المواجه لحبرون . وكان كل ذلك إمعاناً منه في الاستهزاء بهؤلاء الأعداء ، الذين كانوا يضمرون له ولشعب الله السوء ، ويريدون هلاكه .

في سقوط شمشون :

إن الله كان مع شمشون ، ما دام شمشون ، سالكا فى مخافة الله ، أميناً فى دعوته . ولكنه عند ما حاد عن جادة الطريق ، وأسلم قلبه للشهوات الرديئة فارقه الله . وفارقته قوته الخارقة .

وإليك تفصيل ذلك : إن الفلسطينيين لما عجزوا عن إلقاء القبض على شمشون مباشرة ، التجأوا إلى امرأة ساقطة اسمها دليـلة ، كان قد سقط شمشون فى حبائلها ، ووعدوها بأن يدفعوا لها ألفاً ومئة شاقل من الفضة إن استطاعت بمخادعتها إياه ، أن تعرف منه فيما تقوم قوته العظيمة .

وقد استطاعت فعلاً تلك المرأة الغادرة أن تخدع شمشون ، فيبيح لها بسره ، ولـكن بعد أن خدعها هو بدوره ثلاث مرات ، قائلاً لها المرة الأولى : إنه إذا أوثق بسبعة أوتار طريئة لم تجف ، فإنه يضعف ويصير كواحد من الناس . والمرة الثانية : إنه إذا أوثق بحبال جديدة لم تستعمل قط . والمرة الثالثة : إنه إذا ضفرت سبع خصل رأسه مع السَّدى .

وكانت دليلة بعد ما تربطه ربطاً وثيقاً بالأوتار أو الحبال . . تقول له : قد دهمك الفلسطينيون ياشمشون ، فينهض من نومه مندفعاً ، فيقطع الحبال والأوتار كما يقطع الخيط ، وينقض على أعدائه الكامنين له انقضاض الصاعقة .

ولـكن لما كثر إلحاحها ، ومضايقتها له ، أطلعها بكل ما فى قلبه ، ولم يخبء عنها شيئاً . قال لها : إنى نذير وناسك لله من بطن أمى ، فإن حلق رأسى ، فارقتنى قوتى ، وضعفت وصرت كواحد من الناس .

ذلك لأن النذير كان ملزماً بعدم قص شعره طوال مدة نسكه . وهذا الإلزام كان بالنسبة لشمشون شرطاً لحفظ قوته . تلك القوة التى لم تكن تكمن فى شعره ، بل فى حفظه كل شروط نسكه .

وما أن تأكدت دليلة بأنه كاشفها بكل ما فى قلبه حتى دعت أقطاب الفلسطينيين ، وحلقت له سبع خصل رأسه ، وأيقظته قائلة : لقد دهمك الفلسطينيون ياشمشون . فنهض شمشون ، وهو لا يعلم شيئاً من أمر خيانة المرأة ، وقال فى نفسه : أخرج كما كنت

أصنع من قبل فأحطم أعدائى . إلا أن الرب كان قد فارقه ، فخانته قواه .

فقبض عليه الفلسطينيون وقلعوا عينيه وألقوه فى السجن مكبلاً . وكان يطحن فى السجن .

فى موت شمشون :

وكان لما حلت كل تلك البلايا بشمشون ، إنه ندم على خطاياه ، وتاب إلى الله . فتاب الله عليه ، ورد إليه قوته ، حيث أخذت تزداد وتنمو من يوم إلى يوم ، بنمو شعره من جديد .

واجتمع يوماً أقطاب الفلسطينيين وعظماؤهم فى معبد داجون إلههم ، ليذبحوا ذبيحة عظيمة ، فرحاً بما أصابوا من مغنم بالقبض على شمشون .

فلما طابت نفوسهم قالوا : هلم بشمشون من السجن ليلعب أمامنا . فجاءوا بشمشون من السجن ، فلعب أمامهم ساعة ، وتظاهر بالتعب . . فطلب إلى الصبى الذى يقوده أن يقف به لحظة بجوار العمودين القائم عليهما المعبد ليستريح قليلا .

وكان المعبد غاصاً بالرجال والنساء ، الذين جاءوا يتفرجون على شمشون وهو يلعب . فدعا شمشون الرب وقال بتواضع عميق وحرقة قلب : اللهم ، يارب ، أذكرنى وشددنى فى هذه المرة أيضاً يا إلهى ، لأنتقم من الفلسطينيين نقمة واحدة .

ثم قبض على العمودين القائم عليهما المعبد ، واتكأ عليهما آخذاً أحدهما بيمينه والآخر بيساره ، وقال : لتمت نفسى مع الفلسطينيين . وانحنى بشدة فسقط البيت عليه وعلى جميع من فيه . وكان عددهم ما يقرب من الثلاثة آلاف نفس . فكان الموتى الذين قتلهم شمشون فى موته أكثر من الذين قتلهم فى حياته .

الفصل التاسع

في قصـــة راعوث

إن واضع هذه القصة ، الذى يكتب على ما يظن فى عهد داود ، عصر بنى إسرائيل الذهبى ، يصور لنا بريشة فنان مبدع ، لوحة رائعة عن الحياة العائلية ، على أيام القضاة .

أما موضوع القصة فهو من أبسط ما يكون : رجل من إفراتة وهى بيت لحم يهوذا يدعى أليملك ، لظروف خاصة ، وتحت تأثير أزمة الجوع الحادة ، التى أخذت تضرب أطنابها فى طول البلاد وعرضها ، يهجر هو وامرأته وأبناه إلى أرض موآب المجاورة .

ولم يكن حظ هذا الرجل الإسرائيلى القليل الإيمان ، أعظم فى أرض غربته منه فى أرض وطنه . ولا يلبث حتى تعاجله المنية ، فيموت قبل امرأته وولديه . ثم يأتى دور الولدين ، وذلك بعد زواجهما بقليل من امرأتين موآبيتين ، هما عرفة وراعوث .

وهنا يدخل دور نعمى ، الثاكل الصابرة ، التى تقرر بعد موت بعلها وولديها الاثنين ، تقرر العودة وكنتيها إلى أرضها وعشيرتها ، إلى بيت لحم ، وذلك بعد عشر سنين من غربتها .

غير أنها لا تلبث حتى تأخذها الشفقة بتلكما الفتاتين ، فتحثهما على الرجوع إلى أهلهما ، داعية لهما بالتوفيق وحسن العاقبة ، قائلة : ليصنع الرب إليكما رحمة ، كما صنعتما إلى الذين ماتوا وإلى . وليسر لكما الرب أن تجدا راحة ، كل واحدة فى بيت رجلها .

ثم قبلتهما تريد توديعهما ، فرفعتا أصواتهما بالبكاء ، وقالتا لها : بل نرجع معك إلى قومك . فقالت لهما نعمى : ارجعا يا ابنتىّ ، فإنى فى أشد المرارة عليكما ، ويد الرب قد خرجت علىّ . فرفعتا أصواتهما وبكتا أيضاً . وهنا قبلت عرفة حماتها وانصرفت .

أما راعوث ، بطلة هذه القصة ، فقد أصرت على عدم مفارقة حماتها ، قائلة لها بصراحة بنوية وحزم : لا تلحى علىّ على أن أتركك ، وأرجع عنك ، فإنى حيثما ذهبت أذهب ، وحيثما بت أبت ، شعبك شعبى ، وإلهك إلهى .

فلما رأتها مصرة على الإنطلاق معها كفت عن الإلحاح عليها فى أمر رجوعها .

فذهبتا معاً إلى بيت لحم ، حيث كان لدخولهما المدينة ضجة كبرى . فقال القوم وهم يشيرون إلى نعمى : أهذه نعمى . فقالت نعمى لهم : لا تدعونى نعمى ، بل مرة . لأن الرب أمرَّنى جداً . فقد انطلقت من ههنا مكتنزة وارجعنى الرب فارغة .

وقد صادف رجوع نعمى وراعوث إلى بيت لحم أول أوان حصاد الشعير .

ولم تقبع راعوث فى مكانها منتظرة مساعدة ذوى المروءة من أهل المدينة ، بل أخذت من فورها تسعى إلى العمل . فخرجت ، بعد أن استأذنت حماتها ، تلتقط وراء الحصادين . فاتفق أن الحقل الذى وطأته قدماها لكى تلتقط فيه كان لثرى من أعيان القوم ، مشهور بكرمه وتقواه ، يدعى بوعز ، وهو من عشيرة أليمالك رجل نعمى .

فلما أقبل بوعز لافتقاد غلمانه أخبره الغلام القائم على الحصادين بكل أمرها . فنالت عنده حظوة . فقال لها : اسمعى يا بنية ، لا تذهبى تلتقطى من حقل آخر ، بل لازمى فتياتى[1] والحقل الذى يلتقطن منه تلتقطين . وقد أمرت غلمانى ألا يتعرضوا لك .. فقد أخبرت بصنيعك مع حماتك من بعد وفاة زوجك ، حيث تركت أباك وأمك وأرض مولدك ، وصرت إلى شعب لم تعرفيه . أثابك الرب على صنعك . وليكن أجرك كاملاً من لدن الرب إله إسرائيل ، الذى جئت لتحتمى تحت جناحيه .

ولما كان وقت الطعام دعاها للأكل ، وقدم لها فريكاً فأكلت وشبعت واستبقت جزءاً لحماتها . ثم قامت لتلتقط فأمر بوعز غلمانه أن يتركوها تلتقط من بين الحزم ، وأن ينسلوا لها من الشمائل عمداً .

ولازمت راعوث فتيات بوعز فى الالتقاط حتى انتهاء موسم حصاد الشعير وحصاد الحنطة .

وكان بعد ذلك أن أخبرت نعمى كنتها بأن بوعز هو ذو قرابة لهما . وبما أنها تسعى لراحتها وسعادتها ، فإنها ترغب إليها فى أن تتزوج منه . وقد لقنتها الدور الذى ينبغى أن تقوم به لتذكرة بوعز بشريعة موسى ، التى كانت تأمر أقرب الناس للميت بالزواج من امرأة المتوفى ، ليقيم له نسلاً حتى لا ينقرض اسمه من بين إخوته .

---

(١) المراد بهن البنات اللواتى كن يخدمن بوعز .

فما كان من راعوث إلا أن عملت بكل إرشادات حماتها حرفياً . فقامت واغتسلت وتطيبت ولبست أحسن ثيابها ونزلت سراً إلى البيدر ، حيث كان بوعز يذرى الشعير . وكان لما أرخى الليل سدوله أنها جاءت ورقدت بالقرب من رجليه . وما أن شعر بوجودها حتى أدرك لساعته أنها تريد تذكيره بشريعة يجب تقديسها . إلا أنه أفهمها بأن هناك ولياً أقرب منه ، فإن قبل هذا الولى أن يقوم بحق القرابة ويتزوجها فنعما ، وإلا فإنه يوفيها هو عن طيبة خاطر حق القرابة والولاء ، ولا سيما أن الجميع يشهدون لها بأنها امرأة فاضلة .

وكان أن الولى المذكور — لاعتبارات دنيوية حقيرة — أنه رفض الزواج من راعوث الموآبية الفاضلة ، فتزوجها بوعز بعد أن أشهد عليه شيوخ مدينته ، مشترياً منه كل حقوق أليمالك وولديه .

ورزق الله راعوث من بوعز ولداً ، سمى عوبيد قرت به عينا نعمى ، وهو أبو يسّى وجدّ داود الملك القديس والنبى ، الذى سوف يولد منه المسيح المخلص .

***

إن ما يأخذ بمجامع القلب فى هذه القصة الرائعة ، هو دون جدال ، تقوى راعوث وتعلقها بمن أحبتهم . ثم صبر نعمى البطولى . وإيمان بوعز وكرمه الفياض . هذا إلى إكليل الفضائل الاجتماعية والعائلية ، الذى يزين هامة كل من راعوث مثال الإخلاص والقناعة ، ونعمى مثال التسليم التام لمشيئة الله ، و بوعز مثال الرجل الكبير النفس والقلب .

الفصل العاشر

فى قصة عالى الكاهن وصموئيل النبى

فى سوء سلوك ابنى عالى :

وكان بعد موت شمشون أن انتقلت سلطة القضاء إلى « عالى » عظيم الكهنة . ومن ثم فقد كان يباشر عالى فى الوقت ذاته السلطتين الدينية والمدنية . وجعل مقر الحكم فى مدينة « شيلو » حيث كان تابوت العهد ، منذ أيام يشوع ، وحيث كانت تقام الشعائر الدينية مؤقتاً .

وكان لعالى ابنان كاهنان : حفنى وفنحاس . لم يُقدرا ، للأسف الشديد ، عظمة وظيفتهما القدسية ، وحرمة الأقداس . فكان إذا صعد الشعب إلى شيلو ليذبح للرب ، كان يرسل الكاهن منهما خادمه ، فيغتصب إغتصاباً أحسن أجزاء الذبيحة ، دون أية مراعاة لشريعة الرب ، التى نصت بوضوح على الأجزاء الواجب تقتيرها[1] للرب ، والأجزاء الخاصة بالكهنة ، والتى يجب أن تعطى للمقدمين .

وكان نتيجة كل ذلك أن أهمل الشعب حضور الشعائر الدينية ، وازدرى بالذبائح والشريعة . وقد وبخ عالى ابنيه مراراً على سوء سلوكهما ، إلا أنه لم يستعمل معهما الحزم والشدة الواجبة (١ مل ٢ : ١٢ ..)

وبما إنهما لم ينتصحا ، ولم يرجعا عن غيهما فقد عاقبهما الله وأباهما بميتة مريعة دهمت ثلاثتهم فى يوم واحد . فضلاً عن عقابهم فى ذريتهم ، وذلك بتجريد بيت عالى من رئاسة الكهنوت ، وإعطاء هذه الرئاسة إلى رجل أمين ، حسب قلب الله .

فى قصة صموئيل :

إن هذا الرجل الأمين ، المعد والمختار من الله ليخلف عالى فى رئاسة الكهنوت هو صموئيل بن ألقانة وحنة النبية ، اللذين وإن كان يظن إنهما إفرائيميان ، لإقامتهما فى إحدى مدن إفرائيم ، إلا أنهما كانا من أصل لاوى ، ومن بيت قهات بالذات[2] .

وكانت حنة أم صموئيل عاقراً . وكانت ضرتها تعيرها بسبب ذلك . فنذرت نذراً وقالت : يارب الجنود ، إن أنت نظرت إلى عناء أمتك ، ورزقتنى مولوداً ذكراً ، أكرسه للرب كل أيام حياته .

وفيما كان عالى الكاهن جالساً أمام باب بيت الرب ، رأى حنة ساجدة وشفتيها تختلجان بالصلاة ، ولكن دون أن يسمع لها صوتاً ، فظنها سكرى . فقالت له : كلا ياسيدى ، ولكنى امرأة مكروبة النفس . ولم أشرب خمراً ولا مسكراً ، بل أسكب نفسى أمام الرب . فقال لها : انطلق بسلام ، وإله إسرائيل يعطيك بغيتك .

---

(١) أى التى كانت تحرق على المذبح كالشحم والألية والكليتين ... والتقتير فى اللغة هو الشواء إذا جعل على النار حتى تفوح رائحته .

(٢) أى من البيت نفسه ، الذى كانت منه عشيرة هرون الكاهن .

واستجاب الله طلبة حنة ، فحملت وولدت ابناً ، فدعته صموئيل ، لأنها قالت من الرب التمسته . فلما فطمته صعدت به إلى شيلو ، وهو طفل بعد ، وقدمته إلى عالى الكاهن ، ليثقفه فى شريعة الرب ، ويكرسه لخدمته تعالى فى الهيكل (١ مل ١ . .)

فكان صموئيل يخدم أمام الرب بين يدى عالى . وكان متنطقاً بأفود من كتان . وكانت أمه تنسج له جبة صغيرة ، وتأتيه بها كل سنة حين صعودها مع زوجها ليذبح الذبيحة السنوية كمألوف عادته (١ مل ٢ : ١٨ — ٢٠)

وشب صموئيل ، آخذاً فى النمو والصلاح أمام الله والناس . وبينما كان ابنا عالى حجر عثرة وشك للشعب ، كان صموئيل أسوة صالحة للجميع (١ مل ٢ : ٢٦)

فى تسبحة حنة :

وحدث بمناسبة تقدمة حنة ابنها صموئيل لخدمة الرب ، أن حل عليها روح الرب ، فسبحت الله بهذه التسبحة الجميلة ، التى كانت فى أكثر من موضع ، أساساً لتسبحة مريم أم المخلص .

قالت : تهلل قلبى بالرب ، ارتفع قرنى بالرب ، إتسع فمى على أعدائى ، لأنى قد ابتهجت بخلاصك . لا قدوس مثل الرب ، لأنه ليس أحد سواه ، وليس صخرة كإلهنا . لا تكثروا من الكلام بالعظائم والافتخار ، ولا يخرج صلف من أفواهكم ، لأن الرب إله عليم راشد الأعمال . كسرت قسى الجبابرة ، وتنطق الضعفاء بالقوة . الشباعى آجروا أنفسهم بالخبز ، والجياع استغنوا ، بل العاقر ولدت سبعة ، والكثيرة البنين ذبلت .

الرب يميت ويحيى ، يحدر إلى الجحيم ويصعد . الرب يفقر ويغنى ، يحط ويرفع . ينهض المسكين عن التراب ، يقيم البائس من المزبلة ليجلسه مع العظماء ، ويملكهما عرش المجد ، لأن للرب أساس الأرض ، وقد وضع عليها المسكونة . هو يحفظ أقدام أتقيائه ، والمنافقون فى الظلمة يصمتون ، لأنه لا يغلب إنسان بقوته . مخاصمو الرب ينكسرون ، يرعد عليهم من السماء . الرب يدين أقاصى الأرض ، يهب لملكه عزة ، ويرفع قرن[1] مسيحه (١ مل ٢ : ١ — ١٠)

---

(١) القرن عند الأولين ، وفى الكتب الإلهية ، هو كناية عن القوة والجبروت .

فى رؤيا صموئيل :

وكان صموئيل ، وهو ابن اثنتى عشرة سنة بعد ، راقداً فى الهيكل فى مكان مجاور لغرفة عالى عظيم الكهنة ، وإذا به فى سكون الليل يسمع بوضوح صوتاً يناديه قائلاً : صموئيل ، صموئيل .

فبادر الصبى صموئيل إلى عالى ، ظناً منه أنه هو الذى يناديه ، وقال : هاءنذا ، إنك دعوتنى . فقال له عالى : لم أدعك . ارجع فنم .

فعاد الرب ودعا صموئيل أيضاً . فركض صموئيل إلى عالى ، مرة أخرى ، وقال : هاءنذا ، إنك دعوتنى . فقال له بحنان : لم أدعك يا بنى ، ارجع فنم . وكان ذلك لأن صموئيل لم يكن قد سمع من قبل صوت الرب ولم يكن يعرفه .

ولما عاد صموئيل إلى عالى للمرة الثالثة يسأله ماذا يريد منه ، أدرك الرجل أن الرب إنما هو الذى يدعو الصبى . فقال له : اذهب فنم . وإن دعاك أيضاً فقل : تكلم يارب ، فإن عبدك يسمع .

فما كاد صموئيل يسند رأسه لينام ، وإذا بصوت الرب يدعوه كالمرات السابقة : صموئيل ، صموئيل . فقال صموئيل : تكلم يارب ، فإن عبدك يسمع . فقال الرب لصموئيل : إنى صانع بعالى كل ما سبقت وأنذرته به ، بأن أقضى على بيته إلى الأبد ، لأجل إثم بنيه ، الذى كان يعلم به ، ولم يردعهم عنه .

وبات صموئيل بقية ليلته هادىء البال مطمئن النفس ، حتى إذا لاحت تباشير الصباح نهض من فراشه ، وفتح أبواب الهيكل على مألوف عادته ، إلا أنه لم يجرؤ أن يقص رؤياه على عالى .

ولكن عالى طلب منه بالحاح أن يخبره بجميع كلام الرب ، فامتثل صموئيل أمر رئيسه ، ولم يكتمه شيئاً . فقال عالى بخضوع وصبر جميل . « هو الرب ، فما حسن فى عينيه فليفعل » (١ مل ٣ : ١ — ١٨)

فى موت عالى وبنيه :

وطلب عالى إلى الله ، فنال الصفح عن خطيئة إهماله وتساهله المفرط مع بنيه .

إلا أنه ، على الرغم من صبره الجميل المشرف ، لم يستطع أن يفوز بالعفو الشامل عن عقاب الخطيئة الزمنى . ولا سيما أن عدل الله يقتص من خطايا العائلات والجماعة فى هذه الدنيا .

وحدث بعد سبع وعشرين سنة من رؤيا صموئيل تقريباً ، أن اشتبك إسرائيل فى معركة دامية مع الفلسطينيين . ولما كانت الهزيمة من جانب إسرائيل ، فقد قتل منهم نحو أربعة آلاف رجل ، تشاور الشيوخ معاً على أن يأتوا بتابوت العهد إلى المحلة ، لعلهم بهذه الواسطة يستطيعون أن يتغلبوا على أعدائهم .

ولكن بما أن الله كان ساخطاً ، لا على بيت عالى فقط ، بل على كل إسرائيل ، بسبب خطاياهم ، فقد هزمهم الفلسطينيون هذه المرة أيضاً . وما أقساها هزيمة ، فقد قتل من إسرائيل ثلاثون ألف رجل ، واستولى الفلسطينيون على التابوت . وفى هذه المعركة فقد ابنا عالى حياتهما .

وقدم إلى شيلو ، فى اليوم نفسه ، أحد الرجال ممن نجوا بأعجوبة من الموت ، وأخبر عالى ، الذى كان قلقاً على التابوت ، بهزيمة إسرائيل . وكان عالى جالساً على كرسى بجانب الطريق فى انتظار أخبار القتال . وكان قد تقدم جداً فى الأيام ، حيث كان قد بلغ من العمر ثمان وتسعين سنة .

فلما سمع أن ابنيه حفنى وفنحاس قد قتلا فى المعركة ، وأن تابوت الله استولى عليه الأعداء ، سقط عن الكرسى إلى خلفه ، فاندق عظم عنقه ومات . وقد تولى عالى قضاء إسرائيل أربعين سنة (١ مل ٤ . .)

التابوت فى أيدى الفلسطينيين :

وما أن استولى الفلسطينيون على تابوت الرب ، حتى جاءوا به إلى أشدود مدينتهم ، وأدخلوه بيت داجون إلههم ، وأقاموه بالقرب من ذلك الصنم ، الذى كان أعلاه على صورة امرأة ، وأسفله على صورة سمكة .

وكان فى الغد لما جاءوا ليشاهدوا تابوت الرب ، إذا بصنم داجون ملقى بوجهه على الأرض ، كمن يسجد لآخر ، أمام التابوت . فأخذوه وردوه إلى مكانه .

ثم بكروا فى غداة اليوم التالى ، فإذا بداجون ملقى من جديد على الأرض أمام التابوت ، ورأسه ويداه ، هذه المرة ، مقطوعة وملقاة عند عتبة الباب .

وثقلت يد الرب على الأشدوديين فضربهم بمرض البواسير المؤلم والمخزى ، وسلط عليهم الفئران ، فأفسدت عليهم كل متاعهم .

ولما رأى أهل أشدود الكوارث الفادحة التى نزلت بهم ، بسبب تابوت الرب ، قالوا : لا يلبث تابوت إله إسرائيل عندنا ، لأن يده قاسية علينا وعلى داجون إلهنا . وألحوا على الرؤساء — وهم الذين يعرفون بالأقطاب — لينقل من مدينتهم . فنقلوه إلى جتّ . فكانت النتيجة أن ضرب الرب أهل جت ، الصغير مع الكبير ، بالضربات نفسها ، التى ضرب بها من قبل أهل أشدود .

وعلى هذا النحو أخذ تابوت الرب يتنقل من مدينة إلى أخرى ، مدة سبعة أشهر متوالية ، مثيراً الذعر واضطراب الموت فى كل مكان حل به من مدن الفلسطينيين .

وإذ رأى أقطاب الفلسطينيين أن لا منفعة لهم من وضع يدهم على التابوت ، تشاوروا مع العرافين وذوى الرأى فى أمتهم ، على إعادته إلى الاسرائيليين . على ألا يرسل فارغاً ، بل يعاد مع قربان إثم ، من خمسة بواسير ذهبية ، وخمس فئران ذهبية ، على عدد أقطاب الفلسطينيين .

وبعد أن أعدوا البواسير والفئران الذهبية ، جعلوا التابوت وتلك المصوغات على عجلة جديدة ، تجرها بقرتان غير مروضتين . والبقرتان مرضعان . وقد أخذوا عجليهما من ورائهما ، وتركوا لها العنان .

فانتصرت البقرتان على حبهما الطبيعى لعجليهما ، وانطلقتا ، لا تلويان على شىء ، فى طريق بيت شمس — وهى إحدى مدن إسرائيل الكهنوتية القريبة من تخوم الفلسطينيين — وأقطاب الفلسطينيين من ورائها ، حتى بلغتا تلك المدينة .

(١ مل ٥ و ٦ : ١ — ١٢)

فى عودة التابوت إلى أرض إسرائيل :

وكان أهل بيت شمس ، وهم جميعاً من اللاويين ، يحصدون الحنطة ، فرفعوا عيونهم فأبصروا التابوت ، ففرحوا لرؤيته . وكان هناك حجر عظيم ، فما كان منهم إلا أن شققوا خشب العجلة ، وأصعدوا البقرتين محرقة للرب ، مع ذبائح ومحرقات أخرى كثيرة .

وضرب الرب أهل بيت شمس ضربة عظيمة ، كانت قاضية على سبعين رجلاً

منهم ، لأنهم نظروا إلى تابوت الرب ، بغير تهيب ، و بغير ما يليق من واجب الإجلال والتعظيم .

فناح أهل بيت شمس ، وقالوا : من ذا الذى يقدر أن يقف أمام الرب الإله القدوس . ثم أرسلوا رسلاً إلى سكان قرية يعاريم ، قائلين : قد رد الفلسطينيون تابوت الرب ، فهلموا وأصعدوه إليكم .

فأتى أهل قرية يعاريم وأصعدوا تابوت الرب بكل مهابة ، وأدخلوه بيت رجل يدعى أبيناداب ، واختاروا ألعازر ابنه ، وكان لاوياً ، لحراسته (١ مل ٦ : ١٣ .. و ٧ : ١)

فى قضاء صموئيل :

وكان منذ أقيم تابوت الرب فى قرية يعاريم أن مضت عشرون سنة — قضاها إسرائيل فى العبودية وعبادة الآلهة الغريبة — قبل أن يعود كل بيت إسرائيل إلى الرب إلههم .

ويرجع الفضل فى اهتداء بنى إسرائيل ، إلى مساعى صموئيل ، ذلك النبى والقائد العظيم ، الذى استطاع بغيرته ونصائحه الأبوية الملحة ، أن يبنى من جديد ، فى هذه الفترة الوجيزة ، ما هدمه أبناء عالى بسلوكهم الشرير .

وقال صموئيل لبنى إسرائيل بهذه المناسبة السعيدة : إن كنتم تائبين حقاً إلى الرب من كل قلوبكم ، فأزيلوا الآلهة الغريبة والعشتاروت من بينكم ، واعبدوا الرب وحدهُ ، فينقذكم من أيدى الفلسطينيين .

وكان بعد أن أزالوا ما بقى من آثار أرجاس الوثنية حتى آخرها ، أن حدد لهم يوماً يجتمعون فيه فى المصفاة ، ليصلى من أجلهم ، فيرفع الله عنهم خطيئتهم .

فاجتمع كل بنى إسرائيل ، فى الزمن المحدد ، فى المصفاة . وصاموا وصلوا معترفين بخطاياهم ، كما أوصاهم صموئيل ، فصفح الله عنهم ، وأنقذهم من الفلسطينيين أعدائهم ، وهم لا يزالون فى المصفاة بعد .

ذلك أن الفلسطينيين لما رأوا ذلك الاجتماع غير العادى ، ظنوه اجتماعاً عدوانياً ، هم المقصودون به . وعلى ذلك فقد هموا بمهاجمة إسرائيل فجأة ، لإحباط كل خطة هجومية من ناحية أعدائهم .

وخاف بنو إسرائيل من الفلسطينيين ، ولكنهم تشجعوا وخرجوا لصد هجومهم ، وقالوا لصموئيل : لا تكف عن الصلاة لأجلنا إلى الرب إلهنا ، ليخلصنا من أيدى الفلسطينيين . فأخذ صموئيل حملاً رضيعاً وأصعده محرقة ، وصرخ إلى الرب لأجل إسرائيل . فاستجاب له الرب . وكان النصر لإسرائيل .

وكان بعد هذا النصر أن ذل الفلسطينيون ، واعترف جميع بنى إسرائيل بصموئيل قاضياً عليهم . وقد تولى صموئيل حكم إسرائيل كل أيام حياته (١ مل ٧ : ٢ ...). وهو آخر وأكبر قضاة إسرائيل ، وأول نبى بكل معنى الكلمة ، كان له الفضل فى إصلاح بنى شعبه دينياً وأدبياً وسياسياً .

إسرائيل يطلب ملكاً :

ولما شاخ صموئيل قلد ابنيه يوئيل وأبيّا قضاء إسرائيل . إلا أنهما لم يسلكا فى طريق أبيهما ، بل مالا إلى البخل ، وقبلا الرشوة ، وحابيا الوجوه .

فاتخذ شيوخ إسرائيل ذلك حجة ليطالبوا لهم من صموئيل بملك ، يقيمه عليهم كسائر الأمم . قالوا له : إنك أنت قد شخت ، و بنوك لا يسلكون فى سبلك ، فالآن أقم علينا ملكاً يقضى بيننا كجميع الأمم .

فساء هذا الكلام فى عينى صموئيل ، لأنه ، إن دل على شىء ، فهو يدل على عدم ثقة إسرائيل بعناية الرب إلهه . وصلى صموئيل سائلاً الرب أن ينيره فيما يجب اتخاذه من تدابير حازمة لحل هذا المشكل .

فقال له الله : اسمع لكلام الشعب فى جميع ما يقولون لك ، لأنهم لم يرفضوك أنت ، بل إياى رفضوا ، حتى لا أملك عليهم . ولكن أشهد عليهم ، واخبرهم بسنن الملك ، الذى يملك عليهم . حتى إذا ما ثقل عليهم الأثقال ، لا يلوموا إلا أنفسهم .

فأخبرهم صموئيل قائلاً : هذه سنة الملك (لا كما سنها الله فى الأصل ، بل كما يسنها الملوك الطغاة فى الواقع) : إنه يأخذ بنيكم و بناتكم فيسخرهم فى شتى الأعمال الخدمية . ويأخذ أفضل حقولكم وكرومكم وزيتونكم و يعطيها لعبيده . ويثقل كواهلكم بالضرائب والعشور . وأنتم تكونون له عبيداً .

فأبى الشعب أن يسمع لهذا الصوت الأبوى ، وقالوا بإلحاح : كلا ، بل يملك علينا

ملك ، كسائر الأمم ، يقضى بيننا ، ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا .

فلما رأى إصرارهم ، وأنهم يأخذون على مسؤوليتهم تلك الخطوة الحاسمة فى تاريخ الأمة ، وعدهم بأنه سيسعى لتحقيق رغبتهم هـذه الملحة ، وصرفهم مؤقتاً كل واحد إلى مدينته (١ مل ٨..)

الفصل الحادى عشر

فى قصة شاول أول ملك على إسرائيل

فى مسح شاول ملكاً :

وكان رجل من سبط بنيامين جبار بأس ، اسمه قيس . وكان له ابن اسمه شاول ، شاب منتقى ، طويل القامة ، جميل الطلعة .

فاتفق أن ضلت أتن قيس . فأرسل ابنه شاول فى طلبها . فانطلق شاول يصحبه غلامه ، يبحث عنها فى كل مكان . فلما يئس من وجودها ، قال لغلامه : تعال نرجع ، لعل أبى قد ترك الاهتمام بالأتن، واهتم بنا .

وكانا بالقرب من الرامة ، مدينة صموئيل . فقال الغلام لشاول : هوذا الآن رجل الله فى هذه المدينة ، ومعروف أن كل ما يقوله يتم . فهلمَّ بنا إليـه ، لعله يرشدنا إلى الطريق التى ينبغى أن نسلكها .

فاستصوب شاول رأى غلامه ، ودخلا المدينة معاً . فكان أول من صادفهما ، فى طريقهما إلى داخل المدينة ، صموئيل نفسه . وكان واقفاً أمام باب بيته ، وكأنه كان على موعد معهما . فقال شاول لصموئيل ، ولم يكن يعرفه : أخبرنى أين بيت الرآءى . لأنهم هكذا كانوا يسمون النبى فى ذلك الزمن .

فأجاب صموئيل : أنا هو الرآءى . و بعد أن طمأنهما على مصير الأتن ، دعاهما إلى المشرَف — وهو أعلى مكان فى المدينـة — ليأكلا معه . وهناك أجلسهما فى صدر المدعوين .

وبات شاول وغلامه ليلتهما فى بيت صموئيل . فلما كان الصباح دعا صموئيل شاول ، وأخبره بكل كلام الرب ، وكيف أنه تعالى اختاره ليكون ملكاً على إسرائيل (١ مل ٩ ...) . ثم أخذ قارورة الدهن المقدس ، وصبها على رأسه[1] ، وقبله وقال : إن الرب قد مسحك اليوم قائداً على ميراثه .

وشاء أن يؤكد له حقيقة اختيار الله له لهذه الرتبة السامية ، وذلك بعدة تنبؤات ، تمت فى اليوم نفسه . منها ، إن روح الرب يحل عليه ، فيتنبأ هو أيضاً ، عند ما يقابله فى الطريق جماعة من الأنبياء ، سوف يخرجون لملاقاته بدفوف ومزامير وكنارات ، وهم يتنبأون .

ثم إن صموئيل استدعى كل جماعة بنى إسرائيل إلى المصفاة ، حيث أظهر لهم ، وذلك بطريق القرعة ، أن شاول بن قيس ، وليس سواه ، هو الذى اختاره الرب ليكون ملكاً عليهم .

وكان شاول يزيد طولاً على الشعب كله ، من كتفيه فما فوق . فلما جاءوا به ، وكان مختبئاً بين الأمتعة ، قال صموئيل للشعب : أرأيتم أن الذى اختاره الرب ، لا نظير له فى جميع الشعب . فهتف الشعب كلهم ، وقالوا : يحيى الملك .

وأذاع صموئيل ، بعد ذلك ، على مسامع الشعب ، القوانين الجديدة ، التى ينبغى أن تكون أساساً للملك ، ودوّنها فى سفر ، ووضعه أمام الرب . ثم صرف الشعب كلا إلى مدينته (١ مل ١٠ ...)

فى حروب شاول المظفرة :

وحدث بعد انتخاب شاول بقليل ، أن صعد ناحاش العمونى لمحاربة يابيش جلعاد ، وهى من مدن إسرائيل . فقال له أهل يابيش : إقطع لنا عهداً فنخدمك . ولكنه تجبر ، ولم يشأ أن يسالمهم بحال . فأرسل هؤلاء رسلاً إلى جبع شاول ، وتكلموا بهذا الكلام على مسامع الشعب .

وما أن بلغ الخبر شاول ، وكان راجعاً من الحقل وراء البقر ، حتى غضب جداً .

(١) كان الملوك قديماً يمسحون بدهن مقدس كالكهنة والأنبياء .

فأخذ نورين فقطعهما . وأنفذ الرسل إلى جميع تخوم إسرائيل يقولون : كل من لا يخرج وراء شاول وصموئيل هكذا يصنع ببقره .

فوقع رعب الرب على الشعب ، فخرجوا كرجل واحد لمقاتلة بنى عمون . وكانوا نحو ثلاث مئة وثلاثين ألف رجل . فلم يقوَ بنو عمون أن يصمدوا طويلاً ، وتشتت شملهم أيادى سبا .

وانتهز صموئيل فرصة هذا النصر ، الذى رفع شاول فى أعين الشعب جميعاً ، فدعاهم إلى الجلجال ، حيث قام بتتويج الملك الجديد أمام الرب . وذبح الشعب ذبائح السلامة ، وفرحوا فرحاً عظيماً (١ مل ١١ ..)

وما أن تمت مراسيم التتويج ، حتى تنازل صموئيل عن السلطات المدنيـة جميعها للملك الجديد ، محتفظاً لنفسه بالسلطات الروحيـة ، وذلك باعتباره كاهن الرب العلى ، ونبيه المقرب ، الذى من واجبه إطلاع الملك أولاً بأول ، إرادة الله ، فيما يتعلق بسياسة المملـكة الجديدة ، التى هى خاصة الله (١ مل ١٢ ..)

واهتم شاول بتنظيم شؤون مملـكتـه ، وتقوية الجيش . فكان أول من خلق جيشاً منظماً فى إسرائيل ، علاوة على حرسه الخاص ، المكون من ثلاثة آلاف رجل (١ مل ١٣ : ١ ـ ٢)

وحارب شاول كل أعداء المملـكة الجديدة ، من الموآبيين ، و بنى عمون ، والأدوميين ، وملوك صوبة ، والفلسطينيين ، وعماليق . وكان ظافراً حيثما اتجه .

فى رذل شاول :

إن النجاح كان حليف شاول ، ما دام سالـكاً بالاستقامة فى وصايا الله ، ولـكنه عند ما حاد عن جادة الطريق ، وخالف تلك الوصايا ، لأن الـكبرياء داخلت نفسه ، تخلى الله عنه ورذله ، فأخذ نجمه فى الأفول .

و بدت أولى معاصى شاول فى الحرب ضـد الفلسطينيين ، حيث إنه تعدى على سلطة الـكهنوت ، ولم يطع أوامر الله الصريحة . فقد كان متفقاً على ألا يبدأ المعركة ، قبل تمام سبعة أيام . و إذاك يأتى صموئيل ، فيقرب محرقة للرب ، طالباً معونتـه تعالى وحماية جنود إسرائيل .

وكان اليوم السابع ، وطال انتظار شاول ، ولم يأت صموئيل . ورأى شاول وإذا الشعب يتفرقون من حوله ، وطلائع الفلسطينيين تقترب من معسكره ، فنفد صبره . فطلب أن يقدموا إليه المحرقة وذبائح السلامة ، فقدموها . وما هى إلا لحظة حتى أخذ يصعدها بنفسه .

فلما فرغ من إصعاد المحرقة ، إذا صموئيل قد أقبل . فخرج شاول لتحيته والترحيب به . إلا أن صموئيل بادره قائلاً بصرامة : ماذا فعلت ؟ فقال شاول وهو يريد التنصل من المسئولية : رأيت الشعب يتفرقون ، وأنت لم تأت ، والفلسطينيون مجتمعون فى « مكماش » ، فأكرهت نفسى وأصعدت المحرقة .

فقال له صموئيل : إنك بحماقة فعلت ، حيث لم تحفظ وصية الرب إلهك . فإن الرب كان الآن قد أقر ملكك على إسرائيل إلى الأبد . فأما الآن فلا يدوم ملكك (١ مل ١٣ : ٥ ـ ١٤)

أما المعصية الثانية الكبرى التى ارتكبها شاول فكانت بمناسبة الحرب ضد العمالقة ، وكانت حرباً انتقامية ، أمر بها الله لإبادة هؤلاء العمالقة ، الذين تعرضوا لإسرائيل عند دخوله أرض الموعد .

وعلى ذلك فقد أمر شاول بإبادة جميع السكان وكل مواشيهم : الغنم والإبل والحمير ، بحيث لا يبقى على حى إطلاقاً .

غير أن شاول قتل شعب العمالقة فقط . أما ملكهم فلم يشأ أن يقتله ، بل جاء به حياً ، ليشهد بنصره عند القاصى والدانى . كما وأنه أعدم كل ما كان حقيراً مهزولاً . أما خيار الغنم والبقر ، وكل ثمين فقد احتفظ به .

فكان كلام الرب إلى صموئيل قائلا : إنى ندمت على إقامتى شاول ملكاً ، لأنه مال عن إتباعى ، ولم يقم وزناً لكلامى . فحزن صموئيل جداً ، ولم يكف طوال ليلته عن البكاء على خطايا ذلك الملك المتمرد .

ولما سأل صموئيل فى اليوم التالى شاول : لمَ لم يعمل بوصية الرب : أخذ شاول ينتحل الأعذار ، قائلاً : إنه نفذ كلام الرب جميعه ، ولم يعف عن أحد من عماليق ،

إلا عن أجاج ملكهم . أما فيما يتعلق بالغنيمة ، فإن الشعب ، هم الذين عفوا عن خيار الغنم والبقر ، وذلك ليذبحوا للرب فى الجلجال .

فقال صموئيل : أترى الرب يسر بالمحرقات والذبائح أكثر مما يسر بالطاعة لأوامره المقدسة . لا جرم ، إن الطاعة خير من الذبيحة ، والسماع لكلمته تعالى أفضل من شحم الكباش . وليس التمرد بأقل من خطيئة العرافة ، ولا العناد بأقل من خطيئة عبادة الأوثان .

فالآن بما أنك رذلت كلام الرب ، فقد رذلك الرب من الملك . واعترف شاول بذنبه قائلا : قد خطئت . إلا أن هذا الاعتراف لم يكن صادقاً . فقد عزى شاول خطأه إلى خوفه من الشعب ! ولذا فلم يحظ بالمغفرة .

وانصرف صموئيل إلى بيته ، ولم يعد يعاين وجه شاول ، بيد أنه كان دائم النواح عليه ، لأن الرب رذله عن ملك إسرائيل (١ مل ١٥ ..)

فى مسح داود ملكاً :

وقال الرب يوماً لصموئيل : إلى متى تنوح على شاول ، وأنا قد رذلته . فاملأ الآن قرنك دهناً ، وتعال أرسلك إلى يسى الذى من بيت لحم ، لأنى رأيت لى من بنيه ملكاً .

فخاف صموئيل غضب شاول ، وقال للرب : إنه إن سمع شاول يقتلنى . فقال الرب : خذ معك عجلة من البقر ، وقل إنى جئت لأذبح ذبيحة للرب .

ففعل صموئيل بكل ما أوصاه به الرب ، وأتى بيت لحم ، وذبح ذبيحته . وقد دعا إليها شيوخ المدينة ويسى و بنيه . فلما قُدّم إليه آلياب ، بكر يسى ، قال فى نفسه : إنه مختار الرب . فقال الرب لصموئيل : لا تنظر إلى منظره وطول قامته ، لأنه ليس كما ينظر الإنسان ينظر الله . إنما ينظر الإنسان إلى العينين . وأما الله فإنه ينظر إلى القلب .

ثم دعا يسى سبعة بنيه ، وأجازهم أمام صموئيل ، فلم يكن فيهم من اختاره الرب . فقال له صموئيل : أهؤلاء جميع الغلمان . فقال : قد بقى الصغير وهو يرعى الغنم .

فقال صموئيل : أرسل فجئنا به . فلما أتوا بداود ، وكان أشقر اللون وسيم الوجه ، لم يبلغ الخامسة عشر من عمره ، قام صموئيل ومسحه باسم الرب ملكاً على إسرائيل .

حل منذ تلك الساعة روح الرب على داود (١ مل ١٦ : ١ - ١٣)

وقد تم مسح داود فى تكتم شديد ، خوفاً من شاول . ولم يشهد هذا الحفل أحد غير إخوة داود وشيوخ بيت لحم .

داود فى بلاط شاول :

وما أن مسح داود ملكاً ، حتى فارق روح الرب شاول ، واعترى ذلك الملك المتمرد روح مرض شرير — وكان ذلك بسماح الله — أقض عليه مضجعه ليلاً وأزعجه نهاراً . فكان إذا خبطه الروح الشرير ، يثور كالمجنون ، ولم يكن يهدىء من روعه ، واضطرابه ، سوى التوقيع على أوتار الآلات الموسيقية .

وبما أن داود كان حاذقاً بهذا الفن ، وكان شاباً وسيماً ، حصيف الكلام ، شجاعاً ، فقد جاءوا به من بيت لحم ليلازم الملك ويكون فى حاشيته . وقد أحب شاول داود ، لكل هذه الصفات حباً جماً ، وجعله حاملاً لسلاحه .

فكان إذا اعترى الروح الشرير شاول ، يضرب داود بالقيثارة ، فيستريح شاول من اضطرابه العصبى ، وتنتعش روحه (١ مل ١٦ : ١٤ ..)

فى انتصار داود على جليات الجبار :

وفى خلال هذه المدة استعرت نيران الحرب بين الفلسطينيين و بنى إسرائيل ، فاصطف الفلسطينيون على جبل فى جهة ، و إسرائيل على جبل آخر فى الجهة المقابلة ، و بين الجيشين واد فسيح ، ومضت الأيام تلو الأيام ، وأحد الجيشين لم يجسر على بدء المعركة .

حينئذ خرج من معسكر الفلسطينيين رجل عملاق ، مهيب المنظر ، اسمه جليات . مدجج بالسلاح . يحمل بيده رمحاً ضخماً ، وزن سنانه فقط عشرة كيلو جرامات . أما طول هذا الرجل العملاق فكان أكثر من ثلاثة أمتار !

خرج جليات ، ووقف فى وسط الوادى ، ونادى صفوف إسرائيل وقال متحدياً : أليس أنا فلسطينى ، وأنتم عبيد شاول ، فاختاروا رجلاً ينازلنى . فإن استطاع أن يحاربنى و يقتلنى صرنا لكم عبيداً . و إن أنا ظفرت به تصيرون أنتم لنا عبيداً . فسمع شاول

وجميع إسرائيل تحدى الفلسطيني هذا ، فارتاعوا وخافوا جداً .

ووعد شاول بأن يغني كل من قتل جليات غنى جزيلاً ، ويزوجه ابنته . إلا أن أحداً لم يتقدم لمنازلة ذلك الفلسطيني الجبار .



وكان جليات يبرز ، ويقف صباحاً ومساء ، أربعين يوماً ، يوسع بني إسرائيل شتماً وتقريعاً . وفيما كان شاول جاداً لإنهاء هـذه الحال الشاذة ، إذا بداود يأتي محلة إسرائيل ، موفداً من قبل أبيه ، ليتفقد حال إخوته ويأتيهم ببعض الزاد . وقد صادف قدومه خروج جليات مقرعاً صفوف إسرائيل .

فلما سمع داود ذلك التحدي والتقريع المرير ، قال ، وقد تحركت الحمية في قلبه : « ومن عسى أن يكون هذا الأقلف حتى يقرع صفوف الله الحي » .

وأخبر شاول بكلام داود ، فأمر بإحضاره . فقال داود : لا يفشل قلب أحد بسبب هذا الفلسطيني ، فإن عبدك ينطلق ويحاربه . فقال له شاول : لا طاقة لك بلقاء هذا الجبار ، لأنك أنت غلام ، وهو رجل حرب منذ صباه . فقال داود : قد قتل عبدك أسداً ودباً ، وسيكون هـذا الأقلف مثل واحد منها . إن الرب الذي وقاني من الأسد والدب ، هو يخلصني من يد هذا الفلسطيني .

فقال له شاول : أما وأنت على هذا الإيمان والثقة بالله فانطلق ، وليكن الرب معك .
وأراد شاول أن يلبس داود لباسه وأسلحته ، فوضع على رأسه خوذة من نحاس ، وعلى صدره درعاً يقيه طعنات العدو ، وقلده سيفاً على جنبه .
فارتبك داود ، وتعذر عليه أن يمشى بتلك الأسلحة الثقيلة ، التى لم يتعود حملها . فنزعها عنه ، ولم يأخذ معه غير العصا ، التى كان يرعى بها الغنم ، ومقلاعه ، وخمسة حجارة ملس ، انتقاها من الوادى ، وقد وضعها فى جرابه ، وبرز لجليات .
فتقدم جليات من الجهة الأخرى . وإذ رأى أن مبارزه غلام أشقر جميل المنظر ، استخف به واحتقره ، وقال بكبرياء : أكلب أنا ، حتى تأتينى بالعصا . ولعنه وقال : هلم الآن فاجعل لحمك لطير السماء ووحش القفر .
فقال له داود : أنت تأتينى بالسيف والرمح والمزراق ، وأنا آتيك باسم رب الجنود . فى هذا اليوم يدفعك الرب إلى يدى فأقتلك وأقطع رأسك ، وأجعل جثث الفلسطينيين اليوم لطير السماء ووحش البرية ، حتى تعلم الأرض كلها أن لإسرائيل إلهاً .
وكان لما هم جليات واقترب من داود يريد معالجته بضربة من رمحه ، أن أسرع داود وقذفه بحجر من مقلاعه أصابه فى جبهته ، فخر صريعاً على الأرض ، وإذا بداود فى سرعة البرق يثب عليه ويستل سيفه ويقطع به رأسه .
فلما رأى الفلسطينيون أن جبارهم قد قتل ، ولوا هاربين . فتعقبهم شاول ورجاله وقتلوا منهم كثيرين (١ مل ١٧ ..) . على هذا المنوال العجيب كان الله يعد داود لثقة الشعب ومحبته .

فى اضطهاد شاول لداود :

وكان بعد انتصار داود على جليات وقتله ذلك الجبار ، أن ضمه شاول إلى رجاله المنتخبين . ولم يلبث حتى رقاه إلى رتبة قائد ألف ، لأن تصرفه كان تصرف رجل حكيم ، واسع الخبرة والحيلة فى كل فنون الحرب ، مما أكسبه محبة الشعب واحترام رجال الجيش أنفسهم .
وقد قام داود فى هذه الفترة بعدة غزوات موفقة . وأظهر من حسن النية فى خدمة سيده ، ما لا يمكن أن يرقى اليه الشك . ولكن هل ينسى شاول حسده الدفين لهذا

الفتى الشجاع ؟ كلا . لأنه حسب زعمه ، قد سلبه كل مجده . ولم يبق له إلا أن يتبوأ عرش المملكة . بدليل تلك المظاهرة الصاخبة ، التي خرجت فيها النسوة يتغنين بمدحه على وقع الصنوج والدفوف ، هاتفات وقائلات : قتل شاول ألوفه ، وداود ربواته (١ مل ١٨ : ٥ ـ ٨)

وعلى ذلك فقد أخذ شاول منذ تلك اللحظة يلحظ داود بعين الشر ، متحيناً الفرصة بعد الفرصة للبطش به وإهلاكه . وكان مفترضاً بعد أن ظفر داود بجليات ، أن يزوجه بابنته الكبرى ميراب ، إلا أنه أخلف بوعده ، وأعطاها لغيره .

ولما أحبت ميكال ابنة شاول الصغرى داود ، تظاهر أبوها أنه يبارك هذا الحب ، ولا يمانع في مصاهرة داود هذه المرة ، على أن يقتل له مئة فلسطيني . ولم يكن طلب هذا المهر الغريب إلا أحبولة شاء أن ينصبها شاول لداوذ ، لعله يلقى حتفه على أيدي هؤلاء الأعداء .

ولكن يد الرب كانت مع داود ، ولذا قبل أن يتم اليوم المحدد ، كان داود قد قتل ، لا مئة ، بل مئتين من الفلسطينيين ، فاضطر شاول رغم أنفه أن يزوجه ميكال ابنته ، التي كانت تحب داود حباً صادقاً (١ مل ١٨ : ٩ ـ ٢٧)

وكان حسد شاول وحقده على داود يزداد من يوم إلى يوم . حتى أنه ترك التستر ، وجاهر بسوء نيته ، فحاول مرتين أن يطعنه بحربته ، وذلك بينما كان داود يعزف له على القيثارة .

ولما لم يتمكن هو من قتله بنفسه ، كلم يوناتان ابنه وجميع عبيده ليكمنوا لداود فيقتلوه . ولكن أحداً لم يتجرأ أن يمد يده بسوء إلى بطل إسرائيل الشاب . واستطاع يوناتان بلباقته أن يهدىء من روع الملك أبيه ، أو يصده عن قصده الشرير . وذلك بعد أن أخبر داود صديقه بالخطر المحدق به . ولكن شاول ما لبث حتى عاودته خواطره السوداء ، وفكر من جديد في قتل غريمه داود ، فأرسل الجند يحيطون ببيت داود ، ليقتلوه في بيته على مرأى من امرأته . فأنزلت ميكال زوجها سراً من النافذة . وبذا أنقذته من تلك الميتة الأكيدة (١ مل ١٩ : ١ ـ ١٧)

فى صداقة داود و يوناثان :

أما يوناثان بن شاول ، فكان على نقيض أبيه معجباً بشجاعة داود النادرة ، و بطولته الفذة . وقد تعلقت نفسه بنفس داود ، فأحبه مثل نفسه ، وقطع معه عهد صداقة و إخاء أبدياً .

وخلع يوناثان ، بهذه المناسبة ، رداءه ووهبه لداود ، مع سائر ثيابه ، حتى سيفه وقوسه ومنطقته ، إعترافاً منه بجميل داود ، الذى محا عار إسرائيل بقتله جبار الفلسطينيين . (١ مل ١٨ : ١ — ٤)

وما أعظم ما سعى يوناثان لدى أبيه فى صالح داود . وكم من مرة خلص صديقه من خطر الموت المحدق به ، وسهل له سبيل النجاة .

وعلى ذلك سوف يبقى يوناثان ، على مر الأجيال ، مثال الخل الحميم والصديق المخلص الوفى ، لأن محبته كانت منزهة عن الأغراض ، تستند فى أساسها على مخافة الله ، والإذعان لإرادته تعالى .

فى هرب داود من وجه شاول :

ولما رأى داود أن غضب شاول عليه يزداد من يوم إلى يوم ، قرر الابتعاد نهائياً عن دار الملك ، ولجأ إلى صموئيل فى الرامة ، حيث أخبره بكل ما صنعه به شاول . وانطلق هو وصموئيل وأقاما بنايوت (١ مل ١٩ : ١٨٠٠)

ولما رأى داود أن غضب شاول عليه يزداد من يوم إلى يوم ، قرر الابتعاد نهائياً عن دار الملك ، ولجأ إلى صموئيل فى الرامة ، حيث أخبره بكل ما صنعه به شاول . وانطلق هو وصموئيل وأقاما بنايوت (١ مل ١٩ : ١٨٠٠)

و بما أن شاول تعقبه إلى هناك أيضاً ، ترك نايوت وأتى إلى نوب إلى أحيملك رئيس الكهنة . وكان معه نحو أربع مئة رجل ، انضموا إليه فى الطريق . وأكل داود ورجاله من خبز الوجوه ، لأنه كان جائعاً ، ولم يكن هناك خبز آخر يقدمه لرجاله . (١ مل ٢١ : ١ ـ ٦)

وما أن بلغ شاول خبر إضافة أحيملك لداود ، حتى غضب جداً ، فأرسل ودس

كل نوب ، وقتل أحيملك ، وكل الكهنة الذين هناك ، ويبلغ عددهم خمسة وثمانين كاهناً !

ولم ينج من تلك المجزرة المريعة ، غير أبياثار بن أحيملك رئيس الكهنة ، الذى هرب إلى داود ، وأخبره بكل ما حدث . فطمأنه داود على مصيره ، وضمه إلى رجاله ، ليكهن له . وكان معه أفود (١ مل ٢٢ : ١١-٠٠)



فى شهامة داود :

وفى أثناء مطاردة شاول لغريمه البرىء ، سنحت لداود أكثر من فرصة للتخلص من عدوه العنيد . إلا أنه رفض بشهامة أن يقتل عدوه ، وإن فى حالة حرب كان المعتدى فيها شاول ، وذلك على الرغم من تحريض رجاله له ، لأنه كان يرى فى شخص شاول ، مسيح الرب ومختاره .

ففى أحد الأيام بينما كان داود ورجاله جالسين فى أحد المغاور المظلمة ، إذا بشاول يدخل المغارة وحده ، لقضاء حاجته ، وهو لا يظن أن مخلوقاً بالمغارة .

وأشار أصحاب داود عليه أن يغتنم هذه الفرصة الذهبية ، التى دبرتها له ، ولا شك ، العناية الإلهية ، ليتخلص إلى الأبد من عدوه . إلا أنه أبى أن يعمل بمشورتهم . وكل

ما فى الأمر ، إنه قام فقطع طرف رداء شاول خفية . ولولا زجر داود لأصحابه ، لوثبوا هم عليه وقتلوه .

ولما خرج شاول من المغارة ، تبعه داود وناداه قائلاً : يا سيدى الملك ، لماذا تسمع كلام الناس القائلين إن داود يطلب أذاك . ها إن عينيك قد رأت كيف أن الرب دفعك إلى يدى . وقد أشير علىَّ أن أقتلك ، لكنى أشفقت عليك ، وقلت لا أرفع يدى على سيدى ، لأنه مسيح الرب . فانظر يا أبى ، طرف ردائك فى يدى . فمن كونى قطعت طرف ردائك ولم أقتلك ، تعلم أنى لا أريد بك سوءاً ، ولم أذنب إليك .

فلما سمع شاول ذلك ، رفع صوته و بكى ، وقال معترفاً بخطأه : أنت أبر منى ، يا بنى داود ، لأنك جزيتنى خيراً وأنا جزيتك شراً . ثم قام وانصرف راجعاً إلى بيته . (١ مل ٢٤ . .)

غير أنه ما لبث أن نسى فضل داود عليه ، وبدأ حملة إضطهاد جديدة ضده . فقام ونزل إلى برية زيف ومعه ثلاثة آلاف رجل ، ليطلب داود . وعسكر فى أكمة الحكيلة . فقام داود ليلاً ، وأتى وأبيشاى ابن أخته الموضع الذى كان نائماً فيه شاول وأبنير رئيس جيشه والجند من حولهما . ودخل خيمة الملك والجميع نيام . وأخذ الرمح الذى عند رأس شاول وكوز الماء وانصرف وزميله . ولم يكن من ناظر ، ولا عارف ، ولا منتبه ، لأن سبات الرب وقع عليهم . وعبر داود الوادى ، ووقف على قمة الجبل المقابل لمعسكر شاول ، وصاح بالشعب وبأبنير قائلاً : هلا تجيب يا أبنير . كيف لم تحرس سيدك الملك . فقد جاء واحد من الشعب ليقتل سيدك الملك . فانظر الآن أين رمح الملك وكوز الماء اللذان كانا عند رأسه .

فعرف شاول صوت داود ، فقال له : أصوتك هذا يا بنى داود ؟ فقال هو صوتى يا سيدى الملك . ما بالك تطلب عبدك . فقال شاول قد أخطأت ، فارجع يا بنى داود ، فإنى لا أعود أوذيك أيضاً (١ مل ٢٦ ..)

إلا أن داود رأى أنه من الحكمة أن يترك ، ولو مؤقتاً ، أرض إسرائيل ، ويحتمى عند آكيش ملك جت ، ولا سيما أن شاول بعد موت صموئيل ، أصبح مطلق اليد ، لا يخشى حسيباً أو رقيباً (١ مل ٢٧ : ١ ـ ٤)

فى نهاية شاول المريعة :

وحدث بعد موت صموئيل بمدة ، أن أعلن الفلسطينيون الحرب على بنى إسرائيل . فجمع شاول رجاله وخرج لملاقاتهم . إلا أنه لما رأى محلتهم ، ومعداتهم الحربية العظيمة ، هاله الأمر وخاف جداً . فسأل الرب ، فلم يجبه لا بالأحلام ، ولا بالكهنة ، ولا بالأنبياء .

حينئذ خرج متنكراً ، يصحبه بعض أعوانه ، وأتى إلى عين دور إلى امرأة ذات تابعة ، وطلب منها أن تحضر له روح صموئيل النبى .

وسمح الله تعالى بظهور صموئيل ، الذى أخذ يؤنب شاول بشدة قائلاً : لماذا أقلقتنى وأصعدتنى . فقال شاول : قد ضاق بى الأمر جداً ، والله فارقنى ، ولم يعد يجيبنى . . فدعوتك لكى تعلمنى ماذا أصنع .

فقال صموئيل : لماذا تسألنى ، والرب قد فارقك وصار عدوك . وشق المملكة من يدك ودفعها إلى صاحبك داود . وسيدفع الرب إسرائيل أيضاً معك إلى أيدى الفلسطينيين . وغداً تكونون معى أنت و بنوك[1] .

فلما سمع شاول ذلك سقط فى الحال بطول قامته على الأرض ، لشدة ما اعتراه من الخوف (١ مل ٢٨ ..)

وكان بعد ذلك أن دارت رحى الحرب بين الفريقين المتحاربين ، فانهزم رجال إسرائيل ، وقد قتل منهم عدد كبير . وجرى الفلسطينيون على أثر شاول و بنيه ، فقتلوا يوناتان وأبيناداب وملكيشوع بنى شاول . وأدرك الرماة شاول فأثخنوه بالجراح . فقال شاول لحامل سلاحه استل سيفك ووجأنى به ، لئلا يأتى هؤلاء القلف ويقتلونى و يمثلوا بى . فأبى الرجل ، ولم يجرؤ أن يمد يداً عادية على سيده . فأخذ شاول سيفه وسقط عليه ، فمات منتحراً (١ مل ٣١ ..)

فتأمل إلى أية نهاية مريعة يقود أحياناً العناد ، وعدم الطاعة !

---

(١) أى فى عالم الآخرة ، بغض النظر عن مصير كل منهم .

الفصل الثاني عشر

فى ملك داود (١٠١٠ — ٩٧٠ ق . م)

فى رثاء داود لشاول ويوناثان :

وكان بعد عودة داود من مطاردة بعض اللصوص العمالقة ، الذين كانوا قد سطوا على صقلاج ، المدينة التى كان ملك جت أعطاها لداود ، أن أقبل جندى من جبهة القتال ، حاملاً حلى الملك القتيل إلى داود ، ظناً منه أنه بذلك يحظى برضاه .

إلا أن داود ما أن سمع بخبر موت شاول ، حتى أمسك ثيابه ومزقها حزناً على فقدان ذلك البطل المغوار ، وفقدان صديقه الحميم يوناثان ، وناح وبكى عليهما حتى المساء . وأمر بذلك الجندى الغادر ، الذى لم يتورع من قتل سيده مسيح الرب ، فأطيح برأسه (٢ مل ١ : ١ ـ ١٦)

ورثى داود شاول ويوناثان بمرثية مؤثرة ، أشاد فيها بذكر البطلين وأعمالهما المجيدة ، وحبه ليوناثان ، وحب يوناثان له (٢ مل ١ : ١٩ ـ ٢٧)

ولم يلبث حتى بعث إلى أهل يابيش يشكرهم على جميل صنعهم ، إذ دفنوا شاول وبنيه (٢ مل ٢ : ٤ ـ ٧) .ومثل هذا التصرف العجيب يدل دلالة واضحة على أن داود كان يحب أعداءه محبة حقيقية صادقة .

فى إعلان داود ملكاً على يهوذا :

وسأل داود الرب[1] ، فقيل له أن يصعد إلى حبرون . فصعد مع كلتا امرأتيه أحينوعم وأبيجائيل أرملة نابال الثرى الكرملى . فأتى رجال يهوذا ومسحوه ملكاً عليهم (٢ مل ٢ : ١ ـ ٤)

أما بقية الأسباط فقد اختاروا بقيادة أبنير بن نير ، رئيس جيش شاول السابق ، إشبوشت بن شاول . وكان إشبوشت ابن أربعين سنة ، حين ملك على إسرائيل ، وملك

(١) بواسطة أبياثار عظيم الأحبار .

سنتين . وهما الأخيرتان من السبع السنوات التي دامت فيها الحرب بين داود وأنصار إشبوشت (٢ مل ٢ : ٨ ـ ١٠)

وطالت الحرب بين بيت شاول و بيت داود ، ما يقرب من سبع سنين ، ولم يزل بيت داود يتقوى ، و بيت شاول يضعف إلى أن كان النصر لداود بتملكه على كل إسرائيل ويهوذا (٢ مل ٣ : ١)

وأخذت الأمور تتطور سراعاً فى صالح داود ، ولا سيما بعد أن تخلى أبنير عن إشبوشت . بسبب ما نشب من خلاف عائلى بينهما (٢ مل ٣ : ٧ ـ ١٠)

فى قتل أبنير وأشبوشت غيرةً :

و بينما كانت تجرى المباحثات بين داود وأبنير فى أمر تمليك الأول على كل إسرائيل من دانٍ إلى بئر سبع ، إذا بيوآب رئيس جيش داود يميل بأبنير ناحية ، كأنى به يريد أن يفاوضه فى أمر خطير ، فيفاجئه بضربة قاضية فى بطنه ، فيموت بدم عسائيل ، أخى يوآب ، الذى كان قد قتله أبنير فى إحدى الحروب التى دارت رحاها بين بيت داود و بيت شاول (٢ مل ٣ : ١٢ ـ ٢٧)

وشق على داود أمر هذه الخيانة ، فقال : أنا برىء ومملكتى قدام الرب إلى الأبد من دم أبنير بن نير . فليستقر هذا الدم على رأس يوآب وجميع بيت أبيه . ورثى داود أبنير وقال : أموت الجبان يموت أبنير . ورفع صوته و بكى على قبره . ولم يشأ أن يذوق طعاماً ألبتة حتى المساء . فأيقن كل إسرائيل أنه لم يكن للملك يد فى مقتل أبنير . (٢ مل ٣ : ٢٨ ..)

ولم تمض أيام على هذه الحادثة المؤلمة ، التى هزت لحظة عرش داود ، حتى قام ابنا رمون البئيروتى ، بعنة وريكاب ، فدخلا بيت سيدهما إشبوشت ، وهو نائم على سريره ، وقتلاه وقطعا رأسه ، وأتيا بها إلى داود فى حبرون . وقالا للملك : هوذا رأس إشبوشت بن شاول عدوك .

فأجابهما داود وقال لهما : حى الرب الذى خلص نفسى من كل ضيق ، إن الذى أخبرنى وقال لى : إن شاول قد مات ، وهو يظن أنه يبشرنى بخير ، قبضت عليه وقتلته ، وقد كان يستوجب جائزة البشرى . فما يكون لرجلين باغيين قتلا رجلاً بريئاً فى بيته

على سريره . وأمر داود فأطاح أحد الغلمان برأسيهما ، وقطعوا أيديهما وأرجلهما وعلقوهما على بركة حبرون . أما رأس إشبوشت فأخذوه ودفنوه فى قبر أبنير بحبرون . (٢ مل ٤ ..)



فى اعتراف باقى الأسباط بداود ملكا :

وكان بعد موت إشبوشت أن أقبل كل شيوخ إسرائيل إلى داود فى حبرون ، وقالوا له : نحن لحمك وعظمك . ومسحوه ملكاً على باقى الأسباط . وكان داود ابن ثلاثين سنة يوم ملك على كل إسرائيل . وملك أربعين سنة . ملك بحبرون على يهوذا سبع سنين وستة أشهر . وملك بأورشليم ثلاثاً وثلاثين سنة على جميع إسرائيل ويهوذا .

ونقل داود ، بعد اعتراف كل إسرائيل به ملكاً ، عاصمة ملكه من حبرون إلى أورشليم . وذلك بعد أن أخرج من القطاع الأعلى من هذه المدينة اليبوسيين ، سكانها الأصليين بحد السيف . وما أن استولى على ذلك الجزء المرتفع من المدينة ، حتى أخذ فى تحصينه تحصيناً منيعاً ، وبنى فيه بيته . ويعرف الحصن المذكور بحصن صهيون أو مدينة داود .

وكانت يد الرب مع داود ، فهزم كل الأعداء ، الذين من حوله ، وأرغمهم ولو مؤقتاً ، على مسالمته . وكان داود لا يزال يتعاظم ، والرب إله الجنود معه (٢ مل ٥ ...)

فى نقل التابوت إلى أورشليم :

وأول عمل قام به داود بعد استقرار الحالة السياسية ، رفع المستوى الدينى ، بتنظيم الشؤون الدينية ، وتخليصها من تلك الشوائب ، التى لحقت بها فى الأيام الأخيرة من حكم شاول ، ولا سيما بعد موت صموئيل . وذلك بالسهر عليها ومراقبتها عن قرب .

وعلى هذا فقد أعد سرادقاً فخماً على مرتفع صهيون ، ليكون مقراً لتابوت الرب . وانطلق يصحبه ثلاثون ألف جندى ، وعدد كبير من الشعب ، ليصعده باحتفال إلى مقره الجديد بمدينة داود .

وما أن بلغوا بيت أبيناداب ، حتى جعلوا التابوت على عجلة جديدة ، أعطوا قيادتها لعزة وأحيُوَ ابنى أبيناداب . وبدأ الموكب بفرح عظيم ، بالهتاف وصوت البوق . وكان داود وجميع بيت إسرائيل يلعبون أمام التابوت ، ويغنون على توقيع العيدان والدفوف والصنوج .

فلما أفضوا إلى بيدر « نكون » مدَّ عُزَّة يده إلى تابوت الله يريد أن يسنده ، لأن الثيران كانت قد جمحت . ولكن بما أن لمس التابوت لم يكن مسموحاً إلا للكهنة ، فقد اشتد غضب الرب على عزة ، وضربه لأجل جسارته هذه ، فمات .

فشق على داود ضرب الرب لعزة ، وخاف خوفاً شديداً من أن ينزل تابوت الرب عنده . ومن ثم فقد عدل به مؤقتاً إلى جت إلى بيت عوبيد أدوم . فبقى تابوت الرب فى بيت عوبيد ثلاثة أشهر ، كانت ميمونة على عوبيد وكل بيته ، حيث باركه الله وكل ماله ، بركة غزيرة (٢ مل ٦ : ١ — ١١)

فلما سمع داود ذلك ، مضى فى موكب عظيم ، وأصعد تابوت الرب من بيت عوبيد إلى مدينة داود ، كما كان مقرراً من ذى قبل . وكان الفرح شاملاً . فكان كلما خطا حاملو التابوت ست خطوات يذبحون ثوراً وكبشاً مسمناً .

وكان داود يرقص بكل قوته أمام تابوت الرب طوال الطريق ، حتى وصلوا به إلى أورشليم ، إلى حصن صهيون ، وأدخلوه السرادق الفخم المقام له خصيصاً بذلك

الحصن . وكان بعد ذلك أن أصعدت المحرقات ، ونحرت ذبائح السلامة ، ووزع لحمها على جميع الحاضرين رجالاً ونساء . ثم بارك داود الشعب وصرفهم .

ولما عاد داود إلى بيته ، خرجت ميكال امرأته للقائه ، وقالت له بتهكم : ما كان أمجد ملك إسرائيل اليوم ، حيث تعرى فى عيون عبيده ، كما يتعرى أحد السفهاء . فقال لها داود : إنما كان ذلك أمام الرب الذى اصطفانى على أبيك ، وعلى جميع بيته . ولقد أتصاغر دون ذلك ، وأكون دنيئاً فى عينى نفسى ، وبذلك أزداد مجداً فى عيون هؤلاء العبيد الذين ذكرتهم (٢ مل ٦ : ١٢ . .)

وكان الرب مع داود يحفظه حيثما صار وتوجه . فتمكن من إذلال الفلسطينيين والموآبيين ، والعمالقة ، والأدوميين ، وبنى عمون ، والآراميين . وفرض على كثير من هذه الشعوب الجزية .

وملك داود على كل إسرائيل ، كما ينبغى أن يملك ملك صالح على شعبه ، يرعى حقوقهم ، ويعمل لرفاهيتهم ، ويجرى لهم الحكم والعدل دون محاباة للوجوه .

فى الوعد بأن المسيح سيكون من ذرية داود :

وشق على داود أن يسكن فى قصر منيف من الأرز الثمين ، وتابوت الرب فى خيمة من الشقق . ورغب فى أن يبنى لله بيتاً يليق بجلاله السامى . فأنبأه الرب بلسان ناثان النبى بأن هذا الشرف سيكون لابنه الذى يخرج من صلبه .

قال له : متى أقمت من يليك من نسلك ، الذى يخرج من صلبك ، فهو يبنى بيتاً لإسمى ، وأنا أقر عرشه إلى الأبد . أنا أكون له أباً ، وهو يكون لى إبناً .

(٢ مل ٧ : ٢ — ١٧)

* إن الابن ، الذى يلى داود فى الملك ، والذى يخرج من صلبه ، حسب معنى الآية الحرفى ، هو سليمان الملك ، الذى بنى فعلاً بيتاً (الهيكل) مجد فيه اسم الله أجيالاً عديدة .

أما الابن ، الذى سيلى داود على عرش يدوم إلى الأبد ، والذى سوف يخرج من صلبه حسب الجسد ، والذى لم يكن سليمان إلا رمزاً له ، والذى سوف يبنى لله بيتاً يمجد فيه مدى الدهور ، فهو المسيح المخلص ، ابن الله بالطبيعة ، الذى لا يمكن — بحصر

المعنى — أن تنطبق إلا عليه وحده دون سواه ، الآيتان التاليتان : « وأنا أقر عرش ملكه إلى الأبد » . « وأنا أكون له أباً ، وهو يكون لى ابناً » .

(٢ مل ٧ : ١٣ — ١٤)

فى خطيئة داود وتوبته :

وما كاد داود يفرغ من محاربة أعدائه الخارجيين ، ويتمتع ببعض السلام ، حتى سقط فى خطيئتين كبيرتين ، كانتا نتيجة عدم سهره على نفسه ، وإخلاده إلى حياة الترف والكسل .

فقد حدث أن أرسل جنوده ليحاربوا بنى عمون ، شرق الأردن ، وبقى وحده فى أورشليم . فنى ذات يوم عند المساء ، قام عن سريره ، وتمشى على سطح بيته ، فرأى بتشابع امرأة أوريا الحثى ، وكانت تستحم ، فخلبه جمالها . وما لبث حتى أرسل فى طلبها ، وأغراها بارتكاب الخطيئة معه .

ولم يقف عند هذا الحد ، بل أمر بقتل زوجها البرىء ، وذلك بوضعه فى أخطر نقطة من جبهة القتال ، والتخلى عنه ليهلك بسهام الأعداء . وما أن قتل أوريا حتى أعلن زواجه ببتشابع (٢ مل ١١ . .)

واطمأن داود إلى تفادى الفضيحة على هذا المنوال أمام الناس . ولكنه لم يعمل حساب الله ، الذى لم يلبث أن أرسل اليه ناثان النبى موبخاً ومنذراً بالشرور الجسام ، التى سوف تحل به ، عقاباً له على تعديه على وصايا إلهه ونكرانه لجميله .

قال له بمثل : كان فى مدينة رجلان . أحدهما غنى والآخر فقير . وكان للغنى غنم وبقر كثيرة جداً . أما الفقير فلم يكن له إلا نعجة واحدة ، كان قد اشتراها من كده وعرق جبينه . فنزل على الرجل الغنى ضيف ، فبخلت نفسه عن أن يذبح له نعجة من نعاجه ، بل اغتصب نعجة الفقير وأعدها طعاماً له . فما قولك فى ذلك أيها الملك ؟

فلما سمع داود تلك القصة غضب جداً ، وقال : من ارتكب هذا الظلم الفاحش يستوجب الموت ، ويجب أن يرد أربعة أضعاف ما اغتصب .

فأجابه النبى إذاك بصراحة وقال له : أنت هو ذاك الرجل . لقد غمرك الله بفضله ،

وخصك بنعمه، وجعلك ملكاً، وأنقذك من يد شاول، ورزقك أموالاً طائلة. فلماذا ازدريت كلام الرب وارتكبت القبيح فى عينيه.. والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد.. وسآخذ زوجاتك وأدفعهن إلى غيرك.. والابن الذى يولد لك من بتشابع يموت.

فقال داود معترفاً بذنبه: قد خطئت إلى الرب. فقال له النبى: إن الرب أيضاً قد نقل خطيئتك عنك، فلا تموت أنت (٢ مل ١٢: ١ — ١٣)

* «لا تموت أنت»: لقد حصل داود بالندامة الكاملة على مغفرة خطاياه، تلك الخطايا التى بكاها بكاءً مراً فى المزمور الخمسين «ارحمنى يا الله كعظيم رحمتك». ولكن على الرغم من نواله الصفح عن جرم الخطيئة، وعقاب الموت الأبدى المرتب عليها، فقد التزم أن يحتمل عقاب الخطيئة الزمنى.

وأى عقاب مريع! فكان عقاب الزنا الذى ارتكبه فى السر، أن سمح الله بهتك أعراض عشر من زوجاته علناً. وعقاب قتل أوريا، قتل ثلاثة من بنيه. هذا فضلا عن العقوبات الأخرى التى عاقب بها الله بيت داود على مر الأجيال.

ولنتعلمن جميعاً من قصة سقوط داود، البطل القديس، قاتل الأسود والجبابرة، الذى أسقطته نظرة واحدة شهوانية إلى امرأة، من أن نحفظ نظرنا وحواسنا جميعها، من كل ما يقود إلى الخطيئة. ولنخشَ مغبة الحياد عن طريق الاستقامة، وما يترتب على ذلك من عقوبات أبدية وزمنية مريعة.

فى تمرد أبشالوم:

الخطيئة وعقابها: وارتكب أمنون بكر داود جرماً فظيعاً فى حق تامار أخته من أبيه. الأمر الذى أثار غضب أبشالوم، فانتقامه المريع منه بقتله غيلةً. لأن صيانة عرض الأخوات كان يناط بالإخوة الأشقاء. وكان أبشالوم أخاً شقيقاً لتامار.

وخاف أبشالوم غضب داود أبيه، فهرب إلى جشور، ومكث هناك ثلاث سنين (٢ مل ١٣..)

الصفح عن القاتل: وكان لما سلا داود عن موت أمنون، ومال قلبه إلى أبشالوم،

الذى أضحى بعد موت أمنون ، الوارث لعرش إسرائيل ، أن يوآب رئيس جيش داود ، شاء أن يكسب إليه قلب ولى العهد الجديد ، وذلك بتوسطه لدى أبيه ليصفح عنه ، ويرده إلى أورشليم .

وما أن قبل داود شفاعته ، حتى قام وانطلق إلى جشور ، وأتى بأبشالوم إلى أورشليم . إلا أن هذا الأخير ، كان لا يزال بعد سنتين من عودته ، شبه معتقل فى بيته ، لا يستطيع أن يشاهد وجه الملك أبيه .

فبعث إلى يوآب ليكلم الملك فى شأنه . فإما أن يصفح عنه تماماً . وإما أن يأمر بقتله ، إن كان لا يزال يعتبره مذنباً .

فدعا داود بأبشالوم ، فدخل عليه وسجد بين يديه ، فرفعه أبوه وقبله ، وقد صفح عنه تماماً ، راداً له بذلك اعتباره كولى للعرش بعد موت أخيه الأكبر (٢ مل ١٤..)

الحرب الأهلية : غير أن أبشالوم لم يلبث أن كافأ أباه شراً عن خير . وذلك بتمرده عليه علناً ، محاولاً خلعه من العرش ، ليملك هو بدلاً منه !

ولم يكن فى جميع إسرائيل رجل جميل كأبشالوم ، من أخمص قدمه إلى قمة رأسه لم يكن فيه عيب . إلا أنه كان مختالاً ، كثير الغرور بنفسه . وقد بلغ من شدة عنايته بشعره الكث الجميل ، أنه لم يكن يقصه إلا مرة واحدة فى السنة ، عند ما كان يثقل عليه جداً .

ولذا فلا عجب أن تطمح نفس شاب مثل أبشالوم فى الملك ، وإن أدى ذلك إلى تضحية أب رحيم كداود ، قد أظهر له من الحلم والوداعة ، ما يعجز القلم عن وصفه .

وعلى ذلك فقد أخذ يتملق الشعب ، ويسترق قلوبهم بإظهاره العطف على المظلوم والحدب على كل طلب من مطالب الشعب . فكان يقول على مسامعهم : من يجعلنى قاضياً فى الأرض ، فيأتينى كل ذى خصومة ودعوى فأنصفه . وكان إذا دنا الرجل ليسجد له ، كان يسرع فينهضه عن الأرض ويقبله .

وما كاد يستميل إليه الشعب بهذه المواعيد والحيل الكاذبة ، حتى ذهب إلى حبرون ، ونادى بنفسه ملكاً .

وأخبر داود بمؤامرة أبشالوم ، فهرب هو وجميع بيته مشاة . وتبعه عدد كبير من

المخلصين من رجاله . لأنهم خافوا أن يدركهم أبشالوم ، وينزل بهم الشر ، ويضرب المدينة بحد السيف .

وصعد داود عقبة جبل الزيتون ، حافياً باكياً . ثم ذهب والرجال الذين معه إلى البرية ، وعبروا الأردن (٢ مل ١٥ ..)

فى صبر داود العجيب :

وفيما كان داود هارباً من وجه ابنه أبشالوم ، إذا برجل اسمه شمعى ، من عشيرة شاول ، خرج عليهم ، وأخذ يسب ويشتم داود وجماعته ، ويرشقهم بالحجارة ، ويحثو فى وجوههم التراب .

ولم يطق أصحاب داود احتمال هذه الإهانات ، ولا سيما أبيشاى الذى قال : كيف يلعن هذا الكلب الميت سيدى الملك ، دعنى أعبر إليه فاقطع رأسه .

فقال داود لأبيشاى ولعبيده : هو ذا ابنى الذى خرج من صلبى يطلب نفسى ، فما بالكم بينياميني عدو . دعوه يلعننى لعل الرب ينظر إلى مذلتى ، ويجزينى عن ذلك خيراً . فأذعن أصحابه لإرادته ، معجبين بصبره الجميل (٢ مل ١٦ : ١ ـ ١٣)

فى مشورة أحيتوفل :

ودخل أبشالوم مدينة أورشليم ، واحتل قصر أبيه ، وصنع بمشورة أحيتوفل ، مشير داود السابق ، ما لا يحل ، لكى لا يكون هناك متردد بين الانضمام إلى معسكره ، أو معسكر داود أبيه ، وبذا تشتد أيدى جميع مؤيديه (٢ مل ١٦ : ١٥..)

وأشار أحيتوفل الخائن على أبشالوم باقتفاء أثر أبيه دون إبطاء ، وهو ولا يزال مكدوداً مسترخى اليدين ، وإلا فإن عاقبة القتال ستكون وخيمة .

وكان أحيتوفل أحكم رجال إسرائيل ، وكانت مشورته ، كمشورة من يسأل الله . إلا أن الله ، رحمة بداود ، أبطل مشورته هذه المرة ، فلم يسمع أبشالوم له ، بل لحوشاى صديق داود ، الذى أشار عليه بمكر ، بجمع أكبر عدد ممكن من الرجال ، والانقضاض على داود انقضاض الصاعقة (٢ مل ١٧ : ١ ـ ١٤)

وقد أشار حوشاى على أبشالوم بذلك ، كما هو واضح ، ليضيع عليه وقته ، ويهيىء لداود الفرصة لتنظيم جيشه . وإذ رأى أحيتوفل أنه لم يعمل بمشورته ، ذهب إلى بيته ، وخنق نفسه ، فمات (٢ مل ١٧ : ٢٣)

***

أما داود فبعد أن أتم تنظيم جيشه ، قسمه إلى ثلاث فرق : معطياً قيادة الفرقة الأولى ليوآب أعظم قواده ، والثانية لأبيشاى أخى يوآب ، والثالثة لإتاى الجتى .

وكان يود أن يخرج مع قواده . إلا أنهم أقنعوه أن يعتزل القتال ، ليكون لهم نجدة عند الضرورة . فلبى طلبهم ، وأوصاهم أن يترفقوا بأبشالوم ابنه ، ولا يمسوه بأذى (٢ مل ١٨ : ١ ـ ٥)

فى موت أبشالوم وانكسار جيشه :

والتقى الجيشان المتحاربان فى غابة إفرايم ، واشتد القتال بينهما ، فكان النصر لرجال داود . أما رجال أبشالوم فولوا الأدبار ، تاركين وراءهم عشرين ألفاً من إخوانهم سقطوا فى ساحة القتال .

وكان أبشالوم راكباً على بغل ، فدخل البغل تحت أغصان شجرة بلوط عظيمة ملتفة ، فتعلق رأسه بالبلوطة ، فرفع بين السماء والأرض ، ومرّ البغل من تحته .

ورأى أحد رجال جنود داود أبشالوم معلقاً ، فلم يجسر أن يرفع عليه يداً عادية . بل جاء وأخبر يوآب بما رأى . فقال له يوآب . لِمَ لم تقتل ذلك الشاب المتمرد ، فإنك لو كنت قتلته ، لكنت نقدتك عشرة من الفضة ومنطقة . فقال الجندى الأمين : ولو نُقدت ألفاً من الفضة لمَا رفعت يدى عليه ، لأن الملك أوصاك على مسامعنا ، قائلاً : إحترزوا لى على الفتى أبشالوم .

ولم يتمهل يوآب فى مناقشة الجندى ، بل أخذ ثلاث حراب ، فأنشبها فى قلب أبشالوم . فبقى يختلج وهو معلق بشعره على الشجرة ، فجاء حاملو سلاح يوآب ، وأجهزوا عليه .

ونفخ يوآب فى البوق فكف جيشه عن مقاتلة إخوتهم فى جيش أبشالوم . وأخذوا أبشالوم وطرحوه فى جب فى الغابة ، وجمعوا فوقه كومة عظيمة جداً من الحجارة .

وحزن داود على قتل هذا الابن العاق حزناً شديداً ، لأنه مات هذه الميتة المريعة ، وعلى تلك الحال من العناد والتمرد . وبكاه بمرارة قائلاً : يابنيّ أبشالوم ، يابني أبشالوم ، يا ليتني مت عوضاً منك ، يا أبشالوم ابني (٢ مل ١٨ : ٦ . .) . وعفا داود عن جميع الشعب ، الذين كانوا قد انضموا إلى أبشالوم ، ولم يشأ أن ينتقم من أحد فى ذلك اليوم (٢ مل ١٩ . .)

فى بعض أعمال البطولة التى قام بها داود وعبيده :

وحارب داود بعد ذلك الفلسطينيين حروباً كثيرة ، كللت بالانتصار الساحق على هؤلاء الأعداء الأشداء .

وعطش داود فى إحدى تلك المعارك الطاحنة ، فتأوه من شدة العطش ، وقال : من يسقيني ماءً من بئر بيت لحم ، التى عند الباب . وكانت البئر فى يد الأعداء . فاخترق ثلاثة من أبطاله محلة الفلسطينيين ، واستقوا ماءً من البئر ، وحملوه وأتوا به إلى داود .

فلم يشأ أن يشرب منه ، بل أراقه للرب . وقال : حاش لى ، يارب ، أن أفعل هذا . أأشرب دم قوم خاطروا بأنفسهم . ولم يرد أن يشرب .

(٢ مل ٢٣ : ١٣ — ١٧)

فى عقاب الوباء :

وكان بعد مدة ، والسلام يرفرف على ربوع المملكة من الداخل والخارج ، أن أمر داود يوآب رئيس جيشه ، قائلا : طف فى جميع أنحاء المملكة ، من دان إلى بئر سبيع وأحصوا الشعب لكى أعلم عددهم .

وبما أن طلب ذلك الإحصاء كان بدافع الكبرياء ، فقد غضب الله على داود ، فأرسل إليه جاد النبى ، قائلا : « إنى عارض عليك ثلاثاً . فاختر لنفسك واحدة منها ، فأنزلها بك : أتأتى عليك سبع سنى جوع فى أرضك . أم تهرب أمام أعدائك ثلاثة أشهر . أم يكون ثلاثة أيام وباء فى أرضك .

فقال داود لجاد ، وقد علم خطأه : لقد ضاق بى الأمر جداً ، ولا أعلم ماذا أختار .

ولكن إن كان لا بد من ذلك ، فالأحرى أن أقع فى يد الرب ، ذى المراحم الكثيرة ، من الوقوع فى يد الناس .

فبعث الرب فى كل إسرائيل وباءً شديداً جداً ، فمات من الشعب سبع وسبعون ألف رجل . ولم تكف الضربة ، إلا عند ما رفع داود أكف الضراعة إلى العلى ، ليرحم ذلك الشعب البرىء ، قائلاً : أنا الذى فعلت السوء . وأما أولئك الخراف فماذا فعلوا ؟

فتعطف الله على عبده داود وعلى الشعب ، فكفت الضربة (٢ مل ٢٤ ..)

فى مسح سليمان ملكا :

وحدث فى آخر أيام داود ، إذ شاخ وطعن فى السن ، أن أدونيا أكبر بنيه ، طمع فى الملك ، فاتخذ له كأبشلوم أخيه ، مراكباً وفرساناً وخمسين رجلاً يجرون بين يديه .

ثم ما لبث بالتواطؤ مع يوآب رئيس الجيش وأبيتار رئيس الكهنة ، أن أقام حفلاً عظيماً ، دعا إليه كل مؤيديه ، وجميع بنى الملك ، ما عدا سليمان ، لينصب ملكاً .

وما أن أخبر داود بالأمر ، حتى استدعى صادوق الكاهن وناثان النبى ، وأمرهما بمسح سليمان من فورهما ، والمناداة به ملكاً على إسرائيل . فأخذ صادوق الكاهن ، وناثان النبى ، وكل عبيد داود ، أخذوا سليمان وأركبوه على بغلة أبيه ، وانطلقوا به إلى جيحون[١] ، كما أمرهما الملك داود . وهناك مسحوه ملكاً على كل إسرائيل ، فهتفوا بالبوق ، ونادى جميع الشعب : ليحيا الملك سليمان .

وسمع أدونيا وجميع من عنده من المدعوين ، وكانوا قد فرغوا من الأكل ، أن الملك داود قد ملّك سليمان ، فارتاعوا جميعاً ، ونهضوا وذهبوا كل واحد فى سبيله . أما أدونيا فلاذ بالمكان المقدس ، وأخذ بقرون المذبح ، لأنه خاف انتقام سليمان . ولم ينتقم سليمان منه إذ ذاك ، إنما أمره بالانصراف إلى بيته واعتزال السياسة (٣ مل ١ ..)

---

(١) تقع منطقة جيحون فى سفح مرتفع أوفيل ، وهو المرتفع الذى كانت تقع عليه مدينة داود أو صهيون . وتقع مدينة داود أو صهيون جنوب شرق القدس الحالية . وبمنطقة جيحون المذكورة نبع طبيعى يعرف اليوم بعين « ستى مريم »

فى كلمات داود الأخيرة وموته :

ولما دنا يوم وفاة داود ، أوصى سليمان ابنه ، وقال : أنا ذاهب فى سبيل أهل الأرض كلهم ـ أى إلى الموت ـ فتشدد وكن رجلاً . واحفظ وصايا الرب إلهك ، واسلك فى طريقه ، على ما هو مكتوب فى توراة موسى (٣ مل ٢ : ١ ـ ٣)

ثم جمع جميع رؤساء إسرائيل ، وكل أبنائه ، والأبطال ، وكل عظماء المملكة ، وخاطبهم قائلاً : لقد كان فى نفسى أن أبنى بيتاً لتابوت عهد الرب ، وقد أعددت كل مواد البناء . إلا أن الله قال لى : أنت لا تبنى بيتاً لاسمى ، لأنك رجل حروب ، وقد سفكت الدماء . بل سليمان ابنك هو يبنى بيتى ، لأنى إياه اصطفيت لى ابناً . وأنا أكون له أباً . وأقر ملكه إلى الأبد ، إن ثبت على العمل بوصاياى وأحكامى .

وبعد توصية قصيرة للشعب ، حثهم فيها على الثبات فى حفظ جميع وصايا الله ، أبرز رسم بيت الرب وملحقاته ، مع تصميم جميع الآنية وأمتعة الخدمة ، ودفعها إلى سليمان ابنه .. (١ أى ٢٨ ..) . وقال للرؤساء : إن العمل عظيم ، لأن الهيكل ليس لبشر ، بل للرب الإله . . . وبعد فإنى لرغبتى فى تحقيق هذا الأمر ، لدىّ مال خاص من الذهب والفضة ، وهبته لبيت إلهى ، علاوة على جميع ما أعددته ـ من مال الدولة وأسلاب الحروب ـ لبيت القدس : ثلاثة آلاف قنطار ذهب ، وسبعة آلاف قنطار فضة .

حينئذ تطوع الرؤساء ، وأدوا لخدمة بيت الله خمسة آلاف قنطار من الذهب ، وعشرة آلاف من الفضة ، وكميات كبيرة جداً من النحاس والحديد .

وبارك داود الرب قائلاً : مبارك أنت أيها الرب إله إسرائيل . . . لك يا رب ، العظمة والجبروت والجلال والبهاء . . . من لدنك الغنى والمجد ، وأنت مالك على الجميع ، وفى يدك القدرة . . . أيها الرب إلهنا إن كل هذه الثروة التى أعددناها لنبنى لك بيتاً ، إنما هى من يدك والجميع لك .

وبارك الشعب كلهم الرب إله آبائهم ، وخروا وسجدوا للرب وللملك . وذبحوا للرب ذبائح كثيرة . ثم توجوا سليمان ، فجلس على عرش إسرائيل مكان أبيه (١ أى ٢٩ ..)

ومات داود (٩٧٠ ق . م) بشيبة صالحة ، وقد شبع من الأيام والغنى والمجد . وداود الملك هو « مرنم إسرائيل العذب » مؤلف معظم المزامير ، تلك الأناشيد والأغانى

الروحية السامية ، التي ما زالت الكنيسة ترددها في صلواتها كل يوم ، في أربع أقطار المسكونة ، لتسبحة الخالق العظيم ، أبا المراحم الحنان ، واهب كل نعمة وعطية صالحة .

الفصل الثالث عشر

في ملك سليمان (٩٧٣ — ٩٣٣ ق . م)

في تطهير سليمان مملكته من الخونة :

وكان أول عمل قام به سليمان بعد ارتقائه العرش ، تطهير المملكة ، كما أوصاه داود أبوه قبل وفاته ، من الخونة وأعضاء السوء .

وأول من شمله التطهير « أدونيا » أخوه من أبيه ، الذي على الرغم من نهي سليمان له عن اعتزال السياسة ، فإنه بمجرد وفاة داود ، أخذ يلعب بالنار ، مضمراً السوء لسليمان . فقد طلب بوقاحة أن تعطى له زوجة « أبيشاج الشونمية » أجمل نساء داود وأصغرهن سناً ، والتي لم يكن الملك القديس قد عرفها .

وبما أن طلبه هـذا كان بمثابة طلب العرش ضمناً ، لأن نساء الملك الراحل ، كانت من حق الملك الذي يليه في الملك ، فقد أمر سليمان بالبطش به ، فمات .

وبلغ الخبر يوآب ـ وكان يوآب قد تحزب لأدونيا ـ فخاف جداً ، وهرب إلى خباء الرب ، وأخذ بقرون المذبح ، ولم يشأ أن يغادر المكان المقدس بحال . فأمر سليمان بقتله هناك ، قائلاً : ليردد الرب دمه على رأسه ، لأنه بطش برجلين بريئين خير منه ، وهما أبنير بن نير ، رئيس جيش إسرائيل ، وعماسا بن ياثر رئيس جيش يهوذا .

أما أبيثار رئيس الكهنة ، الذي كان قد تحزب هو أيضاً لأدونيا ، فلم يقتله ، إجلالاً لكرامة تابوت الرب ، الذي كان يحمله ، ولأنه شاطر أحزان داود في حله وترحاله . بل أمره بالانصراف إلى مدينته ليرعى شئون بيته الخاصة ، دون شئون الدولة العامة .

وبعزل أبيثار عن رئاسة الكهنوت تم القول ، الذي قاله الرب في بيت عالي في شيلو .

واعتقل سليمان « شمعى » فى بيته بأورشليم . وقال له : اعلم أنك يوم تخرج وتجوز وادى قدرون تموت موتاً ، ويكون دمك على رأسك . واتفق بعد ثلاث سنين أن هرب عبدان من عبيد شمعى إلى جت . فانطلق شمعى دون استئذان الملك ، وأتى بعبديه من هناك .

فاستدعاه سليمان من بيته ، وقال له : لماذا لم تحفظ حلف الرب ، والأمر الذى أمرتك به . إنك ولا شك ، تذكر جيداً الشر ، الذى صنعته بداود أبى ، إن هذا الشر يرده الرب على رأسك اليوم . وأمر الملك بنايا بن يوياداع فبطش به فمات .

وأقام سليمان بنايا بن يوياداع رئيساً على الجيش مكان يوآب . واختار صادوق الكاهن لرئاسة الكهنوت بدلاً من أبيتار .

وما أن طهر صفوف المملكة من أعدائها الداخليين ، حتى أخذ فى توطيد أسس النهضة ، التى بدأها أبوه ، والتى سوف تبلغ معه القمة . كما وأخذ فى تقوية المملكة من الخارج ، ولا سيما بعقده المعاهدات والمحالفات مع الملوك المجاورين . وأول معاهدة من هذا النوع هى التى أبرمها مع ملك مصر ، بمصاهرته فرعون (٣ مل ٢ : ١٣ ..)

واعتصم سليمان فى بدء حياته بحبل الله ، سالكاً فى جميع طرق داود أبيه . ولا أدلّ على ذلك ، من انطلاقه إلى جبعون ، حيث كانت أعظم المشارف ، التى كانت تقدم عليها الذبائح قبل بناء الهيكل ، وإصعاده ألف محرقة للرب ، ليشكره تعالى على ما أولاه من نصر مبين على هؤلاء الأعداء الداخليين ، الذين لم يستطع داود أبوه من كسر شوكتهم (٣ مل ٣ : ٤)

فى طلب سليمان الحكمة :

وتجلى الرب فى جبعون لسليمان فى الحلم ، وقال له : إسأل ماذا أعطيك . فقال سليمان : أيها الرب إلهى ، أنت ملكت عبدك مكان داود أبى . وأنا غلام صغير السن ، قليل الخبرة ، لا طاقة له بسياسة شعب عظيم ، كشعبك الذى اخترته . فهب عبدك قلباً فهيماً ، ليحكم بين شعبك بالعدل ، ويميز بين الخير والشر .

فحسن طلب سليمان هذا فى عينى الرب ، فقال له تعالى : بما أنك سألت هذا

الأمر ، ولم تسل لك أياماً كثيرة ، ولا سألت لنفسك الغنى ، ولم تطلب نفوس أعدائك فهاءنذا قد فعلت بحسب كلامك . هاءنذا قد أعطيتك قلباً حكيماً فهيماً ، حتى إنه لم يكن قبلك مثلك ، ولا يقوم بعدك نظيرك .

وأيضاً ما لم تسله قد أعطيتك إياه : الغنى والمجد ، حتى إنه لا يكون رجل مثلك فى الملوك كل أيامك . وإن أنت سلكت فى طريقى ، حافظاً وصاياى ، كما سلك داود أبوك أطيل أيامك أيضاً (٣ مل ٣ : ٥ ـ ١٤)



فى قضاء سليمان فى دعوى المرأتين المتخاصمتين :

وجاءت امرأتان ، ووقفتا بين يدى سليمان الملك ، فقالت الأولى : إنى وهذه المرأة مقيمتان فى بيت واحد . فولدت أنا فى هذا البيت . وفى ثالث يوم من ولادتى ، ولدت هذه المرأة أيضاً . وكنا معاً وليس معنا غريب فى البيت . فمات ابن هـذه فى الليل ، لأنها اضطجعت عليه . فقامت عنـد نصف الليل ، فأخذت ابنى من جانبى ، وجعلته فى حضنها ، وابنها الميت جعلته فى حضنى . فلما قمت فى الصباح لأرضع ابنى ، إذا هو ميت . فتفرست فيه ، فإذا هو ليس بابنى الذى ولدته .

فقالت الأخرى : ليس الأمر كذلك ، بل الحى هو ابنى ، والميت ابنك . فقالت تلك : لا ، بل ابنك الميت وابنى الحى . والتبس الأمر جداً لعدم وجود الشهود .

فقال الملك : علىّ بسيف . فأتوا بسيف إلى أمام الملك . فقال : أشطروا الصبى الحى شطرين ، وادفعوا شطراً إلى الواحدة ، وشطراً إلى الأخرى .

فارتضت الأم الكاذبة بالحكم ، قائلة باستهتار : لا يكون لى ولا لك ، أشطروه . أما الأم الحقيقية ، وقد تحركت أحشاؤها حناناً على ابنها ، فصاحت قائلة : إصغ إلىّ يا سيدى الملك ، أعطوها الصبى حياً ولا تقتلوه .

فأجاب الملك وقال : إدفعوا الصبى الحى إلى هذه ولا تقتلوه لأنها أمه . وسمع جميع إسرائيل بهذا القضاء ، الذى أظهر حكمة سليمان الفائقة ، فهابوه (٣ مل ٣ : ١٦ ..)

فى مجد سليمان وحكمته :

وامتد سلطان سليمان على جميع الممالك الصغيرة المجاورة لإسرائيل ، من نهر الفرات إلى أرض فلسطين ، و إلى حدود مصر . فكانوا يحملون إليه الهدايا ، خاضعين له كل أيام حياته .

وكان بينه و بين جميع الممالك الأخرى سلام ، فسكن يهوذا و إسرائيل آمنين ، كل واحد تحت جفنته وتينته ، من دانٍ فى أقصى الشمال ، إلى بئر سبع فى أقصى الجنوب .

وقسم سليمان كل مملكته إلى اثنتى عشرة إيالة ، جعل على كل منها والياً يجبى له خراجها ، ويمتار له ولبيته شهراً فى السنة (٣ مل ٤ : ٢١ ـ ٢٧)

وأنشأ سليمان أسطولاً بحرياً ، من السفن التجارية فى البحر الأحمر ، تحت إمرة ملاحين فينيقيين يعملون مع عبيده . أسطولاً يجوب البحار الشرقية ، حتى أوفير ببلاد الهند ، فى طلب الذهب والفضة والأحجار الكريمة والأخشاب الثمينة .

(٣ مل ٩ : ٣٦ ..)

كما أنشأ أسطولاً آخر فى البحر الأبيض ، بلغ فى تجوابه هذا البحر ، حتى ترشيش ، فى بلاد إسبانيا على ما يظن . وكانت هذه السفن تعود مرةً فى كل ثلاث سنين ، محملةً بالذهب والفضة والعاج ، والقردة والطواويس (٣ مل ١٠ : ٢٢)

وكان وزن الذهب الذى ورد على سليمان فى سنة واحدة ، ست مئة وستة وستين قنطار ذهب . هذا غير الوارد عليه من الأموال الأميرية ، ومن تجارة التجار ، وجميع ملوك العرب ، وولاة البلاد الخاضعة له (٣ مل ١٠ : ١٤ ـ ١٥)

وما أن فرغ من بناء الهيكل ، حتى بنى بيتاً عظيماً لسكناه . بناه على أربعة صفوف من عمد الأرز ، بحجارة ثمينة ضخمة . وسقفه بالأرز من فوق على الغرفات الخمس والأربعين ، المكون منها البيت . وصنع رواق القضاء مصفحاً بالأرز من الأرض حتى السقف (٣ مل ٧ : ١ ـ ٧)

وأقام به عرشاً كبيراً من العاج ، ألبسه ذهباً إبريزاً . وكان للعرش ست درجات وعلى طرفى كل درجة من هنا ومن هناك أسدان واقفان . وكانت جميع آنية الملك من ذهب خالص (٣ مل ١٠ : ١٨ ـ ٢١)

وعظم الملك سليمان على جميع ملوك الأرض فى الغنى والحكمة . ففاقت حكمته حكمة جميع أهل المشرق ، وكل حكمة المصريين (٣ مل ٤ : ٣٠) . وكان كل ملوك الأرض يلتمسون مواجهته ، ليسمعوا حكمته . ولم يكن من زائر إلا وأتاه بهداياه ، من آنية فضية ، وآنية ذهبية ، ولباس وسلاح وأطياب وخيل . . .

وكان لسليمان ألف وأربع مئة مركبة ، واثنا عشر ألف فارس ، وأربعون ألف مذود لخيل مركباته ، التى كانت تصنع له خصيصاً فى مصر (٣ مل ٤ : ٢٦ ..)

أما الفضة فى أورشليم ، عاصمة ملكه ، فكانت كالحجارة ، وخشب الأرز مثل الجميز ، الذى فى الصحارى ، كثرةً (٣ مل ١٠ : ٢٧)

و بنى سليمان عدة مدن أهمها : جازر ، و بيت حورون ، و بعلت ، وتدمر ، وجميع مدن الخزن ، التى كانت له ملكاً خاصاً ، ومدن المركبات ، ومدن الفرسان . وقد سخر لهذه الأعمال العظيمة من بقوا من ذرية الأموريين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين (٣ مل ٩ : ١٧ — ١٩)

وقال سليمان ثلاثة آلاف مثل . وكانت أناشيده ألفاً وخمس أناشيد . وتكلم فى الشجر ، من الأرز إلى الزوفى . وتكلم فى البهائم والطير والزحافات والسمك .

(٣ مل ٤ : ٣٢ ..)

ولم يصلنا من مؤلفات سليمان العديدة غير سفر الأمثال ، وسفر الحكمة ، وسفر نشيد الأناشيد ، وسفر الجامعة ، الذى بدأه بقوله : باطل الأباطيل ، وكل شىء باطل .

فى زيارة ملكة سبأ لسليمان :

وسمعت ملكة سبأ بأخبار سليمان ، فأتت لتختبره وتسمع حكمته . فدخلت أورشليم فى موكب عظيم ، ومعها قافلة من الجمال محملة أطياباً وذهباً كثيراً ، وحجارة كريمة . وكلمت سليمان بجميع ما كان فى خاطرها ، ففسر لها جميع كلامها .

ورأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان ، والبيت الذى بناه ، وطعام موائده ، ومحرقات إلهه ، ونظام البلاط ، ومسكن عبيده ، ولباس الخدم والحشم . فأخذها العجب مما رأت وسمعت .

وقالت لسليمان : حقاً كان الكلام الذى بلغنى عنك ، ولم أصدق ما قيل لى ، حتى قدمت إلى ههنا ، وعاينت كل شىء بعينى ، فإذا بى لم أخبر ولا بالنصف ، فقد زدت حكمة وعظمة عما شاع عنك .

ثم قالت له : طوبى لرجالك وعبيدك ، هؤلاء القائمين دائماً بين يديك يسمعون



بناء هيكل أورشليم

حكمتك . تبارك الرب إلهك ، الذى رضى عنك ، وأجلسك على عرش إسرائيل ، لتجرى الحكم والعدل لشعبه .

وأعطت ملكة سبأ سليمان مئة وعشرين قنطار ذهب ، وأطيابا كثيرة جداً ، وحجارة كريمة . وأهداها الملك سليمان هدايا كثيرة على حسب كرمه . فانصرفت وعبيدها إلى بلادها (٣ مل ١٠ : ١ — ١٣)

فى هيكل سليمان[1] :

هو دون جدال أكبر عمل معمارى قام به سليمان . وكان ذلك فى السنة الرابعة من ملكه . وقد استغرق هذا البناء الفخيم ، الذى لم يكن يضارعه بناء ، سبع سنين . وقد بناه على جبل الموريا ، الواقع شمال شرقى أورشليم .

ويبلغ عدد العمال ، الذين استخدمهم سليمان لإنجاز هذا العمل العظيم ما يقرب من المئتى ألف عامل ، منهم : ثلاثون ألف عامل سخرة ، كان يرسل منهم إلى لبنان عشرة آلاف فى الشهر مناوبة ، لقطع الأخشاب مع عبيد حيرام ملك صور ، صديق سليمان . وسبعون ألف عامل لحمل الأثقال فقط ونقلها ، وثمانون ألفاً لقطع الأحجار ونحتها قبل تصديرها إلى أورشليم . هذا ما عدا الرؤساء وكلاء سليمان القائمين على الأعمال ، والبالغ عددهم نيف وثلاثة آلاف رجل (٣ مل ٥ : ١٣ ..)

---

(١) يقول صاحب سفر الملوك الثالث فى ٦ : ١ ، بأن سليمان الملك بدأ فى بناء الهيكل ، فى السنة الأربع مئة والثمانين لخروج بنى إسرائيل من مصر ، والرابعة من ملكه .

وتوافق السنة الرابعة من ملك سليمان سنة ٩٦٩ قبل الميلاد . والآن إذا أضفنا هذا العدد الأخير إلى العدد ٤٨٠ ، وقع الخروج فى سنة ١٤٤٩ . والحال إن الخروج كان فى سنة ١٠٢٥ (أنظر الحاشية صفحة ٨٥) ، فكيف التوفيق ؟

الحل ، على ما نرى ، هو إنه لا يجب أن نفهم الجملة « فى السنة الأربع مئة والثمانين لخروج بنى إسرائيل من مصر » حرفياً ، بل بمعنى من خروجهم واستيطانهم أرض الموعد . على أن لا يدخل فى حساب ال ٤٨٠ سنة ، الأربعون سنة التى قضاها بنو إسرائيل فى الصحراء ، ولا المدة التى استغرقوها للاستيلاء على أرض الموعد ، حتى ظهور أول قضاتهم ، والتى تقدر بـ ٣٦ سنه .

على هذا النحو فقط يمكننا أن نوفق بين ما يعلنه هنا سفر الملوك ، وما قررناه سابقا ، وهو إن الخروج كان فى سنة ١٠٢٥ ق . م

ويتكون الهيكل أو بيت « يهوه » بحصر المعنى ، من القدس وقدس الأقداس ، وهو ضعف مساحة المسكن ، الذى أقامه موسى تماماً . ومن ثم كان طوله ثلاثين متراً وعرضه عشرة أمتار . ويمتد أمام القدس الدهليز ، وهو بعرض البيت فى طول خمسة أمتار .

وكان للقدس ، الذى لم يكن مسموحاً بدخوله إلا للكهنة ، شبابيك مرتفعة . أما قدس الأقداس أو المحراب ، الذى لم يكن مسموحاً بدخوله إلا لرئيس الكهنة ، ومرة واحدة فى السنة فقط ، فكان مظلماً تماماً .

وكانت تمتد على محيط بيت الله ثلاث طبقات من الغرف ، لحفظ أدوات الهيكل ، والأقداس والنذور (٣ مل ٦ : ١ — ١٠)

ويبلغ ارتفاع رواق القدس أو الدهليز ثلاثون متراً ، والقدس خمسة عشر متراً . أما ارتفاع قدس الأقداس أو المحراب ، فكان كطوله وعرضه أى عشرة أمتار ، وإذن فهو عبارة عن عشرة أمتار مكعبة .

ولكى نعطى فكرة للقارىء عن فخامة هذا البناء وعظمته ، نقول : إنه بنى جميعه بحجارة ثمينة تامة النحت . وقد ألبست جدرانه وسقوفه وأرضيته بخشب الأرز والسرو ، ثم غشيت جميعها بالذهب الخالص . وقد نقشت على جميع جدران البيت صور ملائكة ونخيل وزهور مفتحة بارزة محكمة النقش . كما أن جميع أدوات بيت الله ، التى صنعها سليمان كانت من الذهب الخالص (٣ مل ٦ : ١٤ ..)

وكان يحيط بالهيكل من مدخله وجانبيه ، على أيام سليمان ، ساحتان كبيرتان : ساحة الكهنة ، وساحة إسرائيل . وكانت الأولى ، وهى المقام عليها الهيكل ، أعلى من الثانية بخمس عشرة درجة ، وفى وسطها مذبح المحرقات ، والبحر ، والمغتسلات العشرة ، التى صنعها سليمان من النحاس المجلو .

وكان حول هاتين الساحتين أروقة كبيرة فسيحة ، ذات أعمدة مرتفعة من الرخام ، يتخللها عدد كبير من الغرف لسكنى الكهنة ، والأغراض الأخرى المختلفة .

فى تدشين الهيكل :

ولما تم بناء الهيكل بجميع أقسامه ، أدخل سليمان جميع الأقداس ، التى أعطاه إياها داود أبوه ، من الفضة والذهب ، وجعلها فى خزائن بيت الرب (٣ مل ٧ : ٥١)

حينئذ جمع إليه شيوخ إسرائيل ، وجميع رؤساء الأسباط ، وكل عظماء الدولة إلى أورشليم ، ليصعدوا تابوت عهد الرب من « صهيون » إلى الهيكل الجديد . فأصعدوه بفرح واحتفال عظيمين .

وما أن أدخل الكهنة تابوت الرب إلى مكانه فى قدس الأقداس ، تحت أجنحة الكروبين العظيمين ، اللذين صنعهما سليمان من داخل المحراب ، حتى ملأ الغمام بيت الرب . فلم يستطع الكهنة أن يقفوا للخدمة بسبب الغمام ، المشير والمعلن بحلول الله فى بيته .

وإذ رأى سليمان أن مجد الرب قد ملأ الهيكل ، قام فجثا على ركبتيه أمام مذبح الرب ، أمام جماعة بنى إسرائيل كلها ، و بسط يديه نحو السماء ، وصلى صلاة طويلة ، نقتبس منها الفقرات التالية ، قال : أيها الرب إله إسرائيل ، ليس إله مثلك فى السماء من فوق ، ولا فى الأرض من أسفل ... إن السماوات ، وسماوات السماوات لا تسعك ، فكيف هذا البيت ؟ .. اللهم التفت إلى صلاة عبدك وتضرعه . ولتكن عيناك مفتوحتين على هذا البيت ، النهار والليل .. نحو تضرع عبدك وشعبك ، واصغ إليهم فى كل ما يدعونك فيه .

وكان لما أتم سليمان صلاته ، أن هبطت النار من السماء ، فأكلت المحرقة والذبائح ، وملأ مجد الرب البيت . وبذا تم تكريس الهيكل بجميع مذابحه وأدواته .

وعاين جميع بنى إسرائيل هبوط النار ، ومجد الرب ، فخروا بوجوههم إلى الأرض ، وسجدوا لله جل جلاله ، معترفين بصلاحه تعالى ورحمته .

وذبح سليمان الملك أمام الرب ذبائح : اثنين وعشرين ألفاً من البقر ، ومئة وعشرين ألفاً من الغنم ، ما عدا ما ذبحه الشعب .

واحتفل سليمان وكل جماعة بنى إسرائيل بتدشين الهيكل أربعة عشر يوماً . صرفهم بعدها الملك إلى بيوتهم فرحين طيبى القلوب (٣ مل ٨ ...)

وتجلى الرب لسليمان ليلاً ، وقال له : قد سمعت صلاتك ، واخترت لى هذا المكان بيت ذبيحة ، وقدسته ليكون اسمى فيه إلى الأبد (٣ مل ٩.)

فى حياد سليمان عن طريق الحكمة :

وكان فى أواخر أيامه ، أن استسلم سليمان إلى الشهوات ، فأحب نساءً غريبة كثيرة مع زوجته ابنة فرعون : من الموآبيين والعمونيين والأدوميين والصيدونيين والحثيين ، ومن الأمم التى قال الرب لبنى إسرائيل لا تختلطوا بهم .

فأزاغت تلك النساء قلبه ، وحملته على بناء معابد لأصنامهن ، واتباع تلك الآلهة الكاذبة الغريبة .

فغضب الرب على سليمان ، حيث مال قلبه عنه تعالى ، وهو الذى تجلى له مرتين . وأمره بالإقلاع عن غيه ، فلم يسمع . فقال له تعالى : بما أنك لم تزل مصراً على غيك ، ولم تحفظ عهدى ورسومى التى أمرتك بها ، فسأشق الملك عنك وأدفعه إلى عبدك . إلا أنى لا أفعل ذلك فى أيامك ، من أجل داود أبيك ، بل من يد ابنك أشقه . ولا أشق الملك كله ، ولكن أعطى لابنك سبطاً واحداً ، من أجل داود عبدى ، ومن أجل أورشليم التى اخترتها .

وأثار الرب فاتناً على سليمان فى شخص هدد الأدومى ، وآخر فى شخص رزون بن أليادع ، وثالثاً فى شخص ياربعام بن نباط الإفرائيمى ، لعله يعود إلى صوابه ، ولكن دون جدوى (٣ مل ١٠١.)

ومات سليمان بعد أن ملك على كل إسرائيل أربعين سنة . مات ولم يبد أية توبة . ولذا فإن كثيراً من العلماء ومفسرى الكتاب يشكون فى أمر خلاصه .

الحقبة الخامسة

من انقسام المملكة حتى سبي بابل

تحوى هذه الحقبة ٣٤٦ سنة . تبدأ فى سنة ٩٣٢ وتنتهى فى سنة ٥٨٦ قبل الميلاد .

الفصل الأول

فى اتباع رحبعام مشورة الشبان :

وكان بعد موت سليمان أن صممت الأسباط الشمالية ، وعلى رأسها سبط إفرائيم ، المنافس الأكبر لسبط يهوذا ، على التخلص بأى ثمن كان ، من قيود الضرائب الباهظة ، التى فرضها عليهم سليمان ، ولا سيما فى أواخر حياته بسبب إغراقه فى الترف وحياة النعيم .

وحتى يتمكنوا من فرض إرادتهم على ابنـه رحبعام ، الملك الجديد ، دعوه إلى شكيم ، بعيداً عن البلاط فى أورشليم ، للاحتفال بتتويجه ملكاً عليهم .

وما أن قَدِم رحبعام شكيم ، حتى واجهه الشعب بالمطالب المذكورة ، قالوا له : إن أباك قد ثقـل نيرنا ، فخفف أنت الآن من عبودية أبيك الشاقة ، ونيره الثقيل فنخدمك . فقال لهم رحبعام : إمضوا الآن ، ثم عودوا إلى بعد ثلاثة أيام .

فشاور رحبعام الشيوخ ، الذين كانوا يقفون بين يدى سليمان أبيه ، وقال لهم : بماذا تشيرون أن أجيب هؤلاء الشعب ؟ فأجابوه قائلين : إن أنت تنازلت لهؤلاء الشعب ، فى هـذا اليوم ، ووافقتهم ، وكلمتهم بإحسان ، فإنهم يكونون لك عبيداً كل الأيام .

إلا أنه ترك مشورة الشيوخ هـذه الحـكيمة ، وشاور الشبان الذين نشأوا معه ، وكانوا يقفون بين يديه ، وقال لهم : ما الذى تشيرون به أنتم علىَّ . فقالوا له : قل لهؤلاء الشعب إن خنصرى أغلظ من ظهر أبى . والآن ، فإن أبى حملكم نيراً ثقيلاً ، وأنا أزيد على نيركم . أبى أدبكم بالسياط ، وأنا أؤدبكم بالعقارب .

وأقبل الشعب إلى رحبعام فى اليوم الثالث ، فأجابهم بكلام جاف ، كما أشار عليه الشبان . فغضب الشعب وتمردوا عليه ، إلا سبطى يهوذا و بنيامين . ولم تمض أيام ، حتى أقام الشعب الثائر ياربعام بن نباط ملكاً عليهم (٣ مل ١٢ : ١ — ٢٠)

فانقسمت مملكة العبرانيين ، تلك المملكة الكبيرة المهيبة الجانب ، إلى مملكتين صغيرتين ، لا قوة لهما ولا مهابة : مملكة يهوذا ، الخاضعة لرحبعام ، وعاصمتها أورشليم . ومملكة إسرائيل ، الخاضعة لياربعام ، وعاصمتها شكيم ثم مدينة السامرة .

على أن السبب الحقيقى لهذا الانقسام بين الأمة الواحدة ، يجب أن نبحث عنه ، لا فى تلك المنافسات السياسية بين الأسباط الشمالية والجنوبية فحسب ، بل وفى قضاء الله ، الذى شاء بهذا الانقسام الوبيل العواقب ، معاقبة سليمان و بيته عن خيانتهم الكبرى ، حسبما سبق وأنذر تعالى سليمان بذلك .

***

ولم تدم مملكة إسرائيل فى الوجود أكثر من ٢١٠ سنين ، أى حتى جلاء ملكها وجميع الشعب إلى نينوى .

أما مملكة يهوذا فعاشت ٣٤٦ سنة ، أى حتى أسر بابل المشهور. وسنتكلم أولا عن تاريخ مملكة إسرائيل . ثم عن تاريخ مملكة يهوذا . بيد أننا لن نسرد من الحوادث إلا أهمها . ولن نتبسط فى الحديث عن الملوك والأنبياء ، إلا عمن كان لهم أثر ملموس فى المملكتين .

الجزء الأول

مملكة إسرائيل

إن تاريخ مملكة إسرائيل يمتد من سنة ٩٣٢ إلى سنة ٧٢٢ قبل الميلاد .

ويمكن تقسيم تاريخ هذه المملكة إلى ثلاث فترات : الأولى ، فترة حروب بين الدولتين الناشئتين ، وتمتد حتى أواخر ملك آحاب .

الثانية : فترة سلام بين المملكتين الشقيقتين . وتمتاز هذه الفترة بظهور الأنبياء ، ومنهم إيليا ، وأليشاع الخ .

الثالثة : فترة حروب أيضاً بين الدولتين ، حتى خراب دولة إسرائيل على يد شلمناسر ملك أشور ، وجلائها إلى نينوى .

الفصل الثانى

ياربعام وخلفاؤه

فى ملك ياربعام (٩٣٢ — ٩١١ ق . م)

إن مملكة إسرائيل التى كانت تمتاز بسعة أراضيها وكثرة سكانها ، والتى كانت بالتالى أكثر رخاء من جارتها مملكة يهوذا ، لم تلبث أن سقطت فى عبادة الأصنام الرجسة .

وقد جرها إلى هذا الشر المتطاير ، الذى كان و بالا عليها ، ياربعام نفسه أول ملوكها .

وتفصيل ذلك ، إن هذا الملك الشرير ، الذى كان يخشى على عرشه ، أكثر مما كان يخشى أن يغضب ربه ، صنع عجلين من الذهب ، ووضع أحدهما فى بيت إيل الشهيرة ، والآخر فى مدينة دان بالقرب من الحدود الشمالية ، وقال للشعب : هذه آلهتكم ، يا إسرائيل ، التى أخرجتكم من أرض مصر . فلا حاجة لكم بعد ، أن تصعدوا إلى أورشليم .

فكان هذا الأمر عثرة للشعب ، الذين لم يترددوا فى الذهاب إلى أمام أحد العجلين ، وتقديم ذبائحهم .

ولم يكتف ياربعام بذلك ، بل بنى المشارف ، وأقام الكهنة من لفيف الشعب ، دون بنى لاوى ، وادعى لنفسه سلطة الكهنوت (٣ مل ١٢ : ٢٥ ـ ٣٣)

وفيما كان ياربعام واقفاً على المذبح يرفع قربانه لله تعالى ، الذى كان يعبده تحت صورة العجل ، إذا بأحد رجال الله وافى من يهوذا ، وأخذ ينادى نحو المذبح قائلاً :

يا مذبح ، يا مذبح ، هكذا قال الرب : هوذا سيولد لبيت داود ابن يسمى يوشيّا ، سوف يذبح عليك كهنة المشارف و يحرق عليك عظام الموتى فتصير رجساً . وهذه علامة لكم : هو ذا المذبح ينشق و يذرى الرماد الذى عليه .

فلما سمع يار بعام ذلك ، مد يده نحو المذبح ، مشيراً إلى رجل الله ليقبضوا عليه ، فيبست يده للحال ، وانشق المذبح وذرى الرماد الذى عليه .

فسأل يار بعام رجل الله أن يصلى من أجله ، لترد إليه يده . فاستعطف رجل الله وجه الرب ، فعادت يد الملك صحيحة ، كما كانت من قبل (٣ مل ١٣ : ١ ـ ٦)

وعلى الرغم من هذه الآيات الباهرات ، لم يتخشع يار بعام ، ولم يرتد عن طريقه الشرير .

ومرض ابنه البكر فأرسل امرأته متنكرةً إلى شيلو ، إلى أحيّا النبى ، وهو الذى كان قد تنبأ له بالملك على إسرائيل ، ليسأله عن مصير هذا الولد .

وكان أحيّا قد تقدم فى السن وضعف بصره ، فما أن أحس بوقع خطوات امرأة ياربعام ، حتى ابتدرها قائلاً : أدخلى يا امرأة ياربعام . لماذا أنت متنكرة . إنى مبعوث إليك بكلام شديد . إذهبى وقولى ليار بعام : هكذا يقول الرب ، حيث إنى رفعتك وجعلتك رئيساً ، وشققت الملك من بيت داود ، وأعطيته لك ، ولم تحفظ وصاياى .. فهاءنذا جالب الشر عليك ، وقارض كل حىّ فى بيتك . فمن مات لك فى المدينة تأكله الكلاب ، ومن مات فى الصحراء تأكله طيور السماء .

أما عن ابنها المريض ، فأنبأها بأنه سيموت بمجرد دخولها المدينة ، وأنه الوحيد من بيت يار بعام ، الذى سيحويه قبر ، لأنه وجد فيه شىء من الصلاح لدى الرب .

(٣ مل ١٤ : ١ — ١٣)

وأخذت المصائب منذ ذلك الحين تنهال على يار بعام . فمات ابنه ولى العهد . واجتاح جيش فرعون أراضيه ونهبها نهباً . وتقوى أبيّام ملك يهوذا ابن رحبعام ، فانتزع منه عدة مدن هامة ، وذلك بعد أن قتل من جيشه خمس مئة ألف رجل منتخبين (٢ أى ١٣ ..)

و بما أن يار بعام لم يبد أية تو بة ، رغم كل ما ألمّ به من شدائد ، فقد ضربه الله ،

فمات . بعد أن ملك على إسرائيل اثنتين وعشرين سنة . فملك ناداب ابنه مكانه .
(٣ مل ١٤ : ٢٠)

فى خلفاء ياربعام

إن الخمسة الملوك الأولين ، الذين خلفوا ياربعام على عرش إسرائيل ، كانوا جميعاً أشراراً . وكانت بينهم و بين ملوك يهوذا حروب متواصلة الحلقات كل أيامهم .

وملك ناداب بن ياربعام سنتين تقريباً (٩١١ — ٩١٠ ق م) . وقد صنع الشر فى عينى الرب ، سالكاً فى طريق أبيه . فتحالف عليه بعشا من سبط يساكر ، وضربه فى جبتون (٣ مل ١٥ : ٢٥ — ٢٧)

وما أن استولى بعشا (٩١٠ — ٨٨٧ ق . م) على الملك ، حتى أباد جميع بيت ياربعام . فتحقق كلام الرب الذى تكلم به على لسان أحيَّا النبى عن بيت ياربعام .

وصنع بعشا الشر فى عينى الرب . وسلك فى طريق ياربعام وخطاياه التى آثم بها إسرائيل . فقال له الرب على لسان ياهو النبى : حيث إنى رفعتك عن التراب ، وجعلتك قائداً لشعبى إسرائيل ، فسلكت فى طريق ياربعام ، وجعلت شعبى يخطأون ، فهاءنذا مستأصل ذريتك ، وجاعل بيتك كبيت ياربعام . وملك بعشا على جميع إسرائيل أربعاً وعشرين سنة . ومات ودفن بترصة عاصمة ملكه (٣ مل ١٦ : ١ — ٦)

وملك بعده إيلة ابنه (٨٨٧ — ٨٨٦ ق . م) . ولم تمض سنتان على ملكه ، حتى تحالف عليه أحد قواده المدعو زمرى . فجاء وضربه ، وهو فى ترصة يشرب ويسكر فى بيت أرصا أحد عبيده . وأباد بيته وكل بيت أبيه بعشا ، حسب نبوة ياهو تماماً .
(٣ مل ١٦ : ٦ — ١٣)

ولم يملك زمرى غير سبعة أيام . لأن رجال الجيش الذى كان يحاصر إذ ذاك جبتون الفلسطينية ، لما سمعوا أن زمرى قتل الملك غيلةً ، غضبوا لتلك الخيانة ، وأقاموا عليهم ملكاً عمرى رئيس الجيش .

فرفع عمرى الحصار عن مدينة جبتون ، وجاء وجميع الجيش معه ، وحاصروا ترصة . فلما رأى زمرى أن المدينة قد أخذت ، دخل القصر الملكى وأحرقه على نفسه بالنار ومات (٣ مل ١٦ : ١٥ — ٢٠)

وملك عمرى على إسرائيل اثنتى عشرة سنة (٨٨٦ — ٨٧٥ ق . م) . وهو الذى أسس وبنى مدينة السامرة ، وحصنها تحصيناً قوياً ، فصارت عاصمة إسرائيل .

وسلك عمرى فى طريق الخطيئة والشر ، الذى سلكه من قبل كل ملوك إسرائيل . وارتقى عرش إسرائيل من بعده ابنه آحاب ، الملك المشرك ، الذى فاق شره كل ملوك إسرائيل (٣ مل ١٦ : ٢٣ — ٢٨)

الفصل الثالث

إيليا النبي وملوك بنى إسرائيل

آحاب الملك الشرير وإيليا النبي :

إن آحاب ، سابع ملوك إسرائيل ، هو أشر من قام من هؤلاء الملوك . ولم يكفه اقتفاء أثر خطايا يار بعام ، والملوك الأشرار السابقين ، بل زاد فى إغضاب الرب ، بإدخاله عبادة البعل فى بلاده (٨٧٥ — ٨٥٣ ق . م)

فبنى للبعل معبداً ومذبحاً بالسامرة ، مقر الحكم ، وسجد له علناً . وبالغ آحاب فى صنع الرجس ، بائعاً نفسه لعمل كل شر . حيث أغوته إيزابل امرأته . وهى دون جدال شر امرأة يذكرها الكتاب . فبتحريض هذه المرأة الجهنمية ، أباد آحاب كل أنبياء الرب ، وكل من تجرأ على توبيخه عن آثامه ورجاساته الكفرية .

(٣ مل ١٦ : ٢٩ . .)

ولم ينج من الأنبياء غير إيليا التشبى ، الذى بأمر الرب تقدم من آحاب ، وقال له بجرأة : « حىّ الرب إله إسرائيل ، الذى أنا واقف بحضرته . إنه لا يكون ندًى ولا مطر فى هذه السنين ، إلا عند قولى »

فغضب آحاب وطلب قتله . فقال الرب لإيليا : امض من هنا ، واختبىء عند نهر كريت ، الذى تجاه الأردن . فتشرب من النهر ، وقد أمرت الغربان أن تقوتك هناك .

فمضى وعمل بحسب كلام الرب . فكانت الغربان تأتيه بخبز ولحم ، صباحاً ومساءً ، وكان يشرب من النهر (٣ مل ١٧ : ١ — ٦)

فى عجائب إيليا

ولما جف النهر ، بسبب عدم سقوط الأمطار ، قال الرب لإيليا : قم وامض إلى صرفت[١] ، وأقم هناك . فقد أمرت هناك امرأة أرملة أن تعولك .

فقام ومضى إلى صرفت . فلما بلغ باب المدينة ، إذا بامرأة أرملة تجمع حطباً . فدعاها وقال لها : هاتى لى قليل ماء فى إناء لأشرب . ولما همت إلى الباب لتأتى له بالماء ، ناداها وقال : هاتى لى كسرة خبز أيضاً فى يدك .

فقالت : حى الرب إلهك ، إنه ليس عندى إلا ملء راحة دقيقاً فى الجرة ، وقليلاً من الزيت فى القارورة . وها أنا أجمع عودين من الحطب ، لأدخل وأصنعه لى ولابنى ، ونأكله ثم نموت .

فقال لها إيليا : لا تخافى ، أدخلى فاصنعى كما قلت . ولكن اصنعى لى من ذلك أولاً قرصاً صغيراً . فإنه هكذا قال الرب ، إن جرة الدقيق لا تفرغ ، وقارورة الزيت لا تنقص ، حتى اليوم الذى يرسل فيه الرب مطراً على وجه الأرض .

فمضت وصنعت كما قال لها النبى ، وأكلت هى وهو وابنها أياماً ، وجرة الدقيق لم تفرغ ، وقارورة الزيت لم تنقص ، حسب كلام الرب على لسان نبيه إيليا .

وحدث بعد مدة ، أن اشتدت وطأة المرض على ابن تلك الأرملة ، ولم يلبث أن مات . فقالت المرأة لإيليا بمرارة : مالى ولك يا رجل الله ، وافيتنى لتذكر بذنوبى ، وتميت ابنى . فقال لها النبى : أعطينى ابنك . وأخذه وصعد به إلى العلية ، وهى الغرفة العلوية من البيت حيث كان نازلاً ، وأضجعه على سريره . ثم تمدد على الصبى ثلاث مرات ، وهو يصرخ إلى الرب لتعود روح الصبى إليه . فسمع الرب لصوت نبيه ، وعادت روح الصبى إليه ، فعاد إلى الحياة . فأخذه إيليا وأنزله من العلية ، وسلمه إلى أمه حياً معافى (٣ مل ١٧ : ٧ ..)

فى انتصار إيليا على أنبياء البعل :

وكان بعد انقطاع المطر ثلاث سنوات ونصف سنة ، والجوع على أشده فى كل

---

(١) صرفت أو صرفة هى صرفت صيدون أو صيدا بجنوب لبنان .

أنحاء إسرائيل ، أن الله قال لإيليا : إمض واظهر لآحاب ، فآتى بمطر على وجه الأرض . فمضى إيليا وأتى إلى آحاب .

فلما رآه آحاب قال له : أأنت إيليا مقلق إسرائيل ؟ فقال له : لم أقلق إسرائيل أنا ، بل أنت وبيت أبيك بترككم وصايا الرب ، وسجودكم للصنم . والآن ، ارسل واجمع إليّ كل إسرائيل ، إلى جبل الكرمل ، وأنبياء البعل الأربع مئة والخمسين ، الذين يأكلون على مائدة إيزابل .

ففعل آحاب . ولما اجتمعوا ، تقدم إيليا إلى جميع الشعب وقال لهم : إلى متى أنتم تعرجون بين الجانبين . إن كان الرب هو الإله ، فاتبعوه . وإن كان البعل إياه ، فاتبعوه .

فلم يجبه الشعب بكلمة . فقال لهم : لم يبق الآن من أنبياء الرب ، إلاّى وحدى . وهؤلاء أنبياء البعل ، أربع مئة وخمسون رجلا . ثم قال مقترحاً : فليؤت لنا بثورين ، فيختاروا لهم ثوراً ، ثم يقطعوه ويجعلوه على الحطب ، ولا يضعوا ناراً . وأنا أيضاً أهيء الثور الآخر ، وأجعله على الحطب ، ولا أضع ناراً . ثم يدعون هم باسم آلهتهم ، وأنا أدعو باسم الرب ، والذى يجيب بنار فهو الإله ، فأجاب جميع الشعب ، موافقين على الاقتراح ، وقالوا : الكلام حسن .

فقال إيليا لأنبياء البعل : اختاروا لكم ثوراً ، وافعلوا أولاً لأنكم كثيرون . فأخذوا الثور الذى وقع عليه اختيارهم ، وقربوه . ودعوا باسم البعل من الصباح حتى الظهر ، وهم يقولون : أيها البعل أجبنا . فلم يكن من سميع ولا مجيب .

فلما كان الظهر ، سخر منهم إيليا وقال : أصرخوا بصوت أعلى ، فلعل إلهكم فى محادثة أو سفر ، أو لعله نائم فيستيقظ . فكانوا يصرخون بصوت عظيم . وعبثاً خدشوا أجسادهم بالسيوف والرماح ، حتى سالت دماؤهم ، فلم يكن من يسمع ، ولا من يجيب .

وكان بعد انصرام الزمن المحدد ، أن قال إيليا لجميع الشعب : اقتربوا منى . فاقتربوا منه . فرمم مذبح الرب ، الذى كان قد تهدم ، وجعل حوله قناة . ثم نضد الحطب ، وقطع الثور وجعله على الحطب ، وقال : املأوا أربع جرار ماء ، وصبوا على المحرقة

وعلى الحطب . ثم قال : ثنوا فثنوا . ثم قال : ثلثوا فثلثوا . فجرى الماء حول المذبح ، وامتلأت القناة أيضاً منه .

وبعد ذلك تقدم إيليا ، وصلى قائلا : استجبنى يارب استجبنى ، ليعلم هذا الشعب أنك أنت الإله . فهبطت نار الرب ، وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب معاً ، حتى لحست الماء الذى فى القناة .

فلما رأى الشعب ذلك ، خروا على وجوههم ، وقالوا : الرب هو الإله ، الرب هو الإله . فقال لهم إيليا : أقبضوا على أنبياء البعل ، ولا يُفلت منهم أحد . فقبضوا عليهم ، وقادوهم إلى نهر قيشون ، حيث ذبحهم[١] إيليا بأمر الرب ، عقاباً لهم عن كفرهم ونفاقهم (٣ مل ١٨ : ١ ـ ٤٠)

فى إنزال إيليا المطر :

وكان بعد هذه المجزرة ، التى هلك فيها كل أنبياء البعل الكذبة ، أن التفت إيليا نحو آحاب ، وقال له بروح النبوة : اصعد ، كل واشرب ، فهوذا صوت دوى مطر .

فصعد آحاب ليأكل ويشرب ، وصعد إيليا إلى قمة الكرمل وخر على الأرض وأخذ يصلى . ثم قال لغلامه : اصعد وتطلع نحو البحر . فصعد وتطلع ، وقال : لا أرى شيئاً . فقال له : ارجع على سبع مرات . فلما كانت المرة السابعة ، قال : ها سحابة صغيرة ، قدر راحة رجل ، طالعة من البحر . فقال له : اصعد وقل لآحاب : أسرع وانزل إلى المدينة لئلا يمنعك المطر .

وما هى إلا لحظة ، حتى تربدت[٢] السماء بالسحب القاتمة ، وهبت الرياح عاصفة فجرى المطر غزيراً (٣ مل ١٨ : ٤١ ..)

فى هرب إيليا من وجه إيزابل وذهابه إلى طور سيناء :

ولما بلغ إيزابل خبر مقتل هؤلاء الرجال المنافقين ، الذين كانوا يأكلون على مائدتها ، جن جنونها ، وأرسلت من فورها تبلغ إيليا أنه لا مفر له من انتقامها العاجل .

---

(١) لا بنفسه ، بل بواسطة الشعب .

(٢) تغيمت .

فخاف إيليا ، وقام ومضى إلى بئر سبع فى أقصى جنوب يهوذا . ولما لم يكن فى مأمن من شر تلك المرأة الغادرة ، ولا حتى فى تلك الجهة النائية ، ترك هناك غلامه ، وتوغل فى البرية مسيرة يوم ، حتى إذا تعب من المسير جلس تحت رتمة[١] هناك ، والتمس الموت لنفسه ، قائلاً بتواضع : « حسبى الآن يا رب ، فخذ نفسى فإنى لست خيراً من آبائى » . ثم اضطجع ونام .

وما هى إلا لحظة ، وإذا بملاك الرب قد لمسه موقظاً وقائلاً : قم فكل . فالتفت إيليا فإذا عند رأسه رغيف وإناء ماء ، فأكل وشرب . ثم عاد واضطجع . فعاوده ملاك الرب ثانية ولمسه ، وقال : قم فكل ، فإن الطريق بعيدة أمامك . فقام وأكل وشرب وسار بقوة تلك الأكلة مترجلاً أربعين يوماً وأربعين ليلة ، حتى بلغ جبل الله حوريب ، بشبه جزيرة سيناء[٢] .

ودخل إيليا مغارة حوريب وبات فيها . فإذا بكلام الرب إليه : ما بالك ههنا يا إيليا . فقال : إنى غرت غيرة للرب إله الجنود ، لأن بنى إسرائيل قد نبذوا عهدك ، وقوضوا مذابحك ، وقتلوا أنبياءك ، وبقيت أنا وحدى ، وقد طلبوا قتلى .

فقال له تعالى : أخرج وقف أمامى . فخرج ووقف ، وإذا به يشهد ثلاثة مناظر مروعة ، ألا وهى : الريح ، وكانت عظيمة شديدة تصدع الجبال ، وتحطم الصخور ، والزلزلة ، والنار . ولم يكن الرب فى الريح ، ولا فى الزلزلة ، ولا فى النار .

ثم إذا به يشاهد منظراً أخيراً ، يختلف الاختلاف كله ، عن المناظر الثلاثة السابقة ، يحس به إيليا دون أن يراه ، فهو صوت نسيم لطيف ، فيدرك أن هناك الرب ، فيستر وجهه بردائه إجلالاً . وإذا بصوت الرب إليه ثانيــة : ما بالك ههنا يا إيليا . فيجيب إيليا كما أجاب المرة الأولى ، قائلا : إنى غرت غيرة للرب ، إله الجنود . .

فيقول له الرب : امض فارجع إلى برية دمشق ، فإذا وصلت فامسح حزائيل ملكاً على أرام ، وامسح ياهو بن نمشى على إسرائيل ، وامسح أليشاع بن شافاط نبياً

---

(١) الرتم : نوع من الشجر له بذر يشبه العدس .

(٢) إن الخبز العجيب ، الذى أعطاه الملاك لإيليا ، كان يرمز للقربان المقدس ، خبز الأقوياء . ذلك الخبز الذى يهب آكليه الشجاعة والقوة لعبور صحراء هذه الحياة إلى السماء .

بدلاً منك ، فيكون من أفلت من سيف حزائيل يقتله ياهو[١] ، ومن أفلت من سيف ياهو يقتله أليشاع . وقد أبقيت فى إسرائيل سبعة آلاف ، كل ركبة لم تجث للبعل ، وكل فم لم يتجه إليه بقبلة (٣ مل ١٩ : ١ - ١٨)

* إن روح إيليا ، فى ذلك الجبل الذى عليه أعطى الله شريعته لموسى ، كانت تغلى كالمرجل غيرة على مجد الله ، الذى أهدره بنو إسرائيل ، وكان يود لو أنه يستطيع أن ينتقم لمجده تعالى منهم ، كما انتقم من الأنبياء الكذبة ، وذلك لظنه بأن الجميع ضلوا سواء السبيل .

فأعلمه تعالى بتلك المناظر السالفة الذكر ، بأنه لو شاء لأهلكهم جميعاً فى لحظة ، وله من الوسائط ما لا يحصى ، بل ويكفيه أن يسلط عليهم بعض الأعاصير الطبيعية وحدها لإبادتهم . ولكنه لن يفعل ذلك لأن فى دولة إسرائيل نفسها سبعة آلاف نفس من النفوس الأبية لم تجث ركبها للبعل ، ولم تتجه أفواهها إليه بقبلة . وأنه تعالى من أجل هؤلاء النفوس المختارة سيتوخى مع شعبه جانب الرحمة ، ويلطف بهم كالنسيم العليل . إلا أنهم إذا أصروا على عنادهم ، ولم يعودوا إليه تائبين ، فسوف يصلت على رقابهم سيوف الأعداء والحكام الجبابرة ، كما حدث فعلاً كما سنرى .

* ثم إن النسيم اللطيف يرمز إلى يسوع المسيح ، الذى يدفع إرادتنا إلى عمل الخير ، لا بالتهديد والوعيد ، كما فى العهد القديم ، عند ما أعلن الله شريعته للبشر ، بل بجاذبية حياته الفريدة ، وتعاليمه المحيية ، ومحبته الفائقة لنا . وذلك مثل ما يدفع النسيم اللطيف السفينة ، دون أدنى خطر ، إلى ميناء الخلاص .

فى دعوة أليشاع :

وكان بعد تعزية الرب لإيليا بتلك الرؤى العجيبة ، التى أعادت إلى نفسه الثقة ، وإلى روحه السكينة ، أن انطلق ، مطمئن البال ، قاصداً برية دمشق ، كما أمره الرب . فلقى فى طريقه أليشاع بن شافاط ، وهو يحرث فى حقل أبيه بزوجى بقر . فمر إيليا

---

(١) إن إيليا سيترك مهمة تكريس حزائيل وياهو ملوكا ، لتلميذه وخليفته أليشاع النبى ، الذى سوف يقوم بهذه المهمة فى الأوان المحدد ، عند ما يتم مكيال آثام بيت آحاب ، ومعهم كل بيت إسرائيل .

بالقرب منه ، ورمى إليه بردائه . فترك أليشاع البقر ، وجرى وراء إيليا ، واستأذنه قائلا : دعنى أقبل أبى وأمى .

ثم أخذ زوجى البقر ، اللذين كان يحرث بهما ، وذبحهما وطبخ لحمهما على أداة البقر نفسها ، وأقام مأدبة عظيمة لتوديع ذويه وكل معارفه .

ثم قام ومضى مع إيليا ، ولم يفارقه أبداً ، حتى اختطاف هذا الأخير فى عاصفة إلى السماء ، كما سنرى . وكان يخدمه (٣ مل ١٩ : ١٩..)

إيليا يوبخ آحاب على قتله نابوت :

لم يكن آحاب ذاك الملك المشرك ، الذى حابى وشجع كل عبادة وثنية فحسب ، بل والغاصب الشره ، الذى لم يعرف حدوداً للطمع ، الأمر الذى أدى به إلى ارتكاب جماً من الخطايا الفظيعة ، ومنها قتل نابوت اليزرعيلى و بنيه ظلماً .

فقد كان لنابوت هذا كرم فى يزرعيل إلى جانب قصره . فدفعه طمعه إلى اغتصاب ذلك الكرم منه بأى حال من الأحوال . فخاطب آحاب نابوت قائلا : اعطنى كرمك ، فيكون لى بستان بقول - كأنى بملك إسرائيل كانت تنقصه البقول ! - وأنا أعطيك كرماً خيراً منه ، أو أعطيك ثمنه نقداً .

فأجاب نابوت آحاب مستعيذاً بالله وقائلا : معاذ الرب أن أعطيك ميراث آبائى . لأنه استعظم أن يطلب منه الملك أمراً تحرمه الشريعة صريحاً .

فعاد آحاب إلى بيته واجماً قلقاً ، وأعرض عن الأكل ، لأنها ربما كانت أول مرة فى حياته يجد تمرداً مماثلا من جانب أحد عبيده .

فقالت له إيزابل امرأته : ما بالك كئيب النفس ، ولم تتناول طعاماً ؟ فأخبرها بما جرى له مع نابوت . فقالت له : ما أنفذ سلطانك اليوم على إسرائيل . . . قم فتناول طعامك ، وطب نفساً . وأنا أعطيك كرم نابوت .

فما كان من تلك المرأة التى لا ضمير لها ، إلا أن كتبت رسائل باسم آحاب ، ومهرتها بختم الملك ، و بعثت بها إلى شيوخ وأشراف يزرعيل ، قائلة لهم فيها : أجلسوا نابوت فى صدر القوم ، وأقيموا عليه شاهدين زور يتهمانه قائلين : إنك جدفت على الله

وعلى الملك ، وأخرجوه وارجموه فيموت . ففعل الشيوخ والأشراف بتوصيات الملكة ، ورجموا نابوت وجميع ورثته ، فماتوا .

فلما سمعت إيزابل بموت نابوت ، وتنفيذ خطة قتله كما رسمتها هي ، قالت لآحاب مستبشرة : قم فرث كرم نابوت لأنه مات .

فقام آحاب لينزل إلى الكرم ليرثه . فأرسل الله النبي إيليا للقائه ، ليؤنبه بشدة على سوء جرمه ، وينذره بالعقاب الهائل ، الذي سينزله الله به وبكل بيته ، وكيف إن الكلاب ستلحس دمه ، كما لحست دم نابوت .

فقال آحاب لإيليا : هل وجدتني ، يا عدوي . فقال له النبي : قد وجدتك ، لأنك بعت نفسك لعمل الشر في عيني الرب .

وقال تعالى بلسان عبده إيليا للملك المنافق : هاءنذا جالب الشر عليك ، ومبيد نسلك ، وقاطع لآحاب كل بائل بحائط . وجاعل بيتك كبيت يار بعام بن ناباط ، لأجل إغضابك لي ، وإيثامك لإسرائيل .

وتكلم الرب ، بلسان نبيه إيليا ، على إيزابل أيضاً قائلا : إن الكلاب ستأكل إيزابل عند مترسة يزرعيل (٣ مل ٢١..)

في موت آحاب :

وكان بعد إنذار إيليا لآحاب بثلاث سنوات ، أن خرج آحاب لمحاربة الأراميين ، وذلك لتخليص راموت جلعاد من أيديهم .

وقد خرج هذه المرة ، على الرغم من تحذير ميخا النبي له بعدم إشعال نار الحرب ، لأنه لا يمكن أن يعود منها بسلام . إلا أنه أصر على رأيه ، عاملا بمشورة الأنبياء الكذبة ، الذين كانوا يقولون له : إصعد فإن الرب يدفع إلى يدك المدينة .

وكان يرافق آحاب في هذه الحرب يوشافاط ملك يهوذا . وبينما كان ملك إسرائيل متنكراً ، كان يوشافاط لابساً ملابسه الرسمية .

وأمر ملك أرام رؤساء جيشه قائلا : لا تحاربوا صغيراً ولا كبيراً ، إلا ملك إسرائيل . فلما رأى هؤلاء الرؤساء يوشافاط ، قالوا : لا شك إن هذا هو ملك إسرائيل . فمالوا عليه ليقاتلوه ، فصرخ يوشافاط مستغيثاً ، فرجعوا عنه .

وإن رجلا نزع فى قوسه (أى جذب وترها) من غير قصد ، فأصاب ملك إسرائيل بين الدرع والورك . فقال الملك لمدير مركبته : اثن يدك ، وأخرج بى من المعركة ، فإنى قد جرحت .

واشتد القتال فى ذلك اليوم ، والملك واقف بمركبته مقابل الأراميين إلى المساء ، حتى إذا نزف كل دمه فى باطن المركبة أسلم الروح . وكان بعد دفن الملك فى السامرة ، أن غسلت مركبته وأسلحته ، وكانت قد تلوثت جميعها بدمه ، فلحست الكلاب تلك الدماء الملعونة ، حسب كلام الرب الذى تكلم به على لسان إيليا نبيه .

(٣ مل ٢٢ : ١ — ٤٠)

وكانت كل مدة ملك آحاب على إسرائيل اثنتين وعشرين سنة .

إيليا وأحزيا الملك :

وولى عرش إسرائيل بعد موت آحاب أحزيا ابنه (٨٥٣ — ٨٥٢ ق . م) . ولم يكن أحزيا ، الذى ملك سنتين فقط ، أصلح من أبيه . بل سلك فى كل طريقه الشرير من عبادة الأوثان ، وإهمال عبادة الله الحقيقية .

فعاقبه تعالى بأن سمح بأن يهوى بقامته من شباك غرفة القصر العلوية إلى الأرض . وحيث أن إصابته كانت خطيرة ، فقد أرسل رسلاً إلى عقرون ، وقال لهم : امضوا واسألوا بعل زبوب إله عقرون ، عما إذا كنت أبرأ من مرضى هذا .

فخاطب ملاك الرب إيليا التشبى قائلاً : قم لملاقاة رسل ملك السامرة ، وقل لهم : ألعله ليس إله فى إسرائيل ، حتى تذهبوا وتسألوا بعل زبوب . فلذلك هكذا يقول الرب ، إن السرير الذى علوته لا تنزل عنه ، بل تموت موتاً .

فمضى إيليا وبلغ الرسل . ورجع الرسل بدورهم إلى أحزيا ليخبروه بما كان ، وقالوا له : إن رجلاً لاقانا ، وقال لنا امضوا إلى من بعثكم ، وقولوا له كذا وكذا . فقال لهم : وما هيئة الرجل الذى صعد إليكم ، وخاطبكم بهذا الكلام . فقالوا له : رجل عليه شعر ، متمنطق بمنطقة من جلد على حقويه . فقال : هو إيليا التشبى .

وإذ تأكد من شخصية النبى أرسل من فوره خمسين رجلاً مع قائدهم ، ليلقوا القبض عليه ، ويأتوه به . فذهب القائد يريد تنفيذ أوامر سيده على عجل وبالقوة .

وكان إيليا جالساً على رأس الجبل ، فقال له بلهجة الآمر : يا رجل الله ، الملك يأمرك بالنزول .

فأجاب إيليا وقال لقائد الخمسين : إن كنت أنا رجل الله ، فلتهبط نار من السماء ، وتأكلك أنت وخمسيك . فهبطت للحال نار من السماء ، فأكلته هو والخمسين رجلاً الذين معه .

فأرسل أحزيا إليه خمسين رجلاً آخرين مع قائدهم ، لم يكونوا أحسن حظاً من زملائهم السابقين ، لأنهم هم أيضاً تقدموا من رجل الله ، و بدون أدنى احترام ، شاءوا أن يسوقوه أمامهم بالقوة كأحد المجرمين .

أما القائد الثالث الذى أرسله أحزيا فكان أحكم من زميليه السابقين . فقد تقدم إلى رجل الله بتواضع كثير ، وطلب منه بأدب جم أن يرافقه إلى بيت الملك . فقال ملاك الرب لإيليا : انزل معه ولا تخف .

فنزل معه . وما أن عاين وجه الملك حتى صارحه بجرأة قائلاً : هكذا قال الرب ، بما أنك بعثت رسلاً لتسأل بعل زبوب ، كأن ليس إله فى إسرائيل تلتمس كلامه ، لذلك فالسرير الذى علوته لا تنزل عنه ، بل تموت موتاً . فمات حسب كلام الرب الذى تكلم به إيليا (٤ مل ١ ..)

وملك يورام أخوه من بعده . ومدة ملك يورام اثنتى عشرة سنة (٨٥٢ — ٨٤١ ق . م)

فى ارتفاع إيليا إلى السماء :

وكان إيليا على وشك نهاية حياته الزمنية ، ورسالته كنبى . ولم يفت ذلك تلميذه أليشاع ، الذى لم يكن من أجل ذلك يفارقه ليلاً ولا نهاراً . وقبيل ارتفاع إيليا بأيام معدودة ، حاول النبى إقناع تلميذه ثلاث مرات ، أن يتركه وحده ، لأن الله يدعوه فى مهمة خاصه . ولكن عبثاً ، لأن أليشاع ألح فى أن يرافق معلمه أينما سار وتوجه .

وعلى ذلك فقد انتقلا على التوالى من الجلجال إلى بيت إيل ، ومن بيت إيل إلى أريحا ، حتى إذا بلغا ضفة الأردن ، أخذ إيليا رداءه ولفه ، وضرب به النهر ، فانفلقت المياه إلى هنا وهناك . وجازا كلاهما على اليابسة .

فلما عبرا ، قال إيليا لأليشاع : سلني ماذا أصنع لك قبل أن أوخذ عنك . فقال أليشاع : ليكن لي سهمان في روحك . قال : قد سألت أمراً صعباً . ومع ذلك ، إن أنت رأيتني عند ما أوخذ ، يكون لك ذلك ، وإلا فلا .



وفيما كانا سائرين وهما يتحادثان ، إذا مركبة نارية ، وخيل نارية ، قد فصلت بينهما ، وطلع إيليا في العاصفة النارية نحو السماء ، وأليشاع ناظر ، وهو يصرخ : يا أبي ، يا أبي ، يا (قوة) إسرائيل ، ومركبته وفرسانه !

ولما لم يره بعد ، أمسك ثيابه ، وشقها شطرين ، حزناً على فراق ذلك المعلم الحبيب .

ثم أخذ رداء إيليا ، الذي ألقى له به من العاصفة ، وضرب به مياه الأردن ، فانفلقت إلى هنا وهناك ، وعبر أليشاع . فلما رآه بنو الأنبياء ، الذين في أريحا ، وكانوا قد شاهدوا عن بعد ، كل ما تم من أمر المعلم وتلميذه ، قالوا : قد حلت روح إيليا على أليشاع .

وجاءوا وسجدوا له ، مقدمين له ، كما لإيليا ، واجب الولاء والطاعة .

(٤ مل ٢ : ١ - ١٥)

* * *

* إن إيليا النبى ، الذى اختطفه الله فى عاصفة من النار ، فى مركبة خيل نارية ، لا يزال حياً . ولكنا لا نعلم شيئاً عن ملابسات وظروف حياته الجديدة وما يكتنفها من أسرار ، كما لا نعلم شيئاً عن مكان إقامته ، إن على الأرض ، أو فى إحدى الكواكب السيارة .

الأمر الوحيد الذى نعرفه فى هذا الشأن ، إنه سيظهر مرة أخرى ، قبيل نهاية العالم ، لينادى مع أخنوخ البار بالتوبة .

الفصل الرابع

أليشاع النبي وملوك إسرائيل

فى عجائب أليشاع :

أليشاع النبى هو من أشهر مشاهير أنبياء بنى إسرائيل ، ورجل العجائب الأول . فلم يصنع نبى معجزات وعجائب أعظم أو أكثر مما صنع أليشاع خليفة إيليا العظيم فى الأنبياء . وإليك بعض هذه المعجزات .

١ — فى تحويل المياه المرة إلى مياه حلوة : وكان بعد ارتفاع إيليا إلى السماء ، أن أقام أليشاع مدة بأريحا . فجاء أهل المدينة ، وطلبوا منه أن يسأل الله من أجل مياه مدينتهم لتصير عذبة . فقال لهم : ائتونى بإناء جديد وقليل من الملح . فلما جاءوا له بذلك ، ذهب معهم إلى منبع الماء ، وطرح فيه من الملح ، قائلاً : هكذا قال الرب ، إنى أصلحت هذه المياه ، فلا يكون منها أيضاً موت ولا جدب .

فشفيت المياه منذ تلك الساعة وصارت عذبة (٤ مل ٢ : ١٩ ـ ٢٢)

٢ — فى معاقبة بعض الصبية المستهزئين : وصعد أليشاع من أريحا إلى بيت إيل . فبينما هو فى الطريق ، إذا ببعض الصبية هزأوا به ، وقالوا له : إصعد يا أجلح ، إصعد يا أجلح . فالتفت إلى ورائه ، ونظر إليهم ولعنهم ، فخرجت دبتان من الغاب ، وافترستا منهم اثنين وأربعين صبياً ! (٤ مل ٢ : ٢٣ ..)

٣ — تكثير الزيت : ومن معجزاته ، إن أرملة من نساء بنى الأنبياء ، شكت إليه من جور مدينها ، الذى جاء ليأخذ ولديها عبدين له .

فقال لها أليشاع : ما الذى عندك فى البيت . فقالت ليس عند أمتك إلا قليل من الزيت . فقال لها : انطلقى واستعيرى لك أوانى فارغة من جميع جيرانك ، ولا تُقللى . ثم ادخلى وصُبى فى جميع هذه الآنية ، وما امتلأ منها فارفعيه . فمضت من عنده ، وأغلقت الباب عليها وعلى ابنيها . فكان الولدان يقدمان الأوانى ، وهى تصب ، حتى إذا امتلأت الأوانى جميعها ، وقف الزيت .

فوافت رجل الله وأخبرته . فقال لها : امضى و بيعى الزيت ، واقضى دينك ، وعيشى أنت وابناك بما يبقى (٤ مل ٤ : ١ — ٧)

٤ — فى إقامة ابن المرأة الشونمية من الموت : وكان بمدينة شونم امرأة تقية ، من ذوى الجاه واليسار ، كثيرة الحدب على راحة أليشاع النبى . فكان كلما مر بالمدينة يميل إلى بيتها ليأكل عندها .

و بلغ من شدة عناية هذه المرأة و إكرامها لرجل الله ، أنها اتفقت مع زوجها ، فبنت له غرفة فى أعلى البيت ، أسستها بما يليق من رياش ، ووضعتها تحت تصرفه الخاص .

فدعا يوماً رجل الله المرأة ، وكان تلميذه جيحزى حاضراً ، وقال لها : ها أنك قد تكلفت كل هذه الكلفة من أجلنا ، فماذا تبتغين أن يصنع لك من معروف ، هل من حاجة أكلم فيها الملك أو رئيس الجيش . فقالت المرأة : إنما أنا ساكنة فيما بين قومى ، ولا حاجة لى من ذلك .

فقال جيحزى : إنها ليس لها ولد ، و بعلها قد تقدم فى الأيام . فقال النبى للمرأة : إنك فى مثل هذا الوقت من السنة المقبلة تحتضنين ابناً . فكان فى الميعاد المحدد أن ولدت المرأة مولوداً ذكراً ، كما قال النبى ، وكبر الولد .

وفى ذات يوم خرج إلى أبيه عند الحصادين . فما لبث أن ضربته الشمس ، فقال لأبيه رأسى رأسى . فقال الرجل لغلامه : خذه إلى أمه . فحمله وصار به إلى أمه ، فبقى

على ركبتها إلى الظهر ومات . فقامت وأصعدته وأضجعته على سرير رجل الله وأغلقت الباب .

ثم أسرعت لجاءت النبي فى الكرمل ، وأخبرته بموت ابنها ، قائلة : هل طلبت ابناً من سيدى ، ألم أقل لا تخدعنى . فقال أليشاع لخادمه جيحزى : أشدد حقويك وخذ عصاى فى يدك ، وامض مسرعاً ، واجعل عصاى هذه على وجه الصبى . فقالت أم الصبى : حى الرب وحية نفسك إنى لا أفارقك . فقام وتبعها .

ودخل أليشاع البيت ، فإذا بالصبى ميت ، مضطجع على سريره . وكان بعد صلاة قصيرة حارة ، أن انبسط على الصبى ، وجعل فاه على فيه ، وعينيه على عينيه ، وكفيه على كفيه ، وتمدد عليه ، فسخن جسد الصبى .

ثم عاد فتمدد عليه ، فعطس الصبى سبع مرات ، وفتح عينيه . فدعا النبى جيحزى ، وقال له : أدع هذه الشونمية ، فدعاها فأتت . فقال لها خذى ابنك . فأقبلت وخرت عند قدميه ، وأخذت ابنها والسرور يملأ فؤادها (٤ مل ٤ : ٨ — ٣٧)

٥ — فى إصلاح الطعام السام : ورجع أليشاع إلى الجلجال ، وكان الجوع فى الأرض شديداً ، حتى أن بنى الأنبياء أنفسهم ، تلاميذ أليشاع ، كانوا مضطرين أن يقتاتوا الحشائش والبقول البرية .

وأمر أليشاع الطباخ فى ذلك اليوم ، قائلاً : هيء القدر الكبيرة ، واطبخ طبيخاً لبنى الأنبياء ، فخرج أحدهم إلى الصحراء ليجمع بعض البقول البرية ، فصادف شبه جفنة برية ، فاقتطع من ثمرها ملء ثوبه ، وجاء به إلى الطباخ ، فأعده لهم طعاماً .

ثم سكبوا للرجال ليأكلوا ، فإذا هو حنظل شديد المرارة . فصاحوا وقالوا : فى القدر موت يا رجل الله . ولم يقدروا أن يأكلوا . فقال : ائتونى بدقيق . فألقاه فى القدر . وقال للطباخ : اسكب للقوم ليأكلوا . فلم يجدوا بعد ذلك ، فى القدر سوءاً (٤ مل ٤ : ٣٨ — ٤١)

٦ — فى تكثير الخبز : وإن رجلاً وافى من بعل شيشة ، وأحضر لرجل الله خبز بواكيره : عشرين رغيفاً من الشعير ، وسنبلاً طريئاً فى جرابه . فقال : اعط القوم فيأكلوا .

فقال له غلامه : ما هذا ، أأضع هذا أمام مئة رجل . فقال : اعط القوم فيأ كلوا ، لأنه هكذا قال الرب ، إنهم يأ كلون ويفضل عنهم . فوضع بين أيديهم ، فأ كلوا وفضل عنهم ، كما قال الرب (٤ مل ٤ : ٤٢..)

فى شفاء نعمان الشامى من البرص :

إن من أشهر العجائب ، التى صنعها أليشاع فى حياته ، هى دون جدال شفاء نعمان الشامى ، قائد قواد جيش أرام (سوريا) العظيم . ذلك القائد المظفر ، الذى كان موضع ثقة واعتزاز مليكه وقومه .

وكانت شهرة أليشاع وعجائبه قد طبقت الخافقين . ولهجت بها ألسن الصغار قبل الكبار . وها هى فتاة صغيرة من إسرائيل ، تقول فيما بين يدى مولاتها زوجة نعمان : يا ليت مولاى حضر أمام نبى السامرة ، فإنه كان يبرئه من برصه .

فجاء الرجل وأخبر سيده الملك بأمر فتاته ، قائلاً : كذا وكذا قالت الفتاة التى من أرض إسرائيل . فقال ملك أرام : انطلق إلى هناك ، وأنا أرسل كتاباً إلى ملك إسرائيل . فانطلق الرجل وأخذ معه من الهدايا الثمينة : عشرة قناطير فضة ، وستة آلاف مثقال ذهب ، وعشر حلل من الثياب الفاخرة . وأخذ كتاب التوصية ، الذى خطه له يراع سيده الملك .

ومن المضحك المبكى أن يكتب ملك أرام فى كتابه ليورام ملك إسرائيل ، قائلاً : عند ورود كتابى هـذا إليك ، مع نعمان عبدى ، تبرئه من برصه . ولذا فلا عجب ، أن يتأثر يورام عند قراءته الـكتاب ، فيشق ثيابه . وقد خشى أن يكون فى الأمر دسيسة ، يدبرها له ملك أرام للايقاع به و بمملـكته .

قال : ألعلى أنا إله ، أميت وأحيي ، حتى أرسل إلى هذا ، أن أبرىء رجلاً من برصه . إن هذا إنما يتسبب علىَّ .

وإذ سمع أليشاع رجل الله بالأمر ، بعث ليورام قائلاً : لمـاذا مزقت ثيابك ، ليأتنى وليعلم أن فى إسرائيل نبياً . فأقبل موكب نعمان بخيله ومراكبه ، ووقف على باب بيت أليشاع . فلم يخرج النبى لملاقاته ، بل أرسل يقول له : امض واغتسل فى الأردن ، سبع مرات ، فيعود إليك لحمك وتطهر .

فاستشاط نعمان غيظاً، ومضى وهو يقول : كنت أحسب أنه يخرج و يقف و يدعو باسم الرب إلهه . . . أليس « أبانة وفرفر » نهرا دمشق خيراً من جميع مياه إسرائيل ، أفلا أغتسل فيهما وأطهر .

وفيما هو عازم على الانصراف غاضباً ، تقدم إليه عبيده ، وأخذوا يتوسلون إليه قائلين : يا أبانا ، لو خاطبك النبي بأمر عظيم ، أما كنت تفعله ، فكيف بالحرى وقد قال لك اغتسل واطهر .

فأثرت هذه الكلمات فى قلب القائد الأبى ، فنزل وانغمس فى الأردن سبع مرات ، حسب تعليمات رجل الله ، فعاد لحمه كلحم صبى صغير وطهر .

فآمن نعمان بالله ، وعاد من فوره إلى رجل الله ، ليعلن بين يديه عن ذلك الإيمان ، و يقدم له الهدايا الثمينة ، التى جاء بها من أرام .

إلا أن النبى أبى أن يقبل شيئاً رغم إلحاح نعمان ، وصرفه ليعود إلى بلاده ، قائلاً له : امض بسلام .

فلما ذهب نحو ميل ، قال جيحزى خادم أليشاع فى نفسه ، وقد داخله الطمع : حىّ الرب ، إنى لأجرى وراء هذا الأرامى الثرى وآخذ منه شيئاً .

ورأى نعمان جيحزى يجرى مريداً اللحاق به ، فانحدر عن مركبته مرحباً به ، واستطلعه عن الخبر ، فقال كاذباً : بعثنى إليك سيدى قائلاً ، إنه فى هذه الساعة قد قدم إلى غلامان من بنى الأنبياء ، فادفع لهما من الفضة قنطاراً ومن الثياب حلتين . فقال نعمان : تفضل على وخذ قنطارين ، وألح عليه وصر له القنطارين ، مع حلتين من الثياب ، و بعض الهدايا الأخرى .

ثم دخل جيحزى وقام بين يدى مولاه ، فقال له أليشاع : من أين مقبل يا جيحزى .
فقال : ما مضى عبدك إلى هنا ، ولا إلى هناك .

فقال له النبى : إن برص نعمان يعلق بك و بنسلك إلى الأبد . فخرج من بين يديه ، وهو أبرص كالثلج ، يحمل عقاب كذبه وطمعه الوخيمين (٤ مل ٥ ..)

أليشاع يكشف عن خطط ملك سوريا العدوانية :

وكان بعد مدة أن بنهدد الثانى ملك أرام (سوريا) شاء أن ينتقم من يورام ملك

إسرائيل ، لأن هـذا الأخير بعد أن حارب معه زمناً أشور ، العدو المشترك ، ترك هذه المهمة الثقيلة على عاتق جيش أرام .

إلا أنها كانت محاولة فاشلة ، وذلك بسبب تدخل أليشاع ، الذى كان يكشف أولاً بأول ليورام عن جميع الخطط الحربية ، التى كان ملك أرام يدبرها فى الخفاء ، للايقاع بغريمه ملك إسرائيل .

حتى أن بنهدد ظن فى أول الأمر ، أن أحداً من رجاله يقوم من غير شك بدور الجاسوس لصالح ملك إسرائيل ، فيطلعه بأسرار الحرب جميعها .

ولـكنه عند ما علم أن أليشاع النبى هو الذى يقوم بذلك الدور الخطير ، وأنه يقيم بدوتان ، بعث قوة كبيرة من الرجال والمراكب الحربية ، وأحاطوا المدينة المذكورة ، ليلقوا القبض على النبى .

وما أن رأى غلام رجل الله ـ وهو غير جيحزى الذى ضربه الله بالبرص ـ تلك القوة تحيط بالمدينة ، حتى أخذته الرعدة ، وقال لأليشاع : آه يا سيدى ، ماذا نصنع . فقال له النبى : لا تخف ، فإن الذين معنا أكثر من الذين معهم . ودعا أليشاع وقال : يا رب ، اكشف عن عينيه ليرى . فكشف الرب عن عينى الغلام ، فرأى ، فإذا الجبل مملوء خيلاً ومراكب نار حول أليشاع .

ثم سأل أليشاع الرب ، قائلاً : اضرب اللهم ، هـذه الأمة بالعمى . فضربهم تعالى ، لا بعمى البصر ، بل بعمى البصيرة ، حتى أنهم لم يذكروا وجهتهم ولا الغاية ، التى جاءوا من أجلها .

وتقدم أليشاع إلى هؤلاء الأراميين ، وقال لهم : ليست هـذه هى الطريق ، ولا هذه هى المدينة . تعالوا ورائى ، فأسير بكم إلى الرجل الذى تطلبونه ، فسار بهم إلى السامرة . فلما دخلوا المدينة ، قال أليشاع : افتح يا رب ، عيون هؤلاء ليبصروا . ففتح الرب عيونهم ، فإذا هم فى وسط عاصمة إسرائيل ، وقد أحاطت بهم جنود يورام .

إلا أن النبى لم يسمح أن يمسوا بسوء ألبتة ، بل أمر أن يقدموا لهم ليأكلوا ويشربوا فأعد لهم يورام مأدبة عظيمة ، فأكلوا وشربوا . ثم أطلقهم فمضوا إلى

سيدهم . ولم يحاول غزاة أرام بعد تلك الحادثة ، مناصبة العداء لإسرائيل .
(٤ مل ٦ : ٨ - ٢٣)

فى خلاص مدينة السامرة بأعجوبة :

وكان بعد مضى بعض الزمن ، أن بنهدد جمع جيشاً جراراً ، وصعد وحاصر مدينة السامرة . فارتفعت أسعار الحاجيات الضرورية ، و بلغت حدوداً جنونية . ثم إنها لم تلبث حتى اختفت من الأسواق تماماً ، وصار الناس لشدة جوعهم يأكلون الحيوانات التى تحرمها الشريعة والتى تعافها النفس عادة . وقد بلغ رأس الحمار ، وهو أقل الأجزاء صلاحاً للأكل ، ثمانين من الفضة . وإن إمرأتين ، لما لم تجدا ما تسدان به رمقهما أياماً كثيرة ، أكلتا أحد أطفالهما طبخاً .

فلما سمع يورام الملك ذلك مزق ثيابه ، واعتبر أليشاع المسؤول الأول عما حل بالمدينة وشعبها من أهوال — وكان ينبغى أن ينسب ذلك إلى خاطاياه الخاصة وخطايا شعبه — وحلف حلفاً نفاقياً بقطع رأس النبى .

وكان أليشاع فى بيته ، والشيوخ جلوس من حوله ، ولا يستبعد أنهم قد جاءوا ليسألوه حتى يشفع فى المدينة . فقال لهم : أرأيتم كيف أن ابن القتال (يورام بن آحاب) بعث جلاده لقطع رأسى ، فانظروا ألا تدخلوه .

وما هى إلا لحظة وقد وصل الجلاد ، وفى إثره يورام يستند إلى ياوره ، لأنه كان قد ندم على إصدار الأمر بقتل النبى .

وقال يورام مجدفاً ، على مسمع أليشاع والحضور من الشيوخ : ها إن هذا الشر من قبل الرب ، فماذا أنتظر من الرب بعد . أى هل يعقل أن نرجو خلاصاً من الرب ، بعد كل ما أحله بنا من شرور ؟ !

فقال أليشاع ، وهو الذى كان لا يزال يحث الملك والشعب على الثقة بالله ، وعدم التسليم للعدو . قال : اسمعوا كلام الرب ، إنه فى مثل هذه الساعة من غد ، يباع مكيال القمح بمثقال ، ومكيالا الشعير بمثقال عند باب السامرة . ومعنى ذلك إن الغذاء الأساسى للشعب سيصبح بين عشية وضحاها بثمن بخس جداً لكثرة المعروض منه .

فقال ياور الملك بتهكم : لو فتح الرب كوى فى السماء وأمطر الحنطة ، فهل يكون

ذلك؟! فأجابه رجل الله بهدوء: إنك سترى ذلك بعينى رأسك. ولكنك لا تأكل منه.

وكان فى اليوم التالى عند الفجر، أن قام أربعة رجال برص ممن عضهم الجوع بأنيابه، واقتحموا محلة الأراميين، لعلهم يجدون عند هؤلاء الأعداء، ما لم يستطيعوا الحصول عليه عند مدخل باب المدينة.

وما أعظم دهشتهم عندما بلغوا أقصى حدود المحلة، ولم يروا أحداً من الأعداء. فما كان منهم إلا أن دخلوا إحدى الخيام، وأكلوا وشربوا... ثم جاءوا ونادوا بواب المدينة، وكلفوه بإذاعة الخبر فى بيت الملك والمدينة.

فأرسل الملك وراء الأراميين بعض رجاله، ليتحقق هل فى الأمر خدعة، أم هى يد الله التى خلصتهم فجأة من هؤلاء الأعداء. وكان بمجرد عودة هؤلاء الرجال واستجلاء الحقيقة، أن خرج الشعب عن بكرة أبيهم وانتهبوا محلة أعدائهم، فصار مكيال القمح بمثقال، ومكيالا الشعير بمثقال، كما قال الرب.

أما ياور الملك، الذى سخر من نبوة رجل الله. والذى كان للملك قد كلفه بتنظيم الحركة عند باب المدينة، فقد داسه الشعب المندفع من الباب، فمات. وبذا تحققت فيه نبوة رجل الله، حيث قال له: إنك سترى ذلك بعينيك، ولكنك لا تأكل منه.

ولم يحدث ذلك الخلاص العظيم إتفاقاً، بل بأعجوبة باهرة من قبل الله. ذلك إن الرب كان قد أسمع جيش الأراميين صوت مراكب وصوت خيل: صوت عسكر عظيم. فقال كل لصاحبه، هوذا ملك إسرائيل قد استأجر علينا ملوك الحثيين وملوك المصريين، ليأتوا علينا. فقاموا وهربوا تاركين وراءهم خيامهم بحالها، وخيلهم وحميرهم، وكل عتادهم الحربى (٤ مل ٦: ٢٤.. و٧..)

وعلى هذا المنوال العجيب، نجت مدينة السامرة من أعظم حصار شاهدته، وذلك بفضل أليشاع رجل الله، الذى لم يفتر عن حث الشعب على الإيمان والثقة بالله.

فى موت بنهدد، واغتصاب حزائيل الملك:

وكان بعد حصار السامرة بزمن وجيز، أن مرض بنهدد، ملك سوريا، مرضه الأخير، فبعث إلى أليشاع حزائيل، أحد قواده العظام، ومعه هدية، ليسأل النبى هل يبرأ من مرضه.

فمضى حزائيل لاستقبال رجل الله ، وكان إذ ذاك بدمشق ، وأخذ فى يده هدية : أربعين جملاً محملة من أجود ما فى دمشق ، وجاء ووقف بين يديه ، وقال : إن إبنك بنهدد وجهنى إليك قائلاً : هل أبرأ من مرضى هذا .

فقال له أليشاع : إمض وقل له لن تبرأ . ثم ثبت نظره فى حزائيل محدقاً إليه ، حتى إن هذا الأخير قلق لهذه النظرة الفاحصة .

ثم بكى رجل الله . فقال له حزائيل : ما بال سيدى يبكى . فقال : لأنى علمت بما ستصنعه ببنى إسرائيل من السوء ، فإنك ستحرق حصونهم بالنار ، وتقتل فتيانهم . وتبقر بطون حبالاهم . فقال حزائيل متعجباً : من عبدك الكلب حتى يفعل ذلك . فقال له أليشاع : إن الرب قد أرانى إياك ملكاً على أرام .

ودخل حزائيل على سيده ، فقال له : ماذا قال لك أليشاع . فقال كاذباً : قال لى إنك تعيش . ثم بكر فى الصباح ، فأخذ قطعة من القطيفة ، وغمسها بالماء ، و بسطها على وجهه ، قاطعاً بها أنفاسه ، فمات .

وما أن استولى حزائيل على عرش سوريا ، حتى انتهز يورام ملك إسرائيل الفرصة ، ليسترد من الأراميين مدينة راموت جلعاد . وحدث فى أثناء إحدى المعارك أن جرح يورام ، فرجع ليعالج فى يزرعيل من جراحه ، مسلماً قيادة الجيش لياهو أحد قواده البارزين . وفيما هو فى يزرعيل جاء أحزيا ملك يهوذا ليعوده . فكان أحزيا هذا ابن اخت يورام (٤ مل ٨ : ٧ ..)

فى مسح ياهو ملكاً على إسرائيل واستئصال بيت آحاب :

وفيما كان يورام فى يزرعيل يتماثل إلى الشفاء ، أوفد أليشاع إلى راموت جلعاد أحد بنى الأنبياء ، فمسح ياهو سراً ملكاً على إسرائيل (٨٤١ ـ ٨١٤ ق . م)

وما أن شاع خبر انتخاب الرب لياهو فى المحلة ، حتى انضم إليه كل رجال الجيش مقدمين له واجب الولاء والطاعة .

و إذ تأكد من ولاء الجيش ، ومناصرته له ، قام لساعته طالباً وجهة يزرعيل . وما أن تبينه الرقيب من أعلى البرج ، حتى خرج كل من يورام وأحزيا لاستقباله ، فقد أخذ القلق منهما كل مأخذ . فصادفاه عند حقل نابوت اليزرعيلى .

فلما رأى يورام ياهو ، قال له : أسلام يا ياهو . فقال : أى سلام ما دام فجور إيزابل أمك وسحرها الكثير (قد ذاع وانتشر) . فرد يورام يديه ، وهرب قائلاً لأحزيا : خيانة يا أحزيا . فقبض ياهو بيده على القوس ، ورمى يورام ، فنفذ السهم من قلبه ، وخر صريعاً فى مركبته . فأخذه رجال ياهو وطرحوه فى حصة حقل نابوت .

وجرى ياهو فى إثر أحزيا ، ملك يهوذا ، وقال لرجاله ارموه . فرموه هو أيضاً فى مركبته . وما أن بلغ به قائد مركبته مجدُّو ، حتى أسلم الروح . فجاء عبيده وحملوه من هناك إلى أورشليم ، ودفنوه فى مدينة داود .

وسمعت إيزابل بمصرع الملكين ، فلم تحاول الهرب ، بل شاءت أن تستقبل القضاء المحتوم ، رابطة الجأش ، شأن الملوك والملكات العظام ، فكحلت عينيها ، وزينت رأسها بتاج ، وأطلت من شرفة القصر !

فلما دخل ياهو الباب الخارجى ، قالت له باحتقار ، مشبهة إياه بزمرى : أسلام لزمرى قاتل سيده . فرفع ياهو وجهه إلى الشرفة ، وقال بصوت كالرعد : من معى ؟ فأطل بعض الخصيان . فقال لهم : اطرحوها ، فطرحوها . فترشش دمها على حائط القصر وعلى الخيل ، وداستها الخيل .

ثم دخل ياهو القصر وأكل وشرب . وقال : افتقدوا هذه الملعونة وادفنوها ، لأنها بنت ملك . فمضوا ليدفنوها ، فلم يجدوا منها ، إلا جمجمتها وعظام رجليها وكفيها . فعادوا وأخبروه . فقال : هذا كلام الرب الذى تكلم به على لسان عبده إيليا النبى ، قائلاً : فى حقل يزرعيل تأكل الكلاب لحم إيزابل (٤ مل ٩ ..)

فى بعض أعمال ياهو وأيامه الأخيرة :

ولم يلبث ياهو ، حتى أباد كل أعضاء الأسرة المالكة : فقتل كل بنى آحاب ، إخوة يورام ، وعددهم سبعون رجلاً . وكل من لبيت آحاب فى السامرة و يزرعيل ، وجميع عظمائه ومعارفه وكهنته ، حتى لم يبق له باقياً .

وانطلق ياهو إلى السامرة ، فصادف فى الطريق إخوة أحزيا ملك يهوذا . فقال لهم : من أنتم . فقالوا : إخوة أحزيا ، جئنا لنسلم على بنى الملك و بنى الملكة . فأمر بالقبض عليهم وذبحهم جميعاً ، وكان عددهم اثنين وأربعين رجلاً .

وقام ياهو ، بعد إبادة بيت آحاب ، بتطهير المملكة من عبادة البعل . وقد استطاع ذلك بمعونة رجل غيور من عبّاد الله الحقيقيين ، يدعى يوناداب بن ريكاب .

وأمر ياهو قائلاً : قدسوا محفلاً للبعل — وكان ذلك مكيدة منه ليهلك عبّاد البعل — فنادوا به . فأقبل جميع عباد البعل من كل أنحاء إسرائيل إلى السامرة إلى بيت البعل .

وفيما هم يقدمون الذبائح للبعل ، أمر ياهو رجاله ، فضربوهم جميعاً بحد السيف . ثم مضوا فجمعوا كل أنصاب البعل وأحرقوها ، وكسروا تماثيله ، وهدموا معابده .

وملك ياهو على كل إسرائيل ثماني وعشرين سنة . وهو مؤسس الأسرة الملكية الخامسة ، التي قدر لها أن تعيش ما يقرب من المائة سنة . فقد قال الرب لياهو : حيث إنك أحسنت في كل ما صنعته ببيت آحاب ، فسيجلس من بنيك على عرش إسرائيل إلى الجيل الرابع .

بيد أن ياهو ، وإن طهر مملكة إسرائيل من عبادة البعل الرجسة ، إلا أنه لم يحد عن آثام يار بعام بن نباط ، فعبد مثله الرب الإله تحت صورة عجلي الذهب ، اللذين في بيت إيل ودان .

ولذا فإن الرب سلط عليه حزائيل ملك أرام . فكال حزائيل الضربات لإسرائيل قاسية ، حسب نبوة أليشاع رجل الله . واقتطع من تلك المملكة ؛ التي كانت تحيط بها الأعداء من الجنوب والشمال ، كل مدن شرق الأردن ، من عروعير إلى جلعاد و باشان . ولم ينج ياهو من نير أشور ، فدفع الجزية لملكها شلمنآسر الثالث (٤ مل ١٠ ..)

في خلفاء ياهو : يوآحاز و يوآش :

ومات ياهو ، فخلفه على عرش إسرائيل ابنه يوآحاز (٨١٤ — ٧٩٨ ق . م) الذي أضحت في أيامه دولة إسرائيل — في فترة من الزمن على الأقل — عبارة عن ولاية خاضعة لملوك دمشق الأراميين .

فلم يكن ليوآحاز سوى خمسين فارساً ، وعشر مراكب حربية ، وعشرة آلاف راجل . وهي القوة التي كان يسمح بها لحكام الأقاليم الخاضعة للممالك الكبرى في ذلك الزمن (مل ١٣ : ١ — ٨)

وخلف يوآحاز الذى ملك سبع عشرة سنة ، ابنه يوآش (٧٩٨ — ٧٨٤ ق . م) وفى عهده استطاعت دولة إسرائيل أن تنهض من جديد ، وتنفض عن عاتقها نير أرام الثقيل . فحارب يوآش بنهدد الثالث ، ملك أرام ، وانتصر عليه فى عدة مواقع حربية ، ولا سيما فى ثلاث منها ، كما تنبأ له أليشاع النبى ، قبيل وفاته . وبذا استطاع أن يحرر المناطق ، التى احتلها العدو شرقى الأردن ، ويتمتع باستقلال تام .

وأثارت نهضة مملكة إسرائيل المفاجئة حسد مملكة يهوذا ، ولا سيما بعد أن اعتلى عرشها أمصيا ، الذى كان يطمح فى أن تكون السيادة العليا لدولة يهوذا ، باعتبارها الممثلة الأولى لذرية إبراهيم .

إلا أن أحلام أمصيا هذه لم تتحقق أبداً ، بل تطورت إلى نتيجة عكسية . فقد أسلمه الله من أجل عبادته الآلهة الغريبة ، ليد يوآش غريمه ، الذى بعد ماهزمه فى موقعة بيت شمس ، سلبه كل أمواله ، وما فى خزائن الهيكل من ذهب وفضة . وملك يوآش على دولة إسرائيل ست عشرة سنة (٤ مل ١٣ : ٩ — ١٣ و ١٤ : ٨ — ١٤)

فى موت أليشاع ، وإظهار قداسته بعد موته :

ومرض أليشاع مرضه الأخير ، فجاء يوآش الملك ليعوده . وإذ رآه فى النزع الأخير بكى عليه متأثراً ، وقال : يا أبى ، يا أبى ، يا مركبة إسرائيل وفرسانه . مشيراً بذلك إلى الخدمات الجليلة ، التى قام بها النبى لصالح وطنه ، وكيف أنه بموت رجل الله ستفقد دولة إسرائيل دعامة من أكبر دعاماتها ، هى بمقام المراكب الحربية والفرسان للدولة .

فأخذ أليشاع يشجع الملك ، مثيراً حماسه وحميته ليضرب بشدة ويخلص إسرائيل من نير الأراميين ، واعداً إياه بالنصر . وكان ذلك برموز على عادة الأنبياء .

قال له : ركب يدك على القوس ، فركب . ووضع أليشاع يده على يد الملك ، وقال : افتح الطاق من جهة المشرق ، ففتح . فقال أليشاع : ارم فرمى . فقال أليشاع متهللاً : سهم خلاص للرب ، سهم خلاص . تضرب أرام فى أفيق حتى تبيدهم .

ثم قال : ارم إلى الأرض . فرمى يوآش ثلاث مرات وتوقف . فغضب رجل الله ، وقال : لو رميت خمس مرات أو ستاً ، لكنت حينئذ ضربت أرام حتى أبدتهم . والآن ، فثلاث مرات تضرب أرام (٤ مل ١٣ : ١٤ — ١٩)

وأسلم أليشاع روحه الطاهرة بين يدى خالقها ، فدفنه تلاميذه بكل عناية فى قبر منحوت فى الصخرة . وقبل أن يحول على وفاة رجل الله الحول ، إذا ببعض الإسرائيليين قد جاءوا إلى تلك الناحية ، ليدفنوا رجلا ميتاً .

وفيما هم يقومون بهـذا العمل التقوىّ ، أبصروا غزاة من موآب يهجمون على الأرض ، فما كان منهم ، إلا أن فتحوا أول مقبرة صادفتهم ، وكانت لأليشاع النبى ، وألقوا فيها الرجل الميت . فلما هبط الميت فى القبر ، ومس عظام النبى عاش ، وقام منتصباً على قدميه (٤ مل ١٣ : ٢٠ — ٢١)

وبهذه المعجزة الباهرة ، إظهر الله عظمة قداسـة أليشاع نبيه العظيم ، وكيف أنه تعالى يكرم ، ويريد منا أن نكرم ذخائر رجال الله القديسين .

فى ياربعام الثانى وازدهار دولة إسرائيل :

إن نهضة إسرائيل السياسية ، التى بدأت فى أواخر أيام يوآحاز ، إذ تخشع وطلب وجه الرب إله إسرائيل ، والتى أخـذت تتقدم بخطوات ثابتة فى عهد يوآش ، بلغت أوجها فى عهد ياربعام الثانى ، الذى ملك على إسرائيل بالسامرة إحدى وأربعين سنة . (٧٨٤ — ٧٤٤ ق . م)

وعلى الرغم من أن ياربعام بن يوآش ، لم يكن من الوجهة الدينية من الملوك الذين امتازوا بالصلاح ، فقد صنع الشر فى عينى الرب ، ولم يعدل عن خطايا ياربعام بن نباط ، كجميع سلفائه ، فقد عبدوا جميعهم الرب عبادة مزيفة ، تحت صورة عجلى الذهب .

إلا أنه من الوجهة السياسية كان ملـكاً عظيماً ، وقد ازدهرت فى عهده الطويل دولة إسرائيل ازدهاراً ، لا نجد له مثيلاً إلا فى عصر داود وسليمان الذهبى . وهو الذى استرد لإسرائيل ، لا كل مستعمراتها فحسب ، بل وبلغ بحدود هـذه الدولة ، أقصى ما بلغته فى أيام داود وسليمان ، باستثناء مملكة يهوذا بطبيعة الحال (٤ مل ١٤ : ٢٣ ..)

على أن هذه النهضة المادية العظيمة ، التى لم تكن تستند على أسس ثابتة من الأخلاق وروح الدين ، لم تلبث أن أخذت فى الانهيار . وقد بدا هذا الانهيار بوضوح بعد موت ياربعام ، وارتقاء زكريا ابنه العرش . وهنا تبدأ الفترة الثالثة والأخيرة من تاريخ دولة إسرائيل . وهى فترة تقهقر واضمحلال بطىء انتهى بفناء هذه الدولة .

الفصل الخامس

فى نهـــاية دولة إسرائيل

تمتاز الفترة الأخيرة من دولة إسرائيل ، بكثرة الفتن والقلاقل ، مما أدى إلى الفوضى واضطراب الحكم ، واستعباد الدولة لأعدائها . وكل ذلك نتيجة الابتعاد عن الله ، واتباع الأهواء والآلهة الغريبة .

فى ملوك الفترة الأخيرة :

زكريا بن ياربعام ، هو آخر ملوك الأسرة الخامسة ، التى أسسها ياهو . لم يملك على إسرائيل أكثر من ستة أشهر ، فقد تآمر عليه شلوم بن يابيش ، وقتله علناً أمام الشعب ، وملك مكانه . (٤ مل ١٥ : ٨ — ١٢)

ولم يتمتع شلوم قاتل سيده ، بالحكم أكثر من شهر ، فقد تحالف عليه منحيم الترصى ، وقتله فى السامرة ، وملك مكانه (٤ مل ١٥ : ١٣ ـ ١٥)

واستطاع منحيم أن يملك على إسرائيل عشر سنين (٧٤٤ ـ ٧٣٥ ق . م) ، ولكن بالقوة الجبرية . و بما أنه كان يعرف أن عرشه متزعزع ، فقد أعطى لفولٍ ، وهو تجلت فلاسر الثالث ملك أشور ، ألف قنطار من الفضة ، حتى تكون يده معه لإقرار الملك فى يده . فكان يدفع بانتظام هذه الجزية سنوياً ، مغتصباً قيمتها من الشعب . (٤ مل ١٥ : ١٦ ـ ٢٢)

أما ابنه فقحيا فلم يملك أكثر من سنتين (٧٣٥ ـ ٧٣٣ ق . م) ، فقد تآمر عليه أحد قواده المدعو فاقح ، وقتله فى قصره مع عدد من حاشيته ، وملك مكانه .

(٤ مل ١٥ : ٢٣ ـ ٢٦)

وشاء فاقح (٧٣٣ ـ ٧٣١ ق . م) ، أن يكتسب إليه قلوب الشعب ، وذلك بتخليصهم من تلك الجزية التى فرضها عليهم منحيم ، والتى كانت تدفع سنوياً لتجلت فلاسر ملك أشور ، فتحالف ورصين ملك دمشق و بعض الممالك الصغرى المجاورة ،

من كانوا يؤدون الجزية لأشور ، تحالف معهم على التمرد ، وعدم دفع تلك الجزية البغيضة ، مهما كلفهم ذلك غالياً .

على أن فاقح ورصين ، قبل أن يعلنا عن تمردهما ، شاءا أن يضما إلى صف الحلفاء يوتام ملك يهوذا . إلا أن هذا الملك ، الذى لم تكن له أية مصلحة مباشرة فى معاداة أشور ، لم يقبل بحال من الأحوال ، أن يزج بنفسه فى تلك المحالفة الخطرة . وهنا عزم كل من رصين وفاقح على سحق يهوذا واقتسام تلك الدولة بينهما . ولا سيما بعد موت يوتام وارتقاء آحاز ابنه عرش يهوذا .

وحدث فى أثناء حصارهما أورشليم أن أرسل آحاز يطلب نجدة تجلت فلآسر ، فلبى هذا الدعوة عن طيبة خاطر ، وجاء بجيش جرار ، وبدد أولئك المتحالفين : فسقطت دمشق وقتل رصين ، وأضحت إسرائيل خراباً يباباً . فلم يبق من تلك المملكة الكبيرة غير مقاطعة السامرة ، وما يحيط بها من أقاليم جبلية . فقد اقتطع منها تجلت فلآسر كل الأقاليم شرق الأردن ، وكل بلاد الجليل ، وجلا سكان[1] تلك الأقاليم والبلاد إلى أشور (٤ مل ١٥ : ٢٧ ـ ٣٠ و ١٦ : ٥ ـ ٩ و ٢ أى ٢٨ : ٦..)

أما فاقح فقد تآمر عليه ، بعد تلك الهزيمة النكراء ، هوشع بن إيلة ، فقام وقتله وملك مكانه . وملك هوشع بالسامرة على إسرائيل تسع سنين . وهو آخر ملوك إسرائيل (٤ مل ١٧..)

فى جلاء إسرائيل وسقوط السامرة (٧٢٢ ق . م)

وتعبد هوشع لشلمناسر الخامس ملك أشور[2] ، فدفع له الجزية مدة خمس أو ست سنوات . ولكنه لما تقوى ، وبدأت المقاومات السرية فى كل مكان ضد أشور ، لم يؤد تلك الجزية ، كما كان يفعل كل سنة . وأرسل رسلاً إلى « سوء » ملك مصر يطلب محالفته . وكانت المنافسة فى ذاك الوقت بين مصر وأشور على أشدها .

وعلم ملك أشور بما يبيته فى الخفاء ملك إسرائيل ضده . وكان حينذاك بالقرب

---

(١) لا يجب أن يفهم من ذلك ، أنه جلا كل السكان دون استثناء ، بل الرؤساء فقط ، وذوى الأملاك ، والأشخاص البارزين فى كل إقليم ومدينة .

(٢) شلمناسر الخامس كان ملكا على أشور وبابل من سنة ٧٢٧ إلى سنة ٧٢٢ ق . م .

من حدود إسرائيل يحارب مدينة « صور » التى شقت عصا الطاعة عليه . فجاء إلى السامرة ، وقبض على هوشع ، وأرسله موثقاً إلى أشور (٤ مل ١٧ : ١ ـ ٤)

فما كان من أهالى السامرة ، إلا أن تحصنوا بمدينتهم ، ذات القلاع المنيعة ، وأبوا أن يرضخوا لأوامر شلمناصر ، مؤملين ربما فى مساعدة فرعون ، وتمرد حلفائهم القدامى .

ولما رأى ملك أشور عناد أهل المدينة ، وعزمهم على المقاومة ، شدد الحصار عليهم ، ذلك الحصار المريع الذى دام ثلاث سنوات . وكانت المدينة على وشك السقوط ، حينما عاجلت المنية شلمناصر ، فخلفه فى قيادة الجيش وحكم بلاده سرجون أحد قواده ، الذى لم يلبث أن فتح المدينة ، وأعمل السيف فى رقاب أهلها .

فلما كفت كل مقاومة من جهة الوطنيين ، جلا سرجون[١] ، إلى أشور من رجالات إسرائيل ما يقرب من الثلاثين ألف نسمة : بعضهم إلى حلاح ، وهى إحدى المدن الكبرى ، القائمة على نهر خابور بمقاطعة جوزان ، والبعض الآخر إلى مدن مادای الخاضعة لأشور . وذلك فى سنة ٧٢٢ قبل الميلاد (٤ مل ١٧ : ٥ ـ ٦)

أما الأسباب الأدبية ، التى أدت إلى كارثة إسرائيل هذه ، وزوال مملكتهم إلى الأبد ، فهى كما يصفها الكتاب : لأنهم نبذوا الرب إلههم ، الذى أخرجهم من عبودية المصريين ، وعبدوا آلهة أخرى . وارتكبوا كل نوع من الشرور فى السر والعلن ، مثل ما كانت تصنع الشعوب الوثنية ، التى طردها الرب من أمامهم . فصنعوا فى الخفاء أموراً مستهجنة غير مستقيمة تغضب الرب . وفى العلن شيدوا لهم معابد للأصنام ، فى جميع مدنهم . وأقاموا تماثيل للأصنام ، وغابات للعبادة الوثنية ، على كل أكمة عالية ، وتحت كل شجرة خضراء .

فأشهد الرب عليهم على ألسنة جميع أنبيائه ، قائلاً : توبوا عن طرقكم السيئة ، واحفظوا وصاياى ورسومى . فلم يسمعوا ، وصلبوا رقابهم ، وتركوا جميع وصايا الرب إلههم ، بائعين أنفسهم لعمل كل شر . فكانت العاقبة المحتومة التى طالما هددهم بها تعالى ، على لسان جميع أنبيائه (٤ مل ١٧ : ٧ ـ ٢٣)

---

(١) ان صاحب سفر الملوك الرابع يعزو فتح مدينة السامرة ، وجلاء إسرائيل الى شلمناصر ، لا إلى سرجون خليفته ، لأن شلمناصر ، كما لا يخفى ، هو الذى بدأ ذلك الحصار ، الذى أدى الى سقوط المدينة ، وبالتالى الى جلاء إسرائيل ، كعادة ملوك أشور فى تشتيت الشعوب المغلوبة .

وأتى ملك أشور بقوم وثنيين من بابل ، وكوت ، وعوّا ، وحماة ، وسفروائيم ، وأسكنهم فى مدن السامرة ، مكان من جلاهم من بنى إسرائيل فامتلكوا السامرة ، واستوطنوا مدنها . فنشأ عن هذا الخليط من الشعوب الأجنبية والسكان الأصليين من بنى إسرائيل ذلك الشعب ، الذى عرف فيما بعد بالسامريين . والذين كان اليهود المعاصرون للسيد المسيح يمقتونهم أشد المقت ، ولا يخالطونهم البتة .

وحدث فى مبدأ إقامة هؤلاء الشعوب بالسامرة ، أنهم لم يتقوا الرب ، فسلط عليهم تعالى أسوداً مفترسة ، كانت تهاجمهم فى كل مكان ، فتقتل منهم كثيرين . فلما علم ملك أشور بما حل بهؤلاء المستعمرين من شقاء بسبب تلك الأسود ، أرسل لهم أحد الكهنة الإسرائيليين ، ليقيم بينهم ويعلمهم عبادة الله .

فجاء الكاهن ، وأقام ببيت إيل ، وأخذ يعلمهم كيف يتقون الرب . إلا أنهم ، وإن عبدوا الرب ، لم يتركوا شيئاً من عباداتهم الوثنية القديمة . فكانت ديانتهم مزيجاً من عبادة الله الحقيقية ، وعبادة الأصنام الكاذبة (٤ مل ١٧ . ٢٤ . .)

الفصل السادس

فى قصـــة يونان النبى

فى رسالة يونان إلى أهل نينوى :

كانت نينوى ، عاصمة مملكة أشور العظيمة ، من أغنى وأعظم المدن الشرقية . إلا أن سعة الرزق فيها ، وغناها الفاحش ، مم ذلك البذخ ، وتلك الحياة الناعمة ، التى كان يتقلب فيها عدد كبير من أبنائها ، جعلها تنقاد بسهولة إلى إرتكاب كل نوع من المعاصى والآثام ، مما جلب عليها غضب الله . وكان هلا كها أمراً مقضياً ، لولا أنه تعالى رحمها ، فأرسل إليها يونان النبى ، يدعوها إلى التوبة والتكفير عن خطاياها .

وكان يونان بن أمتاى ، النبى الذى اختاره الله لهذه الرسالة ، من سبط زبلون ، وبالتالى تابعاً لدولة إسرائيل ، رجلاً وطنياً من الدرجة الأولى . ومعنى الوطنية فى عرفهم ، مقت كل ما هو أجنبى ، وكل ما يعود عليه بالخير : ولا سيما إذا كان هذا الأجنبى عدواً لإسرائيل ، أو فيه خطر على شعب الله المختار ، كما كانت مملكة أشور .

وكانت كلمة الرب إلى يونان النبى قائلا : « قم ، انطلق إلى نينوى ، المدينة العظيمة ، وناد فيها بالتوبة ، فإن شرها قد صعد إلى أمامى » . وكان ذلك فى عهد ياربعام الثانى ، ملك إسرائيل ، فى القرن الثامن قبل المسيح .

وبما أن المناداة بالتوبة على شعب ، معناه قيام هذا الشعب وعدم سقوطه ، وكان يونان من جهته يود سقوط مملكة أشور ، لا قيامها ، فقد صمم على الهرب من وجه الرب . وقد ظن أنه إذا لجأ إلى البحر ، أى فى اتجاه غير اتجاه نينوى ، ربما عفاه الله من هذه المهمة ، وأرسل غيره .

ويمم يونان جهة يافا ، فوجد هناك سفينة على وشك الإقلاع إلى ترشيش ، فأدى أجرتها ونزل مع المسافرين . ولكن الرب ، الذى يكاد يمزح مع صديقيه ، كان ينتظر يونان هناك ، حيث أراد أن يهرب ! فقد بعث تعالى على ذلك البحر ريحاً شديدة ، ما لبثت أن تحولت إلى زوبعة هوجاء ، حتى أن تلك السفينة ، التى كانت تقل النبى الهارب ، أشرفت على الانكسار والغرق !

فخاف الملاحون ، وصرخوا كل إلى إلهه فى طلب النجدة . فى حين أن يونان كان فى جوف السفينة مستغرقاً فى نوم عميق . وإذ رآه ربان السفينة أيقظه قائلاً : ما بالك مستغرقاً فى النوم . قم فادع أنت أيضاً إلهك ، حتى لا نهلك . وألقى الركاب القرعة ليعلموا بسبب من منهم ، حل بهم ذلك البلاء والشر المتطاير . فوقعت القرعة على يونان .

فقالوا له : ماذا نصنع بك حتى يسكن البحر ؟ وكان البحر يزداد هياجاً . فقال لهم : خذونى وألقونى إلى البحر ، فيسكن البحر عنكم ، فإنى عالم أن هذه الزوبعة العظيمة ، إنما حلت بكم بسببى . فأخذوه وألقوه إلى البحر ، فسكنت للحال العاصفة ، وتوقف البحر عن تموجه .

يونان فى بطن الحوت :

وأعد الرب لخلاص يونان حوتاً عظيماً ، ابتلعه حياً ؛ فكان يونان فى بطن الحوت ثلاثة أيام ، وثلاث ليال . وصلى إلى الرب من جوف الحوت ، وقال : إلى الرب صرخت فى ضيق ، فاستجاب لى . من الهاوية استغثت ، فسمعت لى . قد طرحتنى فى العمق ،

فى قلب البحار . . فقلت إنى قد طردت عن عينيك ، لكنى سأعود أنظر هيكل قدسك . . عند ما غشى على نفسى ، تذكرت الرب ، فبلغت إليك صلاتى . . إن الذين يرعون الأباطيل يهملون رحمتهم . أما أنا فبصوت اعتراف أذبح لك ، وما نذرته أوفيه . للرب الخلاص .

فأمر الرب الحوت ، فقذف يونان إلى البر ، على الأرض اليابسة .

يونان يكرز بالتوبة :

ثم قال الرب ليونان ثانية : قم ، انطلق إلى نينوى ، وناد بالتوبة ، التى كلمتك عنها . فقام يونان وانطلق إلى نينوى ، كما أمره الرب ، وأخذ يكرز منادياً بالتوبة فى كل مكان ، وقائلا : بعد أربعين يوماً تنقلب نينوى .

وآمن أهل نينوى بكرز يونان ، فنادوا بصوم عام ، أيده الملك وكل عظماء الدولة . ولبس الجميع مسوحاً ، من الكبير إلى الصغير . وقام الملك عن عرشه ، والتف بمسح ، وجلس على الرماد . وصام الناس . وفرض الصوم كذلك على البهائم .

فرأى الله ما قام به أهل نينوى ، من أعمال توبة صادقة ، شفعوها بالصلاة ، وأنهم رجعوا عن طريقهم الشرير ، فصفح عنهم ، ولم ينفذ ما هددهم به من عقاب .

ورأى يونان أن الله غفر لأهل نينوى ، فساءه الأمر وغضب جداً ، وقال للرب بصراحة الطفولة : إنى كنت أتوقع ذلك ، ولذلك بادرت إلى الهرب من وجهك . فقد علمت أنك إله رؤوف ورحيم ، طويل الأناة ، كثير الرحمة . والآن أيها الرب ، خذ نفسى منى ، فإنه خير لى أن أموت من أن أحيا . فقال له الرب : أبحق غضبك هذا ؟

وخرج يونان إلى شرقى المدينة ، وصنع له مظلة ، وجلس تحتها فى الظل ، ريثما يرى ماذا يصيب المدينة . فكان يؤمل أن الله لن يترك المدينة ، رغم توبتها ، دون أى عقاب .

وأعد الرب شجرة خروع ، سرعان ما نمت وارتفعت فوق رأس يونان . ففرح يونان بالخروعة فرحاً عظيماً . ثم أعد تعالى دودة ، فضربت الخروعة عند طلوع الفجر ، فجفت . فحزن يونان أشد الحزن على الخروعة ، واشتهى الموت لنفسه ، ولا سيما عند ما ارتفع النهار ، وضربته الشمس بأشعتها المحرقة .

فقال له الرب : أبحق حزنك على الخروعة ؟ فقال : بحق . فقال له تعالى : لقد أشفقت أنت على خروعة ، لم تتعب فيها ، ولم تربّها ، نشأت بنت ليلة ، وجفت بنت ليلة . أفلا أشفق أنا على مدينة مثل نينوى ، وفيها ما فيها من أبرياء ، ممن لا يعرفون يمينهم من شمالهم[١] .

* اشتملت قصة يونان على تعليم أساسى ، هو ، إن الله يريد خلاص جميع الناس ، الأمم كاليهود . وعلى عدة نبوات رمزية ، أهمها : تلك الأيام والليالى الثلاث ، التى قضاها يونان فى بطن الحوت ، والتى خرج بعدها حياً معافى ، فهى ترمز إلى الثلاثة الأيام التى مكثها المسيح فى القبر ، والتى قام بعدها حياً معافى ، منتصراً على الموت وكاسراً شوكته . كذلك فإن كرازة يونان لأهل نينوى كانت تشير إلى كرازة الرسل للأمم الوثنية . كما أن إرتداد تلك المدينة ، كان يرمز إلى إرتداد الأمم واعتناقهم المسيحية . أخيراً فإن استياء يونان وغضبه ذاته ، يشيران إلى غضب اليهود وحسدهم للأمم ، الذين جاءوا من مشارق الشمس ومغاربها ، واتكأوا مع ابراهيم وإسحق ويعقوب . أما اليهود بنو الملكوت فقد طرحوا خارجاً لخياناتهم .

الفصل السابع

فى قصة طوبيا البار

فى فضائل طوبيا وتجاربه :

كان طوبيا ، الذى جلى إلى نينوى فى عهد شلمنآسر الخامس ، مع من جلاهم هذا الملك من الإسرائيليين[٢] ، من سبط نفتالى ، رجلاً نقى السيرة ، لم يسجد قط لعجول الذهب ، التى صنعها يار بعام ، بل كان يذهب إلى أورشليم ، إلى هيكل الرب ، وهناك كان يسجد لإله إسرائيل ، ويوفى جميع نذوره وأعشاره .

---

(١) إن عدد الأبرياء بمدينة نينوى كان كبيراً ، فالاثنتا عشرة ربوة ، التى يذكرها سفر يونان هى عبارة عن مائة وعشرين ألف نسمة ، لأن الربوة هى عشرة آلاف .

(٢) إن جلاء بنى إسرائيل ، وإن تم على يد سرجون (٧٢٢ — ٧٠٥ ق . م) فهو يعزى على كل حال إلى شلمنآسر ، لأنه قام بالدور الأهم فى تطويق مدينة السامرة وتشتيت دولة إسرائيل .

ولم يفارق طوبيا سبيل الحق فى منفاه ، بل وإن كثيراً من فضائله ، ولا سيما محبته للقريب ، ظهرت هنا فى الغربة بكل سنائها البهى . حتى أن كل ما كان يتيسر له ، كان يقسمه على فقراء المنفيين من إخوانه .

ولم تشغله أعمال المحبة المتنوعة ، التى كان يقوم بها نحو القريب ، عن مداومة الصلاة ، وذكر الله بكل قلبه . ومن أجل ذلك فقد آتاه الله حظوة لدى الملك شلمنآسر فأطلق له حرية التجول حيثما شاء ، وحرية الفكر والعمل . فكان يطوف على كل من فى الجلاء ، ويرشدهم بنصائح الخلاص .

وكان بعد مدة أن مات شلمنآسر[١] ، فملك سنحاريب ابنه مكانه[٢] . وكان سنحاريب حانقاً على بنى إسرائيل ، بسبب ضربة الطاعون ، التى ضرب الله بها جيشه ، بسبب تجديفه عليه تعالى ، أثناء محاصرته أورشليم . وعلى ذلك فقد أخذ فى اضطهاد تلك الجالية المنكوبة وقتل الكثير من أفرادها .

فما كان من طوبيا ، إلا أن هب لمساعدة بنى عشيرته وقومه ، فكان يطوف عليهم كل يوم ، معزياً ومؤاسياً الجميع من ماله الخاص ، ما وسعه الجهد إلى ذلك سبيلاً . ومن أعمال الرحمة ، التى أخذ يمارسها إذ ذاك بغيرة شديدة : إطعام الجياع ، وكساء العراة ، ودفن الموتى والقتلى .

وإذ سمع سنحاريب بأعمال طوبيا أمر بقتله ، ومصادرة جميع أمواله . فهرب طوبيا من وجه الملك ، واستطاع أن يختبىء عند معارفه ومحبيه الكثيرين .

إلا أن هذه الزوبعة الهوجاء ، التى أثارها سنحاريب على طوبيا ، ومَن معه فى الجلاء ، لم تلبث أن هدأت ، باختفاء ذلك الملك الشرير فجأة ، من مسرح السياسة والحياة . فقد قام عليه ولداه وقتلاه . ورُدت إلى طوبيا جميع أمواله .

أما الموت الذى كان يتهدد طوبيا ، والذى نجا منه بأعجوبة ، فلم يثبطه عن المضاء فيما اعتزمه من اقتفاء طريق الحق والبر ، حتى النهاية . لا بل إن هذه التجربة ، التى

---

(١) إن شلمنآسر هنا هو سرجون : كان أهل الجلاء من بنى إسرائيل يطلقون على كل ملوك أشور دون تمييز لقب شلمنآسر ، نسبة إلى شلمنآسر الخامس ، الذى حاصر مدينة السامرة ، ذلك الحصار المريع ، الذى أدى إلى سقوطها فى النهاية .

(٢) إن كلمة « ابنه » هنا يجب أن تفهم بمعنى أحد حفدته أو خليفته فقط .

خرج منها منتصراً ، شددت من عزمه على خدمة القريب بكل ما أوتى من قوة ، ودفن أجساد القتلى ، مهما كلفه ذلك غالياً .

وحدث أنه بينما كان ، ذات يوم ، على المائدة ، فى انتظار بعض معارفه وذوى قرابته ، ليشاركوه فى أفراح عيد الرب ، إذا به يخبر أن واحداً من بنى إسرائيل مذبوح ملقى فى السوق .

فنهض عن المائدة لساعته ، و بلغ الجثة وهو صائم ، فرفعها وحملها إلى بيته ، ليدفنها بعد مغيب الشمس سراً .

وكان جميع ذوى قرابته يلومونه ، قائلين : لأجل هذا أمر الملك بقتلك . وما كدت تنجو من قضاء الموت ، حتى عدت تدفن الموتى .

واتفق فى بعض الأيام ، وقد تعب من دفن الموتى ، أنه وافى بيته ، فرمى بنفسه إلى جانب الحائط ، ونام . فوقع ذرق من عش خطاف [١] فى عينيه وهو سخن ، فعمى .

وقد أذن الله سبحانه وتعالى أن تعرض ، لعبده طوبيا ، هـذه التجربة القاسية ، ليقدم للأجيال الآتية بعده ، مثالاً يقتدى به فى الصبر ، كأيوب الصديق .

ثم إن هذه التجربة كانت بدء سلسلة من التجارب متواصلة الحلقات . فقد أخذ أنسباؤه وذووه يسخرون منه ، ومن نظام معيشته ، قائلين له : أين رجاؤك الذى لأجله كنت تبذل الصدقات وتدفن الموتى .

وكانت حنة امرأته ، تذهب كل يوم إلى الحاكة [٢] ، وتأتى من تعب يديها بما يتأتى لها تحصيله . واتفق أنها اشترت جدياً ، وحملته إلى البيت . فلما سمع طوبيا ثغاء الجدى ، قال : أنظروا ، لعله يكون مسروقاً ، فردوه على أصحابه ، إذ لا يحل لنا أن نأكل ، ولا أن نلمس شيئاً مسروقاً . فأجابته امرأته ، وهى غاضبة : قد وضح بطلان رجائك ، وصدقاتك الآن قد عرفت . وبهذا الكلام الجارح ومثله كانت تعيره .

حينئذ تنهد طوبيا ، وطفق يصلى بدموع ، قائلاً : عادل أنت أيها الرب ، وجميع أحكامك مستقيمة .

---

(١) الخطاف : طائر طويل الجناحين ، قصير الرجلين ، أسود اللون .

(٢) الحاكة جمع الحائك وهو النساج .

فى نصائح طوبيا لابنه : ١

وكان لطوبيا ولد يدعى أيضاً طوبيا . أدبه منذ صغره على تقوى الله ، واجتناب كل خطيئة . وإذ ظن طوبيا الأب أن موته قد قرب ، استدعى إليه طوبيا ابنه ،وقال له: اسمع يا بنى ، كلمات فىّ ، وأودعها قلبك ، لتكون نبراساً لقدميك :

« . . . أكرم والدتك جميع أيام حياتها ، واذكر المشقات التى عانتها لأجلك فى جوفها ، وما كان أشدها .

وأنت فليكن الله فى قلبك ، جميع أيام حياتك ، واحذر أن ترضى بالخطيئة ، وتتعدى وصايا الرب إلهنا .

تصدق من مالك ، ولا تحول وجهك عن فقير ، وحينئذ فوجه الله لا يحول عنك .

كن رحيماً قدر طاقتك . إن كان لك كثير ، فابذل كثيراً . وإن كان لك قليل ، فاجتهد أن تبذل القليل عن نفس طيبة . فإنك بذلك تدخر لك ثواباً جميلاً ليوم الضيق . لأن الصدقة تنجى من كل خطيئة ومن الموت ، ولا تدع النفس تصير إلى الظلمة .

إحذر لنفسك يا بنى ، من كل نجاسة وزنى . ولا تدع الكبرياء تستولى على أفكارك أو أقوالك ، لأن الكبرياء مبدأ كل هلاك . وكل من خدمك بشىء ، فأوفه أجرته دون مماطلة . كل ما تكره أن يفعله غيرك بك ، فإياك أن تفعله أنت بغيرك . التمس مشورة الحكيم . وبارك الله فى كل حين ، واسترشده لتقويم سبلك ، وإقرار كل مشوراتك » .

فأجاب طوبيا أباه وقال : يا أبت ، كل ما أمرتنى به أفعله .

فى إرسال طوبيا ابنه إلى راجيس يصحبه الملاك رفائيل :

وكان طوبيا قد أعطى على سبيل السلفة ، مبلغاً كبيراً من المال لرجل من عشيرته يدعى غابيلوس . فشاء أن يسترد ذلك المال قبل وفاته . فدعا ابنه وقال له : اعلم يا بنى ، إنى قد أعطيت ، وأنت صغير ، عشرة قناطير من الفضة لغابيلوس فى راجيس فى بلاد الماديين ، ومعى بذلك صك . ففتش لك عن رجل ثقة يصحبك ، ولو بالأجرة ، إلى تلك المدينة ، حتى تستوفى ذلك المال وأنا حى .

فخرج طوبيا ، فإذا بشاب جميل الطلعة ، قد وقف مشمراً عن ساعديه ، على أهبة السفر . وكان الشاب ملاكاً أرسله الله ليرافق طوبيا فى سفره . فسلم عليه طوبيا ، وهو يجهل أنه ملاك الله ، وقال : من أين أقبلت يا فتى الخير؟ قال أنا من بنى إسرائيل . فقال له : هل تعرف الطريق التى تؤدى إلى بلاد الماديين . قال أعرفها ، وقد سلكتها مراراً كثيرة ، وكنت أنزل بأخينا غابيلوس المقيم براجيس .

فأخبر طوبيا أباه بهذا ، فتعجب وطلب أن يدخل الشاب عليه . فلما دخل الملاك سلم على طوبيا الشيخ ، وقال له : كن طيب القلب ، فإنك عن قليل ستبرأ بإذن الله . وإنى آخذ ابنك سالماً ، وسأعود به سالماً . فقال طوبيا ، وقد اطمأن إلى ذلك الشاب . انطلقا بسلام ، وليكن الله فى طريقكما ، وملاكه يرافقكما .

فودع طوبيا أباه وأمه ، وسافر مع الملاك ، والكلب يتبعه . فباتا أول ليلة بجانب نهر دجلة . ونزل طوبيا ليغسل رجليه ، فإذا بحوت عظيم قد خرج ليفترسه . فارتاع وصرخ طالباً نجدة الملاك . فقال له : أمسكه بخيشومه ، واجتذبه إليك . ففعل . فقال له الملاك : شق جوف الحوت ، واحتفظ بقلبه ومرارته وكبده ، فإن لك بها منفعة لعلاج مفيد . وشوى طوبيا من لحم الحوت ، وأكل مع الملاك ، وملّحا ما بقى منه .

وفى أثناء السفر ، قال الملاك لطوبيا : إن هنا رجلاً اسمه رعوئيل من ذوى قرابتك ، وله بنت اسمها سارة ، ولا بد لك أن تتخذها زوجة ؛ فأخطبها إلى أبيها ، فإنه يزوجها منك . فأجاب طوبيا وقال : إنى سمعت أنه قد عُقد لها على سبعة أزواج فماتوا . وقد سمعت أيضاً أن الشيطان قتلهم . فلأجل هذا أخاف أن يصيبنى مثل ذلك ، وأنا وحيد لأبوى .

فقال له الملاك : استمع فأخبرك من هم الذين يستطيع الشيطان أن يقوى عليهم . إن الذين يتزوجون ، فينفون مخافة الله من قلوبهم ، ويتفرغون لشهوتهم ، كالفرس والبغل اللذين لا فهم لهما ، أولئك للشيطان عليهم سلطان.

ثم دخلا على رعوئيل ، وصارت سارة بمساعى الملاك زوجة لطوبيا . وأعطى رعوئيل لطوبيا نصف أمواله . ومكث طوبيا عند حميه أسبوعين . أما الملاك فذهب إلى راجيس ، ورد الصك إلى غابيلوس ، واستوفى منه كل مال طوبيا .

فى عودة طوبيا الصغير وشفاء أبيه :

ثم ودع طوبيا حمويه ، وسافر هو وزوجته والملاك ، راجعين إلى طوبيا الشيخ . ولما وصلوا نصف الطريق ، تقدم طوبيا والملاك فى المسير ، وبقيت سارة والخدام والمواشى يمشون على مهل .

وكان طوبيا الشيخ وزوجته حنــة ، قد قلقا كثيراً لتأخر ابنهما عن الرجوع ، وأخذهما حزن شديد ، وطفقا يبكيان . وكانت حنة تجلس كل يوم عند الطريق ، على رأس الجبل ، حيث كانت تستطيع أن تنظر على بعد .

فنظرت ذات يوم من ذلك الموضع ، فإذا ابنها قادم ، فبادرت وأخبرت زوجها . وسبق الكلب ، الذى رافق طوبيا فى السفر ، ودخل البيت مسروراً ، يبصبص بذنبه .

وقال الملاك لطوبيا فى الطريق : إذا دخلت بيتك ، فاسجد فى الحال للرب إلهك ، واشكر له . ثم اقترب من أبيك وقبله ، واطلِ عينيه بمرارة الحوت التى معك . واعلم أنه للحين تنفتح عيناه ، ويرى ضوء السماء .

فلما دخل طوبيا البيت ، استقبله والداه وقبلاه ، وطفقا كلاهما يبكيان من الفرح . ثم سجدوا لله وشكروا له وجلسوا . فأخذ طوبيا من مرارة الحوت ، وطلى عينى أبيه ، كما أوصاه الملاك ، فعاد إليه بصره .

فمجد الله هو وامرأته وكل من كان يعرفه . وأخبر طوبيا والديه بجميع إحسانات الله ، التى أنعم بها عليــه على يد ذلك الشاب القديس ، الذى ذهب معه . وكان بعد وصول سارة مع جميع الخدم ، ووصول الغنم والإبل بسلام ، أن دعا طوبيا وابنه الملاك ، وأخذاه ناحية ، وجعلا يسألانه أن يتنازل ويقبل النصف من جميع ما جاءا به . حينئذ خاطبهما الملاك وقال : باركا إله السماء ، واعترفا له أمام جميع الأحياء ، لما آتاكما من مراحمه ، لأن إذاعة أعمال الله والاعتراف بها كرامة .

ثم قال لطوبيا الشيخ : إنك حين كنت تصلى بدموع ، وتدفن الموتى ، وتترك طعامك ، وتخبأ الموتى فى بيتك نهـاراً ، وتدفنهم ليلاً ، كنت أنا أرفع صلاتك إلى الرب . وإذ كنت مقبولاً أمام الله ، كان لا بد أن تمتحن بتجربة . والآن فإن الرب

قد أرسلنى لأشفيك ، وأخلص سارة كنتك من الشيطان . فإنى أنا رفائيل الملاك ، أحد السبعة الواقفين أمام الرب .

فلما سمعا قوله هذا ، ارتاعا وسقطا على أوجههما على الأرض مرتعدين . فقال لهما الملاك : سلام لكما ، لا تخافا . ثم ارتفع عن أبصارهما ، فلم يعودا يعاينانه بعد ذلك .

وعاش طوبيا بعد إذ عاد بصيراً اثنتين وأربعين سنة ، ورأى بنى حفدته . وقضى بقية حياته مسروراً . وإذ بلغ من تقوى الله غاية حسنة ، انتقل بسلام . ودفن بكرامة فى نينوى .

وسكن طوبيا الصغير بعد موت والديه مع حمويه ، واهتم بأمرهما ، وهو الذى أغمض أعينهما . وأحرز كل ميراث بيت رعوئيل ، ورأى بنى بنيه إلى الجيل الخامس . وبعد أن استوفى تسعاً وتسعين سنة فى مخافة الرب ، دفن بفرح .

الجزء الثانى

فى مملكة يهوذا

إن مملكة يهوذا ، وإن لم يكن لها مساحة ولا عدد سكان مثل مملكة إسرائيل ، إلا أنها كانت تمتاز عنها بطابع الوحدة ، والاعتبار الدينى ، من حيث امتلاكها أورشليم العاصمة القديمة ، وهيكل الرب . ولذا فقد قدِّر لها أيضاً أن تعيش مدة أطول من شقيقتها مملكة إسرائيل .

وتقدَّر هذه المدة بـ ٣٤٦ سنة . تبدأ فى سنة ٩٣٢ وتنتهى فى سنة ٥٨٦ قبل الميلاد .

ويمكن تقسيم تاريخ مملكة يهوذا إلى فترتين طويلتين ، تمتد الأولى : من نشأة هذه الدولة ، حتى سقوط دولة إسرائيل . والثانية : من سقوط دولة إسرائيل حتى سبى بابل .

وتمتاز الفترة الأخيرة من تاريخ يهوذا ، بصراع هذه الدولة المستميت ضد أعداء أشداء ، كملوك مصر وبابل . وكان صراعاً للبقاء ، انتهى بغلبة الأقوى ، أى بغلبة بابل ، وزوال دولة اليهود ، ولو إلى حين .

الفصل الثامن

رحبعام وخلفـــــاؤه

فى ملك رحبعام (٩٣٢ — ٩١٥ ق . م)

لقد رأينا كيف أنه ، بسبب عدم حكمة هذا الملك الغر ، انفصلت معظم الأسباط عن سبط يهوذا ، الذى كان منه بيت داود ، البيت المالك ، قائلين : « أى نصيب لنا مع داود ، وأى ميراث مع ابن يسى . إلى خيامكم يا إسرائيل ، والآن فانظر لبيتك يا داود » (٣ مل ١٢ : ١٦) . وأقاموا عليهم ملكاً مستقلاً ، فى شخص ياربعام بن نباط ، أول ملوك إسرائيل .

وقد حاول رحبعام فى أول الأمر ، أن يخضع الأسباط المتمردة بالقوة ، فقد جاء إلى أورشليم وجمع كل آل يهوذا وسبط بنيامين ، مئة وثمانين ألف رجـل ، ليحاربوا إخوتهم إسرائيل . إلا أنه عند ما سمع من شمعيا النبى أن ما حدث من فتنة كان بسماح الرب ، رجع عن قصده الشرير هذا ، وأخذ يهتم بشؤونه الخاصة ، دون شؤون دولته . (٣ مل ١٢ : ٢١ — ٢٤)

فصنع آل يهوذا الشر ، وأقاموا هم أيضاً لهم مشارف وأنصاباً وغابات على كل ربوة عالية ، وتحت كل شجرة خضراء ، وعملوا مثل جميع رجاسات الأمم الذين طردهم الرب من أمامهم . الأمر الذى جلب عليهم غضب الله ، وانتقامه السريع .
(٣ مل ١٤ : ٢١ — ٢٤)

فلما كانت السنة الخامسة للملك رحبعام ، صعد شيشاق ملك مصر على أورشليم ، وانتهب كل ثمين ونفيس فى خزائن بيت الرب ، وخزائن دار الملك ، وأخذ كل مجان الذهب ، التى عملها سليمان .

فصنع الملك رحبعام مكانها مجان من نحاس ، وجعلها فى أيدى رؤساء السعاة الحافظين باب دار الملك . و بذا اختفت ، فى أقل من عشرين سنة ، كل مظاهر البذخ ، والمجد الذى حرص سليمان على إحاطة عرشه به .

ومات رحبعام بن سليمان ، بعد ما ملك بأورشليم على جميع يهوذا و بنيامين سبع عشرة سنة (٣ مل ١٤ : ٢٥ ..)

فى ملك أبيا وآسا :

وملك من بعد رحبعام ابنه المعزز أبيًا المدعو أيضاً أبيام . ملك بأورشليم ثلاث سنين (٩١٥ — ٩١٣ ق . م) . وجرى على جميع خطايا أبيه من عبادة الأصنام والآلهة الغريبة . وحارب أبيا وشعبه ياربعام ، وضربه ضربة عظيمة ، فسقط من إسرائيل خمس مئة ألف رجل . وكان هذا النصر الساحق ، لأنهم اتكلوا على الرب إله آبائهم . (٣ مل ١٥ : ١ — ٨)

— واعتلى عرش داود من بعد أبيا ، آسا ابنه (٩١٣ — ٨٧٣ ق . م) . وهو من أعظم ملوك يهوذا . وممن امتازوا بالحكمة والصلاح ، ولا سيما فى بدء ملكه .

وصنع آسا القويم فى عينى الرب ، فأراحه الله من الحروب عشر سنين . اهتم خلالها بإزالة المذابح الغريبة والمشارف ، وكسر الأنصاب ، وقطع الغابات المخصصة للعبادة الوثنية . كما جرد أمه من لقب « الملكة الوالدة » لأنها صنعت لعشتاروت تمثال نخل ، وكسر صنمها هذا وأحرقه بالنار فى وادى قدرون .

و بعد تحصين الآداب والأخلاق العامة ، وهى أساس كل نجاح ، أخذ فى تحصين المدن والقلاع ببناء الأسوار والأبراج والأبواب والمغاليق ، وتقوية الجيش بزيادة عدده ، وتسليحه بالأسلحة الثقيلة .

وكان بعد سنوات من ملك آسا ، أن خرج زارح الكوشى على يهوذا بجيش جرار ، قوامه ألف ألف محارب — وهو أكبر عدد يذكره الكتاب لجيش من الجيوش — وثلاث مئة مركبة حربية .

فلم يسع آسا ، إزاء هذا العدد العديد من قبائل البدو المغيرة ، إلا الالتجاء إلى الله ، طالباً بإيمان حى معونته تعالى ، وقائلاً : أيها الرب ، لافرق عندك أن تساعد الكثيرين ، أو من لا قوة لهم . فأعنا أيها الرب إلهنا ، لأنا عليك اعتمدنا ، و باسمك نأتى على هذا الجمهور . يارب أنت إلهنا ، لا يقوى عليك أحد .

وكان بعد هذه الصلاة الحارة ، أن ضرب الرب الكوشيين ، فانهزموا أمام آسا وجيشه الصغير ، وقد تركوا وراءهم غنيمة كبيرة جداً .

وفى السنة السادسة والثلاثين من ملك آسا ، صعد بعشا ملك إسرائيل ، واستولى على بعض الأقاليم الشمالية ليهوذا ، وأخذ فى تحصين مدينة الرامة ، لكى يسيطر على الطريق المؤدى إلى أورشليم ، ويمنع عبيده من الهجرة إلى يهوذا .

فرأى آسا أنه إذا لجأ إلى بنهدد ملك أرام ، وأغراه بالمال ، استطاع أن يصل إلى مأربه — كما تم له فعلاً ذلك — ويطرد بعشا عن حدوده ، دون أن يهرق قطرة واحدة من دماء رجاله .

ورأى حنانى الرائى ، أن مثل هذا التصرف من رجل كآسا يعد حماقة . وهو الذى جرب ما لمفعول الإتكال على الله من قوة على سحق الأعداء . ولذا فقد تقدم إليه ، وقال له بجرأة : من أجل أنك اتكلت على ملك أرام ، ولم تتكل على الرب إلهك ، لذلك قد نجا جيش ملك أرام من يدك .

واعتل آسا فى رجليه فى السنة التاسعة والثلاثين من ملكه ، واشتدت عليه وطأة المرض جداً ، فلم يطلب الشفاء من الله ، بل من الأطباء . (٣ مل ١٥ : ٩ — ٢٤) و (٢ أى ١٤ و ١٥ و ١٦)

* ومع ذلك يمكن التماس العذر لآسا ، ولا سيما إن الكتاب يشهد له بأنه كان مخلصاً للرب كل أيامه . إذ ربما يكون قد طبق على هذه الظروف الخاصة ، التى كان عليه أن يلجأ فيها إلى الله ، المبدأ العام ، وهو : إنه ما دام يمكن معالجة أمر من الأمور بالطرق الطبيعية ، فلا حاجة إلى طلب الأعجوبة .

ومات آسا فى السنة الحادية والأربعين من ملكه . فخلفه على العرش ابنه يوشافاط .

فى ملك يوشافاط (٨٧٣ — ٨٤٩ ق . م)

إن يوشافاط هو من أتقى ملوك يهوذا ، وأكثرهم غيرة على شريعة الله . فلم يكتف بإزالة المشارف والغابات ، بل عمل على استئصال الشر ، بتعليم الشعب شريعة الرب

ولهذه الغاية اختار عدداً من أبرز اللاويين والكهنة المثقفين ، يصحبهم بعض رجال الجيش ، ليطوفوا فى كل أنحاء الدولة ، ومعهم سفر التوراة ، ليعلموا الشعب واجباته نحو ربه ونحو وطنه .

ومن أجل ذلك فقد أقر الرب الملك فى يد يوشوفاط ، وأراحه من الحروب ، وبارك فى جميع أعماله . وأعطى الشعب متطوعاً هدايا ليوشافاط . كما حملت إليه بعض القبائل الفلسطينية والعربية هدايا مختلفة ، وجزية فضة ، وأغناماً ومواشى . وتقدم يوشافاط وتعاظم جداً ، فكان له غنى ومجد عظيم .

واهتم يوشافاط أيضاً بالناحية العسكرية ، فبنى الأبراج والقلاع ، ومدناً للذخيرة . وكان له رجال حرب أشداء فى أورشليم وفى كل يهوذا .

ومن حروبه المظفرة انتصاره على بنى موآب ، وبنى عمون ، والأدوميين ، وقد خرجوا معاً كالرمل للسلب والنهب ، وإعمال السيف فى رقاب بنى إسرائيل . ولم تكن تلك حرب كما يفهم من هذه الكلمة ، بل رحلة ممتعة ، استغرقت ثلاثة أيام لجمع الغنيمة الوافرة ، التى تركها هؤلاء الأعداء ، بعد أن أعملوا السيوف بقدرة الله فى رقاب بعضهم بعضاً .

وملك يوشافاط بأورشليم خمساً وعشرين سنة . لم تكن كلها سنى عز وسؤدد ، كما يصورها لنا صاحب سفر أخبار الأيام ، لأن هذا الملك ، على الرغم من استقامته ، قد ارتكب عدة أخطاء ، كانت أفظعها تلك المصاهرة المشؤومة ببيت آحاب ، التى جرّت عليه ، وعلى كل بيت داود كثيراً من المتاعب والويلات . فقد زوج ابنه البكر وولى عرشه يورام بعتليا ابنة آحاب وإزابل .

وشاء يوشافاط أن يقلد جده سليمان ، فقام ببناء السفن الكبيرة ، التى كانت تعرف فى ذلك الزمن بسفن ترشيش ، لتذهب إلى أوفير لجلب الذهب . ولكن هذه السفن انكسرت فى ميناء عصيون جابر ، فى خليج العقبة بالبحر الأحمر ، قبل أن تقوم بأية سفرية . وكان السبب القريب ، ولا شك ، لهذه الكارثة عدم خبرة البحارة اليهود بشؤون البحر . أما السبب البعيد فهو ، كما يوضحه لنا المؤرخ الملهم ، لأن الله لم يبارك فى هذا المشروع من أجل محالفة يوشافاط لأحزيا ملك إسرائيل الملك الكافر .

(٣ مل ٢٢.. و ٢ أى ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠..)

فى ملك يورام وأحزيا ويوآش :

يورام (٨٤٩ - ٨٤٢ ق . م) : ربما كان يورام ، الذى ارتقى عرش داود ، بعد يوشافاط أبيه ، الملك الصالح ، أشر ملوك يهوذا جميعهم . فشتان الفرق بين أب وابن !

وكان أول عمل قام به يورام ، بعد استوائه العرش ، قتل جميع إخوته بحد السيف ، مع جماعة من رؤساء إسرائيل ، ممن كانوا يمتازون بغيرتهم على الدين الحنيف .

وما من شك فى أن سفك هذه الدماء البريئة ، كان بإيعاز عتليا زوجته ، تلك المرأة السفاحة ، التى لن تتورع من إبادة كل النسل الملكى ، كما سنرى .

وسار يورام فى طريق ملوك إسرائيل ، فصنع الشر فى عينى الرب . فعاقبه تعالى بخروج بلاد أدوم ، ومدينة لِبنة ، عن طاعته . وبخروج هذه البلاد لم يفقد يهوذا فقط كل ما يملك من مستعمرات ، بل وأهم طرق التجارة بالجنوب .

وقد استفحلت الكارثة عند ما حاول يورام استرداد هذه المستعمرات ، وتلك الطرق الحيوية بالقوة ، فقد كان نصيب الحملة التى أرسلها الفشل والهزيمة .

ولم يرجع يورام عن طريقه الشرير ، رغم هذه الكوارث التى توالت عليه ، بل زاد الطين بلة ، بأن أخذ فى إقامة المشارف ، وحمل سكان أورشليم على الفجور باتباعهم الآلهة الغريبة .

فى هذه المدة نفسها وردت إليه رسالة من إيليا النبى ، يقول له فيها : « هكذا قال الرب إله داود أبيك ، حيث إنك لم تسر فى طرق يوشافاط أبيك وفى طرق آسا ، بل فى طريق ملوك إسرائيل ، وحملت يهوذا وسكان أورشليم على أن يفجروا ، كما فجر بيت آحاب ، وقتلت أيضاً إخوتك ، الذين هم خير منك ، فها هوذا الرب يضرب شعبك ضربة عظيمة ، مع بنيك وأزواجك وجميع مقتناك ، ويضربك أنت بأمراض كثيرة ، حتى تتساقط أمعاؤك بسبب المرض » .

وقد تحققت نبوات إيليا هذه جميعها : فصعد الفلسطينيون والعرب على يهوذا وافتتحوها ، وانتهبوا كل ما وجد من المال فى بيت الملك ، وسبوا بنيه ونساءه . فلم يبق إلا يوآحاز أصغر بنيه .

وضربه الرب بعد ذلك بداء عضال دام سنتين ، حتى خرجت أمعاؤه ، كما تنبأ

عنه رجل الله إيليا . فذهب غير مأسوف عليه ، بعد ما ملك بأورشليم ثماني سنين . ولم يدفن في مقابر الملوك (٤ مل ٨ : ١٦ - ٢٤ و ٢ أى ٢١ ..)

أحزيا (٨٤٢ ق . م) : وبعد موت يورام ، أقام سكان أورشليم أحزيا ابنه الأصغر ملكاً مكانه . وبما أنه كان حديث السن ، لم يتجاوز بعد الثانية والعشرين من عمره ، فلم يمكنه أن يتحرر من تأثير أمه السيء ، وفرض سيطرتها المشؤومة عليه . فسار هو أيضاً في طريق بيت آحاب ، وصنع بمشورة عتليا أمه الشر في عيني الرب .

وخرج أحزيا ، في السنة الأولى من ملكه ، مع خاله يورام ملك إسرائيل ، لمقاتلة حزائيل ملك أرام في راموت جلعاد . فوجد حتفه على يد ياهو بن نمشي ، الذي مسحه الرب ليقرض بيت آحاب (٤ مل ٨ : ٢٥ .. و ٢ أى ٢٢ ..)

عتليا (٨٤٢ - ٨٣٦ ق . م) : فلما رأت عتليا ، الملكة الوالدة ، أن كل أحلامها قد انهارت دفعة واحدة بموت ابنها ، وكانت تطمع في بث وإقرار عبادة البعل والسيطرة على كل شؤون الدولة ، عن طريق ذلك الابن ، الذي كان ألعوبة في يدها ، قامت فأهلكت بقسوة لا مثيل لها جميع النسل الملكي — وبعض هذا النسل أبناؤها وحفدتها ! — واغتصبت لنفسها العرش مدة ست سنوات (٤ مل ١١ : ١ - ٣)

يوآش (٨٣٦ - ٧٩٧ ق . م) : ولم ينج من تلك المجزرة ، إلا يوآش أصغر بني أحزيا ، وكان عمره إذاك سنة واحدة . فقد اختطفته عمته يوشبعت ، أخت أحزيا من أبيه ، وامرأة يوياداع رئيس الكهنة . وخبأته بالاتفاق مع زوجها طوال الست سنوات ، التي ملكت فيها عتليا .

فلما كانت السنة السابعة تشددت الحركة ، التي كان يتزعمها يوياداع ، والتي كانت تعمل طوال هذه السنين في السر ، لإثارة الروح الوطنية في الشعب ، وخلع عتليا ، تلك المرأة الوثنية الدخيلة .

حينئذ جمع يوياداع إليه الرؤساء والجنود ، وبعد ما أراهم ابن الملك ، وطلب منهم حلف يمين الولاء للملك الجديد ، وزع عليهم السلاح المدخر في بيت الرب ، وأمرهم بحمله حتى تتم حفلات التتويج .

ثم أخرج ابن الملك ، ووضع على رأسه التاج ، أمام كل جماعة يهوذا المجتمعين فى ساحات الهيكل الفسيحة ، ومسحه ملكاً عليهم . فأخذ كل الشعب يهتف قائلاً : يحيا الملك .

وسمعت عثليا من قصرها ضوضاء الشعب ، وهو يدعو للملك ، إلا أنها لم تعبأ بالأمر كثيراً ، ظناً منها بأن ذلك الاجتماع لا يعدو أن يكون أكثر من مظاهرة ، مما اعتاد سكان المدينة أن يقوموا به من وقت لآخر ، وأنه بالتالى يكفى ظهورها لتبديد شمل هؤلاء الرعاع .

فقامت ودخلت على الشعب فى بيت الرب ، فرأت عجباً ! رأت الملك قائماً على منصة مرتفعة ، يحيط به الرؤساء ، والحرس الملكى شاكاً السلاح ، وجميع الشعب يفرحون وينفخون فى الأبواق ، فهالها ذلك المنظر ، فمزقت ثيابها ، وخرجت وهى تولول صارخة : خيانة ، خيانة . فلحق بها بعض الجند وقتلوها وهى تهم بدخول القصر .

و بعد أن قطع يوياداع عهداً بين الرب و بين الملك والشعب ، على أن يكونوا شعباً للرب ، قاموا فدخلوا بيت البعل ، الذى أقامته عثليا فى مواجهة الهيكل وهدموه ، وحطموا مذابحه وتماثيله ، وقتلوا متان كاهن البعل .

وعمل يوآش ، الذى ملك أربعين سنة ، القويم فى عينى الرب ، ما دام يوياداع على قيد الحياة ، يرشده إلى طريق الخير . أما بعد موت هذا الحبر الجليل ، فقد أطلق عنان الشهوات لنفسه ، وقد تبعه فى ذلك الرؤساء وجميع الشعب ، فتركوا الرب إلههم ، وعبدوا العشتاروت والأصنام .

فأرسل الله إليهم أنبياء كثيرين ، ليردوهم عن طريقهم الشرير ، فلم يسمعوا . وشمل روح الله زكريا بن يوياداع الـكاهن ، فأخذ يوبخهم بشدة قائلا : لم تتعدون وصايا الرب ؟ إنكم لا تفلحون . لأنكم تركتم الرب ، فتركـكم . فتحالفوا عليه ورجموه بالحجارة ، وذلك بالتواطؤ مع يوآش ، الذى لم يذكر الرحمة التى صنعها إليه يوياداع أبو زكريا . ولم يتورعوا من ارتكاب هذا الإثم الفظيع فى هيكل الرب ذاته .

وكان عند مدار السنة أن صعد جيش أرام ، فزحف على يهوذا وأورشليم . وكان أول ضحايا الأراميين — الذين جاءوا فى حفنة صغيرة من الرجال ، فدفع إليهم الرب

جيشاً عظيماً — رؤساء يهوذا البغاة ، وقد أهلكهم الغزاة عن بكرة أبيهم ، وأرسلوا كل غنائمهم إلى ملك دمشق .

ولم ينج يوآش من غدر الأراميين ، إلا بعد أن أفرغ فى أيديهم كل أقداسه وأقداس جدوده ، وكل الذهب الموجود فى بيت الرب و بيت الملك .

ومع ذلك فكانت هذه نجاة إلى حين ، لأنه ما كاد ينصرف هؤلاء الأراميين ، حتى تحالف عليه بعض عبيده ، وقتلوه على سريره بدم زكريا بن يوياداع . ولم يدفن يوآش فى مقابر الملوك (٤ مل ١١ : ٤ .. و١٢ .. و ٢ أى ٢٢ : ١١ .. و٢٣ و ٢٤)

فى ملك أمصيا وعزيا :

أمصيا (٧٩٧ - ٧٦٩ ق . م) : و بعد اغتيال يوآش ، اعتلى عرش المملكة أمصيا ابنه ، وقد ملك بأورشليم عشرين سنة . فلما استتب الملك فى يده ، انتقم لأبيه ، ولكن فى حدود العدالة ، فقتل المغتالين دون أبنائهم . وذلك عملاً بنص الشريعة التى كانت تحرم قتل الآباء بالبنين ، والبنين بالآباء ، بل قتل كل إنسان بذنبه .

وصنع أمصيا ، فى بدء ملكه ، ما هو قويم فى عينى الرب ، فنجح فى سياسته الداخلية والخارجية . ولكنه عند ما أخذ يعرج بين عبادة الله الحق وعبادة الأصنام ، التى جاء بها من أدوم ، عاقبه تعالى بأن أسلمه إلى روح الكبرياء ، مما أدى إلى هزيمته وعبوديته لغريمه ملك إسرائيل ، وانهيار مملكته خلقياً ومادياً .

وكان منذ مال أمصيا عن اقتفاء الطريق القويم ، طريق مرضاة الله ، أن أخذت تحل عليه الكارثة تلو الكارثة ، حتى هرب إلى لاكيش [1] ، وموته هناك مقتولاً بيد عبيده المتحالفين عليه (٤ مل ١٤ : ١ - ٢٠ و ٢ أى ٢٥..)

عزيا (٧٦٩ - ٧٣٧ ق . م) : وكان بعد موت أمصيا ، أن أخذ جميع الشعب عزيا ابنه ، فأقاموه ملكاً عليهم . وكان عزيا ، وهو المدعو أيضاً عزريا ، ابن ست عشرة سنة حين ملك ، وملك اثنتين وثلاثين سنة . فلما تشدد استرد ليهوذا جميع تخوم بلاد أدوم ، ومنها أيلت على البحر الأحمر ، وقد جدد بناءها ، فأضحت من أعظم أسواق التجارة ببلاد الجنوب .

(١) كانت تقع هذه المدينة شمال شرق غزة فى تل الحصى .

وصنع عزيا ما هو قويم فى عينى الرب ، كل أيام زكريا الرآى ، الذى كان مشيراً له ، فنجح فى مشاريعه جميعها ، وحروبه الكثيرة ضد الفلسطينيين والعرب . وما لبث أن امتدت سلطته إلى كثير من البلدان المجاورة ، وأدى له العمونيون الجزية ، وطارت شهرته إلى مدخل حدود مصر .

واهتم عزيا بشؤون الزراعة ، وإصلاح الأرض ، وتربية الماشية وإنماء الثروة الوطنية ، لحفر الآبار فى الساحل والسهل ، وكان له حراثون وكرامون فى الجبال حتى الكرمل .

وحصن عزيا كل حدود مملكته ، وأورشليم العاصمة تحصيناً قوياً . وكان له جيش مسلح بأحسن الأسلحة وأحدثها .

إلا أنه لما تمكن ، طمح قلبه للفساد ، وشاء أن يستأثر بالسلطة الكهنوتية أيضاً . ودخل يوماً الهيكل ليقرب على مذبح البخور ، فقاومه عزريا رئيس الكهنة وكل لفيف الكهنة معه ، غير أنه لم يسمع لهم ، واشتد حنقه عليهم ، فضربه الله إذاك بالبرص ، فاضطر إلى الخروج من الهيكل ، وقد شمله الخزى والخجل .

وبقى عزيا أبرص إلى يوم وفاته . وسكن فى بيت منفرد ، بعيداً عن القصر ، وقد فوض أمر الحكم لابنه يوتام (٤ مل ١٥ : ١ - ٧ و ٢ أى ٢٦ ..)

فى ملك يوتام وآحاز :

يوتام (٧٣٧ — ٧٣٣ ق . م) : وكان يوتام ابن خمس وعشرين سنة حين ملك ، وملك ست عشرة سنة بأورشليم . وهو من الملوك الصالحين ، الذين صنعوا القويم فى عينى الرب ، إلا أنه لم يعمل شيئاً لإزالة المشارف الوثنيـة ، وكان الشعب لا يزالون يعملون الفساد . ولذا فإن سفر الملوك لا يسجل له من الأعمال ، ما يذكر .

وربما يرجع إغفال سفر الملوك لأعمال يوتام ، لأنه لم ينفرد بالملك إلا خمس سنوات فقط ، ولذا فإن أعماله تعد جزءاً من أعمال أبيه .

ويذكر سفر أخبار الأيام الثانى عنه ، أنه قاتل بنى عمون وتغلب عليهم . فأدت له بنو عمون الجزية ثلاث سنين متوالية . وفى أواخر أيام يوتام بدأت مناوشات رصين ملك أرام ، وفاقح ملك إسرائيل لإقحام يهوذا فى المحالفة ضد بلاد أشور .
(٤ مل ١٥ : ٣٢ .. و ٢ أى ٢٧ ..)

آحاز (٧٣٣ — ٧١٨ ق . م) :

واعتلى العرش بعد يوتام ابنه آحاز ، الذى ملك بأورشليم ست عشرة سنة . ولم يقتف آحاز آثار أبيه ، بل جرى على طريق ملوك إسرائيل ، بل وفاقهم شراً ، حتى أنه أجاز أحد بنيه فى النار ، مقدماً إياه محرقة ، على حسب عادة الأمم الوثنية . وذبح آحاز للآلهة الغريبة على المشارف والآكام ، وتحت كل شجرة خضراء . وأقام التماثيل للبعليم .

من أجل هذا أسلمه الله إلى يد ملك أرام وملك إسرائيل ، تأديباً له . فقتل فاقح وحده ، ملك إسرائيل ، من يهوذا مئة وعشرين ألفاً فى يوم واحد ، كما أسر الأراميون عدداً كبيراً جداً من رجال آحاز .

ولم يلجأ آحاز فى ضيقه إلى الرب إلهه ، بل وجه رسلاً إلى تجلت فلاسر ، ملك أشور ، قائلاً : أنا عبدك وابنك ، فاصعد وخلصنى من يد ملك أرام ، ويد ملك إسرائيل . وجمع كل ما وجد فى بيت الرب وخزائن بيت الملك من ذهب وفضة ، وأرسله هدية إليه .

وقد رأينا كيف لبى تجلت فلاسر هذه الدعوة ، وبدد شمل الحلفاء . (أنظر صفحة ٢٢٠) .

إلا أن آحاز لم يستفد شيئاً من تلك الحملة ، التى مهدت الطريق أمام ملوك بابل - بعد أن آل إليهم عرش أشور - للاستيلاء ، ولو بعد زمن ، على مملكة يهوذا ذاتها . لأنه كما يعلمنا سفر أخبار الأيام أن تجلت فلاسر بعد انتصاره على ملكى أرام وإسرائيل ، لم يؤيد ملك يهوذا ، بل أخذ يضيق عليه الخناق .

ولم يغن آحاز فتيلاً أنه ذهب إلى دمشق بنفسه لاستقبال ذلك السيد الجديد ، وإعلان ولائه وخضوعه التام له ، حتى أن ذلك الغازى الجبار لم ينصرف عنه ، إلا بعد أن اقتلع آحاز كل الذهب والمعادن الثمينة ، التى كانت تغشى بيت الرب وبيت الملك وأعطاها له .

ومن أعمال النفاق ، التى قام بها آحاز ، إهماله جانباً المذبح الطقسى ، الذى بناه سليمان ، وبناء آخر على مثال مذبح وثنى شاهده فى دمشق لآلهة الأشوريين .

ثم إنه جمع آنية بيت الرب وكسرها ، وأغلق أبواب بيت الرب . وأقام مكان ذلك مذابح وثنية كثيرة فى كل زاوية فى أورشليم .

ومات آحاز فى نفاقه وتحديه لله ، ولا يذكر الكتاب كيف كان موته . غير أنه يذكر أنهم « لم يدخلوه مقابر الملوك » لأنه ملحد غير مستحق لأية كرامة .

(٤ مل ١٦.. و ٢ أى ٢٨..)

فى قصة حزقيا الملك[1] (٧١٨ ـ ٦٨٩ ق ٠ م) :

إن حزقيا الملك هو ، دون جدال ، أعظم وأتقى ملوك يهوذا ، بعد داود الملك القديس ، بشهادة الكتاب القائل : « وصنع حزقيا القويم فى عينى الرب ، كجميع ما صنع داود أبوه . . . . ولم يكن بعده مثله ، فى جميع ملوك يهوذا ، ولا فى الذين كانوا من قبله » (٤ مل ١٨ : ٣ ـ ٥)

وكانت نتيجة تشبثه بالله وحفظه وصاياه ، أن الرب كان معه . وكان النجاح حليفه كل أيامه . وقد ملك تسعاً وعشرين سنة بأورشليم .

وكان أول عمل قام به بعد استلامه زمام الحكم : ترميم بيت الرب ، وتطهيره من جميع النجاسات التى نجسه بها آحاز الملك الكافر ، وفتح أبوابه للمؤمنين .

وأرسل حزقيا الكتب والرسائل إلى سبطى منسى وإفرائيم ، وكل أنحاء يهوذا وإسرائيل ، من دان إلى بئر سبع ، داعياً الجميع للاحتفال بعيد الفصح ، ولم يكن قد احتفل به منذ زمن طويل .

فهزأ البعض بالرسل ، وقد لبى الدعوة البعض الآخر . فاجتمع فى أورشليم شعب غفير . وعيدوا للرب سبعة أيام ، ثم سبعة أيام أخر بفرح عظيم ، حتى أنه من أيام سليمان الملك لم يكن مثل ذلك الفرح فى أورشليم .

وكان الحماس شديداً حتى أن جميع من حضروا العيد ، تعاهدوا على إزالة كل أثر من آثار الوثنية بالبلاد . فخرجوا وكسروا الأنصاب ، وقطعوا الغابات ، ودكوا المشارف ، ومذابح الأصنام .

---

(١) جاءت قصة حزقيا الملك فى الفصل ١٨ و ١٩ و ٢٠ من سفر الملوك الرابع ، وفى ٢٩ و ٣٠ و ٣١ و ٣٢ من سفر أخبار الأيام الثانى .

ورتب حزقيا فرق الكهنة واللاويين وخدمة كل منهم ، فانتظمت على عهده ، طرق العبادة ، وإقامة الشعائر الدينية . وقد أمر الشعب أن يعطوا الكهنة واللاويين حصتهم كاملة ، حتى يتفرغوا لخدمة الرب وشريعته .

ومن خدمات حزقيا للدين ، إزالة المشارف فى كل إسرائيل ، وتحطيم الأنصاب ، وقطع الغابات الخاصة بعبادة الأوثان ، وسحق الحية النحاسية ، التى كان موسى صنعها فى البرية ، ذلك لأن بنى إسرائيل كانوا يقربون لها ، وقد سموها نحشتان .

ولم يخش حزقيا أن يتمرد على شلمنآسر[١] ملك أشور ، صاحب السلطان والجبروت . وذلك على الرغم من سقوط السامرة ، فى السنة السادسة لحزقيا ، بعد حصار دام ثلاث سنوات .

ومن أعمال الهندسة الكبرى ، التى قام بها حزقيا سد مجرى مياه عين جيحون[٢] ، وتوصيلى تلك المياه إلى مدينة داود عن طريق نفق تحت الأرض ـ لا يزال موجوداً حتى اليوم ـ منحوت فى الصخرة ، يصب فى بركة سلوام .

ومن حروب حزقيا المظفرة انتصاره على الفلسطينيين فى عدة مواقع حربية شهيرة .

هزيمة سنحاريب ملك أشور :

وحدث فى السنة الرابعة عشرة لملك حزقيا أن صعد سنحاريب ، ملك أشور ، على مدن يهوذا ، وأخذها جميعها ، ما عدا العاصمة . وإذ رأى حزقيا أنه لن يستطيع أن يصمد فى أورشليم أمام ذلك الغازى الجبار طويلاً ، أرسل إليه فى طلب الصلح ، معلناً عن استعداده لدفع الجزية ، على أن ينصرف سنحاريب عن بلاده .

فقبل سنحاريب فى أول الأمر شروط الصلح هذه ، وقد فرض على حزقيا جزية ثقيلة جداً ، حتى أن كل الفضة التى وجدت فى بيت الرب وبيت الملك لم تكف ، مما اضطر حزقيا إلى نزع جميع الذهب ، المغشى أبواب بيت الرب ودعائمه لسداد تلك الجزية الباهظة .

---

(١) شلمنآسر = سرجون .

(٢) لئلا ينتفع بها الأعداء فى حالة الحرب . وتعرف تلك العين اليوم بعين « ستى مريم » .

ولم يقنع سنحاريب بذلك ، بل طمعت نفسه فى الاستيلاء على أورشليم نفسها ، فأرسل ثلاثاً من أشهر قواده على رأس جيش عظيم ليعرضوا على الشعب وقادته أمر تسليم المدينة ، وإلا أخذوها بالنار والحديد .

فلما سمع حزقيا تهديد وتجديف رسل ملك أشور ، مزق ثيابه ودخل بيت الرب لابساً المسح[1] متذللاً . وسمع أشعيا النبى بالأمر فأرسل إلى حزقيا يقول : هكذا يقول الرب ، لا تخف من الكلام الذى سمعته ، مما جدف به علىَّ غلمان ملك أشور ، فإنى أجعل فيه روحاً ، فيسمع خبراً ، فيرجع إلى أرضه ، وأسقطه بالسيف فى أرضه .

وعاد سنحاريب يهدد بالويل والثبور وعظائم الأمور ، إن لم تُسلم المدينة إليه فوراً . وأخذ حزقيا كتب ملك أشور من يد الرسل فقرأها . ثم صعد إلى بيت الرب ، وأخذ يصلى بحرارة وحرقة قلب .

فبعث أشعيا إليه قائلاً : هكذا يقول الرب إله إسرائيل ما صليت به إلىَّ من جهة سنحاريب قد سمعته . . . لذلك هكذا يقول الرب على ملك أشور إنه لا يدخل هذه المدينة ، ولا يرمى إليها سهماً ، ولا يتقدم عليها بترس ، ولا ينصب عليها مترسة . لكن فى الطريق التى جاء منها يرجع .

وكان فى تلك الليلة أن خرج ملاك الرب ، وقتل من جيش أشور مئة وخمسة وثمانين ألفاً . فرجع سنحاريب بخزى وجهٍ إلى أرضه ، وأقام بنينوى . وفيما هو ساجد ، يوماً ، فى بيت « نِصروك » إلهه قتله أدْرَمَّلك وشرآصر ابناه بالسيف ، وهربا إلى أرض أراراط .

وبهذه المعجزة خلص الله حزقيا وسكان أورشليم .

وكان بعد نصر حزقيا هذا العجيب ، أن جاء كثيرون بذبائح للرب فى أورشليم ، وبهدايا لحزقيا ملك يهوذا . وعظم بعد ذلك فى عيون جميع الأمم .

وقد استطاع حزقيا فى زمن وجيز أن ينهض بمملكته إلى قمة المجد ، التى كانت قد انحدرت منه بسبب غزوات أشور المتوالية . فكان لحزقيا غنى ومجد عظيم جداً .

---

(١) المسح : لباس خشن من نسيج الشعر يلبس على البدن تقشفاً وقهراً للجسد .

وعمل له خزائن للفضة والذهب ، والحجارة الكريمة ، والأطياب ، والمجان ولكل متاع نفيس . ومخازن للغلال والخمر والزيت ، ومرابض لكل نوع من الدواب ، وحظائر الماشية . لأن الله رزقه مالاً كثيراً جداً .

فى مرض حزقيا وشفائه العجيب :

وفى تلك الأيام مرض حزقيا ، حتى أشرف على الموت ، فوافاه أشعيا بن آموص النبى وقال له : « هكذا يقول الرب : أوصِ لبيتك لأنك تموت ولا تعيش » . فحول حزقيا وجهه إلى الحائط ، وأخذ يبكى ، وصلى قائلاً : « اذكر يارب كيف سلكت أمامك بالحق وسلامة القلب » .

فلم يخرج أشعيا إلى وسط الدار ، حتى صار إليه كلام الرب قائلاً : ارجع وقل لحزقيا ، إنى قد سمعت صلاتك ورأيت دموعك وهاءنذا أشفيك وفى اليوم الثالث تصعد إلى بيت الرب . وسأزيدك على أيامك خمس عشرة سنة .

وقال حزقيا لأشعيا : ما الآية على أن الرب يشفينى فأصعد فى اليوم الثالث إلى بيت الرب ؟ فقال أشعيا هذه آية لك ، أيتقدم الظل عشر درجات ، أم يرجع عشر درجات ؟ فقال حزقيا : ليرجع الظل إلى الوراء عشر درجات . فهتف أشعيا إلى الرب ، فأرجع تعالى الظل فى الدرجات التى نزلها عشر درجات إلى الوراء .

فى نبوة أشعيا عن جلاء بابل :

وما أن سمع بروداك بلأدان ملك بابل بشفاء حزقيا ، حتى أرسل إليه كتباً وهدايا ، مهنئاً بشفائه ، ومستفسراً عن الآية التى رافقت شفاءه العجيب . إلا أن الغرض الحقيقى من هذه البعثة لم يكن للتهنئة فقط ، بل لتوثيق عرى الصداقة ، وضم حزقيا إلى حلف سرى ضد نينوى .

وأكرم حزقيا وفادة تلك البعثة ، وأخذ بدافع من روح الكبرياء يبرز لهم مفاتن عظمته وقوته وغناه . فوفد أشعيا النبى عليه ، وقال له : ما الذى قال هؤلاء القوم ، ومن أين أتوك ؟ فقال من أرض بعيدة ، من بابل . فقال : ما الذى رأوه فى بيتك ؟ فقال حزقيا : كل شىء فى بيتى رأوه . ولم يكن فى خزائنى شىء ، إلا أريتهم إياه .

فقال له أشعيا : اسمع قول الرب ، « إنها ستأتى أيام يؤخذ فيها كل ما فى بيتك ، مما ادخره آباؤك ، إلى هـذا اليوم ، إلى بابل . ويؤخذ من بنيك ، فيكونون خصياناً فى قصر ملك بابل » (٤ مل ٢٠ : ١٧ ــ ١٨)

فتواضع حزقيا ، وقال معترفاً بخطأه وحكم الله العادل : حسنٌ قول الرب الذى قلته ، ولـكن ليكن لى سلام وأمن فى أيامى .

وقد تحققت نبوة أشعيا هذه مئة سنة وعشر سنين بعد ذلك . وهى ولا شك من أعظم النبوات ، لا لأن أشعيا يعلن بوضوح مكان الأسر العتيد فقط ، بل ولأن بابل كانت حينذاك إحدى الدويلات الصغيرة الخاضعة لسلطان نينوى ، ولم يكن ثمة ما يؤذن بزوال مملـكة أشور ، وانتصار الـكلدانيين بالذات عليها .

و بعد موت حزقيا ملك منسّى ابنه مكانه . فـكان شر خلف لأصلح سلف !

الفصل التاسع

من سقوط دولة السامرة حتى سبي بابل

فى ملك منسى (٦٨٩ — ٦٤١ ق . م) :

لم يصنع ملك فى يهوذا من الشرور ، مثل ما صنع منسّى . وقد بلغ فى سفاهة قلبه أنه استخدم السحر والعرافة ، وسجد لجميع جند السماء وعبـدها . ولم يتورع من إقامة المذابح الوثنية داخل بيت الرب ، فى المـكان المقدس نفسه .

وأغوى منسّى يهوذا وسكان أورشليم ، فعملوا أقبح من شر الأمم ، الذين محقهم الرب من وجه بنى إسرائيل . وكلم الرب مراراً منسّى وشعبه بواسطة أنبيائه القديسين ، وعلى رأسهم أشعيا النبى ، ليتركوا طريقهم الشرير و يعودوا إليه ، ولـكنهم لم يسمعوا ، بل وكانت عاقبة هؤلاء الأنبياء العذاب والموت الزؤام .

فسلط تعالى على منسى قواد جيش أشور ، فأخذوه فى الأصفاد ، وأوثقوه بسلسلتين من نحاس ، وذهبوا به إلى بابل .

ولما كان منسى فى الضيق التمس وجه الرب ، وتخشع جداً ، وصلى إليـه تعالى ، فاستجابه ولم يخيب آماله ، وقد رده إلى ملـكه فى أورشليم .

فاعترافاً بجميل إلهه أمضى منسى بقية حياته فى صنع الخير ، ومحو كل أثر من آثار ماضيه الشرير . فأزال الآلهة الغريبة من الوسط ، وجميع المذابح الوثنية ، التى كان قد عملها ، وحث الشعب على عبادة الرب إله إسرائيل . واضطجع منسى مع آبائه ، ودفن فى بيته . (٤ مل ٢١ : ١ ـ ١٨ و ٢ أى ٣٣ : ١ ـ ٢٠)

آمون : وملك آمون ابنـه مكانه . فصنع الشر كما صنع منسى أبوه ، وعبد الأصنام ، تاركا الرب الهه . فتحالف عليه عبيده ، وقتلوه فى بيته ، بعد سنتين فقط من ملـكه (٦٤١ ـ ٦٣٩ ق . م) . (٤ مل ٢١ : ١٨ ـ .. و ٢ أى ٣٣ : ٢٠ ..)

قصـــة يهوديت[1]

فى بعثة أليفانا وغزواته :

وفيما كان منسى الملك معتقلاً ببابل ، أرسل نَبُوكَدْ نَصَّر[2] ملك أشور أحد قواده العظام المدعو «أليفانا» على رأس جيش جرار ، قوامه مئـة وعشرين ألف راجل ، واثنى عشر ألف فارس ليستولى على مدن يهوذا ، ويخضع لسلطانه كل الممالك غربى أشور .

فلم تكن مملـكة أو مدينة محصنة فى طريق أليفانا ، إلا وقهرها ، حتى أن جميع ملوك ورؤساء المدن والأقاليم التابعة لسوريا ، ولوبيا ، وقيليقية لم يروا مندوحة عن تسليم مدنهم وقلاعهم ، دون أدنى قيد أو شرط ، لذلك الفاتح العاتية .

---

(١) وردت قصة يهوديت فى السفر المعروف باسمها ، وذلك فى ستة عشر فصلا . وسفر يهوديت هو من الأسفار القانونية المتأخرة ، التى لايعتبرها البروتستنت فى مقام الأسفار المنزلة . وهذه الأسفار هى : باروك ، وطوبيا ، ويهوديت ، والحكمة ، ويشوع بن سيراخ ، وسفر المكابيين الأول والثانى . وبعض قطع وفصول ، منها : نشيد الفتية الثلاثة الوارد فى دانيال ٣ : ٢٤ — ٩٠ وقصة سوسنة وبال والتنين الواردة فى دانيال الفصل ١٣ و ١٤ . والفصول السبعة الأخـيرة من سفر أستير . أما تقسيم الأسفار الإلهيـة إلى متقدمة ومتأخرة فيرجع إلى إحصاء الأولى فى القانون منذ البداية ، وإحصاء الأخرى متأخراً .

(٢) يسميه العرب بختنصر .

وأخذ أليفانا من جميع المدن ، التي افتتحها أنصاراً له ، كل ذي بأس . ثم عبر سوريا ، وباميًا ، وجميع ما بين النهرين ، وأتى بلاد أدوم ، فأخذ مدائنهم ، ورابط في أرض جبع ثلاثين يوماً ، ريثما يتم جمع كل قواته .

وسمع بنو إسرائيل المقيمون بأرض يهوذا ، فخافوا أن يفعل أليفانا بأورشليم وبهيكل الرب ، كما فعل بسائر المدن وهيا كلها . فأرسلوا إلى جميع السامرة في كل جهة إلى حد أريحا ليضبطوا رؤوس الجبال . وما لبثوا أن سوروا قراهم المفتوحة ، وجمعوا الحنطة استعداداً للقتال .

وكتب ألياقيم الكاهن إلى جميع آل إسرائيل أن يضبطوا على الخصوص مراقي الجبال ، التي يمكن أن تسلك إلى أورشليم ، ويحفظوا المضايق ، التي يمكن أن يجاز منها إلى الجبال .

ففعل بنو إسرائيل كما رسم كاهن الرب الياقيم ، وصرخ كل الشعب إلى الرب بابتهال عظيم ، وذللوا نفوسهم بالصوم والصلاة ، لكي يفتقد الرب شعبه إسرائيل ، ويخلصهم من أعدائهم .

وأخبر أليفانا أن بني إسرائيل قد تأهبوا للدفاع عن أنفسهم ، وأنهم قد سدوا طرق الجبال ، فاستشاط غضباً . ودعا جميع رؤساء موآب وقواد عمون ، وقال لهم : من هم أولئك الشعب ، الذين استخفوا بنا ، دون جميع سكان المشرق ، ولم يخرجوا لاستقبالنا ، ليتلقونا بالسلم .

شهادة حق : فقص أحيور قائد بني عمون على مسامع أليفانا وعظمائه قصة هؤلاء الشعب ، منذ أول دعوته حتى استيلائه على أرض الموعد . وقد ختم قوله قائلاً : والآن يا سيدي أنظر فإن كان لأولئك الشعب إثم أمام إلههم ، فلنصعد إليهم ، لأن إلههم يسلمهم إليك . وإن لم يكن لهم إثم فلا طاقة لنا بهم ، لأن إلههم يدافع عنهم .

فلما فرغ أحيور من هذا الكلام غضب جميع عظماء أليفانا ، وهموا بقتله . وقال أليفانا له : بما أنك تنبأت لنا قائلاً : إن شعب إسرائيل يدافع عنه إلهه ، فلكي أريك أن لا إله إلا نبوكدنصر ، فإنا إذا ضربناهم ، فحينئذ تهلك أنت أيضاً بسيف الأشوريين .

وأمر أليفانا عبيده فألقوا القبض على أحيور ، وأخذوه إلى بيت فلوى ، وقد تركوه

مربوطاً بيديه ورجليه إلى شجرة إلى جانب الجبل .

فلما رآه رماة إسرائيل نزلوا وحلوه ، وأتوا به إلى مدينتهم ، وأقاموه فى وسط الشعب ، وسألوه لمَ تركه الأشوريون مربوطاً . فلما قص عليهم قصته ، وكيف أن أليفانا أمر به أن يسلم إلى أيدى الإسرائيليين ، وفى قصده أنه متى ظفر بهم يأمر بقتله بضروب مختلفة من العذاب ، لأجل أنه قال إن إله السماء هو المدافع عنهم .

خرَّ جميع الشعب على وجوههم وسجدوا للرب ، ورفعوا صلواتهم بالبكاء قائلين : أيها الرب إله السماء والأرض ، أنظر إلى عتوهم ، والتفت إلى تذللنا ، وأعلن أنك لا تترك المتوكلين عليك ، وإنك تذل المتوكلين على أنفسهم ، المفتخرين بقوتهم .

وبعد هذا البكاء وانقضاء الصلاة ، عزوا أحيور قائلين له : إله آبائنا الذى أنذرت بقوته عن عليك أن تنظر أنت هلاكهم . وإذا آتى الرب إلهنا عبيده هـذا الخلاص ، فليكن هو إلهاً لك فيما بيننا ، إن أحببت أن تكون معنا أنت وأهلك جميعهم .

فى حصار بيت فلوى وتقدم يهوديت الصفوف :

وكان لا بد لأليفانا ، قبل أن يبلغ أورشليم ويضرب الحصار عليها ، من استيلائه أولاً على المواقع الحصينة ، التى فى طريقه إليها ، ومنها بيت فلوى ، التى كانت تقع على جبل ، وكانت محصنة تحصيناً قوياً[1] .

ولـكى يصل إلى مأربه هذا ويستولى على هذه المدينة الصغيرة بلا قتال ، قد أمر بقطع القناة الوحيـدة ، التى كانت تستقى منها بيت فلوى ، وجعل حراساً على جميع العيون ، التى كانت بالقرب من سور المدينة .

فلم تمض عشرون يوماً على هذه الحال ، حتى أخذ الضنك كل مأخذ من سكان المدينة ، ولا سيما بعد أن جفت مياه الآبار جميعها . وكاد الأهلون يسلمون مدينتهم للعدو ، لولا تدخل امرأة قوية ، تحلت بالشجاعة وبأجمل الفضائل : هذه هى يهوديت ، بطلة هذه القصة ، التى أخذت من فورها تحث الشعب وشيوخ المدينة على عدم الاستسلام ، والرجاء بالرب ، الذى لا يمكن أن يخذل من يتكل عليه .

---

(١) لا يعرف اليوم موقع هذه المدينة ، ويظن البعض أنها كانت فى نواحى مدينة جنين الحالية .

أما نفوذ يهوديت فيرجع إلى أنها كانت من أغنى أغنياء بلدتها ، وأكثر الجميع تقوى وصلاحاً . وقد تجلت تقواها بنوع خاص بعد موت زوجها ، فقد بنت لها غرفة سرية فى أعلى بيتها ، كانت تقضى فيها وجواريها معظم وقتها بالتعبد والصلاة ، فى عزلة تامة عن العالم . وكان على حقويها مسح ، وكانت تصوم جميع أيام حياتها ، ما خلا السبوت ورؤوس الشهور وأعياد آل إسرائيل .

وما أن لبى الشعب والشيوخ دعوة يهوديت على عدم تسليم المدينة والثقة بالله ، حتى دخلت معبدها الخاص ، ولبست مسحاً ، وألقت رماداً على رأسها ، وخرت أمام الرب تصلى من أجل شعبها وخلاص المدينة .

ثم قامت فألقت عنها المسح ، ونزعت عنها ثياب إرمالها ، ولبست ثياب فرحها ، وادهنت ، وتزينت بكل زينتها .

ثم حمّلت خادمتها بعض الزاد ، وانطلقت تتبعها وصيفتها إلى معسكر الأعداء ، فلما رآها الحراس ، وقد بهرهم جمالها وحكمتها ، اقتادوها إلى خيمة أليفانا .

وإذ رأت يهوديت أليفانا جالساً ، خرت أمامه ساجدة على الأرض . فأنهضها قائلاً : لتطب نفسك ، ولا تخافى شيئاً .

ونالت يهوديت حظوة فى عينى أليفانا ، فأذن لها أن تخرج وتدخل ، كما تحب ، لتعبد إلهها . وقد أمر جنوده ألا يتعرضوا لها . فكانت تخرج ليلاً إلى وادى بيت فلوى ، وتغتسل فى عين الماء . وبعد صعودها كانت تتضرع إلى الله ، أن يرشد طريقها ، لتخلص شعبها . ثم تدخل فى خيمتها التى نصبها لها أليفانا بجوار خيمته .

فى تخليص يهوديت شعبها :

وكان فى اليوم الرابع أن صنع أليفانا عشاءً لعبيده ، وقد دعا يهوديت لتأكل وتشرب معه . فقامت وتزينت بملابسها ، ودخلت فوقفت أمامه . ففرح أليفانا ، وشرب بجوارها من الخمر شيئاً كثيراً جداً ، أكثر مما شرب فى جميع حياته ، فسكر ونام . وكذلك كل خدامه .

وكانت يهوديت وحدها فى المخدع ، وأليفانا غارقاً فى نوم عميق لشدة سكره ، فأمرت خادمتها أن تقف خارجاً أمام الخيمة وتترصد .

ووقفت يهوديت أمام سرير أليفانا ، وحلت خنجره المعلق بالسرير مربوطاً ، واستلته . ثم أخذت بشعر رأسه ، وصلت قائلة : أيدنى أيها الرب الإله فى هذه الساعة . ثم ضربت مرتين على عنقه ، فقطعت رأسه .

و بعد هنيهة خرجت وناولت وصيفتها رأس أليفانا ، وأمرتها أن تضعه فى مزودها . وخرجت كلتاهما على عادتهما ، كأنهما خارجتان للصلاة ، واجتازتا المعسكر ، ودارتا فى الوادى ، حتى انتهتا إلى باب المدينة .

فنادت يهوديت حراس السور : افتحوا الأبواب فإن الله معنا . ففتحوا لها ودعوا الشيوخ ، وقد بادر إليها جميع أهل المدينة من أصغرهم إلى أكبرهم . ثم أوقدوا المصابيح ، واجتمعوا حولها . فأخرجت رأس أليفانا من المزود ، وأرتهم إياه . فسجدوا بأجمعهم للرب ، وقالوا لها : قد باركك الرب بقوته ، لأنه بك أفنى أعداءنا .

وعند ما طلع النهار ، علقوا رأس أليفانا على الأسوار ، وأخذ كل رجل سلاحه ، ثم خرجوا بصوت عظيم . فذهب الأشوريون ليوقظوا أليفانا ، فإذا هو جثة بلا رأس . فمزقوا ثيابهم ، واستولى عليهم الخوف والرعب واضطربت صفوفهم ، فانهزموا تاركين كل شىء . . . فلحقهم بنو إسرائيل ، وأهلكوا كل من أدركوه ، ثم عادوا إلى معسكر الأشوريين ، فأخذوا كل ما تركه الجيش المنهزم ، وكان شيئاً كثيراً .

ولما رأى أحيور القوة ، التى أجراها إله إسرائيل ، ترك عبادة الأمم ، وآمن بالله ، وقبل الختان ، وضم إلى شعب إسرائيل هو وكل ذريته .

وأتى « يوياقيم » الكاهن العظيم من أورشليم ، إلى بيت فلوى ، مع جميع الشيوخ ليرى يهوديت . فلما خرجت إليهم ، باركوها كلهم بصوت واحد قائلين : أنت مجد أورشليم وفرح إسرائيل ، وفخر شعبنا . فقال جميع الشعب : آمين . آمين .

وعظمت يهوديت فى بيت فلوى جداً ، وكانت أجلّ من فى جميع أرض إسرائيل . وكان فيها العفاف مقروناً بالشجاعة ، ولم تعد تعرف رجلاً كل أيام حياتها ، منذ وفاة منسى بعلها . ولما ماتت ناح عليها جميع الشعب سبعة أيام .

فى ملك يوشيا ، وملوك يهوذا الآخرين :

وأقام الشعب خلفاً لآمون يوشيا ابنه ، وكان ابن ثمانى سنين . وقد ملك بأورشليم إحدى وثلاثين سنة (٦٣٩ ـ ٦٠٩ ق . م) . وصنع يوشيا القويم فى عينى الرب . ومضى فى كل طرق داود أبيه ، ولم يعدل عنها يمنةً أو يسرةً .

وأول عمل قام به لما بلغ أشده ، وكان ذلك فى السنة الثامنة عشرة لملكه ، ترميم الهيكل ترميماً شاملاً ، وتطهيره من تماثيل الآلهة الوثنية ، وأدوات عبادتها ، وحرق الكل فى وادى قدرون ، خارج أورشليم .

وفيما كانت أعمال الترميم قائمة على قدم وساق فى بيت الرب ، وجد حلقيا الكاهن العظيم سفر التوراة ، فدفعه إلى شافان كاتب الملك . ودفعه شافان إلى الملك ، فلما قرأه يوشيا مزق ثيابه ، لأنهم لم يعملوا بأحكامه ، لا هم ولا آباؤهم .

وسألوا حلدة النبية بخصوص ما جاء فى السفر ، فقالت لهم : هكذا يقول الرب إله إسرائيل : هأنذا جالب الشر على هذا المكان وعلى سكانه ، من أجل أنهم تركونى وقربوا لآلهة غريبة ، فاضطرم غضبى على هذا المكان ولن ينطفىء .

وأما ملك يهوذا ، فهكذا تقولون له : من أجل أنه لانَ قلبك وخشعت عند سماعك ما قلته على هذا المكان وعلى سكانه ، فمزقت ثيابك و بكيت أمامى ، فهأنذا أضمك إلى آبائك ، فتنضوى إلى قبرك بسلام ، ولا ترى عيناك الشر ، الذى أنا جالبه على هذا المكان .

وامتدت حركة الإصلاح ، التى قام بها يوشيا إلى جميع أطراف يهوذا وإسرائيل ، فأزال المذابح والمشارف التى تجاه أورشليم ، التى بناها سليمان لعشتاروت ، وملكوم ، وكموش ، وحطم الأنصاب ، وقطع الغابات . وأيضاً المذبح الذى فى بيت إيل فى المشرف الذى أقامه يار بعام بن نباط هدمه مع المشرف ؛ وأخذ عظاماً من القبور فأحرقها على المذبح ، ونجسه على حسب قول الرب .

وذبح يوشيا جميع كهنة المشارف الوثنية التى بالسامرة ، وأحرق عظام الموتى عليها تنجيساً لها . كما أزال أصحاب التوابع والعرافين من أورشليم ويهوذا .

وصنع فى السنة الثامنة عشرة من ملكه ، بعد ترميم الهيكل ، فصحاً للرب فى أورشليم ، لم يصنع مثله فى إسرائيل ، منذ أيام صموئيل النبى .

وعلى الرغم من أعمال الغيرة هذه العظيمة ، لم ينثنِ الرب عن غضبه الذى غضبه على يهوذا ، لأجل جميع ما أسخطه به منسى ، ولأجل الدم الذكى ، الذى سفكه وملأ به أورشليم .

وتبدأ سلسلة الشرور التى هدد الله بها شعبه ، انتقاماً منهم عن خطاياهم ، وخطايا ملوكهم ، باختطاف المنية يوشيا ، الملك الصالح وهو فى عنفوان الشباب ، وحينما أخذت حركة الإصلاح التى قام بها تعطى ثمارها (٤ مل ٢٢ و ٢٣ و ٢ أى ٣٤ و ٣٥ ..)

وكانت النتيجة الحتمية لموت ذلك الملك الصالح ، على تلك الصورة التى يرثى لها[1] ، إنهيار حركته ، وارتداد الشعب وابتعاده عن الله ، مما أدى إلى تعجيل نهاية تلك الدولة التعيسة .

ولم يكن يوشيا متهوراً عند ما أعلن الحرب على نكو الثانى ملك مصر ، بل بطلاً صنديداً لم يخشَ التضحية بحياته فى سبيل الشرف والدفاع عن حقوق دولته فى الوجود . فقد تصدى لنكو قاطعاً عليه الطريق ، لئلا يكون وجيشه عاملاً ذا أهمية فى نصر أعداء بنى الله ، الذين كان خارجاً لمؤازرتهم .

يوآحاز (٦٠٩ ق . م) : وأقام الشعب خلفاً ليوشيا يوآحاز ابنه الأصغر . وقد فعلوا ذلك دون استئذان نكو ملك مصر ، الذى أضحى بعد سقوط نينوى ، وانتصاره على يوشيا فى معركة مجدّو[1] ، الحاكم بأمره فى مصير يهوذا ، وسائر البلدان الشرقية التى وطئتها أقدام جيوشه حتى الفرات .

---

(١) مات يوشيا ، فى وادى مجدو ، فى الحرب التى أثارها ضد نكو ملك مصر . فقد كان نكو خارجاً بجيش عظيم للاشتراك فى معركة الكركميش الكبرى ، التى أعلنتها الدول على مملكة أشور ، وعلى رأس تلك الدول — التى كانت بالأمس خاضعة لأشور — مملكة بابل الفتية . وكان خروج فرعون ، كما لا يخفى ، لاقتسام تلك الغنيمة الدسمة مع الثوار .

ولكن بما أن يوشيا كان مرتبطا بمعاهدة مع أشور ، وكان من مصلحته بقاء تلك الدولة الهرمة ، التى أصبح نفوذها اسما على غير مسمى ، فقد شاء أن يعيق فرعون ، ولو بعض الزمن ، حتى تتمكن أشور من قمع الثوار ، والسيطرة على الموقف .

(٢) كانت تقع مدينة مجدو فى تل المتسلم ، فى سهل يزرعيل ، شمال غربى جنين .

ولذا عند ما بلغه خبر اختيار يوآحاز ، وكان إذ ذاك بربلة لقبول يمين الولاء من الحكام السوريين . . أمر باحضاره إلى هناك ، وخلعه من رتبته الملكية ، وذلك بعد ثلاثة أشهر فقط من ملكه .

وأتى فرعون به من هناك إلى مصر ، مع عدد من اليهود ، حيث مات فى الأسر بمصر . ولم يكتف نكو بذلك ، بل أجبر البلاد اليهودية على دفع مئة قنطار من الفضة ، وقنطار من الذهب (٤ مل ٢٣ : ٣٠ – ٣٣ و ٢ أى ٣٦ : ١ – ٣)

يوياقيم (٦٠٨ – ٥٩٧ ق . م) :

وأقام نكو ، ملكاً على يهوذا وأورشليم ، ألياقيم أخا يوآحاز الأكبر . وجعل اسمه يوياقيم ، تذكيراً له بتابعيته له .

وظل يوياقيم العبد الأمين لفرعون ، يسدد له الجزية فى أوانها ، تلك الجزية التى كان يوياقيم يغتصبها جميعها من الشعب ، حتى السنة الرابعة لملكه ، وهى الموافقة لسنة ٦٠٥ قبل الميلاد . تلك السنة التى كسرت فيها جيوش فرعون فى معركة الكركميش[١] .

لا بل وحتى بعد انكسار نكو فى تلك المعركة أمام جيوش نبوكدنصر[٢] الفتية ، واستيلاء هذا الأخير على جميع ولايات مصر السابقة ، من نهر مصر إلى نهر الفرات ، ظل يوياقيم موالياً لفرعون ، يعمل فى السر لمناصرة مصر ، ومناهضة بابل .

على أنه من سنة ٦٠٥ إلى سنة ٦٠١ ظلت البلاد اليهودية وسائر البلدان الشرقية حرةً ، لا تخضع عملياً لأحد : لأن فرعون بعد معركة الكركميش ، لم يعد يخرج من أرضه . أما نبوكدنصر ، الذى أضحى نظرياً صاحب الأمر الأعلى على تلك الأقطار ، فكان منهمكاً فى تقوية الجبهة الداخلية فى بلاده .

وهذه السنين الأربع التى ملك فيها ملك يهوذا دون منازع ، كانت أشد السنين

---

(١) هى غير معركة الكركميش ، التى ذكرناها آنفاً فى الحاشية ص ٢٥٣ . فنى حين كانت تلك ضد أشور ، كانت هذه ضد فرعون . وقد خرج عليه ملك بابل — بعد أن نفض يده من أشور — ليطرده من جميع بلاد آسيا ، التى آل ملكها إلى الكلدانيين .

(٢) نبوكدنصر هو أشهر وأعظم ملوك الأسرة العاشرة والأخيرة ، التى ملكت ببابل . وتعرف تلك الأسرة بالكلدانية أو البابلية الجديدة . ملك ببابل من سنة ٦٠٥ إلى سنة ٥٦٢ ق . م .

عصبية بالنسبة لأرميا النبي ، الذي أذاقه يوياقيم من ألوان الاضطهاد والخسف مالا يوصف وما ذلك إلا لعدم رضى النبي عن سياسة الملك الخرقاء ، الذي بدلاً من أن يتكل على الرب إلهه ، كان لا يزال متكلاً على ملك مصر .

وحدث في السنة الثامنة ليوياقيم ، والرابعة لنبوكدنصر ، أن صعد هذ الأخير ، الذي لم تكن تخفى عليه أميال يوياقيم نحو مصر ، صعد على اليهودية ، فأوثق يوياقيم بسلسلتين من نحاس ، مهدداً إياه بالنفى ، إن لم يغير من سياسته ، ويتجه بكل قلبه نحو أسياده الجدد .

وكان بعد هذا الدرس القاسي أن أطلق سراحه ، ورده من جديد إلى العرش . فخضع يوياقيم ، فكان له عبداً ثلاث سنين . إلا أنه كان خضوع الضعيف للقوة الغاشمة ، خضوعاً لا إخلاص فيه : ولذا كان لا يزال يأمل في خروج فرعون عن حياده ، والانتصار لتلك الدول الصغيرة ، التي كانت يوماً من أملاكه . وكل ذلك على الرغم من إنذارات وتحذير إرميا النبي ، الذي كان أعلم ببواطن الأمور ، والذي لم يخش أن يعلم علناً أنه لا مفر من وقوع الكارثة ، وأن النصر لا محالة لبابل .

وعاد يوياقيم في السنة الحادية عشرة ، وهي الأخيرة لملكه ، فتمرد علناً على نبوكد نصر . فأرسل هذا جنوداً مستأجرين من غزاة أرام وموآب وبني عمون ، وجنوداً منظمين من الكلدانيين ، انقضوا على يهوذا انقضاض الصاعقة ، وقد أعملوا السيوف في رقاب الكثيرين . وفي إحدى هذه المعارك ، ولا شك ، هلك يوياقيم ، الملك المنافق ، وهو الذي لم يزل مصراً على نفاقه حتى النهاية .

(٤ مل ٢٣ : ٣٤ .. و ٢٤ : ١ — ٥ و ٢ أى ٣٦ : ٤ — ٨)

يوياكين (٥٩٧ ق . م) :

ولم يملك يوياكين ، الذي صنع الشر على حسب جميع ما صنع أبوه يوياقيم ، أكثر من ثلاثة أشهر ، والدمار يتهدد المدينة المقدسة من كل جانب . لأن الأعداء بعد أن أعملوا معول الهدم والخراب في معظم المدن اليهودية ، أخذوا في محاصرة أورشليم نفسها .

بحيث أنه لما وصل نبوكدنصر ، وكان عازماً هذه المرة على التخلص إلى الأبد ، من حاكم هذه الولاية الكثيرة التمرد ، وجد عبيده محاصرين للمدينة ، وأن يوياقيم قد مات ، وملك يوياكين ابنه مكانه .

وما أن علم يوياكين بوصول نبوكدنصر ، حتى خرج مسلماً نفسه بنفسه ، وبذا استطاع أن ينجو بجلده . فأخذه ملك بابل هو وأمه وعبيده ورؤساء خصيانه وكل عظمائه ، وجلاهم إلى بابل ، مع نفائس آنية بيت الرب .

كما جلا جميع الرؤساء والمقتدرين من ذوى الأملاك ، عشرة آلاف نفس ، ومن رجال الحرب ، سبعة آلاف نفس ، ومن الصناع المهرة ألف نفس . وعدداً آخر غير معلوم من السكان ، ولم يبق فى المدينة إلا فقراء الشعب (٤ مل ٢٤ : ٦ — ١٦)

فى خراب أورشليم وجلاء بابل :

وأقام نبوكدنصر ، ملك بابل ، متنيا عم يوياكين ملكاً مكانه . وجعل اسمه صدقيا ، محلفاً إياه بالله على أن يكون صادقاً ، فلا يحنث بيمين الولاء لبابل (٥٩٧ — ٥٨٦ ق . م) .

وصنع صدقيا الشر فى عينى الرب ، بحسب جميع ما صنع يوياقيم ، ولم يتخشع أمام إرميا ، المتكلم عن فم الله ، ولم يعمل بمشورته .

وكان فى السنة التاسعة لملكه أن شق عصا الطاعة على نبوكدنصر وتمرد عليه . فجاء نبوكدنصر على رأس جيش جرار ، وحاصر أورشليم سنتين . حتى إذا اشتد الجوع بالمدينة ، ولم يكن خبز للشعب ، هرب صدقيا ، وكل رجال الحرب معه ليلاً ، من ثغر فتحوه فى السور ، وذهبوا فى طريق الغور[١] .

فجرى جيش الكلدانيين على أثر الملك ، فأدركوه فى صحراء أريحا ، وقد تفرق عنه كل جيشه . فأخذوه إلى ملك بابل فى ربلة ، وبعد محاكمة قصيرة ، ذبحوا جميع بنيه أمام ناظريه ، وفقأوا عينيه ، وأوثقوه بسلسلتين من نحاس ، وجاءوا به إلى بابل .

---

(١) هو الطريق المؤدى إلى بقعة أريحا والبحر الميت المنخفضة ، حيث يبلغ عمق هذا البحر حول ثمانمائة متر ، وسطح مائه حول ٣٦٤ متراً تحت سطح البحر .

وبعد القاء القبض على صدقيا ومحاكمته ، دخل الجيش الظافر المدينة المقدسة . وأعملوا السيف فى رقاب جميع سكانها ، دون أن يشفقوا على فتى أو عذراء ، ولا على شيخ أو أشيب .

وما أن جمعوا كل نفيس فى المدينة ، وجميع آنية بيت الله الكبيرة والصغيرة ، وخزائن بيت الرب ، وخزائن الملك ورؤسائه ، لتضم إلى كنوز نبوكد نصر ببابل ، حتى أخذوا فى حرق الهيكل ، وبيت الملك ، وجميع بيوت العظماء . وبعد ما أحرقوا ودكوا كل معالم المدينة وما فيها من قصور ، هدموا أسوارها جميعها ، فلم يبق من أورشليم المدينة الزاهرة غير كوم من الخرائب (٥٨٦ ق . م)

أما الذين نجوا من السيف فجلاهم نبوكدنصر إلى بابل ، حيث صاروا عبيداً له ولبنيه ، حتى ملكت دولة فارس . لكى يتم ما تكلم به الرب بفم إرميا النبى ، حتى استوفت الأرض سبوتها ، لأنها سبتت كل أيام خرابها ، إلى تمام سبعين سنة .

وأما من بقى من الشعب فى أرض يهوذا ، فقد ولى أمرهم يهودى اسمه « جدليا » . فلما مات هذا ، بمؤامرة من اليهود أنفسهم ، قاموا جميعاً من الصغير إلى الكبير ، وأتوا مصر ، لأنهم خافوا انتقام الكلدانيين . وفى مصر أسسوا جالية كبرى زاهرة .

(٤ مل ٢٤ : ١٧ .. و ٢٥ ... و ٢ أى ٣٦ : ١٠ ..)

الفصل العاشر

فى الأنبيـــاء

فى رسالة الأنبياء :

الأنبياء هم أولئك الرجال العظام ، الذين كانوا يتكلمون باسم الله ، كتراجم له تعالى . ولقد كان ظهورهم فى كل جيل ، ولا سيما فى الأجيال ، من القرن الحادى عشر إلى الخامس قبل المسيح .

وتتلخص رسالة كل من الأنبياء ١ — فى دعوة الملك والشعب إلى حفظ وصايا الله ، والسلوك فى طرقه تعالى . وكان يصحب هذه الدعوة عادة الإنذار بالعقوبة أو

العقوبات ، التي كانت تتحقق دوماً ، عند ما كان يصر الملك والشعب على البقاء في خطاياهم .

٢ — في حفظ ذكر الوعد بالمسيح حياً في الشعب ؛ والإنباء ، ولو ببعض صفاته ؛ وإعداد القلوب لقبوله .

إن عدد الأنبياء ، الذين يذكرهم الكتاب كثير جداً . وقد تكلمنا عن بعضهم بإسهاب ، مثل إيليا واليشاع الخ . . . إلا أننا هنا لا نذكر سوى الذين تركوا لنا شيئاً من نبواتهم مكتوباً .

يقسم الأنبياء عادةً إلى أنبياء كبار وأنبياء صغار . وذلك كما لا يخفى ، بالنسبة فقط إلى ما تركوه من مؤلفات كبيرة أو صغيرة .

إن الأنبياء الكبار أربعة ، وهم : أشعيا ، وإرميا ، وحزقيال ، ودانيال . ويجب أن يضاف إلى اسم إرميا باروك ، الذي كانت تؤلف كتاباته ملفاً واحداً مع معلمه .

أما الأنبياء الصغار فعددهم اثنا عشر ، وهم : هوشع ، ويوئيل ، وعاموس ، وعوبديا ، ويونان ، وميخا ، وبحوم ، وحبقوق ، وصفنيا ، وحجاي ، وزكريا ، وملاخي .

أشعيا النبي :

هو ، دون جدال ، أعظم هؤلاء الأنبياء جميعاً . ولد بأورشليم ، من أصل ملكي . وبدأ رسالته كنبي في أواخر عهد عزيا ، وأتبعها تحت يوتام ، وآحاز ، وحزقيا ، ومنسى الملك الكافر ، الذي أمر بنشره حياً ، فمات شهيداً في سنة ٦٩٦ قبل المسيح .

ويعدّ أشعيا ، كأديب مثقف ثقافة عالية ، من أعظم كتبة العهد القديم ، « إذ قرن بين علو الطبقة والبداهة الطبيعيـة . وجمع إلى سهولة الأسلوب فخامة التعبير . وكلامه حيّ ، كثير الرونق ، شعري المذهب » .

وقال القديس يرونيموس عن سفر أشعيا ، ما معناه : إنه عند تلاوته له ، يتمثل بشيراً يصف حياة الرب يسوع ، فضلاً عن نبيّ يتكلم بالمغيبات ... وإن ما دونه هذا النبي شامل لجميع أسرار الرب له المجد . فهو لا يقتصر على التبشير بعمانوئيل المولود من عذراء ، بل يشرح جميع ما هناك من الوقائع المهمة . . ويصف المخلص ميتاً ومدفوناً ، ثم مبعوثاً من بين الأموات لخلاص الشعوب أجمعين .

إرميا النبي :

إن إرميا هو النبي ، الذى كشف لنا عن حياته ، والعهد الذى عاش فيه ، أكثر من أى نبي آخر . وهو أحد الأنبياء ، الذين نالوا التبرير من الخطيئة الأصلية ، قبل أن يشاهدوا النور .

لقد تنبأ فى العهد الأخير من ملوك يهوذا ، وكان نصيبه فى أغلب الأحيان العنت والاضطهاد . إن صدقيا الملك ، الذى لم يكن يكره النبي ، لم ير حرجاً فى إلقائه فى بئر مهجورة ، لأجل غير مسمى . وكان إرميا من جملة من أبقاهم نبوكدنصر فى أرض يهوذا ، فقد أطلق له أن يقيم حيثما شاء ، فاختار الإقامة فى وطنه الخرب .

وجلس إرميا وسط ذلك الخراب ، يبكى ويرثى شعبه ، بتلك المراثى ، التى طبقت شهرتها الخافقين . ومن رثائه لأورشليم قوله : كيف جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب !.. صارت كأرملة ، العظيمة فى الأمم . السيدة فى البلدان صارت تحت الجزية . كل شعبها متنهدون ، ملتمسون طعاماً . بسطت صهيون يديها ، ولا معزى لها . ألم يبلغكم ياجميع عابرى الطريق ؟ تأملوا وأنظروا ، هل من وجع كوجعى .. بماذا أعظك ، وماذا أشبه بك ، يا بنت أورشليم ؟ إن حطمك عظيم كالبحر ، فمن ذا يشفيك .

وكان لما هرب اليهود ، الذين بقوا فى يهوذا ، إلى مصر ، أنهم اضطروا إرميا النبي إلى الذهاب معهم . وهناك بعد مدة رجموه ، لكى يتخلصوا من توبيخه لهم على سوء سلوكهم ، فمات شهيداً .

ومن أشهر نبواته : نبوته عن السبعين سنة ، التى دامها الأسر البابلى . وعن عودة مملكتهم إلى الظهور من جديد ، بعد تلك المدة . ولا سيما نبوته عن مجىء وانتشار ملكوت السيد الرب ، أى الكنيسة .

حزقيال النبي :

كان حزقيال النبي ، وهو من أصل كهنوتى ، فى جملة من جلاهم نبوكدنصر مع يكنيا [1] الملك إلى بابل . بدأ رسالته كنبي ببابل ، فى السنة الخامسة من الجلاء ،

---

(١) هو يوياكين نفسه الذى نفاه نبوكدنصر فى سنة ٥٩٧ إلى بابل .

والثلاثين من عمره .

أما غاية رسالته فكانت العمل على حفظ وديعة الإيمان ، وعبادة الله الحقيقية ، بين مواطنيه الذين فى السبى . ودعوتهم إلى التوبة ، ورجاء مراحمه تعالى ، ومواعيده الصالحة .

ومن أقواله لهم فى هذا الصدد قوله : حىّ أنا يقول السيد الرب : ليست مرضاتى بموت المنافق ، لكن بتوبته عن طريقه ، فيحيا . فتوبوا عن طرقكم الشريرة . فلم تموتون يا آل إسرائيل ؟ إنى سآخذكم من بين الأمم ، وأجمعكم من جميع الأراضى ، وآتى بكم إلى أرضكم . وتسكنون فى الأرض ، التى أعطيتها لآبائكم ، وتكونون لى شعباً ، وأكون لكم إلهاً .

وقد تنبأ حزقيال فى بابل اثنين وعشرين سنة . ونبوآته مليئة بالرموز والرؤى ، مما يجعل فهمها وتفسيرها فى غاية الصعوبة . ومن أشهر نبواته : وصف الإنجيليين الأربعة ، والدينونة العامة ، وقيامة الموتى فى اليوم الأخير .

دانيال النبي :

هو أيضاً من جملة اليهود ، الذين أخذوا فى السبى مع يكنيا إلى بابل . وسنقكلم بإسهاب عن دانيال فى الفصل التالى . ولن نذكر هنا ، إلا أهم نبواته ، وهى :

الأولى : تفسير حلم نبوكد نصر ، ألا وهو حلم التمثال ، الذى كان يمثل الأربع ممالك ، التى كان ينبغى أن تعد الطريق لمملكة المسيح المخلص أى الكنيسة .

الثانية : نبوة السبعين أسبوعاً ، وهى أسابيع من السنين ، التى بها يعلن بوضوح ميعاد مجىء المسيح ، المخلص الموعود .

* * *

وبما أننا بصدد الأنبياء ، جدير بنا أن نقرر هنا ، هذه الحقيقة الثابتة ، وهى : أن حياة سيدنا يسوع المسيح بكل تفاصيلها ، توجد موضحة فى كتب هؤلاء الأنبياء .

فقد وصفوا لنا بدقة متناهية : وطنه ، وظروف ميلاده ، واسمه ، ثم سجود المجوس ، ومجزرة أطفال بيت لحم ، والهرب إلى مصر ، وإقامته بالناصرة ، وبدء كرازته ، وعجائبه الكثيرة المتنوعة .

كما تكلموا عن رتبه : فهو الملك والكاهن ، ومعلم البشرية الأكبر ، ومصلحها العظيم . الإله القيوم ، والديان العادل .

وأفاضوا على الخصوص فى وصف آلامه وموته الفدائى ، وقيامته من بين الأموات وصعوده إلى السماوات ، وامتداد كنيسته فى كل المسكونة .

لا جرم ، أنه كان فى طاقة اليهود أن يعرفوا بتأكيد أن يسوع الناصرى ، وهو الذى تحققت فيه كل تلك النبوات ، هو هو المسيح المخلص الموعود وليس سواه . ولكن اليهود حرفوا المعنى الحقيقى لتلك النبوات ، وفهموها حسبما شاءت لهم أهواؤهم .

الحقبة السادسة

من سبي بابل حتى مجيء المسيح

تحوى الحقبة السادسة من التاريخ المقدس ٥٨٢ سنة . وتمتد من سنة ٥٨٦ إلى السنة الرابعة [1] قبل الميلاد .

الفصل الأول

فى جلاء بابل ودانيال النبي

اليهود فى الجلاء :

لم يفقد شعب اليهود ، حتى وهو تحت نير الكلدانيين الثقيل ، شيئاً من تقاليده الخاصة ، وحكم الشريعة ، التى كانت تجعل منه شعب الله الخاص . بل وفى السبى أيضاً طوال السبعين سنة ، التى دامها جلاء بابل ، يمكن تمييز هذا الشعب عن سائر شعوب الأرض بأنبيائه وقديسيه ، وشرائعه ، ونظام حياته الخاص .

(١) إنه لأمر مشهور بأن تاريخنا الميلادى الحالى فيه تأخير ، لا يقل عن الاربع سنوات ، لبدئه من سنة ٧٥٤ لتأسيس روما . فى حين أن المسيح له المجد ، ولد قبل ذلك التاريخ بأربع سنوات على الأقل أى فى سنة ٧٥٠ لروما .

كما لم يفقد اليهود فى الأسر شيئاً من حبهم لأرض آبائهم ، وأورشليم المدينة المقدسة بل وإن هذا الحب ، والاشتياق ، والحنين الجارف إلى الوطن العزيز كان يزداد من يوم إلى يوم ، بمر السنين واقترابها من النهاية ، التي حددها لها الأنبياء ، ولاسيما إرميا النبى .

ولا أدل على ذلك من تلك الأنات والدموع ، التى يذكرها المزمور ١٣٦ ، معبراً عن شعور هؤلاء المنفيين . فقد جاء فيه : « على أنهار بابل هناك جلسنا ، فبكينا عندما تذكرنا صهيون . على الصفصاف فى وسطها علقنا كناراتنا . هناك سألنا الذين سبونا نشيداً ، أن رنموا لنا من ترانيم صهيون . كيف نرنم ترانيم الرب فى أرض غربة . إن نسيتك يا أورشليم ، فلتنسنى يمينى . ليلتصق لسانى بحنكى إن لم أذكرك » .

على أن ذلك النير الثقيل ، الذى فرضه الكلدانيون على المغلوبين ، لم يلبث أن خُفف ، ولا سيما بعد موت نبوكدنصر . حتى أن هؤلاء اليهود المسبيين أخذوا ، فى فترة وجيزة من الزمن ، يتمتعون لا بكافة الحريات المدنية فحسب ، بل وكان لهم حكامهم وقضاتهم المختصون بهم ، مما جعل منهم شبه أمة مستقلة فى أرض الجلاء ذاتها .

وإذن لم تكن حالة اليهود سيئة . . . بل وأضحت مع مر الأيام طيبة هنيئة ، حتى أن كثيراً من اليهود ، حينما صرح لهم بالعودة إلى بلادهم ، فضلوا البقاء فى أرض المنفى ، على العودة إلى وطنهم . ولا سيما أن البعض كان قد أثرى إثراءً فاحشاً ، وارتقى البعض الآخر أرقى مناصب الدولة ، مثل دانيال النبى ، ويكنيا الملك ، الذى ردت له منزلته ومقامه الملكى (٤ مل ٢٥ : ٢٧ و ٢٨)

كما أعطيت لأفراد الجالية اليهودية حريات واسعة ، فيما يتعلق بشؤون دينهم ، فكان لهم الحق فى أن يجتمعوا كيفما شاءوا لقراءة التوراة ، وإقامة الشعائر الدينية . (باروك ١ : ٣)

وعلى الرغم من أن بعض يهود الجلاء قد وقع فى الوثنية ، إلا أن الأغلبية الساحقة حافظت على تراث الإيمان القويم . بل وإن وجود هؤلاء المنفيين بعيداً عن أوطانهم ، وما قاسوه من ذلة فى الغربة ، ولا سيما فى بدء الجلاء ، جعلهم أكثر حكمة وإدراكاً لتأديب الله العادل والرحيم معاً . ولذا فلا عجب ، أن نراهم يعودون إلى الله تائبين من كل قلوبهم .

ويرجع الفضل فى توبة آل إسرائيل ورجوعهم إلى الله ، إلى الأنبياء أيضاً ، الذين أقامهم تعالى لهم فى الجلاء . وعلى رأس هؤلاء الأنبياء ، حزقيال النبى الشعبى ، ودانيال نبى البلاط .

ومن الآثار الحسنة الناتجة عن تبديد إسرائيل ويهوذا فى أشور أولاً ، ثم فى بابل ومصر ، واختلاطهم بتلك الشعوب الوثنية ، بث فكرة التوحيد بين تلك الأمم ، وانتشار كثير من تعاليم الوحى ، و إعداد العالم لقبول المسيح المخلص .

دانيال فى البلاط الملكى :

وكان لما رأى نبوكدنصر ، نشاط الجالية الإسرائيلية ، وأنهم أبلوا بلاءً حسناً ، أنه سمح لهم بأن يحافظوا على كل تقاليدهم وشرائعهم ، مما لا يتنافى وشرائع الدولة ، وأن يختاروا لأنفسهم من بنى جلدتهم من يشاءون من الرؤساء والحكام .

وأمر رئيس خصيانه أن يحضر منهم ، من النسل الملكى ومن الأمراء ، فتياناً لا عيب فيهم ، حسان المنظر ، أذكياء ، ممن يكونون أهلاً للوقوف فى قصر الملك ، ليدربوا فى فن الحكم ، وعلى كتابة الكلدانيين ولسانهم .

وأمر أن يربوا ثلاث سنين ، يأكلون ويشربون من طعام الملك ومن خمر شرابه ، حتى إذا أتموا تدريبهم وتربيتهم الفنية يقفون أمام الملك .

وكان بين أولئك الشبان ، الذين وقع عليهم الاختيار : دانيال ، وحننيا ، وميشائيل ، وعزريا . فعزموا على أن لا يتنجسوا بطعام الملك وشرابه ، لأن بعض ذلك الطعام محرم على الإسرائيليين . وطلبوا من رئيس الخصيان المكلف بخدمتهم ، أن لا يرغمهم على الأكل من طعام الملك . فأجابهم : إنى أخاف من سيدى الملك ، أن يرى وجوهكم أنحل من الفتيان الذين معكم ، فتجعلوا على رأسى جريمة أمام الملك .

فقال له دانيال : جربنا عشرة أيام ، ولنعط قطانيَّ (أى بقولاً) فنأكل ، وماءً فنشرب ، ثم قابلنا بالفتيان ، الذين يأكلون من طعام الملك . وبعد ذلك اصنع بحسب ما تنظر .

فسمع لهم ، وجربهم عشرة أيام . وبعد انقضائها ، بدت مناظرهم أحسن وأسمن

من جميع الفتيان ، الذين يأكلون من طعام الملك . وأعطى الله دانيال وأصحابه معرفة وعقلاً فى كل كتابة وحكمة .

ولما تمت السنين الثلاث ، أحضر الفتيان أمام نبوكدنصر . فتكلم معهم ، فلم يوجد فى جميعهم مثل دانيال وحننيا وميشائيل وعزريا .

وفى كل كلام حكمة وفطنة ، مما سألهم عنه الملك ، وجدهم يفوقون أضعافاً مضاعفة ، لا كل الفتيان أترابهم فقط ، بل وجميع السحرة والمجوس الذين فى مملكته أيضاً . ومنذ ذلك الحين ضموا إلى الحاشية ، فكانوا يقفون أمام الملك (دا ١ : ٣..)

دانيال يخلص سوسنة العفيفة :

كان فى بابل بين الأسرى اليهود ، رجل غنى اسمه يوياقيم ، وله زوجة اسمها سوسنة ، متقية للرب . وكان اليهود يجتمعون إليه ، لأنه كان أوجههم جميعاً . وكان قد أقيم ، فى تلك السنة ، للقضاء شيخان من الشعب ، كانا يترددان إلى دار يوياقيم ، فيأتيهما كل ذى دعوى .

وكانت سوسنة ، متى انصرف الشعب عند الظهر ، تدخل وتتمشى فى حديقة الدار . فكان الشيخان يريانها كل يوم ، فكلفا بحبها ، وأسلما عقولهما إلى الفساد ، ولم ينظرا إلى السماء ، فيذكرا الأحكام العادلة .

ودخلت سوسنة الحديقة فى بعض الأيام ، وكانت وحدها . ولم يكن هناك أحد إلا الشيخان ، وهما مختبئان . فقاما وهجما عليها ، وطلبا منها أن توافقهما على ارتكاب الخطيئة . وتهدداها ، إن لم تسمع لهما ، بأن يشهدا عليها شهادة زور .

فتنهدت سوسنة وقالت : لقد ضاق بى الأمر من كل جهة . فإنى إن فعلت هذا ، فهو موت لى . وإن لم أفعل ، فلا أنجو من أيديكما . ولكن خير لى أن لا أفعل ، ثم أقع فى أيديكما ، من أن أخطىء أمام الرب . وصرخت بصوت عظيم ، فصرخ الشيخان عليها . فلما سمع أهل البيت الصراخ فى الحديقة ، أسرعوا إليها ليروا ما حدث . ولما تكلم الشيخان بكلامهما خجل العبيد جداً ، لأنه لم يُقل قط مثل هذا القول على سوسنة .

وفى الغد ، أتى الشيخان أمام الشعب ، واستدعيا سوسنة . فلما حضرت ، وضعا أيديهما على رأسها ، وشهدا عليها زوراً ، قائلين : إننا كنا نتمشى فى الحديقة وحدنا ،

فإذا بهذه دخلت ومعها جاريتان ، وأغلقت أبواب الحديقة ، ثم صرفت الجاريتين . فأتاها شاب كان مختبئاً ، ورأيناهما متعانقين . أما ذاك فلم نستطع أن نمسكه ، لأنه أقوى منا ، ففتح الأبواب وفرّ . فصدقهما الشعب لأنهما شيخان وقاضيان ، وحكموا على سوسنة بالموت .

فصرخت سوسنة بصوت عظيم ، وقالت : أيها الإله الأزلى البصير بالخفايا ، العالم بكل شيء ، إنك تعلم أنهما إنما شهدا علىّ بالزور ، وها أنا أموت ، ولم أصنع شيئاً مما افترى على هذان . فاستجاب الرب لصوتها . وإذ كانت تساق إلى الموت ، نبه الله روح دانيال ، وكان إذ ذاك شاباً حديث السن . فصرخ بصوت عظيم : أنا برىء من دم هذه . أهكذا أنتم أغبياء يا بنى إسرائيل ، حتى تقضوا بالموت ، بغير أن تفحصوا وتتحققوا الأمر ؟ إرجعوا إلى القضاء ، فإن هذين إنما شهدا عليها بالزور .

فرجع الشعب كله . فقال دانيال : فرقوا الشيخين بعضهما عن بعض . فلما فرقا ، دعا أحدهما وقال له : تحت أية شجرة رأيتهما تخطىء ؟ فقال : تحت الضروة . فقال دانيال : لقد صوبت كذبك على رأسك . ثم أبعده وأحضر الآخر ، وقال له : وأنت تحت أية شجرة صادفتها تخطىء ؟ فقال : تحت السنديانة . فقال له دانيال : وأنت أيضاً قد صوبت كذبك على رأسك .

وبذا ظهر أمام الجميع بطلان تلك الدعوى الكاذبة ، التى أقامها ذلكما الشيخان الفاجران ، ضد سوسنة المرأة العفيفة الفاضلة ، التى فضلت الموت على خيانة زوجها .

وبارك الشعب الله مخلص الذين يرجونه ، وقاموا على الشيخين فقتلوهما . وخُلص الدم الزكى فى ذلك اليوم (دا ١٣ ..)

فى حلم نبوكدنصر :

حلم نبوكدنصر أحلاماً ، فانزعجت نفسه ، وذهب عنه منامه . فأمر أن يدعى السحرة والمجوس والعرافون ، ليبينوا له أحلامه . فأتوا ووقفوا أمام الملك . فقال لهم : إنى حلمت حلماً فانزعجت نفسى ، حتى أنى لم أعد أعرف الحلم . فأجابوه : إن أنت أخبرت عبيدك بالحلم ، بينا لك تعبيره . وإلا فإنك تطالب عبيدك بالمحال . إذ ليس على الأرض إنسان يستطيع أن يعرف ما دار بخلد الملك .

فغضب نبوكدنصر جداً ، وأمر بإهلاك جميع حكماء بابل مع السحرة والمجوس . فأخذوا فى تنفيذ أمر الملك . وطُلب دانيال وأصحابه الثلاثة أيضاً ليقتلوا ، باعتبارهم من حكماء الدولة .

فدخل دانيال على الملك ، وسأله أن يهبه زماناً ليبين الحلم والتعبير للملك ، فأمهله الملك . ثم ذهب دانيال إلى بيته ، وصلى إلى الله طالباً منه المعونة . فكشف الله السر لدانيال ، فى رؤيا الليل . فدخل دانيال ثانية على الملك ، وقال له : إن السر الذى يسأل عنه الملك ، لا يستطيع الحكماء ، ولا المجوس ، ولا السحرة ، أن يبينوه للملك ، لكن فى السماء إلهاً يكشف الأسرار . إن حلمك هو هذا :

« إنك أيها الملك قد رأيت ، فإذا بتمثال عظيم ، كثير البهاء ، واقف أمامك . وكان منظره هائلاً . وكان رأسه من ذهب خالص ، وصدره وذراعاه من فضة ، و بطنه وفخذاه من نحاس ، وساقاه من حديد ، وقدماه مزيجاً من حديد وخزف . وفيما أنت راءٍ ، إذ انقطع حجر ، لا باليدين ، فضرب التمثال على قدميه وسحقهما . فانسحق الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معاً ، وصارت كالتبن ، فذهب بها الريح ، ولم يوجد لها أثر من بعد . أما الحجر الذى ضرب التمثال ، فصار جبلا كبيراً وملأ الأرض كلها » .

أما تعبير الحلم فهو هذا : « أنت أيها الملك ، ملك الملوك ، لأن إله السماء آتاك الملك والقدرة والسلطان ، فأنت الرأس الذى من ذهب . و بعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك . ثم مملكة ثالثة أخرى من نحاس ، فتتسلط على كل الأرض . ثم مملكة رابعة صلبة كالحديد ، فتسحق وتحطم جميع تلك الممالك . وفى أيام هؤلاء الملوك ، يقيم إله السماء مملكة لا تنقض إلى الأبد ؛ فتسحق وتفنى جميع تلك الممالك ، وهى تثبت إلى الأبد . هذا هو الحجر الذى انقطع من الجبل لا باليدين ، فسحق التمثال كله » .

حينئذ خرّ الملك نبوكدنصر على وجهه . وسجد قائلاً لدانيال : حقاً إن إلهكم هو إله الآلهة ، ورب الملوك ، كاشف الأسرار العظيم . وأعطى نبوكد نصر لدانيال هدايا عظيمة كثيرة ، وسلطه على كل إقليم بابل ، ورفعه إلى مرتبة رئيس الولاة (دا ٢ ..)

* ولا شك أن حلم نبوكدنصر المذكور هو نبوة عن الممالك الأربع التى ستتولى على التتابع قيادة الشعوب على الأرض ، حتى مجىء المسيح المخلص ، وتأسيس ملكوته .

أما الممالك الأربع فهى . الأولى : دولة بابل ، الثانية : دولة ماداى وفارس . الثالثة : دولة اليونان . الإسكندر الأكبر وخلفاؤه . الرابعة : الامبراطورية الرومانية التى فى عهدها ، وعلى أنقاض تلك الأمم الوثنية ، أسس المسيح مملكته ، أى الكنيسة التى سوف تدوم إلى الأبد ، لخلاص كل البشر .

الفتية الثلاثة فى أتون النار :

وصنع نبوكدنصر الملك تمثالا عظيماً من ذهب ، يبلغ ارتفاعه أكثر من ثلاثين متراً ، وأقامه فى بقعة دورا بإقليم بابل . وأرسل يجمع الحكام وكل عظماء الدولة ، حتى يأتوا لتدشين التمثال الذى نصبه .

وما أن تجمعت جموع الشعب والعظماء حول التمثال ، حتى هتف مناد بصوت عظيم ، قائلاً : قد أمرتم أيها الشعوب والأمم والألسنة ، بأنكم حينما تسمعون صوت القرن والأنبوب والقيثار والمزمار ، وسائر أنواع المعازف ، تخرون وتسجدون لتمثال الملك . ومن لا يخر ويسجد ، فمن ساعته يلقى فى وسط أتون نار متقدة .

ففعل الجميع بحسب أمر الملك ، إلا حننيا وميشائيل وعزريا ، اليهود الثلاثة ، أصحاب دانيال ، المعروفين بشدرك ، وميشك ، وعبدنجو . حينئذ تقدم رجال كلدانيون ووشوا بهم . فغضب نبوكدنصر ، وأمر بأن يؤتى بهم فى الحال . واستجوبهم قائلاً لهم : أيقيناً ياشدرك وميشك وعبدنجو ، أنتم لا تعبدون آلهتى ، ولا تسجدون لتمثال الذهب .

فأجابوه بكل شجاعة : لا ينبغى لنا أن نجيبك على هذا الأمر . وإلهنا الذى نعبده هو قادر على إنقاذنا . فهو ينقذنا من أتون النار المتقدة ، ومن يدك أيها الملك . وهبه لا ينقذنا ، فليكن معلوماً لك ، أيها الملك ، أننا لن نعبد آلهتك ، ولا نسجدك لتمثال الذهب الذى نصبته .

حينئذ امتلأ نبوكدنصر حنقاً ، وتغير منظر وجهه ، على الشبان الثلاثة ، وأمر أن يحمى الأتون سبعة أضعاف ، وأن يلقوهم بألبستهم ، وهم موثقون . فنفذ أمر الملك فى الحال . ولم يزل خدام الملك يوقدون الأتون بالنفط والزفت ، حتى ارتفع اللهيب جداً ، وانتشر وأحرق الذين صادفهم حول الأتون من الكلدانيين (دا ٣ : ١ — ٢٤)

أما الفتية الثلاثة ، فنزل ملاك الرب داخل الأتون ، وطرد لهيب النار عنهم ، فكانوا يتمشون فى وسط اللهيب ، مسبحين الله وقائلين : مبارك أنت أيها الرب إله آبائنا ، وحميد ورفيع إلى الدهور . ومبارك اسم مجدك القدوس ورفيع إلى الدهور . . . (دا ٣ : ٤٩ — ٩٠) .

ولما أتى نبوكدنصر لينظر الأتون ، اندهش وقال لعظمائه : ألم نكن ألقينا ثلاثة رجال فى وسط الأتون وهم موثقون ؟ وها إنى أرى أربعة رجال مطلقين ، يتمشون فى وسط النار ، وليس بهم ضرر ، ومنظر الرابع يشبه ابن إله .

حينئذ اقترب نبوكدنصر إلى باب الأتون ، ونادى : يا عبيد الله العلى ، أخرجوا وهلموا . فخرجوا من وسط النار . فاجتمع الناس ، فرأوا أن هؤلاء الفتية ، لم تكن للنار قوة على أجسامهم ، ولم تحترق شعرة من رؤوسهم . فأجاب نبوكدنصر وقال : تبارك إله شدرك وميشك وعبدنجو ، الذى أرسل ملاكه ، وأنقذ عبيده الذين توكلوا عليه .

ثم أصدر أمره لكل الشعوب والأمم الخاضعة لسلطانه : بأن كل من يتفوه بالتجديف على إله إسرائيل يعاقب بالموت ، و بمصادرة كل أمواله (دا ٣ : ٩١ . .)

فى الحلم الثانى لنبوكدنصر :

ولم يلبث نبوكدنصر أن نسى أن فوق سلطانه سلطاناً أعلى ، هو سلطان الله الحى إلى الأبد ، الذى يذل من يشاء ، ويرفع من يشاء . فأرسل له الله حلماً مفزعاً ، أقض عليه مضجعه ، كان نذير الشرور والعقاب ، الذى أعده له تعالى ، فى هذه الدنيا ، لتأديبه .

وإليك الحلم ، كما قصه نبوكدنصر نفسه على بلشصر (دانيال النبى) عميد حكماء بابل ، لكى يفسره له . قال : « رأيت فإذا بشجرة فى وسط الأرض مرتفعة جداً . وقد نمت الشجرة وقويت و بلغ إرتفاعها إلى السماء . . . أوراقها بهية ، وثمرها كثير ، وفيها غذاء للجميع . . . و بينما كنت أتأملها ، إذا بصوت من السماء هتف بشدة ، وقال : اقطعوا الشجرة ، واقضبوا أغصانها . انفضوا أوراقها ، وانثروا ثمارها . لتشرد الوحوش من تحتها ، والطيور من فوق أغصانها ، ولكن اتركوا أصول عروقها

فى الأرض . وليوثق بالحديد والنحاس فى الصحراء ، ويبتل بندى السماء ، وليكن نصيبه مع الوحوش . وليتحول قلبه ، ويعط قلب وحش ، ولتمر عليه سبعة أزمنة » . (دا ٤ : ٧ — ١٣)

فأجاب بلشصر ، وقال : إن الشجرة التى رأيتها ، التى نمت وقويت ، وبلغ ارتفاعها إلى السماء ، هى أنت ، أيها الملك ، إذ قد نميت وقويت ، وبلغت عظمتك إلى السماء ، وسلطانك إلى أقصى الأرض . أما الصوت ، الذى سمعته ، فهو القضاء العلوى الذى وقع على سيدى الملك . إنك تطرد من بين الناس ، وتكون سكناك مع وحوش الصحراء ، وتعلف العشب كالثيران . . سبعة سنين ، إلى أن تعلم أن العلى يتسلط على ملك البشر ، ويجعل له من يشاء . وإذ ذاك يعاد لك ملكك ، بعد أن تعلم أن السلطان للسماوات .

وكان بعد إثنى عشر شهراً من هذا الحلم ، أن كان نبوكدنصر يتمشى على سطح قصره ببابل ، فأخذ يقول بصلف وكبرياء : أليست هذه بابل العظمى التى بنيتها أنا للملك بقوة عزتى وبهاء مجدى .

وفيما كانت الكلمة فى فم الملك ، إذا بصوت من السماء يقول له : إن الملك قد زال عنك . وفى تلك الساعة تمت الكلمة على الملك ، فطرد من بين الناس ، وأكل العشب ... وكان بعد انقضاء سبع سنين ، أن رفع نبوكدنصر عينيه إلى السماء ، فثاب إليه عقله ، وبارك العلى ، الذى سلطانه سلطان أبدى ، وملكه إلى جيل فجيل (دا ٤ ...)

ورد الله إلى نبوكدنصر مجد الملك ، وعز السلطان من جديد ، فملك إلى يوم وفاته . وكان ذلك فى سنة ٥٦٢ قبل الميلاد . وبذا يكون قد ملك ثلاث وأربعين سنة .

فى المأدبة الثقافية التى أقامها بلشصر الملك[١] :

وصنع بلشصر ، الذى أشركه أبوه نابونيد فى الملك على عرش بابل ، صنع وليمة

(١) إن بلشصر هذا ، هو ابن نابونيد ، آخر ملوك الكلدانيين ، الذى ملك من سنة ٥٥٥ إلى سنة ٥٣٨ ، أى إلى سقوط المملكة فى أيدى كورش . وقد أشرك نابونيد فى الملك معه بلشصر ابنه المذكور .

وكان لما بدأت مناوشات فارس ، أن نابونيد ترك بلشصر ابنه فى بابل ، ليرعى شؤون الدولة ، وذهب هو بنفسه لمحاربة كورش فى سفروائيم ، حيث أخذه كورش أسيراً . =

عظيمة لألف مدعو من عظماء المملكة . وبينما كان على المائدة ، وقد امتلأ خمراً ، أمر أن يؤتى بآنية الذهب والفضة ، التي كان نبوكدنصر قد أخرجها من الهيكل بأورشليم . فأتى بتلك الآنية ، وشرب بها الملك وعظماؤه ونساؤه خمراً ، على نخب آلهتهم الكاذبة .

وفجأة ، ظهرت أصابع يد إنسان ، وكتبت على كلس حائط قصر الملك ، كلمات غير مفهومة . وكان الملك ينظر طرف اليد التي تكتب . حينئذ تغيرت سحنته ، وأقلقته أفكاره ، واصطكت ركبتاه ، وصرخ بصوت شديد آمراً بأن يدخلوا المجوس والمنجمين .

فلما أدخلوا قال لهم : كل من يقرأ هذه الكتابة ، ويبين تعبيرها ، يلبس الأرجوان ، ويتقلد طوق ذهب في عنقه ، ويكون الثالث[1] في سلطان المملكة . فلم يستطع أحد منهم أن يقرأ الكتابة ، ولا أن يعلم الملك بتعبيرها . حينئذ أتوا بدانيال إلى الملك . فقال له بلشصر : قد سمعت عنك أنك قادر على تبيين المشكلات وحل العقد ، فالآن إن قدرت أن تقرأ الكتابة ، وتعلمني بتعبيرها تلبس الأرجوان .. وتكون الثالث في سلطان المملكة .

فأجاب دانيال الملك ، وقال له : لتكن عطاياك لك ، وجُد بجوائزك على غيري . أما الكتابة فأقرأها للملك وأعلمه بتعبيرها . أيها الملك ، إن الله العلي آتى نبوكدنصر الملك والعظمة .. فلما ترفع قلبه وقسا روحه بالتجبر ، أنزل عن عرشه وأزيل عنه مجده ، وطرد من بين الناس ، وعلف العشب كالثيران .. وأنت يا بلشصر ابنه[2] ، فإنك مع علمك بكل ذلك ، لم تضع قلبك ، بل ترفعت على رب السماء ، وأتى أمامك بآنية بيته ، وشربت بها خمراً ، أنت وعظماؤك ونساؤك . فلذلك أرسلت من لدنه كف تلك اليد ، ورُسمت هذه الكتابة ، وهي : « منا منا تقيل وفرسين . وهذا تعبير الكلام :

= أما الملوك الآخرون ، الذين ملكوا بعد نبوكدنصر ، على عرش تلك المملكة فهم : أويل مروداك بن نبوكدنصر ، من سنة ٥٦١ إلى سنة ٥٥٩ ، ثم نارجلسر من سنة ٥٥٩ إلى ٥٥٥ ، ثم لباشي مروداك ، وقد ملك تسعة أشهر فقط . ثم نابونيد المذكور ، وقد أشرك معه في الملك بلشصر ابنه ، كما أسلفنا .

(١) لأن الأول في السلطان نابونيد أبوه ، والثاني بلشصر نفسه .

(٢) ابنه باتساع المعنى فقط ، أي أحد خلفائه ، وربما أحد حفدته من جهة الأم .

« منا » أى أحصى الله ملكك وأنهاه . « تقل » أى وزنت فى الميزان فوجدت ناقصاً . « فرسين » أى قسمت مملكتك ودفعت إلى ماداى وفارس .

حينئذ أمر بلشصر ، فألبس دانيال الأرجوان ، وقلد طوق ذهب فى عنقه ، ونودى له أنه الثالث فى سلطان المملكة . وفى تلك الليلة نفسها ، قتل بلشصر ملك الكلدانيين ، واستولى داريوس المادِىّ على مملكته (دا ٥ ..)



دانيال فى جب الأسود :

وقسم الملك الجديد داريوس المادى[1] مملكة بابل إلى مئة وعشرين مقاطعة . وأقام على كل منها والياً يعرف بالقطب . وعلى الأقطاب ، ثلاثة وزراء ، أحدهم دانيال . وكان فى عزم داريوس أن يقيم دانيال على المملكة كلها ، لما اختبره فيه من حكمة وذكاء ، الأمر الذى أثار غيرة وحسد الأقطاب والوزراء . ولذا كانوا يلتمسون علةً عليه ليهلكوه ، ولكن دون جدوى .

---

(١) إن داريوس المادى هذا ، هو غوبار أو غبرياس ، أشهر قواد كورش . كان له الشرف فى افتتاح بابل . ولذا فلا عجب ، أن يسلمه كورش حكم تلك المدينة ، ومقاطعاتها المئة والعشرين ، مع شرف الملوكية ، ولا سيما أن داريوس كان قد بلغ الثانية والستين من عمره .

أخيراً هداهم دهاؤهم إلى استصدار قانون بمرسوم ملكى : بأن كل من يسأل سؤالاً من إله أو إنسان إلى ثلاثين يوماً ، إلا من الملك ، يلقى فى جب الأسود . وكان ذلك لعلمهم بأن دانيال الذى كان يتقى الله ، لن يرضخ على أى حال لهذا القانون النفاق الجائر .

وكان بعد استصدار القانون وتوقيع الملك ، أن جاء هؤلاء الحاسدون ووشوا بدانيال أنه لايعبأ بالأوامر الملكية ، وأنه لا يزال يجثو على ركبتيه ثلاث مرات فى اليوم ويصلى ويعترف لله . فلما سمع الملك ذلك اغتم جداً ، وجعل اهتمامه أن ينقذ دانيال . لكن أولئك الرجال المنافقين قالوا للملك : اعلم أيها الملك ، أن شريعة ماداى وفارس ، هى : أن كل قانون وحكم يصدره الملك لا يغير . حينئذ أمر الملك فأتى بدانيال وألقى فى جب الأسود ، وأتى بحجر فوضع على فم الجب وختمه الملك بخاتمه .

وفى الغد قام الملك عند الفجر ، فجاء إلى جب الأسود ، واقترب من الجب ونادى دانيال قائلاً : يادانيال ، عبد الله الحى ، لعل إلهك الذى أنت مواظب على عبادته استطاع أن ينقذك من الأسود . فأجاب دانيال : أيها الملك ، حييت إلى الأبد ، إن إلهى أرسل ملاكه فسد أفواه الأسود ، فلم تؤذنى . ففرح الملك به فرحاً عظيماً ، وأمر فأخرج دانيال من الجب ، ولم يوجد فيه أذى . ثم أمر الملك ، فأتى بأولئك الرجال ، الذين وشوا بدانيال ، وألقوا فى الجب ، هم وبنوهم ونساؤهم ، فلم يبلغوا إلى أرض الجب حتى بطشت بهم الأسود ، وسحقت عظامهم .

ثم كتب داريوس الملك إلى جميع الشعوب الخاضعة له ، أن يهابوا ويرهبوا وجه إله دانيال ، لأنه هو الإله الحى ، القيوم إلى الأبد ، صانع الآيات والعجائب فى السماوات والأرض (دا ٦ . . .)

فى تحطيم دانيال صنم بال ، وقتله التنين :

وكان أهل بابل يعبدون صنماً اسمه « بال » ، وهو أشهر أصنامهم . وكانوا يقدمون له يومياً شيئاً كثيراً من الخمر والدقيق ، ويذبحون له أربعين شاة ، ويظنون أنه يأكل كل ذلك .

وكان الملك كورش يعبد هذا الصنم ، وينطلق كل يوم فيسجد له . فقال كورش

لدانيال يوماً : لماذا لا تسجد لبال ؟ فقال : لأنى لا أعبد أصناماً صنعة الأيدى ، بل الإله الحى خالق السماوات والأرض . فقال له الملك : أتحسب أن بالا ليس بإله حى ، أو لاترى كم يأكل ويشرب كل يوم . فضحك دانيال ، وقال : لا تضل أيها الملك ، فإن هذا باطنه طين وظاهره نحاس ، فلم يأكل قط .

فدعا كورش على الفور كهنة بال ، وقال لهم : إن لم تقولوا لى من الذى يأكل هذه النفقة ، تموتون . وإن بينتم أن بالاً يأكل ، يموت دانيال ، لأنه جدَّف على بال . فأجابوه : ضع الأطعمة والخمر فى هيكل بال ، وأغلق الباب ، واختم عليه بخاتمك . وفى الغد ارجع ، فإن لم تجد بالا قد أكل الجميع ، فإنا نموت ، وإلا فيموت دانيال .

فخرج الكهنة من الهيكل ، ووضع الملك الأطعمة لبال ، وأمر دانيال غلمانه بحضرة الملك وحده ، أن يرشوا رماداً فى الهيكل كله . ثم ختموا الباب وانصرفوا . فلما كان الليل ، دخل الكهنة ونساؤهم وأولادهم كعادتهم ، من مدخل خفى تحت المائدة ، وأكلوا الجميع وشربوا .

وبكر الملك فى الغد ، ودانيال معه ، فوجدوا الأختام سالمة . ولما فتحت الأبواب ورأى الملك الطعام قد أكل ، هتف بصوت عال : عظيم أنت يابال ، ولا مكر عندك . فضحك دانيال ، وأرى الملك آثار الأرجل على الرماد . فغضب الملك وقتل الكهنة ، وسلم بالاً إلى دانيال ، فحطمه هو وهيكله (دا ١٤ : ١ — ٢١)

فى قتل دانيال التنين :

وكان فى بابل تنين عظيم ، وكان أهلها يعبدونه . فقال الملك لدانيال : أتقول عن هذا أيضاً إنه نحاس . ها إنه حى يأكل ويشرب ، ولا تستطيع أن تقول إنه ليس إلهاً حياً ، فاسجد له . فقال دانيال : إنى إنما أسجد للرب إلهى ، وأنت أيها الملك ، اجعل لى سلطاناً ، فأقتل التنين بلا سيف ولا عصا . فقال الملك : قد جعلت لك .

فأخذ دانيال زفتاً وشحماً وشعراً ، وصنع منها أقراصاً ، وجعلها فى فم التنين ، فانشق ومات . فلما سمع بذلك أهل بابل غضبوا جداً وقالوا إن الملك قد صار يهودياً فحطم بالا وقتل التنين وذبح الكهنة . وأتوا إلى الملك فى مظاهرة صاخبة ، وقالوا له : أسلم إلينا دانيال ، وإلا قتلناك أنت وآلك . فلما رآهم ثائرين اضطر فأسلم دانيال إليهم ،

فألقوه فى جب الأسود . فكان هناك ستة أيام ، ولم تفترسه الأسود .

ولم يهمل الله عبده دانيال ، وهو فى الجب ، بل أرسل له الطعام ، الذى كان حبقوق النبى فى فلسطين ، قد أعده للحصادين . فإن ملاك الرب قال لحبقوق : إحمل الغداء الذى معك إلى بابل ، إلى دانيال فى الجب . فأجاب حبقوق : إنى لم أر بابل قط ، ولا أعرف الجب . فحمله الملاك بشعر رأسه ، ووضعه فى بابل عند الجب . فنادى حبقوق دانيال قائلاً : يا دانيال ، يا دانيال خذ الغداء الذى أرسله لك الله . فقال دانيال : اللهم ، لقد ذكرتنى ، ولم تخذل الذين يحبونك . وبعد ما أكل دانيال ، رد الملاك حبقوق إلى موضعه .

وفى اليوم السابع ، أتى الملك ليبكى على دانيال ، فدنا من الجب ونظر ، فإذا بدانيال جالس . فهتف بصوت عال ، وقال : عظيم أنت أيها الرب إله دانيال ؟ ولا إله غيرك . ثم أخرجه من الجب . أما الذين سعوا به للهلاك ، فألقاهم فى الجب ، فافترسوا من ساعتهم أمامه .

وأمر الملك : أن يتقى الجميع إله دانيال ، فإنه المخلص والصانع الآيات والعجائب وحده (دا ١٤ : ٢٢ . .)

فى نبوات دانيال النبى :

وإليك الآن أشهر نبوات دانيال النبى ، كما وردت فى سفره ، بنصها الكامل : تنبأ عن « مملكة المسيح » فقال : « بينا كنت أرى ، إذ نصبت عروش ، فجلس القديم الأيام . وكان لباسه أبيض كالثلج ، وشعر رأسه كالصوف النقى ، وعرشه لهيب نار . . . وتخدمه ألوف ألوف ، وتقف بين يديه ربوات ربوات . . . ورأيت ، فإذا بمثل ابن البشر آتياً على سحاب السماء ، فبلغ إلى القديم الأيام . . . وأوتى سلطاناً ومجداً وملكاً . فجميع الشعوب ، والأمم ، والألسنة يعبدونه . وسلطانه سلطان أبدى ، لا يزول . وملكه لا ينقرض » (٧ : ٩ ــ ١٤)

وبينما كان يصلى يوماً ، ظهر له الملاك جبرائيل ، فأخبره عن « زمان مجىء المسيح وموته » . قال له : « يا دانيال ، إنى خرجت الآن لأعلمك فتفهم . . . إن سبعين

أسبوعاً[1] حددت على شعبك ، وعلى مدينة قدسك ، لإفناء المعصية ، وإزالة الخطيئة ، وتكفير الإثم ، والإتيان بالبر الأبدى . . . ومسح قدوس القدوسين . فاعلم وافهم : إنه من صدور الأمر بإعادة بناء أورشليم ، إلى المسيح الرئيس ، سبعة أسابيع واثنان وستون أسبوعاً ، فتعود تبنى السوق والسور . . . وبعد الأسابيع الاثنين والستين يقتل المسيح ، والشعب الذى ينكره لا يكون له ، وشعب رئيس آت يدمر المدينة والقدس »

(٩ : ٢٢ - ٢٦)

وتنبأ عن قيامة الموتى ، التى تسبق الدينونة العامة ، فقال : « وكثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون : بعضهم للحياة الأبدية ، وبعضهم للعار والرذل الأبدى . ويضىء العقلاء كضياء الجلد ، والذين جعلوا كثيرين أبراراً كالكواكب إلى الدهر والأبد » (١٢ : ٢ و ٣)

الفصل الثانى

فى عودة اليهود من سبى بابل

فى نداء كورش ونهاية الجلاء :

فى السنة السبعين لجلاء اليهود إلى بابل ، والأولى من ملك كورش ، مؤسس دولة الفرس ، الموافقة لسنة ٥٣٧ قبل الميلاد ، لكى تتم الكلمة ، التى أنبأ بها إرميا النبى ، حرك الرب قلب كورش ، فأطلق نداءً فى ممالكته كلها ، يعلن فيه نهاية السبى ، ويصرح لليهود بالعودة إلى أرض آبائهم .

وإليك نص ذلك النداء ، قال : « إن الرب إله السماوات ، قد أوصانى بأن أبنى له بيتاً فى أورشليم ، فمن كان منكم من شعبه ، فليصعد إلى أورشليم ، ويبن بيت

---

(١) إن السبعين أسبوعا هذه ، هى أسابيع سنين لا أسابيع أيام . إذن فهى عبارة عن ٤٩٠ سنة ، تبدأ على الأصح من أمر أرتحششتا ، وهو ارتكزرسيس المعروف بالطويل اليد ، فى سنة ٤٤٥ ق . م .

والأمر المذكور هو الذى أصدره ارتحششتا إلى نحميا فى السنة العشرين من ملكه ، ويتعلق ببناء أسوار أورشليم .

الرب » . موصياً الجميع بأن يتضافروا مع اليهود ، فيمدوهم بالمال الضروري لسفرهم ، فضلاً عما يتطوعون به لبناء الهيكل .

وأخرج كورش آنية بيت الرب ، التى كان نبوكدنصر قد أخذها من هيكل أورشليم ، وأعطاها لليهود . ويبلغ عدد تلك الآنية ، وبعضها من الذهب الخالص ، خمسة آلاف وأربع مئة قطعة (عزرا الفصل الأول)

والواقع ، إن رجوع اليهود إلى بلادهم لم يكن عاماً ، لأن كثيراً منهم فضلوا البقاء فى أرض المنفى ، حيث أثروا إثراءً عظيماً ، على العودة إلى وطنهم الأصلى . كما إن ذلك الرجوع لم يكن على دفعة واحدة ، بل على دفعات مختلفة .

فرجع فى الدفعة الأولى اثنان وأربعون ألفاً من اليهود ، ما عدا عبيدهم ، البالغ عددهم سبعة آلاف عبد . وكان هذا الفوج الأول بقيادة زروبابل بن شألتئيل ، وهو من السلالة الملكية ، لأنه حفيد يوياكين الملك . وقد فوض إليه كورش جميع السلطات التى تجعل منه حاكماً شرعياً على اليهود (عز ٢ ..)

وكان الهيكل وأورشليم ، عند عودة اليهود من بابل ، كومة خربة من الأحجار والتراب . ولذا لم يتمكنوا ، فى الستة الشهور الأولى ، من أى عمل جدى ، أكثر من إيجاد المساكن الضرورية لمأواهم : كل فى مدينة آبائه وأرضه .

ولما كان الشهر السابع ، اجتمع كل بنى إسرائيل فى أورشليم ، برئاسة زروبابل ويشوع بن يوصاداق الكاهن ، وأقاموا المذبح فى المكان نفسه ، الذى كان مقاماً عليه من قبل . ثم عيدوا بفرح عيد المظال (عز ٣ ..)

فى تجديد بناء الهيكل :

وفى السنة الثانية ، فى الشهر الثانى ، شرعوا فى بناء الهيكل . إلا أنهم لم يستطيعوا أن يتموه ، لا فى عهد كورش [١] ، ولا فى عهد ابنه كمبيز ، لأن أعداءهم ، وعلى رأسهم السامريين ، الذين رفض اليهود مساهمتهم ، لم يتركوا وسيلة ، إلا استخدموها ، لمنع

---

(١) مات كورش فى سنة ٥٢٩ قبل الميلاد ، أى بعد عشر سنين تقريبا من إفتتاح بابل . وخلفه ابنه كمبيز (٥٢٩ — ٥٢٢ ق . م) . ولما سعى أعداء اليهود بهم إليه ، أنهم قوم عصاة ، ألغى قرار والده ، ولم يصرح لهم ببناء الهيكل . وخلف كمبيز داريوس فى سنة ٥٢٢ ق . م .

هؤلاء اليهود عن إتمام ما شرعوا فيه (عز ٤ ..)

وفى عهد داريوس بن هستاسب (٥٢٢ ـ ٤٨٥ ق . م) ، قام النبيان حجّاى وزكريا يشددان الشعب ، على استئناف العمل ، الذى أهملوه بسبب الصعاب ، التى أقامها فى وجههم أعداؤهم .

وبينما كان العمل قائماً على قدم وساق ، إذا بتتناى الوالى الفارسى ، يفد مع بعض رجاله إلى أورشليم ليوقف ذلك العمل . ولكنه عند ما سمع من اليهود ، أنهم يقومون ببناء هيكلهم بموجب نداء كورش ، الذى أصدره فى السنة الأولى من ملكه ، لم يتعرض لهم . بل كتب إلى داريوس يستطلعه أمر ذلك النداء ، وعن الأوامر الجديدة ، التى بمقتضاها يجب أن يعامل اليهود (عز ٥ ..)

فرد داريوس مؤيداً مشروع بناء الهيكل ، وقد أمر تتناى بأن تكون نفقة بناء بيت الرب من مال الملك ، ومن خراج عبر النهر بالذات ، حيث كان تتناى والياً ، وأن تعطى تلك النفقة لوالى أورشليم وشيوخها معجلةً ، لئلا يتعطل العمل . كما أمره بإعطاء الكهنة كل ما يحتاجون إليه من عجول وكباش لمحرقات إله السماء ، وأن يصلوا لأجل حياة الملك وبنيه .

واستطاع بنو إسرائيل فى بحر أربع سنين فقط ، أن يقوموا بانجاز ذلك المشروع العظيم ، وبناء هيكلهم على أحسن نظام . وكان ذلك بعد اثنتين وعشرين سنة من رجوعهم من الجلاء ، فى السنة السادسة من ملك داريوس ، حيث تم تدشين الهيكل الجديد بفرح عظيم (عز ٦ ..)

وعلى الرغم من أن اليهود لم يدخروا وسعاً ، ليكون هيكلهم آية فى فن العمارة . إلا أن هذا الهيكل لم يضارع فى فخامته هيكل سليمان ، حتى أن الشيوخ ، الذين عاينوا الهيكل القديم ، كانوا ينظرون بازدراء إلى الهيكل الجديد .

حينئذ كلم الرب حجاى النبى ليعلم الشعب بأن الهيكل الجديد ، وإن كان أقل فخامة ، سيكون أعظم مجداً من القديم ، لأن قدمى المسيح المخلص سوف تطأ أرضه . قال لهم : « من الباقى فيكم ، الذى رأى هذا البيت فى مجده الأول ، وكيف ترونه الآن ، أليس هو فى عيونكم كلا شىء . فالآن تشددوا يا جميع شعب الأرض واعملوا .. فإنى

بعد قليل أزلزل السماء والأرض ، وأزلزل جميع الأمم ، ويأتى متمنى جميع الأمم ، فأملأ هذا البيت مجداً .. وسيكون مجد هذا البيت الأخير أعظم من الأول » (حج ٢ : ٤ــ١٠). وبهذا المعنى تنبأ أيضاً زكريا النبى .

فى بناء أسوار أورشليم ، وإصلاح نحميا وعزرا :

وكان بعد إتمام بناء الهيكل ، أن فكر اليهود فى بناء المدينة المقدسة ذاتها ، وترميم أسوارها وحصونها المهدمة ، لحماية أنفسهم من الأعداء .

إلا أنهم فى عهد زركسيس الأول (وهو أحشورش زوج أستير) ، وأرتحشستا الأول وشى بهم أعداؤهم ، أنهم إنما يحصنون أورشليم للتخلص من نير فارس . ويبدو أن هذه الوشايات كان لها أثرها فى إيقاف كل نشاط معمارى — ولا سيما فى عهد أرتحشستا — وتشجيع أعدائهم من السامريين وغيرهم على تخريب ما قاموا به من ترميمات فى أسوار المدينة .

و بلغ نحميا ، ساقى الملك أرتحشستا المذكور ، وهو فى شوشن القصر ببلاد الفرس ، بأن أحوال بنى أمته فى أرض يهوذا تزداد سوءاً من يوم إلى يوم ، وأن أعداءهم يقلقونهم ولا يتركون لهم راحة البتة . فملأت الكآبة نفسه ، ولم يستطع أن يخفى حالته هذه على الملك ، الذى قال له يوماً : ما بال وجهك مكتئباً ، وأنت لست بمريض ، ما هذا إلا كآبة قلب . فأجاب نحميا الملك قائلاً : كيف لا يكون وجهى مكتئباً ، والمدينة موضع مقابر آبائى قد خربت ، وأبوابها قد أحرقت بالنار .

وكان بعد هذا الحديث مع الملك أن أذن له أرتحشستا بالذهاب إلى أورشليم لحاكم عليها ، والتصريح له ببناء أسوارها . وكان ذلك فى السنة العشرين من ملك أرتحشستا ، الموافقة لسنة ٤٤٥ ق . م .

وما أن بلغ نحميا أورشليم حتى جمع الكهنة والأشراف والحكام ، وقال لهم : « إنكم ترون ما نحن فيه من السوء ، كيف خربت أورشليم واحترقت أبوابها بالنار ، فهلموا لنبنى سور أورشليم ، ولا نكون عاراً من بعد » . فقالوا : لننهض ونبن . وشددوا أيديهم للخير . (نحميا الفصل الأول والثانى) .

وهنا انبرى لهم أعداؤهم من الأمم الأجنبية ، ولا سيما السامريون ، وعلى رأسهم ،

سنبلط الحوروني ، وطوبيا العموني ، وجاشم العربي ، لإحباط مساعيهم . فاضطر نحميا أن يقاوم القوة بالقوة ، فأقام الحراس ليلاً ونهاراً ، وقد قسم الشعب إلى قسمين : فكان قسم يعمل في بناء السور ، والقسم الآخر يحمل السلاح استعداداً للقتال (نح ٤ ..)

حينئذ لجأ الأعداء إلى الاحتيال والخديعة لقتل نحميا غيلة ، ولكنهم لم يفلحوا . وعلى الرغم من مناوآتهم الشديدة ، استطاع نحميا أن يتم ترميم السور في اثنين وخمسين يوماً فقط (نح ٦ ..) . وقد اتخذ كل الإجراءات الكفيلة لإسكان أكبر عدد ممكن من اليهود بالمدينة المقدسة . وكان بعد انتهاء العمل جميعه ، أن دشن السور بفرح واحتفال عظيمين .

وشاء نحميا أن يكلل جهوده وتلك النهضة المادية ، بنهضة الأخلاق الروحية ، ولهذه الغاية حارب الربا ، وطالب الشعب بحفظ الشريعة كاملة . وأمر فقرئت على الشعب ، على عدة أيام ، من الكاهن عزرا .

وسمع الشعب بخشوع كل نصوص الشريعة ، التي قرئت عليه مرة أخرى في سبعة أيام ، بمناسبة عيد المظال . وكان الشعب كلهم يبكون عند سماعهم كلام التوراة . وجددوا ، بعد صيام يوم كامل ، العهد مع الله بوثيقة مكتوبة ، تنطوي على عزمهم على حفظ وصايا الله ، أمضاها الرؤساء والكهنة واللاويون والشعب جميعه (نح ٨ و ٩ ..)

***

وكان بعد هذه الأمور أن رجع نحميا إلى بلاد فارس لأداء وظيفته أمام الملك أرتحشستا . وكان ذلك ، بعد تغيبه عن البلاط مدة اثنتي عشرة سنة تقريباً ، في السنة الثانية والثلاثين لأرتحشستا ، الموافقة لسنة ٤٣٣ ق . م . غير أنه لم يلبث أن عاد من جديد إلى أورشليم ، ولا سيما بعد أن بلغه أن الشعب ورؤساءهم قد زاغوا عن الطريق القويم ، الذي كان قد رسمه لهم ، فقد أهملوا حفظ السبت ، وتغاضوا عن أداء العشور ، فضلاً عن اقتران الكثير منهم بنساء أجنبيات .

وما أن وصل نحميا أورشليم ، حتى أخذ يعمل بغيرة ، لا تعرف الكلل ، في استئصال كل تلك البدع ، والأمور المخلة بالدين . وقد حكم بالنفي على كل من أبى أن يطلق زوجته الأجنبية . ومن جملة من طردهم من أورشليم أحد أبناء يوياداع الكاهن

العظيم ، وكان صهراً لسنبلط الحوروني (نح ١٣ : ٦ . .)

***

إن الإصلاح الذي قام به نحميا — الذي ربما مات بأورشليم ، سنين قليلة بعد عودته الثانية — أكمله عزرا الكاهن والأديب المثقف ، الذي بعد أن قرأ الشريعة على الشعب ، على أيام نحميا ، ذهب إلى بابل — لا نعلم تحت أية ظروف طارئة — وقد استطاع بعد موت نحميا ، أن يستصدر من أرتحششتا الثاني مرسوماً ملكياً ، يعطي اليهود شبه استقلال ، ويعينه هو حاكماً على اليهودية .

ولم يرجع عزرا إلى أورشليم وحده ، بل على رأس فوج آخر من يهود الجلاء ، يقدر بـ ١٤٩٦ نفساً . وكان ذلك في السنة السابعة من ملك أرتحششتا المذكور ، الموافقة لسنة ٣٩٨ ق . م .

وأخذ عزرا من جهته يحارب بدعة الزواج من الأجنبيات الوثنيات ، كما حاربها من قبل نحميا ، وقد ألغى تلك البدعة بمرسوم قانون صادق عليه الشيوخ وعظماء الدولة . وأفلح عزرا في استئصال هذه البدعة ، وكللت مساعيه جميعها بالنجاح .

(عز ٧ و ٨ و ٩ و ١٠ . .)

***

وبعد موت عزرا ، الذي لم يخلفه أحد ، عاش اليهود بسلام ، يدبرون شؤونهم بأنفسهم ، تحت إشراف ونفوذ الحكم الفارسي .

ولم يقم اليهود ، بعد عودتهم من الجلاء ، ملوكاً عليهم ، بل كانت السلطات جميعها الدينية والمدنية في يد رئيس الكهنة ، الذي كان يعاونه مجلس أعلى ، يعرف بالسندريون [1] أو المجمع الأكبر .

واستمر الحال على هذا المنوال ، واليهود يدفعون الجزية لدولة الفرس ، حتى سنة ٣٣٢ قبل المسيح . وهي السنة التي استولى فيها الاسكندر الأكبر على مدينة « صور » . ومن ثم على كل المدن الفلسطينية وأورشليم العاصمة .

---

(١) لفظة يونانية الأصل معناها المجلس أو المجمع .

الفصل الثالث

فى قصة الملكة أستير

أستير ومردكاى :

كان فى أيام أحشوروش[١] ، فى السنة الثالثة من ملكه ، بعد حملته الموفقة على مصر ، أنه صنع وليمة لزعماء دولته ، المترامية الأطراف ، التى كانت تمتد من الهند إلى بلاد الحبشة . وليمة عظيمة ، دامت ستة أشهر ، دعى إليها كل عظماء الدولة من المئة والسبعة وعشرين إقليماً ، التى كانت تتألف منها دولة الفرس .

ولما انقضت تلك الأيام ، صنع الملك وليمة ، لجميع شعب شوشن ، مقر كرسى ملكه ، دامت سبعة أيام . وأقامت زوجته الملكة وشتى كذلك مأدبة للنساء . ولما كان اليوم السابع ، وقد طاب قلب الملك بالخمر ، أمر بإحضار الملكة وشتى ، مشتملة بتاج الملك ، ليرى الشعب والعظماء جمالها .

فأبت الملكة أن تحضر وسط تلك الجماعة المخمورة حفظا لكرامتها . إلا أن أحشوروش غضب جداً ، وساءه أن تعصى الملكة علناً رغبة من رغباته . فأمر بخلعها وإعطاء ملكها لغيرها . حينئذ أقام الملك وكلاء فى جميع أنحاء المملكة يبحثون له عن البنات الحسان ليختار منهن من تقوم مقام وشتى .

وكان فى شوشن العاصمة رجل يهودى من أهل الجلاء اسمه مردكاى ، بنيامينى الأصل . له ابنة عمة يتيمة اسمها أستير ، رباها فأحسن تربيتها ، وكانت الفتاة على قسط وافر من الجمال ، فأخذت إلى دار الملك من ضمن البنات ، اللواتى أخذن .

وأحب الملك أحشوروش أستير ، ونالت حظوة فى عينيه ، أكثر من جميع العذارى ، فوضع تاج الملك على رأسها ، وملكها عوضاً عن وشتى . وصنع الملك بهذه المناسبة وليمة عظيمة لكبار رجال دولته ، وأراح جميع الأقاليم التابعة له .

وكان مردكاى لا يبارح دار الملك ، بل يتمشى كل يوم أمام فنائها ، مستفسراً عن سلامة أستير . وبينما كان مردكاى ، فى أحد الأيام ، واقفاً بباب الملك مع بجتان

(١) إن احشوروش هذا ، هو زركسيس الأول بن داريوس الأول . اعتلى العرش الفارسى من سنة ٤٨٥ إلى سنة ٤٦٥ ق . م . حيث مات مقتولا بمؤامرة بعض الضباط .

وتارش خصيي الملك ، اكتشف مؤامرة يدبرانها لاغتيال سيدهما الملك . فأخبر مردكاى أستير ، فأخبرت الملك نقلاً عنـه . وبعد التحقيق أمر الملك ، فعلق ذانك الخادمان الخائنان على خشبة ، ودُوِّن الحادث واسم مردكاى فى سجل أخبار المملـكة .

وفى تلك الفترة بزغ نجم رجل اسمه هامان الأجاجى ، استوزره احشوروش الملك ورفع اسمه فوق جميع عظماء المملـكة ، وأمر أن يسجد له جميع عبيد الملك ، الذين بباب داره . فأطاع الجميع هذا الأمر إلا مردكاى . وقد أبى أن يقـدم لإنسان مثله إكراماً لا يجوز إلا لله وحـده . الأمر الذى أثار غضب وحنق هامان ، الرجل الذى أبطرته النعمة ، فأبى أن ينتقم من مردكاى وحده ، بل من شعب اليهود كافة ، بإبادة تلك الأمة عن بكرة أبيها ! واستطاع هامان بدهائه أن يقنع الملك بأن القوم لا يحفظون سنن المملـكة ، و بالتالى فلا بد من إهلاكهم ، فوافق أحشوروش على ذلك .



وحدد هامان ، عن طريق القرعة ، يوماً ليقتل فيه جميع اليهود المنتشرين فى كل أنحاء المملكة ، و بعث رسائل بذلك إلى جميع حكام الأقاليم ، ليعاونوا الأهلين على إهلاك اليهود فى ذلك اليوم .

أستير تتقدم الى أحشوروش لتشفع فى شعبها :

فلما علم مردكاى واليهود بما حدث ، حزنوا حزناً عظيماً ، ومزقوا ثيابهم ، ولبسوا المسوح ، وصاموا وصلوا ببكاء وعويل كثير .

وأخبر مردكاى الملكة أستير بنوايا هامان ، و بالأمر الصادر بإبادتهم جميعاً ، وأوصاها بأن تدخل على الملك ، لتتضرع وتتوسل بين يديه من أجل شعبها . فبعثت أستير تقول له : إن الجميع يعلمون أنه أى رجل أو امرأة دخل على الملك ، من غير أن يدعى ، فالقانون فيه واحد ، أن يقتل . إلا من مد له الملك صولجان الذهب ، فيحيا .

فأرسل مردكاى إلى أستير يقول لها : « لا تفكرى فى نفسك أنك تنجين فى بيت الملك ، دون جميع اليهود . لأنه إن سكت فى هذا الوقت ، فسيكون فرج وخلاص لليهود من مكان آخر ، وأنت و بيت أبيك تهلكون . ومن يدرى لعلك لمثل هذا الوقت وصلت إلى الملك .

فأجابت أستير ، أن إذهب واجمع كل يهود العاصمة ، وصوموا لأجلى ثلاثة أيام ، ثم أدخل على الملك . فمضى مردكاى ، وفعل كما أمرته أستير .

أما أستير فدخلت مخدعها ، وخلعت ثياب الملك ، ولبست ثياباً للحزن والبكاء ، وألقت على رأسها رماداً وزبلاً ، وذللت جسدها بالصوم ، وأخذت تتضرع إلى الرب ، لينقذها و ينقذ شعبه إسرائيل من الخطر المحدق بهم . ثم إنها فى اليوم الثالث نزعت ثياب الحداد ، ولبست ملابس مجدها . ولما تبرجت ببزة الملك ، ودعت الله مدبر ومخلص الجميع ، اتخذت لها جاريتين . فكانت تستند إلى الواحدة ، والجارية الأخرى تتبعها رافعة أذيالها المنسحبة على الأرض . فدخلت كل الأبواب باباً باباً ، ثم وقفت قبالة الملك ، حيث كان جالساً على العرش ، بلباس الملك ، مزيناً بالذهب والجواهر ، ومنظره رهيب .

فلما رفع وجهه ، ولاح من اتقاد عينيه ، غضب صدره ، سقطت الملكة ، واستحال لون وجهها إلى صفرة ، وأتكأت رأسها على الجارية استرخاءً . فحول الله روح الملك إلى الحلم ، فأسرع ونهض عن العرش مشفقاً ... وكان يلاطفها بهذا الكلام : « ما لك يا أستير ، أنا أخوك فلا تخافى . إنك لا تموتين ، إنما الشريعة ليست عليك ، ولكن على العامة . هلمى والمسى الصولجان » . و إذ لم تزل ساكتة أخذ صولجان الذهب وجعله

على عنقها .. وقال لها أيضاً : « مالك يا أستير الملكة ، وما بغيتك ، ولو كانت نصف المملكة ، فإنها تعطى لك » . فأجابت أستير : ليأت الملك وهامان هـذا اليوم ، إلى الوليمة التى أعددتها له . فقال الملك : استعجلوا هامان ليفعل كما قالت أستير . ثم جاء الملك وهامان إلى الوليمة . فقال لها الملك ، مرة أخرى ، وهو على الغداء : ما طلبتك يا أستير فتعطى لك ، ولو كانت نصف المملكة . فأجابت أستير : ليأت الملك وهامان مرة أخرى ، إلى الوليمة التى أصنعها لهما ، وغداً أبين له طلبتى .

فخرج هامان من وليمة أستير فرحاً منشرح الصدر ، ولكنه لما رأى مردكاى بباب الملك ، وأنه لم يقم له ولم يتحرك ، امتلأ غيظاً على مردكاى . واستشار زوجته وأصدقاءه فأشاروا عليه أن يصنع خشبة بعلو خمسين ذراعاً ، ليعلق عليها مردكاى . فحسن الأمر عند هامان ، وصنع الخشبة .

فى اضطرار هامان على تكريم مردكاى :

وفى تلك الليلة أرق الملك ، فأمر أن يؤتى بسفر أخبار المملكة ، فقرئ أمامه . فوجد مكتوباً أن مردكاى كان قد أخبر عن اكتشاف مؤامرة ضد الملك أحشوروش . فقال الملك : ماذا صنع من الكرامة لمردكاى لأجل هذا ؟ فقال غلمان الملك : لم يصنع له شىء . فقال الملك : من فى ساحة القصر ؟ وكان هامان قد جاء إلى الساحة ، ليكلم الملك فى أمر تعليق مردكاى على الخشبة . فقال الغلمان : هو ذا هامان واقف فى الساحة . فقال الملك ليدخل .

فدخل هامان ، فقال له الملك : ماذا يصنع للرجل الذى يرغب الملك أن يكرمه ؟ فقال هامان فى نفسه من يرغب الملك أن يكرمه أكثر منى . فقال للملك : الرجل الذى يرغب الملك أن يكرمه ، يأتونه بثياب الملك وفرسه ، ويوضع تاج الملك على رأسه . وتسلم الثياب والفرس لكبير من كبار زعماء الدولة ، فيلبسون الرجل ويركبونه على الفرس ، وينادون بين يديه ، فى ساحة المدينة : هكذا يصنع للرجل الذى يرغب الملك أن يكرمه .

فقال الملك : أسرع وخذ الثياب والفرس ، واصنع هكذا لمردكاى اليهودى ،

ولا تدع كلمة من كل ماقلته تسقط . ففعل هامان كما أمره الملك ، ونادى بين يدى مردكاى : هكذا يصنع للرجل الذى يرغب الملك أن يكرمه .

ثم عاد إلى بيته حزيناً مهموماً . وفيما هو يبث أشجانه إلى زوجته وأصدقائه ، جاء خصيان الملك ، وأسرعوا فى أخذه إلى الوليمة التى أعدتها أستير .

أستير تخلص شعبها من الهلاك :

وفى أثناء الغداء ، عند شرب الخمر ، قال الملك لأستير : ما بغيتك يا أستير فتعطى لك ؟ فأجابت وقالت : إن حظيت فى عينيك أيها الملك ، فلتوهب لى نفسى وشعبى ، لأننا مبيعون أنا وشعبى للهلاك والقتل . فأجاب الملك أحشوروش وقال : من هو ؟ وأين ذاك الذى يتجاسر بقلبه على أن يفعل هكذا ؟

فقالت أستير : رجل مضطهد عدو ، هامان هـذا الخبيث . فارتعد هامان . وقام الملك مغضباً إلى حديقة القصر . و بعد قليل رجع إلى حيث كانت أستير ، فرأى هامان وكان قد خر على السرير الذى عليه أستير ليتوسل إليها عن نفسه . فقال الملك : أيغصب الملكة أيضاً معى فى البيت . وحالما خرجت تلك الكلمة من فم الملك ، غطوا وجه هامان . فقال أحد خصيان الملك : ها إن الخشبة التى عملها هامان لمردكاى ، منصوبة فى بيت هامان . فقال الملك علقوه عليها . فعلقوه ، وسكن غضب الملك .

وأخبرت أستير الملك بقرابة مردكاى لها . فنزع الملك خاتمه ، الذى كان قد أعطاه لهامان ، وأعطاه لمردكاى ، معيناً إياه وزيراً بدلاً منه .

ثم إن أحشوروش الملك أصدر أمراً إلى جميع رؤساء الأقاليم بأن لا يقتل اليهود ، بل أن ينتقموا من جميع أعـدائهم ، فى اليوم نفسه ، الذى كان مقرراً فيه هلاكهم . وهكذا كان بفضل أستير الملكة ، أن نجا شعب إسرائيل من مؤامرة هامان ، ومما كان يضمره لهم أعداؤهم من هلاك وموت مبين .

وأمر مردكاى وأستير الملكة بأن يعيِّد اليهود فى كل أنحاء المملكة ، يومين فى السنة ، ذكرى لخلاصهم هذا العجيب . وقد دعى هذا العيد بعيد « فوريم » أخذاً من اسم الفور أى القرعة .

الفصل الرابع

اليهود تحت نير الدول الأجنبية

نظرة إجمالية :

لم ينعم اليهود بعد عودتهم من جلاء بابل ، بالاستقلال التام ، إلا فى عهد المكابيين . أما فيما عدا هـذه الفترة ، التى تقدر بثمانين سنة ، فقد ظلوا خاضعين لنفوذ الدول الأجنبية ، حتى اندثار أمتهم وتشتتها بين الشعوب فى السنة السبعين للميلاد على يد الرومان .

فمن سنة ٥٣٧ إلى سنة ٣٣٠ كان اليهود يدفعون الجزية لدولة الفرس . ومن سنة ٣٣٠ إلى سنة ٣٢٣ للاسكندر الأكبر . ثم للبطالسة بمصر من سنة ٣٢٣ إلى سنة ٢٠٣ . ثم للسلوقيين بسوريا من سنة ٢٠٣ إلى سنة ١٦٦ ق . م .

وفى سنة ١٦٦ ق . م استطاع اليهود بعد جهاد طويل ، أن يتخلصوا من حكم السلوقيين الجائر . ويرجع الفضل فى ذلك للاخوة المكابيين ، الذين استقلوا بحكم بلادهم منذ تلك السنة حتى سنة ٤٠ ق . م . أخيراً خضع اليهود للدولة الرومانية ، وذلك من سنة ٤٠ ق . م إلى سنة ٧٠ للميلاد .

إن الفرس ، وإن منحوا اليهود كثيراً من الحريات ، ولا سيما الحرية الدينية ، إلا أنهم فرضوا عليهم الجزية ، ولم تنج البلاد من نفوذهم وتدخلهم المتواصل .

ولما انكسرت جيوش داريوس الثالث « القصير اليد » (٣٣٦ ـ ٣٣١ ق . م) ـ وهو آخر ملوك الفرس ـ أمام جيوش الاسكندر الأكبر الظافرة ، خضعت اليهودية كسائر بلاد الشرق لحكم هذا الملك . ثم بعد موت الاسكندر خضعت لحكم البطالسة ملوك مصر ، الذين عاملوا اليهود برفق .

ولما تغلب السلوقيون على البطالسة خضعت اليهودية لحكم ملوك سوريا ، الذين ثقلوا الأثقال على اليهود ، وأذاقوهم مر الاضطهاد .

وبعد فترة الاستقلال التى نعم بها اليهود على يد الإخوة المكابيين ، أمست اليهودية وفلسطين إقليماً رومانياً . وفى إبان هذه الفترة الأخيرة ، التى خرج فيها صولجان

الحكم من يد اليهود إلى الأبد ، ظهر المسيح مخلص العالم ، وأكمل فداء جنس البشر .

الإسكندر الأكبر فى أورشليم :

الإسكندر هو ابن فيليبوس المكدونى ، رقى عرش الملك وهو ابن عشرين عاماً . فلما استتب له الأمر فى كل بلاد اليونان ، زحف بجيشه إلى آسيا ، وأخذ ينتقل من نصر إلى نصر ، حتى كانت موقعة إيسوس الفاصلة ، شمالى الاسكندرونة (٣٣٣ ق . م) ، حيث هزم الفرس ، وفر داريوس ملكهم إلى داخل حدود بلاده .

وكان بعد تلك المعركة أن خلا الجو للغازى ، فتقدم دون مقاومة تذكر حتى مدينة صور وغزة . ثم دخل مصر ، وأسس فيها مدينة الاسكندرية ، التى سماها باسمه . و بعد استيلائه على مصر ، عاد مواصلاً فتح مملكة داريوس المترامية الأطراف .

وإذ رفض حبر اليهود الأعظم أن يمده بعتاد من المال والرجال ، كعادة كل الأمم الموالية له ، أمر جيشه بالزحف على أورشليم وتطويقها .

ولكن الحبر الأعظم أمر جميع الشعب أن يرتدوا ثياباً بيضاً ويخرجون فى موكب عظيم حافل ، وعلى رأسهم رئيس الكهنة ، والكهنة بملابسهم الرسمية الجميلة ، لملاقاة الاسكندر وجيشه . وكان عمله هذا بإلهام إلهى .

فلما رأى الاسكندر ذلك الموكب الفريد ، هدأت فيه ثورة الغضب ، وتقدم متخشعاً من الكاهن الأعظم ، وقص عليه كيف أنه ، عند ما كان يعد العدة للسفر إلى بلاد الفرس ، ظهر له الرب فى الحلم بهذا المظهر نفسه ، مشجعاً إياه على فتح سائر بلاد الفرس (١) .

وما أن بلغ أورشليم حتى طلب إلى رئيس الكهنة أن يقدم لأجله الذبيحة . ومن ثم أطلعوه على نبوة لدانيال النبى ، فحواها : إن أميراً يونانياً سوف يقلب رأساً على عقب دولة فارس العظيمة .

ورأى الاسكندر أنه هو المقصود بتلك النبوة ، الأمر الذى جدد فيه العزم على مواصلة فتوحاته ، ومنح اليهود امتيازات جمة ، والهيكل هدايا كثيرة ثمينة .

---

(١) ربما كانت هذه القصة ، التى لم يرد ذكرها فى الكتاب المقدس ، من الأساطير اليهودية .

ومن هناك زحف على بلاد الفرس ، وانتصر على جيوش داريوس فى موقعة أربيل الشهيرة[1] (٣٣١ ق . م) ، واستولى على دولته الشاسعة .

الفصل الخامس

اليهود تحت سيطرة حكم ملوك سوريا

فلسطين بين مصر وسوريا :

لم يهنأ الاسكندر طويلاً بفتوحاته العظيمة ، إذ فاجأته المنية فى الثالثة والثلاثين من عمره . ولما لم يكن له وارث ، نشبت بين قواده منازعات طويلة فى سبيل العرش ، انتهت بتجزئة الامبراطورية إلى ثلاث ممالك كبيرة : مصر وسوريا ومكدونيا .

فكان على مصر بطليموس الكبير ، مؤسس دولة البطالسة ، وعلى سوريا سلوقس نيكانور ، مؤسس دولة السلوقيين ، وعلى مكدونيا أنتيفونس .

وكانت منطقة فلسطين مع لبنان ودمشق ، و بالتالى كل اليهودية تابعة لمملكة بطليموس . وقد عامل البطالسة اليهود ، طوال مدة حكمهم فى منطقة نفوذهم ، أحسن معاملة .

وسارت الأمور على هذه الحال ، واليهود يتمتعون بسلام شامل ، حتى بدأ التنافس والتنازع بين البطالسة والسلوقيين . فكانت بين الشعبين حروب طاحنة ، دامت عشرين سنة ، أدت فى النهاية إلى انتصار السوريين وهزيمة المصريين فى موقعة رفح عند الحدود المصرية فى سنة ٢٠٣ ق . م .

وبانتقال منطقة نفوذ البطالسة إلى السلوقيين ، أصبحت اليهودية مستعمرة تابعة لملوك سوريا . بين هؤلاء الملوك الطغاة الذين امتازوا بقسوتهم واضطهادهم لليهود ، نذكر سلوقس الرابع فيلوباطور (١٨٧ ــ ١٧٥ ق . م) ، وأنطيوكس الرابع أبيفانس . (١٧٥ ــ ١٦٣ ق . م)

***

(١) بلاد العراق .

ولم يعامل السوريون ، فى بادىء الأمر ، اليهود بالقسوة ، التى أخذوا يعاملونهم بها فيما بعد . حتى أن سلوقس الرابع نفسه كان بعد ارتقائه عرش المملكة ، يؤدى من جيبه الخاص جميع نفقات الذبائح التى تقدم فى الهيكل (٢ مك ٣ : ٣)

إلا أن هذه الحال لم تدم طويلاً ، وقد أتت شرارة الشر الأولى من اليهود أنفسهم ، فقد قام بينهم رجال منافقون فضلوا حظوة الملك على إنعامات الله . كما قام فريق آخر يتفاخرون على رئاسة الكهنوت العليا . وفى سبيل ذلك لم يتورعوا عن ارتكاب أفظع الجرائم فى حق وطنهم ، وتملق الملوك والتذلل لهم .

فى جلد هليدورس قيم الملك[1] :

وحدث أن رجلاً يهودياً يدعى سمعان ، وكان مقلداً الوكالة على الهيكل ، وقعت مخاصمة بينه و بين أونيا الكاهن الأعظم ، لأجل ظلم اجتناه على المدينة . ولما لم يستطع هذا المنافق الانتقام من رئيسه ، لجأ إلى الملك وأخبره بأن كنوزاً لا تقدر بثمن توجد فى هيكل أورشليم ، و بما أن ذلك المال ليس بمختص بنفقة الذبائح ، فهو أولى به .

ولما كان الملك فى حاجة إلى مثل هذا الكنز لسد نفقات الحروب الكثيرة التى قام بها أبوه ، قبيل وفاته ، فقد أوفد لساعته هليودورس قيم بيته للاستيلاء على ذلك المال و إيداعه خزينة الملك .

فلما بلغ هليودورس أورشليم أحسن الكاهن الأعظم وفادته ، فحدثه هليودورس مصرحاً بسبب قدومه . فذكر له الكاهن أن المال هو ودائع للأرامل واليتامى ، وأنه لا يجوز بوجه من الوجوه هضم حقوق الذين ائتمنوا قداسة الموضع وحرمته . ثم أن الأمر ليس كما وشى سمعان ، و إنما المال كله أربع مئة قنطار فضة ، ومئتا قنطار ذهب .

---

(١) هو سلوقس الرابع فيلوباطور بن أنطيوكس الثالث الكبير . لم يقم بشىء يستحق الذكر . وكل شهرته ترجع إلى اضطهاده اليهود . ملك من سنة ١٨٧ إلى سنة ١٧٥ ق . م ، على دولة مثقلة بالديون . فكان لا بد له أن يدفع لروما سنويا ما لا يقل عن ألف قنطار من الفضة . وهو التعويض الذى فرضه مجلس الشورى الرومانى ، لمدة ١٢ سنة ، على أبيه ، بعد هزيمته فى معركة مجنسيا بآسيا الصغرى (١٩٠ ق . م) . مات سلوقس مقتولا بيد هليدورس نفسه ، قيم بيته ، المذكور فى متن القصة .

إلا أن هليودورس أصر على حمل الأموال ، ولم يعبأ لتوسلات الكاهن وكآبة أورشليم ونحيبها ، فدخل الهيكل فى موكب حافل وجند كثير ، لإتمام ما قضى به .

وهنا تجلت قدرة العلى ، فصرعت كل من اجترأوا على دخول المكان المقدس ، فأخذهم الانحلال والرعب . وظهر لهم بغتة فرس عليه راكب مخيف . فوثب الفرس وضرب هليودورس بحوافر يديه ضرباً مبرحاً . وتراءى أيضاً لهليودورس شابان عجيبا القوة ، بديعا البهاء ، حسنا اللباس ، فوقفا على جانبيه يجلدانه جلداً متواصلاً حتى أثخناه بالضرب .

فسقط لساعته على الأرض مغشياً عليه ، فرفعه الجند وحملوه إلى خارج الهيكل ، وهو على آخر رمق . حينئذ بادر بعض أصحاب هليودورس وسألوا أونيا أن يبتهل إلى العلى ليمن عليه بالحياة .

وبينما كان الكاهن الأعظم يقدم الكفارة ، إذ عاد ذانك الفتيان فظهرا لهليودورس بلباسهما الأول ، ووقفا وقالا : عليك بجزيل الشكر لأونيا الكاهن الأعظم فإن الرب قد منّ عليك بالحياة من أجله .

ورجع هليودورس بعد ذلك إلى إنطاكية ، فسأله الملك قائلاً : من تُرى يكون أهلاً لأن نعود فنرسله إلى أورشليم . فقال : إن كان لك عدو أو صاحب دسيسة فى المملكة ، فأرسله إلى هناك ، فيرجع إليك مجلوداً ، إن نجا . فإن فى ذلك الموضع قدرة إلهية عجيبة (٢ مك ٣ : ٤ ـ ٤٠)

فى اضطهاد أنطيوكس ابيفانس [(١)] (١٧٥ ـ ١٦٣ ق . م) :

وكان بعد وفاة سلوقس أن استولى على الملك أنطيوكس الرابع أبيفانس أى الشهير إلا أن رعاياه كانت تدعوه أبيمانس أى المعتوه ، لشذوذه وعتوه . وقد فاق كل من سبقوه من الملوك الطغاة فى صنع الشر .

الكهنوت بيد الطامعين : وحدث أن طمع ياسون أخو أونيا فى الكهنوت الأعظم ، فوفد على الملك ، ووعده بثلاث مئة وستين قنطار فضة ، وبثمانين قنطاراً من

(١) هو ابن انطيوكس الثالث ، استولى على العرش عنوة ، فطرد هليدورس ، وهضم حقوق ديمتريوس ابن أخيه الملك الراحل .

دخل آخر ، إن رخص له فى إنشاء مدرسة للرياضة ، وأن يكتتب أهل أورشليم فى رعوية إنطاكية .

فأجابه أنطيوكس إلى ذلك مشكوراً ، وقلده الرئاسة على شعبه . فما لبث هذا المنافق أن صرف جميع شعب أورشليم إلى عادات الأمم ، حتى أن الكهنة أنفسهم لم يعودوا يحرصون على خدمة المذبح ، بل أصبح شغلهم الشاغل الملعب وجوائزه المربحة .. ! وما أكثر الذين كانوا يستخفون بمآثر آبائهم و يتنافسون بمفاخر اليونان !

(٢ مك ٤ : ٧ـ١٦)

و بعد مدة ثلاث سنين وجّه ياسون منلاوس أخا سمعان المذكور آنفاً ، ليحمل أموالاً للملك و يفاوضه فى أمور مهمة . فتزلف هذا إلى الملك ، وأطرأ عظمة سلطانه ، وأحال الكهنوت الأعظم إلى نفسه بأن زاد ثلاث مئة قنطار فضة على ما أعطى ياسون .

ثم رجع إلى أورشليم ومعه أوامر الملك . ولم يكن ، كسالفه ، على شىء مما يليق بالكهنوت الأعظم ، وإنما كانت له أخلاق غاشم عنيف ، وأحقاد وحش ضار . وهكذا فإن ياسون الذى ختل أخاه ، ختله آخر . فطرد وفر إلى أرض بنى عمون .

أما منلاوس ، الذى لم يتورع من سلب الهيكل ، وقتل أونيا الكاهن البار غيلة وعدواناً ، فلم يكن يزداد إلا خبثاً ، ولم يزل لأهل وطنه كيناً مهلكاً (٢ مك ٤ : ٢٣ . . .)

اضطهاد انطيوكس أيفانس اليهود :

وفيما كان انطيوكس قد أعد العدة لغزو مصر ، إذا بظاهرة عجيبة تبدو فى سماء أورشليم كلها ، وذلك لمدة أربعين يوماً : فرسان تعدو فى الجو ، وعليهم ملابس ذهبية ، وفى أيديهم رماح ، وهم مكتبون كتائب . حتى أن جميع أهل المدينة ، وقد استولى عليهم خوف شديد ، كانوا يسألون الله أن يكون مآل هذه الآية خيراً .

وأرجف قوم أن أنطيوكس قد مات ، فانتهز الفرصة ياسون وألف جيشاً لا يقل عن الألف نفس ، وهجم على أورشليم بغتة ، حتى إذا دفع الذين على الأسوار ، هرب منلاوس إلى القلعة ، وسكنت حركة المقاومين .

فاندفع ياسون يذبح أهل وطنه بغير رحمة ، ولم يفطن أن الظفر بالإخوان هو عين الخذلان . لكنه لم يفز بالرئاسة ، وكانت خاتمة أمره منقلباً سيئاً .

وكان لما بلغت هذه الحوادث الملك أنه إتهم اليهود بالانتقاض عليه ، فزحف من مصر ، وقد أبطرته انتصاراته فيها ، وأخذ المدينة عنوة . وأمر الجنود أن يقتلوا كل من صادفوه دون رحمة ، الرجال والنساء والأطفال . فهلك ثمانون ألف نفس ، منهم أربعون ألفاً فى المعركة . و بيع منهم عدد ليس بأقل من القتلى .

ولم يكتف بذلك ، بل اجترأ ودخل الهيكل ، وكان دليله منلاوس الخائن ، وأخذ الآنية المقدسة مع ما أهدته الملوك لزينة الموضع وبهائه ، ومضى . ويقدر ما حمله أنطيوكس من الهيكل ، من الذهب والفضة ، بألف وثماني مئة قنطار .

ولما كان لايزال يخشى ثورة الشعب ، فقد ترك رجال سوء يراغمون الأمة : منهم فيلبس فى أورشليم ، وكان أشرس أخلاقاً من الذى نصبه ، وأندرونكس فى جرزيم ، ومنلاوس الذى كان أشد جوراً من كليهما .

ولم تمض على هذه الحوادث سنتان ، حتى أرسل أنطيوكس أبلونيوس رئيس الجزية البغيض ، فى اثنين وعشرين ألف جندى ، وأمره أن يذبح كل بالغ من اليهود ، ويبيع النساء والصبيان . فلما وفد أبلونيوس إلى أورشليم تربص باليهود إلى يوم السبت ، حتى إذا دخلوا فى عطلتهم ، أمر رجاله بإعمال السيوف فى الرقاب ، فهلك خلق كثير . وبنى أبلونيوس على الجزء المعروف بمدينة داود قلعة حصينة ، وضعوا فيها السلاح وغنائم أورشليم جميعها ، كانت مكمناً للمقدس ، وشركاً مهلكاً لإسرائيل على الدوام . (٢ مك ٥ : ١ — ٢٦ و ١ مك ١ : ١٧ — ٣٨)

وكأن كل هذه الشرور والأعمال الوحشية لم تكف أنطيوكس الرجل السفاك ، شاء أن يدنس هيكل أورشليم ويجعله على اسم زوس الأولمبى (٢ مك ٦ : ٢) ، ويضطر اليهود إضطراراً على الارتداد عن الشريعة الإلهية . ولهذه الغاية أنفذ كتباً إلى أورشليم ومدن يهوذا يأمرهم فيها بأن يتبعوا سنن اليونانيين ، ويمتنعوا عن المحرقات والذبيحة والسكيب فى المقدس ، ويدنسوا السبوت والأعياد ، وينجسوا المقادس والقديسين ، ويبتنوا مذابح وهياكل ومعابد للأصنام ، ويذبحوا الخنازير والحيوانات

النجسة ، ويتركوا بنيهم قلفاً . . . ومن لا يعمل بمقتضى ذلك يقتل .

فأمام هذا التهديد باء كثير من ذوى النفوس الصغيرة بالفشل ، حتى أنهم لم يلبثوا أن نبذوا الشريعة ، وانضموا إلى الجاحدين . إلا أن أغلبية اليهود الساحقة أخذوا فى مقاومة هذا الجور بشجاعة نادرة ، واختار بعضهم موتاً مجيداً على حياة أثيمة . (١ مك ١ : ٤٦ — ٥٦)

فى استشهاد ألعازر الشيخ :

وممن امتازوا بثباتهم العجيب فى الجهاد مفضلاً أن يموت مجيداً على أن يحيا ذمياً شيخ يدعى ألعازر ، من متقدمى الكتبة ، طاعن فى السن . فإنهم فتحوا فاه ليكرهوه على أكل لحم الخنزير ، المحرم فى شريعة موسى ، فقذف الشيخ الباسل من فيه اللحم المحرم متكرهاً .

ولما كانوا يسوقونه إلى موضع العذاب ، قدم له بعض أصحابه لحماً غير لحم الخنزير كانوا قد جاؤوا به ، وطلبوا منه أن يأكله ويتظاهر بأنه أطاع أمر الملك لينجو من الموت .

لكنه رفض بشمم أن يعمل بمثل هذه المشورة الحمقاء ، بل عول على الرأى النزيه والجدير بسنه وكرامة شيخوخته ، وما بلغ إليه من جلالة المشيب ، وبكمال سيرته الحسنة منذ حداثته ، بل بالشريعة المقدسة الإلهية ، وأجاب بغير تردد وقال : « لا يليق بسننا الرياء ، ولا أريد أن يظن الشبان أن ألعازر وهو ابن تسعين سنة قد انحاز إلى مذهب الأجانب ، ويضلوا بسببى لأجل ريائى وحبى لحياة قصيرة فانية ، فاجلب على شيخوختى العار والفضيحة . فإنى ولو نجوت الآن من نكال البشر ، لا أفر من يدى القدير لا فى الحياة ولا بعد الممات . ولكن إذا فارقت الحياة ببسالة فقد وفيت بحق شيخوختى ، وأبقيت للشبان قدوة حسنة ، ليتلقوا المنية بشهامة وبسالة فى سبيل الشريعة الجليلة المقدسة » . ولما قال هذا انطلق من ساعته إلى عذاب التوتير والضرب (٢ مك ٦:١٨..)

فى استشهاد إمرأة وبنيها السبعة :

وقد اقتدى بهذا المثال الشريف امرأة وبنوها السبعة . كان أنطيوكس قد ألقى

القبض عليهم ، وأمر بجلدهم بالمقارع والسياط ، ليكرههم على أكل لحم الخنزير ، فلم يقدر أن يثنيهم عن عزمهم على اتباع الشريعة . فإن أكبرهم أعلن جهاراً : إنه وإخوته يختارون الموت على مخالفة شريعة الله المقدسة .

فحنق الملك من كلامه وأمر بإحماء الطواجن والقدور النحاسية . ثم أمر بأن يقطع لسان الذى انتدب للكلام ، ويسلخ جلد رأسه ، وتجدع أطرافه على مرأى من أمه وإخوته ، ليوقع فى قلوبهم الخوف والرعبة . أما هم فكانوا يشجعون بعضهم بعضاً على أن يقدموا على الموت بشجاعة . ولما أصبح الشهيد جذمة أخذوه إلى النار ، وفيه رمق من الحياة ، ليقلى .

ثم ساقوا الثانى ، ونزعوا جلد رأسه مع شعره ، وسألوه هل يريد أكل اللحم الذى يقدم له . فأبى أن يأكل ، فحكم عليه كالأول . وفيما كان على آخر رمق ، التفت إلى الملك وقال له : إنك أيها الفاجر ، تسلبنا الحياة الدنيا ، ولكن ملك العالمين سوف يقيمنا لحياة أبدية .

ثم شرعوا فى تعذيب الأخ الثالث ، وأمروه فأخرج لسانه ، وبسط يديه بقلب جليد . وقال للجلاد : إنى من رب السماء أوتيت هذه الأعضاء ، ولأجل شريعته أبذلها اليوم ، وإياه أرجو أن أستردها من بعد . فبهت الملك والذين معه من بسالة ذلك الغلام ، الذى لم يبال بالعذاب شيئاً .

ولما قضى عذبوا الرابع ونكلوا به بمثل ذلك . ولما أشرف على الموت قال للملك : حبذا الموت مقروناً برجاء القيامة والحياة الأبدية . أما أنت فليس لك ذاك الرجاء .

وساقوا الخامس ، وفيما هم يعذبونه ، التفت إلى الملك وقال : إنك بما لك من السلطان تفعل بنا ما تشاء . ولكن لا تظن أن الله قد خذلنا . اصبر قليلاً فترى بأسه الشديد .

وقاسى الأخ السادس ما قاسى إخوته من ألوان العذاب ، وصبر عليها كما صبروا بقلب ثابت . ولما أشرف على الموت التفت إلى الملك وقال له : لا تغتر ولا تفتخر بتعذيبنا ، فنحن إنما نعاقب على خطايانا ، وعن قريب سيتوب الله علينا . وأما أنت فسيعاقبك عقاباً صارماً على تجبرك ومناصبتك له العداء .

ولم يبق من الإخوة السبعة إلا أصغرهم . فجعل الملك أنطيوكس يتملقه ليحمله على ترك شريعة الله ، ويعده أنه يغنيه ويسعده . أما الغلام فلم يكن يبالى بالوعد ولا بالوعيد . فأقبل الملك على أم الغلام وحثها أن تشير على ابنها بامتثال أمره . فتظاهرت المرأة بالخضوع لأمره ، وكلمت ابنها بلغة آبائها ، وكان الملك يجهلها ، فقالت له : إرحم يا بنى إرحم والدتك ، التى حملتك فى أحشائها وأرضعتك من لبنها . كن أهلاً لإخوتك ، وتشجع مثلهم ، ولا ترهب الجلاد ، بل اتق الله وحده . ولا تنظر إلا إلى من منه مكافأتك .

فتشدد الغلام بهذا الكلام ، وصرخ بصوت عال وقال : « ماذا أنتم منتظرون ؟ إنى لا أطيع أمر الملك . وإنما أطيع أمر الشريعة » . والتفت إلى الملك وقال : « وأما أنت أيها المنافق ، يا أخبث كل بشر ، فلا تتشامخ باطلاً ، وتتنمر بآمالك الكاذبة ، لأنك لن تنجو من دينونة الله القدير الرقيب . ولقد صبر إخوتى على ألم ساعة ، ثم فازوا بحياة أبدية . وهم فى عهد الله . وأما أنت فسيحل بك بقضاء عادل العقاب الذى تستوجبه كبرياؤك . وأنا كإخوتى أبذل جسدى ونفسى فى سبيل شريعة آبائنا ، وابتهل إلى الله أن لا يبطىء فى توبته على أمتنا ، وأن تحل بك ضرباته فتعترف بأنه هو الإله وحده » .

فحنق الملك ولم يحتمل هذا الاستهزاء ، فزاده نكالاً على إخوته . وهكذا قضى هذا الغلام طاهراً ، وقد وكل إلى الرب كل أمره .

وفى آخر الأمر هلكت الأم ، وكانت أجدر الكل بالعجب والذكر الحميد ، فإنها عاينت بنيها السبعة يهلكون ، فى مدة يوم واحد ، وصبرت على ذلك بنفس طيبة ، ثقة منها بالرب . وكانت تحرض كلاً منهم على الجهاد ، وهى ممتلئة من الحكمة السامية ، وقد أضفت على كلامها الأنثوى بسالة الرجال (٢ مك ٧ : ١)

الفصل السادس

المكابيون[1]

متتيا الكاهن وبنوه (١٦٦ - ١٦٥ ق ٠ م) :

وكان فى أورشليم ، فى ذلك العهد ، كاهن غيور اسمه مَتَّتيا . وكان له خمسة بنين : يوحنا ، وسمعان ، ويهوذا الملقب بالمكابى ، وأليعازر ، ويوناتان . فلما رأى متتيا ما يصنع من المنكرات فى أورشليم ، وكيف اشتد انفجار الشر فى المدينة كلها حتى أن الهيكل ، وهو أقدس موضع فى الأرض كلها ، امتلأ عهارة وقصوفاً ، هجر أورشليم هو وبنوه إلى مدينة مودين ، وفى نفسه أن يثأر لقومه ، وللأقداس التى دنسها الأمم ، من جور الظالمين ، متى تهيأت له الفرصة المؤاتية .

وإن الذين أرسلهم الملك ليجبروا الناس على الارتداد عن الشريعة قدموا إلى مودين . فأقبل عليهم كثير من إسرائيل ممن باعوا دينهم بدنياهم ، وهم على استعداد لتنفيذ أمر الملك ، والتضحية للآلهة الكاذبة . إلا أن رسل الملك دعوا متتيا وقالوا له : أنت رئيس فى هذه المدينة ، شريف عظيم ، معزز بالبنين والإخوة . فالآن إبدأ أنت وتقدم لإمضاء أمر الملك ، فتكون أنت وأهل بيتك أصدقاء الملك ، وتكرمون بالذهب والفضة .

فأجاب متتيا بصوت عظيم وقال : إنه وإن أطاعت الملك كل الأمم التى فى دار ملكه ، وارتد كل واحد عن دين آبائه ، فأنا وبنى وإخوتى لا نطيع . فحاشى لنا أن نترك الشريعة . إننا لن نسمع لكلام الملك ، ولن نحيد عن ديننا يمنة أو يسرة .

ولما فرغ من هذا الكلام أقبل رجل يهودى على عيون الجميع ليذبح على مقتضى أمر الملك . فلما رأى متتيا ذلك ، استشاط غضباً ، فوثب عليه وقتله على المذبح . ثم وثب على رسول الملك أيضاً وقتله ، وهدم المذبح . وصاح متتيا فى أهل المدينة بصوت عظيم

---

(١) اختلف العلماء فى تسمية يهوذا واخوته بالمكابيين . والقول الأرجح إن هذا الاسم لصق بهم ، لأنهم كانوا يكتبون على أعلامهم وتروسهم أربعة أحرف تقابل م . ك . ب . ى . وتبتدىء بها أربع كلمات عبرية ، ومعناها : من مثل الرب بين الآلهة . (عن كتاب تاريخ فلسطين) .

قائلا : كل من غار للشريعة وحافظ على العهد ، فليخرج ورائى » . وهرب هو و بنوه إلى الجبال ، وتركوا كل مالهم فى المدينة (١ مك ٢ : ١ ـ ٢٨)

وانضم إلى متتيا و بنيه كل الذين كانوا يغارون لشريعة الله . فلم يمض زمن طويل ، حتى صاروا جيشاً منظماً ، وقد عزموا على إنقاذ الوطن ، والمدافعة عن الدين بالسلاح . ومنذ تلك الساعة أخذوا فى هدم المذابح ، التى نصبها رجال الملك والجاحدون من إسرائيل ، فى كل ناحية للآلهة الكاذبة . وأوقعوا بأهل النفاق والكفرة ، ونجحوا فى عمل أيديهم (١ مك ٢ : ٤٢ ـ ٥٠)

يهوذا المكابى (١٦٥ ـ ١٦٠ ق . م) :

ومات متتيا ، وقلبه فائض بالرجاء . فقام مكانه يهوذا ابنه ، المسمى المكابى . ومعنى المكابى المطرقة . فكان كالمطرقة على أعداء اسرائيل ، يتعقبهم و يوقع بهم حيثما وجدوا .

و يصف الكتاب هذا البطل المغوار ، فى مواقف القتال ، فيشبهه بالأسد فى حركاته ، و بالشبل الزائر على الفريسة .

واستغاث المكابى بالله و إتكل عليه ، فتم الخلاص على يديه . وصار ذكر المكابى مباركاً مدى الدهر .

وكان كل إخوته ، وجميع الذين انضموا إلى أبيه أنصاراً له ، يحاربون حرب إسرائيل بفرح ، تحدوهم الغيرة والآمال نفسها ، التى كانت تحدو قلب المكابى النبيل . (١ مك ٣ : ١ — ١٠)

انتصاره على أبلونيوس وسارون :

وحشد أبلونيوس ، والى السامرة وأحد قواد أنطيوكس ، جيشاً عظيماً ليحارب إسرائيل . فلما علم يهوذا بذلك خرج للقائه ، فأوقع به وقتله . وسقط فى المعركة من الأعداء قتلى كثيرون ، فسلب اليهود غنائمهم . وأخذ يهوذا سيف أبلونيوس ، فكان يقاتل به فى جميع الحروب التى قام بها (١ مك ٣ : ١٠ — ١٢)

وسمع سارون قائد جيش سوريا ، بنتيجة المعركة ، فقال فى نفسه أذهب وأقيم

لنفسى اسماً ، وأتمجد بمقاتلة يهوذا . فلما أعد عدته خرج لمحاربة يهوذا ، ومعه جيش قوى من ذوى البأس يظاهرونه .

وخرج يهوذا للقاء سارون وجيشه فى نفر يسير . فلما رأى رجال يهوذا جيش الأعداء قالوا له : كيف نطيق قتال مثل هذا الجمع القوى ؛ ونحن نفر قليل ، وقد استرخينا اليوم من الصيام .

فقال يهوذا ، وهو يؤمن بعضد السماء له : « ما أسهل أن يدفع الكثيرون إلى أيدى القليلين ، وسواء عند إله السماء أن يخلص بالكثيرين و بالقليلين . إذ ليس الظفر فى الحرب بكثرة الجنود ، بل بالقوة التى يهبها رب السماء » .

ولما فرغ من كلامه ، هجم على الأعداء بغتة ، فانكسر سارون وجيشه . وقد هلك من الأعداء ثمانى مئة رجل ، وفر الباقون إلى أرض فلسطين (١ مك ٣ : ١٣—٢٦)

فى انتصار يهوذا على نيكانور وجورجياس :

فلما بلغ أنطيوكس خبر انهزام أبلونيوس وسارون على التوالى حنق حنقاً شديداً ، وعزم على إبادة شعب اليهود عن وجه الأرض .

و إذ كان مزمعاً أن يسافر إلى بلاد فارس ، ليجمع بنفسه جزية تلك البلاد ، ويجبى أموالاً أخرى كثيرة لخزينته ، التى كانت على وشك الإفلاس ، فقد أوعز إلى ليسياس ، أعظم قواده ، أن يقوم هو بمهمة إبادة اليهود ، وانزال أبناء الأجانب بأرضهم (٣ : ٢٧ — ٣٦)

فاختار ليسياس ، لمحاربة اليهود و إبادتهم ، بطلماوس ونكانور وجورجياس ، رجالاً ذوى بأس ، من أصحاب الملك . وقد بعث معهم أربعين ألف راجل ، وسبعة آلاف فارس . فساروا بالجيش كله حتى بلغوا إلى قرب عماوس ، ونزلوا هناك .

وسمع بخبرهم تجار الرقيق ، فجاءوا من كل صوب وحدب ، ومعهم الكثير من الذهب والفضة ، لشراء بنى إسرائيل عبيداً من الجيش ! . . .

ورأى يهوذا و إخوته تفاقم الشر ، واحتلال الجيوش الأجنبية بلادهم فجأة ، لإهلاك الشعب واستئصاله بأمر الملك ، فلم يفزعوا ولم يقنطوا من النصر ، وتأييد السماء لهم ، بل

أخذوا يحثون بعضهم بعضاً قائلين : هلموا ننهض شعبنا من مذلته ، ونقاتل عن شعبنا وأقداسنا .

واحتشدت كل جماعة بنى إسرائيل فى المصفاة ، للتأهب للقتال ، والصلاة وسؤال الرأفة من أبى الرأفة والمراحم (١ مك ٣ : ٣٨..)

وكان بعد تذليل أنفسهم بالصلاة والصوم ، وتنظيم قوات الشعب ، أن أسرع يهوذا ليلاً ، وانتقل بجيشه الصغير ، المكون من ثلاثة آلاف رجل ، من المصفاة إلى عماوس ، لمهاجمة الأعداء فى وكرهم .

فلما كان الصباح فوجىء كل من نيكانور و بطلماوس ـ وكان أغلب جندهما لا يزال متفرقاً فى خارج المحلة ـ بظهور يهوذا ورجاله فى السهل . ولم تكن هذه بالمفاجأة السارة ، ولا سيما أن الأعداء كانوا قد أرسلوا جورجياس ، ومعه خمسة آلاف راجل وألف فارس منتخبين ، لمهاجمة هؤلاء اليهود ليلاً فى محلتهم بالمصفاة والإيقاع بهم .

وخطب يهوذا فى رجاله ملهباً حماسهم ، قائلاً : لا تخافوا كثرتهم ، ولا تخشوا بطشهم . أذكروا كيف نجا آباؤنا فى بحر القلزم حين تتبعهم فرعون بجيشه .

ورفع الأعداء أبصارهم ، فرأوا رجال يهوذا ينقضون عليهم انقضاض الصاعقة . ولم يطل القتال حتى انكسروا ، وسقط جميع ساقتهم[1] بالسيف . فكان الساقطون منهم ثلاثة آلاف رجل .

أما جورجياس فلما لم يجد أحداً فى محلة يهوذا بالمصفاة ، عاد أدراجه باحثاً عنهم فى الجبال ، لأنه قال : إنهم هربوا منا .

أخيراً ظهرت فرقة من فرقه تتطلع من الجبل ، فرأت أنهم انكسروا ، وأن محلتهم قد أحرقت ، كما دلهم على ذلك الدخان المتصاعد . فلما عاينوا ذلك خافوا جداً . و إذ رأوا جيش يهوذا فى السهل مستعداً للقتال ، فروا جميعاً إلى أرض أجنبية . وغنم يهوذا واليهود غنائم كثيرة . وعادوا وهم يسبحون الرب ، الذى أولاهم النصر على أعدائهم . (١ مك ٤ : ١ ـ ٢٥)

---

(١) الساقة : مؤخر الجيش .

فى حملة ليسياس الأولى :

و بلغ خبر تلك الهزيمة النكراء ليسياس ، فنسب ذلك إلى القواد وسوء تدبيرهم . ومنذ تلك اللحظة أخذت تختمر فى رأسه فكرة القيام بحملة يتولى هو قيادتها بنفسه .

فلما كانت السنة التالية (١٦٤ ق . م) ، جمع جيشاً كبيراً ، قوامه ستون ألف راجل وخمسة آلاف فارس ، مدربين تدريباً كاملاً ، وسار بهم إلى اليهودية لقمع كبرياء اليهود وكسر شوكتهم .

ونزل ليسياس بجيشه الجرار ببيت صور ، التى لا تبعد عن أورشليم بأكثر من ثلاثين كيلو متراً ، فخرج يهوذا لمنازلته فى عشرة آلاف راجل . وإذ رأى أمامه جيشاً قوياً ، صلى إلى الله قائلاً : « مبارك أنت يا مخلص إسرائيل ، الذى حطم بطش الجبار على يد عبده داود ، وأسلم محلة الأجانب إلى يد يوناتان وحامل سلاحه . ألق اللهم هذا الجيش فى أيدى شعبك إسرائيل . أحلل عليهم الرعدة ، وأذب تجبر قوتهم . أسقطهم بسيف محبيك ، وليسبحك بالأناشيد جميع الذين يعرفون اسمك .

ثم التحم القتال ، فسقط من جيش ليسياس خمسة آلاف رجل . فلما رأى ليسياس انكسار جيشه ، و بسالة جيش يهوذا واستعداده إما للحياة و إما للموت ، ترك محاولته تلك الفاشلة ، وعاد إلى انطاكية (١ مك ٤ : ٢٦ ـ ٣٥) . ولا سيما أن أموراً فى غاية الخطورة كانت تستدعى وجوده فى العاصمة : فقد بلغت أولى الأخبار التى تنبىء بفشل حملة الملك أبيفانس فى الشرق ، وموته فجأة هناك .

فى إبرام معاهدة الصلح ، والاعتراف بحقوق اليهود كاملة :

وإذ كان ليسياس المذكور صاحب دهاء ، أخذ يفكر فيما أصابه من الخسران ، وفطن أن العبرانيين قوم لا يقهرون ، لأن الله القدير مناصر لهم . فراسلهم ووعد بأنه يسلم بكل حقوقهم المشروعة ، ويستميل الملك إلى موالاتهم . فرضى المكابى بالصلح ابتغاء لما هو أنفع ، ولا سيما أن كل ما طلبه من ليسياس قضاه الملك[1] لليهود .

(٢ مك ١١ . .)

---

(١) هو أنطيوكس الخامس أوباطور بن أنطيوكس الرابع أيفانس ، رقى عرش المملكة ، ولا يزال أبوه على قيد الحياة ، عنـد ما بلغت البلاط أولى الأخبار بوفاة الملك الوالد فى بلاد فارس . (١٦٣ — ١٦٢ ق . م) .

فى تطهير الهيكل وتدشين مذبح المحرقة :

وكان أول عمل قام به يهوذا المكابى ، بعد إبرامه معاهدة الصلح ، أنه صعد وأصحابه إلى أورشليم لتطهير المقادس .

وقد راعه وراعهم منظر المدينة المحزن : فالمقدس خالياً من زينته ، وقد نهب نهباً ، وأبواب الهيكل محرقة ، والمذبح مدنساً ، ودور الكهنة متهدمة ، وقد طلع العشب فى الديار كما يطلع فى غابة . فمزقوا ثيابهم ، وناحوا نوحاً عظيماً ، وذروا الرماد على رؤوسهم ، حزناً وأسى على ما أصاب المدينة ، و بيت الرب من خراب ودمار .

و بما أن قلعة أورشليم كانت لا تزال فى أيدى الأعداء ، وكانت رغبة يهوذا ، الإسراع فى ترميم المقادس وتطهيرها ، فقد اختار بعضاً من رجاله يصادمون أهل القلعة والبعض الآخر لإصلاح وترميم ما يجب إصلاحه وترميمه . وقد اختار لتطهير المقادس ، كهنة لا عيب فيهم ، من ذوى الغيرة على الشريعة .

أما مذبح المحرقة الذى دنسه الوثنيون ، فقد تشاوروا على إزالته تماماً من الموضع ، و بنوا مكانه مذبحاً جديداً .

ولما تمت جميع أعمال البناء والترميم ، وتطهير المكان من رجاسات الوثنية ، جاءت كل جماعة إسرائيل ، وعلى رأسهم الكهنة فى حفل عظيم ، وقدموا الذبيحة على المذبح الجديد . وكان ذلك فى اليوم الخامس عشر من شهر كسلو ، فى مثل اليوم نفسه ، الذى فيه دنسته الأمم قبل ذلك التاريخ بثلاث سنوات كاملة (١٦٤ ق . م)

ودامت أفراح تدشين المذبح ثمانية أيام ، قدمت فيها المحرقات ، وذبائح السلامة ، بين أناشيد الفرح والتهليل ، وصوت البوق والكنارة .

ورسم يهوذا وأصحابه أن يُعيد ذاك اليوم كل سنة تخليداً لذكرى تدشين المذبح مدة ثمانية أيام (١ مك ٤ : ٣٦ ..)

فى محاربة يهوذا الأمم الوثنية :

ولما سمعت الأمم الوثنية المجاورة أن المذبح قد بنى ، استشاطوا غضباً ، وأضمروا أن يبيدوا من بينهم كل نسل اليهود . ولم تمض أيام وقد بدأ الاضطهاد علناً فى كل

مكان . الأمر الذى اضطر يهوذا على حمل السلاح ومحاربة كل تلك الأمم ، وتخليص بنى أمته من جور المضطهدين الظلمة (١ مك ٥ ..)

واتضح فى تلك الحرب أن الله عز وجل يدافع عن يهوذا . فظهر فى ساحة القتال خمسة فرسان ، رائعى المنظر ، على خيل لها لجم من ذهب ، أخذ اثنان منهما يقدمان اليهود ، وقد اكتنفا المكابى يخفرانه بأسلحتهما ، ويقيانه الجراح ، ويرشقان الأعداء بالصواعق والسهام ، حتى بهرت أعين هؤلاء الأعداء المتجبرين ، وأخذوا يخبطون خبط عشواء ، فصرع منهم أكثر من عشرين ألفاً (٢ مك ١٠ : ٢٨ — ٣١)

فى الضربة التى ضرب بها الله الملك أنطيوكس[1] :

ولما عرف الملك أنطيوكس ، وهو فى بلاد فارس ، أن يهوذا المكابى انتصر على قواده ، اشتد غيظه ، وهمّ أن يحيل على اليهود انتقامه وما لحق به من عار فى حملته الفاشلة فى تلك البلاد ، قائلاً بتجبر : لآتين أورشليم ولأجعلنها مدفناً لليهود .

لكنه لم يفرغ من كلامه ذاك ، حتى ضربه الله ضربة معضلة ، فى أمعائه ، لادواء لها . إلا أن هذا العاتية لم يكن ليكف عن طغيانه . وإنما بقى صدره ممتلئاً من الكبرياء ينفث نار الحنق على اليهود ، ويحث سائق عجلته على الإسراع فى السير ، حتى أنه من شدة الجرى سقط من عجلته . وكانت السقطة قوية ، فترضضت جميع أعضاء جسمه المريض . فأصبح — بعد أن كان يخيل له بزهوه ، أنه يحكم على أمواج البحر ، ويجعل قمم الجبال فى كفة الميزان — مصروعاً على الأرض ، محمولاً فى محفة ، شهادة للجميع بقدرة الله الفائقة . وها هو الذى كان ، قبيل ذلك ، يزين له أنه يمس كواكب السماء ، لم يكن له ولا لجيشه طاقة باحتمال رائحته الكريهة ، وقد سرى الدود فى أعضائه ، وأنتن جسمه (٢ مك ٩ : ١ — ١٢)

فى موت أنطيوكس أبيفانس :

ولما اشتدت وطأة المرض على أنطيوكس ، عاد إلى رشده ، وقال مقراً بضعفه : « حق على الإنسان أن يخضع لله ، وأن لا يحمله الكبر ، وهو فان على ان يحسب نفسه معادلاً لله » .

---

(١) وهو أنطيوكس الرابع أبيفانس (١٧٥ — ١٦٣ ق . م)

وتذكر الشرور التي انزلها ظلماً بالشعب اليهودي ، فاعترف جهاراً بأنه إنما يتحمل جزاء آثامه . ووعد الله انه ، إن برىء من مرضه ، يريح اليهود ويعمل على إسعادهم . وان الهيكل الذي كان قد انتهبه ، سيزينه بأفخر التحف ، ويرد الآنية المقدسة التي سلبها أضعافاً مضاعفة . بل انه هو نفسه يصير يهودياً ؛ ويطوف المعمورة ينادي بقدرة الله .

غير أن الله تعالى لم يقبل توبة هذا السفاح ، لأنها غير صادقة . ولم يرض عن نذره ، لأنه نفاق ، مصدره الخوف من الموت ، الذي كان يتهدده . وظل مرض هذا الطاغية يشتد من يوم إلى يوم ، حتى قضى على أبشع صورة ، بعد آلام مبرحة ، على الجبال في أرض غربة (٢ مك ٩ : ١١...)

في حملة ليسياس الثانية وهزيمته :

ولم ينظر ليسياس بعين الرضا إلى أعمال يهوذا ، ولا سيما بعد أن أخذ هذا الأخير في مضايقة أهل القلعة ، التي بأورشليم وتحصينه مرتفع صهيون وبيت صور . (١ مك ٦ : ١٨ ــ ٢٠)

فزحف إلى اليهودية في جيش جرار ، قوامه ثمانون ألفاً من المشاة ، عدا الفرسان والفيلة ، وهو يمني النفس بنصر ساحق على يهوذا وأصحابه يزيل عنه عار هزيمته الأولى .

وأخذ ليسياس ، من فوره ، في ضرب الحصون والقلاع المنيعة ، ولم يلبث أن حاصر بيت صور . ونمى الخبر إلى أورشليم ، فأخذت كل جماعة إسرائيل تبتهل إلى الله بدموع حارة ، أن يرسل ملاكه الصالح يدافع عن شعبه .

ثم جمع يهوذا كل رجال الجيش ، وسار بهم لمحاربة العدو . وفيما هم بعد عند أورشليم ، ظهر لهم بغتة فارس عليه حلة بيضاء ، كان يتقدمهم وهو يهز رمحه الذهبي .

وما أن رأوا ذلك الفارس العجيب ، حتى طفقوا بأجمعهم يسبحون الله ويباركونه على رحمته ، وقد انقشع عن قلوبهم كل خوف ، وأصبحوا مستعدين أن يبطشوا بأقوى الوحوش الضارية فضلا عن الناس .

وحملوا على أعدائهم حملة الأسود المفترسة ، فصرعوا منهم أحد عشر ألف راجل ،

وست مئة فارس ، وألجأوا الباقين إلى الفرار (٢ مك ١١ : ١ - ١٢). فكانت هزيمة ليسياس الثانية أشر من الأولى .

الملك أنطيوكس أوباطور يغزو اليهودية :

وكان الملك أنطيوكس أوباطور[١] ، الذى ورث من أبيه بغضه الشديد لليهود ، قد حشد بإيعاز ليسياس ، مربيه والموكل على جميع مصالح المملكة ، جيشاً عرمرماً من اليونانيين والغرباء ، قوامه مئة ألف راجل ، وعشرين ألف فارس ، وثلاث مئة عجلة ذات مناجل (١ مك ٦ : ٢٨..) و (٢ مك ١٣ : ١ - ٢)

وزحف بهذا الجيش العرمرم إلى أرض اليهودية ، متوعداً اليهود بالويل والثبور ، وبيلايا أمر من البلايا التى أنزلها بهم أبوه (٢ مك ١٣ : ٩)

منلاوس الخائن : وكان يصحب الملك كبار قواده وليسياس . وقد انضم إليهم منلاوس رئيس الكهنة الخائن . وكان هذا المنافق ، فى الطريق ، يشجع الملك بكل نوع من الخداع ، غير مبال بخلاص مواطنيه ، بل كان همه أن يرد إلى الرئاسة .

ولكن ملك الملوك هيج على الخائن سخط أنطيوكس ، فأماته شر ميتة . ذلك إن ليسياس أفهم الملك سراً أن الرجل هو السبب فى تلك النوازل بأسرها ، فأمر أن يذهب به إلى بيريه ليعدم على عادة تلك البلاد . حيث كانوا يضعون المحكوم عليه بالاعدام فى آلة مستديرة ، تهوى به من برج علوه خمسون ذراعاً مملوء رماداً ، فيلقى حتفه فى الرماد .

فى ذلك الموضع هلك ذلك الرئيس الخائن ، الذى كان سبباً لشرور شتى وهلاك كثيرين ، ولم يحصل على تربة يوارى فيها . وبذا هلك فى الرماد من كان قد اجترم جرائم كثيرة على المذبح المقدس ، ذى النار والرماد المطهرين (٢ مك ١٣ : ٣ — ٨)

وكان أول حصن حاصره الملك أنطيوكس بيت صور ، وهى معقل منيع لليهود . فلما علم يهوذا بذلك ، أمر الشعب بالابتهال إلى الرب لكى ينصرهم على أعدائهم ، وأن لا يكفوا عن الصلاة نهاراً وليلاً . فصلى جميع الشعب وتضرعوا إلى الرب بالبكاء والصوم والسجود ، ثلاثة أيام متوالية دون انقطاع .

(١) هو أنطيوكس الخامس بن انطيوكس ايفانس (١٦٣ — ١٦٢ ق . م)

ثم جمع يهوذا الشيوخ ، وتشاور معهم فيما يجب إتخاذه من إجراءات لإنقاذ المدينة من هجوم الأعداء المرتقب ، وفك الحصار عن بيت صور ، فقر رأيهم على أن يخرج هو وأصحابه لمنازلة العدو فى الميدان ، بعيداً عن المدينة .

فسار وهو متوكل على الله ، حتى بلغ « بيت زكريا » ، فنزل هناك تجاه محلة الملك . وقد حض أصحابه أن يقاتلوا ببسالة ، ويبذلوا نفوسهم رخيصة فى سبيل الشريعة والهيكل والمدينة والوطن (٢ مك ١٣ : ١٠ — ١٤)

وبكر الملك فوجه معظم قواته إلى طريق بيت زكريا . وكان فى مقدمة هذه القوات اثنان وثلاثون فيلاً ، أسقوها عصير العنب حتى يهيجوها . وكان على كل فيل برج من الخشب مطوق بالمجانيق ، فيه رجال أشداء يقاتلون منه . وكان يتبع الفيل الواحد ألف مقاتل مسلحين ، لابسين الدروع وعلى رؤوسهم خوذ النحاس ، يحيط بهم من الجانبين خمسة مئة فارس منتخبين .

وانتشرت قوات الملك : قسم على الجبال ، وقسم فى البطاح . ومشوا بتحفظ وانتظام ، فارتعد كل من سمع جلبتهم وقعقعة سلاحهم .

ولما اقتربت الطليعة من معسكر اليهود ، خرج عليهم يهوذا فجأة وضربهم ببأس ، فسقط من جيش الملك ست مئة رجل (١ مك ٦ : ٣٣ — ٤٢)

غير أن رجال الملك ، بعد الصدمة الأولى ، عادوا فسيطروا على الموقف ، وكانت لهم الغلبة على رجال يهوذا ، الذين ارتدوا عنهم ، وتحصنوا بأورشليم مدينتهم .

(١ مك ٦ : ٤٧ ..)

فى بسالة ألعازر وموته المجيد : واشتهرت تلك الموقعة ببسالة ألعازر أخى يهوذا المكابى ، وقد راح فيها ضحية شجاعته النادرة وحبه المتقد لوطنه . وتفصيل ذلك إن ألعازر رأى فيلاً يفوق فى ضخامته باقى الفيلة ، ورأى عليه سرجاً ملكياً ، فظن أن الملك راكب عليه .

فعدا إلى الفيل ، مقتحماً صفوف الأعداء ، وهو يقتل يمنة ويسرة ، حتى بلغ إليه ، ووقف تحته ووجأه فى بطنه فنفق . وسقط الفيل عليه ، فسحقه بثقله .

(١ مك ٦ : ٤٣ — ٤٦)

في حصار أورشليم : وجاء الملك بكل الجيش ، بعد أن أسلمت بيت صور ، وحاصر أورشليم . فلما لم تستسلم المدينة ، أمر بتضييق الخناق عليها . فنصبت القذافات والمجانيق ، وآلات رشق النار والحجارة ورمي السهام ، وما إلى ذلك من أدوات مدمرة .

وصنع اليهود مثل ذلك ، وقاوموا أياماً كثيرة . ولما نفدت ذخيرتهم ، وما لديهم من طعام ومؤنة محدودة ، وأيقنوا أنهم سيهلكون جاءهم فرج المولى تعالى من حيث لا يتوقعون . وذلك أن فيلبس ، الذي حارب (مع انطيوكس ابيفانس) في بلاد فارس وكان انطيوكس أوباطور قد تركه في انطاكية لتدبير شؤون المملكة أثناء تغيبه وليسياس في اليهودية ، أعلن تمرده على الملك ، ولا سيما بعد أن عادت الجيوش ، التي كانت تحت إمرته في بلاد الفرس .

وما أن بلغ الخبر ليسياس حتى سعى لدى الملك للاسراع في الرجوع إلى انطاكية ومهادنة اليهود ، فوافق الملك . وبعد توقيع معاهدة الصلح مع اليهود ، والاعتراف رسمياً بالمكابي قائداً وحاكماً على اليهودية وسائر المدن المجاورة ، عاد إلى إنطاكية ، فوجد فيلبس قد استولى على المدينة ، فقاتله وأخذ منه المدينة عنوة (١ مك ٦ : ٤٨ ..)

في هزيمة نيكانور الكافر وموته :

وفي سنة ١٦٢ ق . م . استولى على المملكة السورية ديمتريوس الأول ، بن سلوقس الرابع فيلوباطور (١٦٢ — ١٥٠ ق . م) . فقتل انطيوكس الخامس وليسياس وكيله .

وإن ألكيمس ، الذي كان قد قلد الكهنوت الأعظم مدة من الزمن ، أيقن أن لا سبيل إلى ارتقائه المذبح ، إلا إذا تخلص من يهوذا المكابي . فأتى ديمتريوس وأهدى له إكليلاً من ذهب ، ووشى بالرجل وصحبه ، قائلاً : إنه من المحال أن يكون للمملكة استقرار ما دام يهوذا باقياً .

فلما سمع ديمتريوس الملك ذلك ، أمر لساعته نكانور مدبر الفيلة ، أن يذهب تواً إلى اليهودية ويقتل يهوذا المكابي ، ويبدد صحبه ، ويقيم ألكيمس كاهناً أعظم . وانطلق نكانور من فوره لينفذ أمر الملك . إلا أنه لما سمع بما أبداه أصحاب يهوذا من ضروب الشجاعة والبسالة ، أشفق من أن يفصل الأمر بالسلاح ، بل بطريق التفاهم الودي ، فكان له ما طلب . وأقام بأورشليم ، وأطلق سراح الجيوش . وكان كثير التردد

على يهوذا ، وصبا إليه بقلبه . وحثه على الزواج وطلب النسل ، فتزوج المكابى ولبث فى راحة وطيب عيش .

ولما رأى ألكيموس الخبيث ما هما عليه من الصفاء وحسن التفاهم ، عاد فأتى إلى ديمتريوس ، وسعى بهما مقبحاً عليهما ذلك التحالف . فغضب الملك ، وكتب إلى نكانور يقول إنه غير راض عن ذلك التحالف ، وأمره أن يبادر فيرسل إليه المكابى مقيداً .

فتحير نكانور . ولما لم يجد فى نفسه الشجاعة الكافية لمقاومة الملك ، داس ضميره ، وخان عهد الصداقة الذى بينه و بين المكابى ، وأخذ يتحين الفرصة للقبض عليه بالمكيدة . ورأى المكابى أن نكانور قد تغير عليه ، ولم يعد يتلقاه بتلك البشاشة المعهودة ، ففطن للأمر وأخذ يعد له عدته ، ولم يلبث أن جمع عدداً من أصحابه وتغيب عن نكانور .

فلما رأى نكانور أن الرجل سبقه بحزمه ودهائه انطلق إلى الهيكل ، وكان الكهنة يقدمون الذبائح على عادتهم ، وطلب منهم أن يسلموه يهوذا على الفور . فأجابوه : إنهم لا يعلمون أين هو . فاستشاط غضباً ، ومد يده على الهيكل ، وأقسم قائلاً : لئن لم تسلموا إلى يهوذا موثقاً ، لأهدمن بيت الله هذا إلى الأرض ، وأشيدن هنا هيكلاً لديونيسيوس (٢ مك ١٤ : ١ ـ ٣٤)

و بلغ نكانور أن يهوذا وأصحابه فى نواحى السامرة . فعزم على مفاجأته يوم السبت ، دون تعرض لخطر الحرب . فقال له اليهود ، الذين شايعوه اضطراراً : لا تأخذ القوم بهذه القسوة ، بل إرع حرمة يوم قدسه إله السماء القدير على كل شىء .

فسأل ذلك الفاجر بتهكم ، وقال : وهل فى السماء قدير ؟ فقالوا : إن فى السماء الرب الحى القدير . فقال بزهو : وأنا أيضاً قدير فى الأرض ، فآمر بأخذ السلاح وتنفيذ أوامر الملك .

وتفرس المكابى فى كثرة الجيوش وتوفر الأسلحة لدى العدو — ولم يكن يملك هو فى ذلك الوقت إلا اليسير من السلاح والرجال — فرفع يديه إلى السماء ، ودعا الرب صانع المعجزات العظيم .

وفيما كان يهوذا يصلي ، كان أصحاب نكانور يتقدمون بالأبواق والأغاني . فواقعهم أصحاب يهوذا بالصلاة وببسالتهم النادرة . فكانوا وهم يقاتلون بالأيدى ، يصلون إلى الله فى قلوبهم . و بذا استطاعوا أن يصرعوا منهم خمسة وثلاثين ألفاً . وكان نكانور بين القتلى ، فأمر يهوذا بقطع رأسه و يده وحملهما إلى أورشليم .

فلما بلغ المدينة دعا كل الشعب والكهنة ، وأراهم رأس نكانور و يد ذلك الفاجر ، التى مدها متجبراً على بيت الله المقدس . فسبح الجميع الرب بالتهليل ، قائلين : « تبارك الذى حفظ موضعه من كل دنس » . وعلقت رأس نكانور مع يد ذلك الأحمق تجاه الهيكل ، دليلا بيناً جلياً على نصرة الله (٢ مك ١٥..) . (مارس سنة ١٦٠ ق . م) .

فى محالفة يهوذا الرومانيين :

وسمع يهوذا المكابى باسم الرومانيين ، وما اشتهر عنهم من أنهم ذوو صولة واقتدار ، يحفظون الولاء لأصدقائهم ، ويُعزّون كل من حالفهم من الدول .

فشاء أن يتخذ من هؤلاء القوم الأشداء أولياء له ومناصرين ، ليحمى زمار الدولة من تدخل الأجانب المستمر ، ويخلص بنى أمته من نير السلوقيين الثقيل !

وقد أرسل لهذه الغاية وفداً إلى روما ، إلى مجلس الشورى الرومانى ، عقد معهم محالفة ، نقشت حروفها على ألواح من نحاس ، تنص على عهد الصداقة والمناصرة المتبادل . (١ مك ٨..)

إلا أن هذه المحالفة ، التى ربما دلت على انحراف ثقة يهوذا بالعناية الإلهية بعض الشيء ، كانت و بالاً على أمة اليهود ، التى صارت فيما بعد ولاية رومانية ، وعلى يهوذا نفسه ، الذى هلك بعد ذلك بقليل فى الحرب ضد بكيديس ، وقد أرسله ديمتريوس للانتقام منه عن تلك المحالفة ، التى لم تكن فى صالحه ، والتى كانت على ما يبدو نصراً أدبياً ليهوذا ، جاء بعد انتصاره المادى على نكانور بالسلاح .

فى موت يهوذا البطولى :

و إليك الآن تفصيل حادث موت هذا البطل المغوار :

عندما التقى يهوذا ببكيدس ، الذى جاء لمنازلته بعشرين ألف رجل وألفى فارس ، لم يكن معه غير ثلاثة آلاف رجل . ولما بدأت المعركة لم يكن معه منهم غير ثمانى مئة رجل فقط ، فقد فر الباقون .

فلما رأى يهوذا أن جيشه قد خذله ، انكسر قلبه واسترخت عزائمه . فقال لمن بقى معه : لنقم ونهجم على أعدائنا ، عسى أن نقدر على مطاردتهم . فأثنوه عن عزمه قائلين : إنه ليس فى طاقتنا اليوم إلا أن ننجو بأنفسنا . فقال يهوذا بشهامة : حاش لى أن أفعل مثل هذا وأهرب . وإن كان قد دنا أجلنا ، فلنموتن بشجاعة ، ولا نبقين على مجدنا وصمة .

والتحم القتال ، وحارب يهوذا ورجاله محاربة الأبطال ، من الصباح حتى المساء ، فهزموا الفرقة التى كانت تهاجمهم . ولكن بقية الأعداء أحاطوا بهم ، واشتد القتال . فسقط قتلى كثيرون من الفريقين . وسقط يهوذا أيضاً . فجاء سمعان ويوناثان وحملا يهوذا أخاهما ، ودفناه فى قبر آبائه فى مودين . وبكاه الشعب أياماً كثيرة ، قائلين : كيف سقط البطل مخلص إسرائيل (١ مك ٩ : ١ ـ ٢٢) . (أبريل سنة ١٦٠ ق . م)

فى انتخاب يوناثان خلفاً ليهوذا أخيه :

ولما علم بكيديس بموت المكابى ، زحف إلى أورشليم ، واستولى عليها دون أية مقاومة . وأخذ بالاتفاق مع ألكيمس وخونة الأمة يعبث بحريات الشعب ، ويضطهد كل من كان له صلة بيهوذا . الأمر الذى اضطر اليهود إلى التكتل ، والوقوف فى وجهه ، باختيار يوناثان رئيساً وقائداً عليهم يخلف يهوذا أخاه (١٦٠ ـ ١٤٣ ق . م)

فقبل يوناثان القيادة . فلما علم بكيديس طلب قتله . وبلغ ذلك يوناثان ، فهرب ومؤيديه إلى عبر الأردن ، إلى البرية . فزحف بكيديس بجميع الجيش إلى هناك للقبض على يوناثان وتبديد شمله . إلا أن هذا الأخير كان يهجم هنا وهناك على عدوه ، دون أن يعطيه مطلقاً الفرصة ليحاربه حرباً نظامية . حتى إذا أيقن بكيديس أنه لن ينال من الرجل غرضه ، تركه وعاد إلى أورشليم (١ مك ٩ : ٢٣ ـ ٥٣)

فى موت ألكيمس : فى ذلك الزمن أمر ألكيمس ، رئيس الكهنة المنافق ، بهدم حائط دار المقدس الداخلية ، ومعنى ذلك هدم عمل الأنبياء . إلا أنه ما كاد يشرع

فى عمله النفاق هذا ، حتى ضربه الله تعالى بالفالج ، فكف عن صنيعه . وانعقد لسانه ، فلم يعد يستطيع أن ينطق بكلمة ولا أن يوصى لبنيه . ومات فى عذاب شديد .

فلما رأى بكيديس أن ألكيموس قد مات رجع إلى أنطاكية ، فخلا الجو ليوناتان ، وهدأت أرض يهوذا سنتين (١ مك ٩ : ٥٤ ـ ٥٧)

* * *

وعاد بكيديس بعد ذلك ، مرة أخرى ، إلى مناصبة العداء ليوناتان . وكان ذلك بتحريض المنافقين من آل إسرائيل . فجمع جيشاً كبيراً وجاء إلى اليهودية . وإذ علم أن أصحاب يوناتان قد تحصنوا ببيت حجلة ، ذهب إلى هناك ، وحارب المدينة أياماً كثيرة .

وفيما كان يوناتان بجيشه الصغير ينشر الرعب فى قلوب خلفاء بكيديس بهجماته ، التى امتازت بطابع السرعة والمفاجأة ، خرج سمعان أخوه ومن معه من بيت حجلة ، وأحرقوا المجانيق التى نصبها بكيديس ، وقاتلوه فانكسر . وإذ رأى بكيديس أن عمله ذهب أدراج الرياح ، أحال نقمته على الرجال المنافقين ، الذين أغروه بالحرب ، فقتل كثيرين منهم .

وقبل أن ينصرف إلى بلاده أنفذ إليه يوناتان رسلاً فى عقد المصالحة ورد الأسرى . فأجابه على طلبه ، وحلف له أنه لن يطلبه بسوء كل أيام حياته . فزال السيف من إسرائيل ، وحكم يوناتان شعبه فى هدوء وطمأنينة (١ مك ٩ : ٥٨..)

فى مجد يوناتان ونهايته المفجعة :

وكان يوناتان يزداد من يوم إلى يوم مجداً وعظمة ، حتى أن الملوك أنفسهم كانوا يتسابقون لخطب وده : فأهداه الاسكندر (١٥٠ ـ ١٤٥ ق . م) ، الذى كان يدّعى أنه ابن أنطيوكس (الرابع) ، ثوباً أرجوانياً ، وعروة من ذهب ، كما كان يعطى لأنسباء الملوك ، ووهب له عقرون وتخومها ملكاً (١ مك ١٠ : ١٨..)

ولما استولى ديمتريوس الثانى[1] بن ديمتريوس الأول على الملك ، أقره فى الكهنوت

---

(١) ملك ديمتريوس الثانى مرتين : الأولى من سنة ١٤٥ إلى سنة ١٣٨ . والثانية من سنة ١٢٩ إلى سنة ١٢٥ ق. م. وفى المرة الأولى كان له منافسان خطيران فى شخصى أنطيوكس السادس وتريفون ، وقد اقتطعا منه معظم البلاد السورية مع العاصمة انطاكية .

الأعظم ، وفى كل ما كان له من الاختصاصات ، وجعله من أول أصدقائه . وسأل يوناتان ديمتريوس أن يعفى اليهودية وأرض السامرة من كل جزية فأعفاها .

(١ مك ١١ : ٣٦..)

ولما آل ملك البلاد إلى أنطيوكس السادس (١٤٥ ـ ١٤٢ ق . م) ، وكان فى العاشرة من عمره ، كتب ليوناتان قائلاً : « إنى أقرك فى الكهنوت الأعظم ، وأقيمك على المدن الأربع ، وأتخذك من أصدقاء الملك » . وأرسل إليه آنية من الذهب ، وأباح له أن يشرب فى الذهب ، ويلبس الأرجوان بعروة الذهب (١ مك ١١ : ٥٧..)

وحاول تريفون ، مربى أنطيوكس السادس ، أن يملك على آسية ويلبس التاج ، ويلقى يده على الملك الشاب . لكنه خشى من معارضة يوناتان ، ففكر فى سبيلٍ للقبض عليه وإهلاكه .

فسار وأتى إلى بيت شان . فخرج يوناتان لملاقاته فى أربعين ألف مقاتل . فلما رأى تريفون أن يوناتان قد أقبل فى جيش كثيف ، لم يجسر أن يمد يده عليه . بل تلقاه بالحفاوة والإكرام وأهدى إليه هدايا .

وقال ليوناتان : لم ثقَّلت على هذا الشعب ، وليس بيننا حرب . أطلقهم إلى بيوتهم ، وهلم معى إلى بطلمايس ، فأسلمها لك مع سائر الحصون المجاورة ، فإنى لهذا الغرض جئت إلى هنا .

فصدق يوناتان ذلك الماكر ، وأطلق سراح جيوشه . فلما دخل يوناتان بطلمايس أغلق أهل المدينة بإيعاز تريفون الأبواب ، وقبضوا عليه ، وقتلوا حرسه ومن معه من رجال الحاشية (١ مك ١٢ : ٣٩..)

فى اختيار سمعان خلفاً ليوناتان (١٤٣ ـ ١٣٤ ق . م) :

وبعد ما ألقى تريفون القبض على يوناتان ، اختار الشعب سمعان أخاه ، ليخلفه فى السلطتين الدينية والمدنية . فحشد سمعان لساعته كل رجال القتال ، وجدَّ فى تحصين أورشليم ، استعداداً للطوارىء .

وزحف تريفون من بطلمايس فى جيش عظيم قاصداً اليهودية ، ومعه يوناتان تحت الحفظ . وإذ علم أن سمعان قد قام مقام أخيه ، وأنه مستعد للقتال ، خاف أن يشتبك فى

حرب معه . فأرسل إلى سمعان يقول : إننا إنما قبضنا على أخيك لمال عليه للملك ، فالآن أرسل مئة قنطار فضة وابنيه رهينة ، وحينئذ نطلقه .

وعلم سمعان أن تريفون غير جاد فى كلامه . إلا أنه لتحاشى كل انتقاد ، وتزمر الشعب ، وجه إليه الولدين مع مئة القنطار . ولكن تريفون ، كما كان متوقعاً ، أخلف فى وعده ، ولم يطلق يوناتان .

وجاء تريفون بعد ذلك يغير على البلاد ويدمرها ، فكان سمعان وجيشه يقاومونه حيثما تقدم ، حتى أنه اضطر فى آخر الأمر إلى الانسحاب نهائياً إلى بلاده ، وقد قتل يوناتان وابنيه (١٤٢ ق . م)

فأرسل سمعان ، وأخذ عظام يوناتان أخيه ، ودفنها فى مودين فى مقبرة آبائه . وناح عليه كل الشعب نوحاً عظيماً أياماً كثيرة .

أما تريفون فما أن بلغ أنطاكية حتى غدر بأنطيوكس الملك الصغير وقتله (١٤٢ ق . م) ، وملك مكانه ، ولبس تاج آسيا (١ مك ١٣..) . ولكن إلى حين ، فقد جاء أنطيوكس السابع (١٣٨ ق . م) وألجأه إلى الفرار ، وأخذ منه الملك الذى سلبه (١ مك ١٥..)

فى تحرير البلاد من الأجنبي وموت سمعان غدراً :

وبنى سمعان الحصون ، واستأصل جرثومة الشر من أورشليم بطرد آخر جندى أجنبي من قلعة أورشليم . فهدأت الأرض كل أيامه . وجعل هدفه الأول مصلحة أمته : فعم الرخاء ، واستتب الأمن ، فجلس كل تحت تينته وكرمته ؛ يفلح أرضه بطمأنينة وسلام .

وغار سمعان على الشريعة ، فقطع دابر كل أثيم شرير . ورفع من شأن الأقداس والهيكل ، وأكثر من الآنية المقدسة .

ومنذ ذلك الحين بدأ الشعب يوقع الصكوك والعقود : « فى السنة الأولى لسمعان الكاهن الأعظم قائد اليهود ورئيسهم » . وتوافق السنة الأولى لسمعان ، المئة والواحد والأربعين قبل الميلاد (١ مك ١٣ : ٣٣ ..)

وكان بطلماوس بن أبوبس ، صهر سمعان ، قد أقيم قائداً فى بقعة أريحا . فتشامخ

فى قلبه ، وطلب أن يستولى على البلاد ، وقد نوى الغدر بسمعان و بنيه . وصادف أن سمعان كان يجول فى مدن الدولة ينظر فى مهماتها ، فنزل إلى اريحا هو ومتتيا و يهوذا ابناه . فأنزلهم بطلماوس بمكان يقال له « دوق » (عين الديوك) ، وصنع لهم وليمة عظيمة وأخفى هناك رجالاً .

فلما طاب قلب سمعان و بنوه ، قام بطلماوس ومن معه ، وأخذوا سلاحهم ووثبوا على سمعان وقتلوه هو وبنيه وغلمانه . فمات سمعان (١٣٣ ق . م) غيلة ، ضحية مطامع رجل ذليل ، كان يدين له بكل ما لديه من نعمة ، وذلك قبل أن يتمتع طويلاً بثمرة جهاده وجهاد إخوته الطويل (١ مك ١٦ : ١١ ..)

فى خلفاء المكابيين :

ولم يتردد اليهود بعد موت سمعان فى إعطاء الرئاسة والكهنوت الأعظم لابنه يوحنا الملقب بهركانوس ، لإخضاعه إمارة هركانيا . ومن أعماله توسيع رقعة اليهودية ، وتدمير هيكل جرزيم . وقد حكم بلاده واحداً وثلاثين سنة . وذلك من سنة ١٣٤ إلى سنة ١٠٤ ق . م .

فخلفه بعد موته أكبر أبنائه المدعو أرسطابولس . وهو أول من اتخذ لنفسه لقب ملك اليهود بعد رجوعهم من جلاء بابل . وملك من سنة ١٠٤ الى سنة ١٠٣ ق . م ، ومات بعد أن حكم سنة واحدة .

فخلفه فى الملك والكهنوت أخوه الإسكندر يونا . و يمتاز ملكه الطويل بالحروب الداخلية والخارجية ، وهلاك كثير من اليهود فى تلك الحروب (١٠٣ — ٧٦ ق . م)

وانتقل الحكم بعد موت الإسكندر إلى امرأته ألكسندرة (٧٦ — ٦٧ ق . م) فقلدت سلطة الكهنوت ابنها الأكبر هركانوس الثانى . ثم قبل وفاتها أعطته مقاليد الحكم أيضاً .

فنازعه أخوه أرسطابولس الثانى . وقد استفحل أمر هذا النزاع بين الأخوين بدسائس رجل أدومى ، يدعى انطباطور (أنتيباس) ، كان قد أقامه الإسكندر يونا ، والد هركانوس وأرسطابولس ، حاكماً على مقاطعة أدوم . فكان انطباطور هذا — وهو والد هيرودس الكبير — يطمع فى أن يكون حاكماً على اليهودية أيضاً .

واستدعى أحد الأخوين روما لتفصل فى موضوع خصومتهما . فجاء بومبيوس القائد الرومانى بحجة إلقاء الصلح بين الأخوين . ولكنه لم يلبث أن ضم مملكة اليهود إلى الأملاك الرومانية ، وضرب عليها الجزية . ومنذ ذلك الحين أصبحت كل بلاد فلسطين مستعمرة رومانية (٦٣ ق . م)

وأعاد بومبيوس إلى الحكم مؤقتاً هركانوس الثانى . ولكن دون أن يسمح له أن يحمل لقب ملك .

وفى سنة أربعين قبل الميلاد استطاع هيرودس بن انطباطور ، وصهر هركانوس الثانى ، أن يحصل من مجلس الشورى الرومانى على ذلك اللقب ، أى لقب ملك اليهود ، بعد أن دفع المجلس المذكور مبلغ ثمانى مئة قنطار فضة .

ثم زحف إلى اليهودية واستولى عليها بمؤازرة القوات الرومانية المحلية . وأمر بقطع رأس أنتيغونس بن أرسطابولس منافسه ، وهو آخر من جلس على عرش يهوذا من اليهود .

وهيرودس الأدومى هو أول من صار ملكاً على اليهود من الأجانب . وفى عهده ولد المسيح مخلص العالم ، حسب نبوة يعقوب أبى الشعب الإسرائيلى ، حيث قال : « لا يزول صولجان من يهوذا ، ومشترع من صلبه ، حتى يأتى شيلو — أى المسيح — وتطيعه الشعوب » (تك ٤٩ : ١٠)

فهرس

الحقبة الأولى

من بدء الخليقة إلى الطوفان

الحقبة الثانية

من الطوفان إلى دعوة إبراهيم

صفحة

الحقبة الثالثة

من دعوة إبراهيم إلى خروج العبرانيين من مصر

الحقبة الرابعة

من خروج بنى إسرائيل حتى تأسيس مملكتهم وانقسامها

صفحة

الجزء الثانى : مملكة يهوذا

الحقبة السادسة

من سبى بابل حتى مجىء المسيح

تصويب

خطأ	صواب	سطر	صفحة
تسلهما	نسلهما	١٥	٢٠
جهها	وجهها	١٠	١٠٦
أو	و	٢٠	١٦٢
ووجأنى	واوجأنى	١٨	١٦٦
بعل شيشة	بعل شليشة	٢٣	٢٠٨
توصينى	توصيل	١١	٢٤٣

مطبوعات

المعهد الإكليريكى الفرنسيسكانى الشرقى

بالجيزة - مصر

كيرليانا : دراسات مختلفة بمناسبة مرور ألف وخمسمائة سنة على وفاة القديس كيرلس الإسكندرى ٤٤٤ - ١٩٤٤ . القاهرة ١٩٤٧

الأب لوبس برسوم الفرنسيسكانى : تفسير الأناجيل المقدسة ، التى تقرأ فى أيام الآحاد والأعياد ، حسب طقس الكنيسة الاسكندرية . القاهرة ١٩٥١ . دقة ووضوح وسلاسة فى الأسلوب : هذه هى بعض صفات هذا الكتاب ، الذى لقى نجاحاً كبيراً .

الأب حنا نوير الفرنسيسكانى : المطهر : يقدم لنا هذا الكتيب ، فى صفحات معدودة ، حقيقة من أدق تعاليم المسيحية ، ألا وهى حقيقة وجود المطهر . ويعتمد المؤلف فى إثبات هذه الحقيقة ، لا على البراهين اللاهوتية أو الكتابية ، بل على ما جاء من نصوص واضحة فى الكتب الطقسية ، التى تستعملها كنيستنا القبطية المجيدة .

R. ABBOUD, *Les Missions Franciscaines d'Egypte.*
Alexandrie, 1951.

الإرساليات الفرنسيسكانية بمصر

Gabriele GIAMBERARDINI, O.F.M., *La Teologia assunzionistica nella Chiesa Egiziana.*
Gerusalemme, 1951.

علم اللاهوت ، فيما يتعلق بانتقال العذراء ، فى الكنيسة المصرية

G. GIAMBERARDINI, *La definicion de Calcedonia y la fé de Alejandria.*
Jerusalen, 1952.

تحديد مجمع خلقيدونية وإيمان كنيسة الاسكندرية

G. GIAMBERARDINI, *La réitération du baptême des Coptes qui reviennent à l'unité catholique.*
Jérusalem, 1952.

إعادة معمودية الأقباط الذين يرجعون إلى وحدة الكثلكة

G. GIAMBERARDINI, *La Mediazione di Maria nella Chiesa Egiziana,*
Cairo, 1952.

شفاعة مريم فى الكنيسة المصرية

G. GIAMBERARDINI, *L'Immacolata Concezione di Maria nella Chiesa Egiziana*, Cairo, 1953.

الحبل بالعذراء بلا دنس فى الكنيسة المصرية

مطبوعات

مركز الثقـــافة الشرقية

لحراسة الأراضى المقدسة الفرنسيسكانية

القاهرة

١١١
ع

ظهر حديثاً :

Martiniano Roncaglia, O.F.M., *Georges Bardanès, Métropolite de Corfou, et Barthélémy, de l'Ordre Franciscain*. Rome, 1953. In-8°, pp. 105 et 4 planches.

« Le Purgatoire, depuis nombre de siècles, demeure entre Orientaux et Latins un thème classique de frictions et oppositions. Un débat théologique sur le sujet eut lieu du 15 Octobre au 17 Novembre 1231... Le compte rendu vient d'en être édité pour la première fois, traduit en français et sobrement annoté par le P. Martiniano Roncaglia, O.F.M... Dans ces pages, sous des divergences de terminologie et de systèmes, nombre de théologiens dûment avertis (et avec eux le P. Roncaglia) trouvent une foncière identité de doctrine... » (*Revue d'Histoire Ecclésiastique*, 48, 1953, pp. 1073-1074).

« ...Cum disputatio supradicta ordine temporis sit prima (quantum scimus) quae inter Latinos Graecosque de Purgatorio habita sit, editio relationis sive tractatus Georgii (Bardanes) viris doctis gratissima venit... » (Archivus Franciscanum Historicum, 46, Quaracchi 1953, 478).

M. Roncaglia, O.F.M., *Storia della Provincia di Terra Santa*, Vol. I : *I Francescani in Oriente durante le Crociate* (*sec. XIII*). Cairo, 1954. In-8°, pp. XXVI-118, et 5 planches.

تاريخ نشأة أقدم إرسالية كاثوليكية فى الشرق ، أسسها القديس فرنسيس عند تشرفه بزيارة الأراضى المقدسة ، بعد مقابلته الشهيرة مع سلطان مصر الملك الكامل (١٢١٩)

M. Roncaglia, O.F.M., *Le Relazioni della Terra Santa con i Maroniti del Monte Libano e di Cipro dal 1564 al 1569*. Cairo 1954. In-8°, pp. 36.

مجموعة وثائق تنشر لأول مرة ، مأخوذة عن مخطوط بالمكتبة الأمبروذية بميلان .

M. Roncaglia, O.F.M., *Les Frères Mineurs et l'Eglise Grecque Orthodoxe au XIIIe siècle* (1231-1274). Le Caire, 1954. In-8°, pp. 285 et une planche.

بحث تاريخى عن الحادثات ، التى دارت فى الجيل الثالث عشر بين جماعة الفرنسيسكان من جهة ، وبين لاهوتى وساسة الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية من جهة أخرى ، فى سبيل الاتحاد : نشأة وتطور وفشل تلك الحادثات .

خريطة

لبــــــلاد فلسطين

قبل المسيح


ارض كنعان
كما قسمت بين اسباط اسرائيل
البحر الكبير
صيدون
صرفت
صور
عكو
رأس الكرمل
دور
قيصرية
دمشق
نهر فرفر
نهر الاردن
دان
بانياس
قادش
حاصور
بحيرة ميروم
الجشوريون
سبط منسى
سبط اشير
سبط زبولون
صفد
جولان
عشتروت
افيق
ابيلا
جدارا
اذرعي
اربيلا
الناصرة
جبل تابور
شونم
مجدو
يقنعام
يزرعيل
تعناك
جبل جلبوع
عين جنيم
بيت شان



